رواية

البشموري





سلوى بكر

البشموري

روايـة

سلوى بكر

فهرس

تصدير

"البشموري" رواية استثنائية لكاتبة جريئة وجادة ومجددة، حققت مكانة خاصة منذ أولى خطواتها الإبداعية، ثم توالت أعمالها التي لاقت تقديرا واحتفاء في مصر والعالم، وتُرجمت إلى عدة لغات. من رواياتها: "العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء" ١٩٩١، "وصف البلبل" ١٩٩٣، "ليل ونهار" ١٩٩٧، ومن مجموعاتها القصصية: "زينات في جنازة الرئيس" ١٩٨٦، "عن الروح التي سرقت تدريجيا" ١٩٨٩، "إيقاعات متعاكسة" ١٩٩٦، "نونة الشعنونة" ١٩٩٩، ومسرحية واحدة هي: "حلم السنين" ٢٠٠٢.

و"سلوى بكر" لا تستسهل، إنما تقتحم الغابات، تبحث عن المناطق الشائكة، لتدخلها حافية، وكأنها عارفة طريقها.

و"البشموري" لحظة حرجة في تاريخ الشعب المصري، لحظة مر عليها أكثر من ألف وأربعمائة عام. كثير من المبدعين، بل من المؤرخين، يتخوفون قراءتها، لكنها كعادتها قررت وكتبت.

في هذه الرواية لن نقرأ تأريخًا جافًا وباردا لثورة البشموريين، ولكننا سنقرأ تضفيرا، لا يقدر عليه غيرها، بين

ما هو حقيقة، وما هو خيال. بين ما هو تاريخ، وما هو إبداع. بين ما هو ثابت وما هو ماش على قدمين. أناس من لحم ودم، ويصرون على امتلاك الحقيقة، والثبات على المبدأ.

تأتي هذه الرواية، لتفتح بابا كبيرا، لقراءة تاريخنا المستبعد عنّا، بفعل عوامل كثيرة، لا لنتعاطف معه، ولكن وبالأساس، لنعرفه.

البشموري

(الجزء الأول)

كنت ما أزال قائما بعجن القربان، أعمل على ربه ربا جيدا؛ لأتركه بعد ذلك ليخمر وقد غسلت ماجوره بالماء الطاهر، وكذا الغطاء والمنخل، وكان القسيس يقف على رأسي يقرأ عليه المزامير الداودية ويصلّب. فلما بلغ مزمور حمد وراح يتلو: "اهتفي للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنّم". وكنت أحترز أثناء ذلك في العجن والرب؛ لأطمئن إلى أنه جيد في قوام الاعتدال، إذ بثاونا الشماس يأتي إلينا مسرعا، ويقف إلى جوارنا بهدوء صامتًا متأدبا، فلما انتهى القسيس من قرايته، غطيت العجين بغطائه، الذي سبق أن طهرته مع الفرش ومنخل الدقيق، وختوم القربان، اقترب ثاونا مني، وأنا أهم بالاتجاه إلى بيت النار الذي كنت قد حميته تمهيدا للخبز بفحم الكرمة اليابس وفقًا للأصول الكهنوتية، وقال هامسا في أذني:

- بدير. خلّص عملك بسرعة، واذهب إلى الأب يوساب في التّو والحال.

كان ذلك خلال واحد من أيام شهر بؤونة، الذي ما زال كثيرون من العلمانيين ينطقونه بؤوني، كما كان في اللسان

الوثني القديم، وكانت السنة هي السادسة، وربمـا السـابعة للشهداء.

رحت أخلّص العجين العالق بيدي وسـاعدي بسـرعة وأغسلهما ببعض الماء من زير الغسل، حتـى بـان جلـدي وظهر عليه وشم الأسد بلونه المزرورق على الجانب الإنسي من ساعد يمناي، فاطمأنيت وأسدلت عليه كم ردائي الكهنوتي الذي كنت قد شمرته وقت العجن، وعدوت خارجا أقطع فناء البيعة إلى الجانب الآخر منه في اتجاه قلاية الأب يوسـاب، فما إن فعلت وصعدت الدرجات البازلتيـة الـثلاث، التـي وضعت مؤخرا بدلاً من الدرجات الجيرية القديمة – وقد جاد بها على البيعة عبد كنسي صالح من هيرموبوليس بعـد أن انتزعها من واحدة من برابي المدينة القديمة، وجاء بها على حماريه من هنالك؛ وفاء لنذر قطعه على نفسه – حتى دلفت إلى الدهليز الشرقي واصلا في النهاية إلـى مقـر نيافتـه، فوجدته مجتمعا مع الكاهن والأرشيد ياقن، وكلّ الشمامسـة، وبينهم ثاونا الشماس الذي ناداني، فتهيبت وطأطأت رأسـي إجلالا لهذه الحضرة الكنسـية جميعهـا بعـد أن ضـربت

مطانيا[1] في الأول، ثم إني وقفت عند الباب في مطرحي، ساكتًا، فنظر إلي الأب يوساب متأملاً إياي قليلا، وبدا لي وكأنه متردد في أمر من الأمور يتعلق بي، لكنه ما لبث أن رفع يده بالصليب وصلّب، ثم قال لي بلسان قبطي بشموري بين:

- أيها العبد الطيب بدير، لقد اختارك الرب لمهمة كنسية مقدسة، عليك أن تتمها بصدق وإخلاص على الوجه المطلوب منك دون زيادة ولا نقصان.

تمتمت بصوت خافت خاشع، رادا عليه باللسان الذي حدثني به، دون أن أرفع رأسي، وقلت:

- مشيئة الرب لا راد لها أيها الأب المغبوط.

ران صمت، ربما سمح بسماع أنفاس العصافير، قبل أن يضيف:

- ستذهب في تبعية الشماس ثاونا إلى الأراضي الموحلة، وتكون لسانه البشموري، وعليك أن تترجم له كل ما يمكن من كلام، فأنت تعلم أنه لا ينطق إلا قبطية أخميم مثل أكثر من هم هنا في بيعتنا، ثم عليك أن تكون عونًا له

(١) مطانيا: تحية كنسية.

في كل خطوة يخطوها خلال مسيرتكما إلى هناك، ومنه لـك الأخوة والاحترام، وله منك الطاعة في كل كلمة يأمرك بها، والملازمة مهما كان الأمر، ثم لا تنس أن أخوة المعمودية لا تنفصم إلى يوم الدينونة، والرب المحاسب وهو المحافظ أولا وأخيرا.

هززت رأسي دون أن أنطق هذه المـرة؛ إذ اعترانـي اضطراب بمجرد سماعي "الأراضي الموحلة"، وراح قلبـي يضرب ضربات طير طاير في سابع سما، وسـرعان مـا تداعت صور الماضي في مخيلتي وجسدت في عيني، عـن مسقط رأسي ومواقع طفولتي وصباي؛ لتجيش بنفسي فصول مأساتي القديمة، وبلوتي الأولى. انتابني غم عظـيم، وكـدت أهتف صارخًا: لا.. بربك يا سيدي يا من سيتنيح بالعظمة في ملكوت الرب. اعفني من هذه المهمة التي ستعذّب قلبي، ولن تقوى روحي عليها لكني خشيت أن أُرمى بالعصيان، وأُتّهـم بعدم الطاعة؛ فبقيت مكاني واجما جامدا كأني واحد مـن آل لوط الآثمين، وقد حلّت عليه اللعنة فتحول إلى عمـود ملـح مثلهم، ويبدو أن الأب يوساب لاحظ سكوتي وبهاتي، وكنـت وقفت أمامه مرارا في بداية خدمتي بالبيعة للاعتراف بآثامي

وخطاياي، أنا الذي عشت سنين في العلمانية، مسكينًا ضـالاً عن ملكوت الرب، إذ قال لي مطمئنًا إياي:

- الكنيسة كانسة الخطايا والآثام ومنظّفتها، وهي كانسة بيت النفس، وبيت النفس هو الجسد، وباب البين هـو الفـم، وتنظيفه لا يكون إلا بتلاوة المزامير الداودية الفايضـة مـن أقنوم الروح القدس، له المجد، على لسان داود المغبوط، وقد طهر لسانه من الثلب والنميمة والوقيعة في إخوتـه، وأمـا حاسة السماع، فإنها تطهر بسماع الإنجيل المقدس المحتـوي على التعاليم المسيحية والموعظات الزجرية، وأمـا حاسـة النظر فتتنقى بالنظر إلى قدس الأقداس، والقـون المصـورة على مثال القديسين، والغيرة على سيرتهم والتشبه بجهادهم، وأما حاسة الشم فتتقدس باستشناق البخورات المرفوعة باسم الثالوث السماوي، وأما حاسة اللمس فتتقدس بتقبيـل كتـب الرب على الجباه، وتقبيل الصليب المجيد أيضا. فليكنس كل إنسان خطاياه بصلاته، وليتطهر إثم الآثمين بملكوت الـرب الرحيم.

ثم إنه كرر علي طاعة الشماس ثاونا، والمواظبة كذلك على صلواتي، والتكثير من قـراءة المزاميـر والأدعيـة،

وسألني ألا ألحف في السؤال عما لا يخصـني، وإن سـألت فلتكن سؤالاتي فيما يقوي إيماني ويفيد المسيح، كما أمرنـي ألا أغضب الشماس أو أرهقه، بل أكون في خدمته ورعايتـه طوال الطريق إلى البشموريين في الأراضي الموحلة، علـى أن يكون خروجنا من البيعة عند مطلع نور صباح الغد.

كانت لا تزال أمامي أعمال كثيرة يتوجب علي إنجازها خلال نهار ذلك اليوم باعتباري قيم البيعة، وقبل رحيلي فـي صباح اليوم التالي. فبعد مغادرتي مقام أبينا الجليـل، قمـت بغسل بلاط البيعة، والذي هو من أفخـر الـبلاط الرومـي المجلوب من قيسارية بفضل رجل تقي، كان قد عاش زمنًـا في الطمث الخلقدوني، لا يعرف طريق الحق، لكـن ا ردة إلى حظيرته على يد أبينا يوساب، وكان غنيا مقتدرا، فأهدى بيعتنا هذا البلاط المجلوب، كما قمت بمسح كل قناديل البيعة، بخرقة الكتان التي أخصصها لذلك، وأزلت عنها ما علق بها من غبار وسناج، على أن أزندها عندما يحل الليل بزنـادي من قنديل الشرق في الهيكل؛ لأنه لا يجوز أن يطفأ لا فـي ليل ولا في نهار حتى لا تدخل البيعة أو الهيكل نار غريبـة؛

لأن الذبائح الأولى كانت تنزل نارا من السماء وتحرقها، وما ترى نار غريبة تدخل معها.

وما إن انتهيت من القناديل، حتى درت لأتأكد من آلات الخدمة الأربع عشرة في الهيكل، فتأكدت من ترتيبهـا فـي مواضعها. ونظّفت ما كان في حاجة إلى التنظيف منها، ثـم إني نظرتها جميعا، وعدلت ما لم ينعدل منها، وهـي اللـوح الموضوع، وهو موضوع مثال القبر، وكذا الصـينية مثـال المذود في الطفولية، والتابوت الخشب الـذي فيـه الكتـب، والخرق المكرزة اثنتين، واحدة تحت الصينية والأخرى تحت الكأس التي هي قسط المن المطل على الحامل له، وهو نظير اللفايف في الموت والدفن، ونظير الخرق التي كـان جسـد سيدنا – له المجد – ملفوفًا في المذود، وكذلك الكأس المكرزة مثال قسط المن، والملعقة المكرزة برسـم التوزيـع للنـاس الرجال والنساء؛ لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنـة، والإبرسفارين مكرز هو نظير الحجر الذي دحرج عن القبر فوق الجسد المدفون، كما أني نظرت السـبعة التـي بغيـر تكريز، منهم المنارة والكـوز والطاسـة والمجمـرة ودرج

البخور والحامل الذي يوضع عليه الكأس والصليب، وكل ذلك موضوع في قبة قدس، التي هي قبة القدس الجديدة.

وبعد أن انتهيت من ذلك صلّب ثلاثًا، وخرجت منسحبا في هدوء وجلال، ماضيا إلى بقية أشغالي المقررة؛ باعتباري العبد المسكين القيم بالبيعة، وظللت أعمل طوال اليوم بجد واجتهاد، حتى حل المساء، وجاء وقت القداس، وكنت قد أنجزت أعمالي ببركة ا كلها، وتأكدت من سلامة القربان، وهو بخور الصعيدة المخلوط كما يجب باللبان، الذي كان قد قدمه المجوس إلى المخاص في الهدية، والثاني السندروس؛ لأنه يحمل لآلهة الأوثان الشيطانية قط، والثالث العود لأن فيه طردا لأرواح الشياطين، والرابع الجاوي؛ لأنه ذكي الرايحة، وما يقدم ا إلا كل شيء جليل مرتفع، وقد حددتُ من بخور الميعة فإنها جالبة للشياطين أو غيرها من البخاخير. وكان خمر القربان الذي أعددته من أجود أنواع الخمر الذكي، قد صنعته بنفسي في البيعة، وهو سالم من الفساد، وهو خمر أبركا الذي عصرته من أوال ثمرات الكروم، وهذا معنى أبركا باللفظ اليوناني كما علمني ذات مرة – غزير المعرفة

– ثاونا الشماس، وخمر العنب مكرس لرفع القرابين، وأمـا غيره من خمور التمر والفاكهة؛ فللكهنة يتناولونه.

كما أني وضعت الخبز الذي خبزته من أفخـر الـدقيق وأنقاه في فرن الكنيسة عند موضعه المقدس وقـد حرصـت على ألا يكون مشقوقًا لأن الشق عيب، وقد طحنت الدقيق من بر أوائل الثمار، كما هو متبع في قانون البيعة دائما، فما إن بدأ قداس صلاة آجب[1] التاسعة[2]؛ إذا كان الوقت هو الرابعة وثلاث دروج زوالية، حتى أسرعت بالوقوف فـي مقـامي المسموح به، وكان الكهنة جميعهم قد وقفـوا خورسـين، أن صفين نحو الشرق أمام الهيكل المقدس في صمت وجـلال؛ بحيث لا ينشغل أحد مع من هو إلى جانبه – بالحديث البطال – عن الصلاة، ولا يتكلم أحد فـي أمـور الاحتيـاج إلـى ضرورات البيعة إلا رمزا بالإشارة في جميع الرتـب، إمـا

---

(١) آجب: ساعة باللغة القبطية.

(٢) الساعة التاسعة وفقًا لتقويم الشهداء القبطي، تقابل الساعة الرابعة بعد الظهر بالتقويم الميلادي، والدرج هو خمس دقائق تبعا لعمل الساعة الشمسية.

غمزا بالأعين أو إشارة باليد تعمل ما يليـق بـ ذلك المكـان الطاهر الجليل.

وكان جميع من في ذلك الأكليروس قد وقفوا بملابسـهم الكنسية المتفق عليها، وقد وضعوا الأفودات الصوف حـول رءوسهم وارتدوا جميعا التونية وهو ثوب الكتـان الطويـل الواصل حتى القدمين، والمزين بالصليب المقدس على الظهر والصدر والحواف، وكذا أطراف الأكمام، وكانت تونية الأب يوساب هي الوحيدة المطرزة صلبانها بالجواهر الكريمة من يقاوت وزمرد وماس وعقيق، بينما تونيات الأكليروس جميعا قد طرزت من خيط حرير كما هو متبع دائما، أما المنـديل، فكان في يد الكاهن اليسرى؛ لأنه غير مسموح للشمامسة، أو من هم أدنى منه بحمله أبدا، وكذا كان الكاهن يضع الغفـارة وهي ما أصبح من الشائع الآن أن يقـال عنهـا الجبـة أو العباءة، بعدما ساد وانتشر لسان العرب وبات متـداولا دون غرابة في البلاد.

ولم تكن كنيستنا تضع البيلوجيون مثلما يفعل في بعض الكنائس الأخرى، من لف الرأس بالشريط الطويل من الكتان الأبيض، ولكنا كنا قد نتمنطق بالنطاقات الحريرية فقط عنـد

أوساطنا، أما ذلك البيلوجيون فكنا نضعه على أكتافنا فقـط، وكان البطرشيل يتدلى على صدور الكهنة والشمامسة وكـذا على صدر الأب يوساب، وقد بدا غاية في الجمال والعظمة، وقد توشّى من بدايته عن موضع إدخال العنق فيـه وحتـى نهايته بصلبان كثيرة، وكذا بصور التلاميذ الاثنى عشر على صفين، ست صور بكل صف، وقد نقش بالخيط الحريـري أيضا النص الخاص بالتكريس على هذين الصـفين. ومـن المعتاد أن يكون عرض البطرشيل حوالي ثماني عشرة عقلة سبابة، وهو من الحرير الأزرق البديع، أما أنا فكنت أرتـدي الصدرة وكذا زميلي الآخر القيم في البيعة، وهي ما يرتـدى على هيئة البطرشيل ويدخل من الرأس أيضا، لكنه لم يكـن مزخرفًا مزينًا بالصلبان والهيئات المقدسة للتلاميذ مثلما هي حال البطرشيل، أما الـ "ني كاماسيون" اللذان هما الكمـان، فلم يكن الأب يوساب يرتديهما في ذلك الوقت، الذي لم يكـن وقت خدمة المذبح، وإن كنت أحب رؤية الأب وهو يرتديهما جدا، وهما يغطيان ساعديه بكاملهما؛ إذ يتسعان مـن عنـد الكوع ويضيقان مع الاتجاه نحو اليد، وهمـا مـن القطيفـة القرمزية المطرزة بالنجوم والصلبان المشغولة بخيوط الفضة

السميكة، وكذا بصورة السيدة العذراء والطفل المسيح، أمـا حوافهما فهي موشّاة بالعبارات المقدسة، وقد طرزت بالخيط نفسه، ومنها عبارة "من له تعب من ملكوت السموات.." إلى آخرها، ويقال أن رجلاً قبطيا صالحا من شطا، كان قد صنع هذين الكمين منذ زمـن الأسـقف أكليمـنص السـكندري، ووشّاهما على هذا النحو المتقن وقدمهما هدية إلـى البيعـة، وهما ما زالا مستخدمين حتى وقتنا هذا وبحالة جيدة وكأنهما صنعا اليوم فقط؛ وذلك بسبب شـدة المحافظـة والحـرص عليهما من جميع الآباء الأتقياء الذين تلوا ذلك الزمان.

بدأ الأب يوساب يصلّي وفقًا لمـا اعتـدنا عليـه مـن صلوات متّبعة في كتاب الأجبية[1] ونحن معـه منصـرفون بقلوبنا وأرواحنا كلها للصلاة لا يشغلنا عنها شـاغل؛ فلقـد حدث ذات مرة أن شماسا شوش بالحديث إلى من في جانبـه أثناء وقوف الخورس، وكان اسمه إيليا، فعاقبه الأب يوساب بأن حطّه من درجته ثلاثة أسابيع، وعوقب بسبب ذلك؛ لأنه لم يكن مثابرا على الصلاة ووقع فـي الطياشـة والحـديث الفارغ، أما الضعفاء العجائز من الأكليروس والذين لا يقوون

---

(١) كتاب الأجبية: كتاب الصلوات القبطية.

على الوقوف في الخورس، فقد جلسوا كما هو متّبـع دائمـا غربي البيعة.

كان قد غسلنا أقدامنا جميعا قبل الصلاة في إناء النحاس الموضوع به ماء التطهير والقائم علـى مطهـرة الخمـيس الكبير، وقد شهدت بذلك التوراة؛ إذ إنـه كـان فـي القبـة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنـة قبل دخولهم قدس الأقداس في قبة الزمان.

ثم إن الأغنسطس قرأ من العتيقة من المزامير، وطرحا من المزمور، وأخذ الأب يوساب يرتل ترتيلا جميلا ونحـن نرتل خلفه الثاذوكيات الجليلة وننشد تسابيح العذراء المقدسة، وموضوعات كتاب الرب، على ألحان شجية تحنن القلـوب وتفتح النفس للإيمان، وكان للأب يوساب صوت نقي عـامر بالخشوع وكأنه صوت كروان يسري فـي سـماء صـافية، فكانت القلوب تنشرح له، فأخذت أستمع إليه وقد وقفت أقدس مع المقدسين، علما بأن شغلي في الكنيسة ليس الصلاة؛ لأن الصلاة صلاة، والشغل شغل، وربما عاد علـي مـن شـغل البيعة قوت جسماني، ولا يقوم شغل البيعة مقام الصلاة؛ لأن الصلاة ما يقوم مقامها في غيرها إلا هي.

بعد الفراغ من الصلاة وتفرق الجميـع، رحـت أدور والقنديل في يدي على أبواب البيعة لأطمئن إلى حفظها؛ حتى لا يعبر منها ممنوع أو مخالف أو ديب خاطف مـن غيـر يقظان، أو حيوان مثل كلب نجس أو حمـار سـاب وبقيـت منصرفا إلى أشغالي وقد بدأ الغروب في الدخول، فسـارعت بتنظيف أرضية الفناء وغسلها، وكـذلك فعلـت بأرضـيات الممرات والدهاليز، فلما انتهيت اغتسلت جيدا وتطهرت بماء طاهر سبع مرات وأنا أستعيذ بالرب من الشيطان، ثم ذهبت إلى ثاونا الشماس، وكان قد أومأ لـي برأسـه قلـيلا أثنـاء الصلاة، مثلما يفعل عادة، عندما يريدني في أمر من الأمور، نقرت على بابه نقرا خفيفًا مستأذنًا، بعد أن عبرت الـدهليز كله على أطراف أصابعي لئلا يسمعني أحد؛ إذ كانت قلايتي بعيدة عن مكان قلايته في نهاية الطرف الآخر من الـدهليز، فلما جاوبني دفعت الباب الخشبي وحرصت على ألاّ يصـر حتى ألفت الانتباه، ودلفت منه لأجلس قبالته علـى فراشـه الأرضي الممدود.

كان ثاونا من أقرب الناس إلي في البيعة منذ حلولي بها قبل ست سنوات، وهو الآتي إلى ملكوت الرب بعد أن تطهر

من خطية لا أعرفها، وإن شاع عنه – وهو المولود جسمانيا في أنطونيوبوليس، أنه كان في الأصل هرطقيا، يقول بالعرفان عن طريق اتحاد العارف بالمعرف؛ لكنه دخل حظيرة الرب بعد ما تطهر وتاب، وظهرت له الحقيقة على يد راهب تقي يدعى الأنبا مويسيس، وكان قد التاث بعض الوقت لسبب أجهله، فقرأ عليه الأنبا ومسحه بالزيت الفلسطيني فبرئ لساعته، ونذر نفسه لدير الراهب، وهو دير الأنبا باخوم المعروف، فعاش هناك زمنًا، ثم إن الأب يوساب طلبه إلى بيعتنا هذه في قصر الشمع بمصر العتيقة، حتى يصور السيدة العذراء والقديسين في قون، يتّعظ بها الشعب عند مطالعتها مرسومة على جدران البيعة، وكان الشماس ثاونا قد اشتهر وذاع صيته في رسوم القون وإجادته تصوير القديسين والشهداء الأوائل، ويقال أنه كان قبل أن يلتاث ويلتحق بالدير، يتعيش من عمل صور الناس على التوابيت، والتي يدخرونها لوقت موتهم، كما هو الشائع، وكانوا يجعلون له مقابل مهارته في عمل ذلك جعلا من الخبز والجبن والخمر والغلة يجعله يعيش عيشة مسمنوري الناس في بلدته الصعيدية التي قدم منها إلى البيعة.

كنت أحب ثاونا لأنه كثير العطف علي، ولأنه كان سمح الوجه وإن كنت لم أره ضاحكا قط، لأن الضحك لا يتناسـب مع النسك والورع داخل البيعة. وكان ثاونا عشريا بطبعـه، بسيطًا في تعامله، سواء معي أو مع من هو أدنى منـه فـي الرتبة، إضافة إلى أنه واسع العلم، كثير المعرفـة، يتحـدث قبطية أخميمية وعربية جيدة، إضافة إلى قبطية بحيرية كالتي يتحدثها أقباط الإسكندرية ومريوط، لكنه لـم يكـن عارفـا باللسان البشموري على رغم علمه باللسان اليوناني، الـذي قال لي – ذات مرة – أنه تعلمه في المكتب، وعلى الـرغم من أن فضله وأعمالـه الطيبـة كانـت ظـاهرة للجميـع، وخصوصا في الطبابة وعمل العقاقير، فإن البعض هنا فـي هذا المكان المقدس ظل يحاول تلطيخه ورميه بالأقاويل؛ فقد وصموه بالسحر تارة، وبالعلمانية تـارة أخـرى، وراحـوا يتداولون ذلك سرا دون أن يمسكوا عليه ممسكًا يثبت أقوالهم. والحق أقول أن ثاونا كان خيرا لا يصدر عن فمه مـا هـو قبيح، بل إنه علمني الكثير، وانعقدت مودتنا منـذ أن كـان يشتغل بصنع صورة القديس قلتة الطبيب الحكيم، وهو يمسك بيده اليمنى قضيبا يشير به إلى صندوق طبابتـه وقـد فُـتح

غطاؤه وانكشف ليبين منه ستة أقسـام لوضـع الـدهونات والعقاقير، وكنت أنا أساعده أثناء ذلك، وقـد فـردت معـه القماش على الخشب منعا للتشقق، ثم نثـرت فوقـه بطانـة الجص التي جعلتها لطيفة رقيقة مثلما طلب مني، وبعـد أن جفت وتماسكت قام ثاونا بتغطية الجص بالتبر، الذي أعـده من مزج صمغ العرب المجلوب من بلاد اليمن قليـل مـن الماء، وصفار بيض البط السوداني وبعض الحنـوط لـزوم البركة، وقد أدركت خلال ذلك طريقة ثاونـا العجيبـة فـي الرسم، والتي قال لي أنها من الطرق القديمة المتوارثة لـدى الرسامين الأقباط، وآيتها أن توضع ألوان أتربـة المعـادن المعروفة كالحديد والنحاس والزنك في مواضعها المختـارة بالصور، وفقًا لضرورتها فوق طبقة التبر المعمولة والمغطية للبقعة كلها؛ وذلك بعد أن تدق هذه الألـوان وتصـحن فـي أجران جرانيتية كرست لهذا الغرض، ثم إن كل لون منهـا يمزج بالماء البحري الطهور بالسـماكة المرغوبـة حسـب الذائقة، وتكون الصورة قد أعد هيكلها قبل ذلك وتحددت بعد نحتها بمسمار حديد مما يصنعه الغجر الجوالون بالبلاد، هكذا بقي الصليب ذهبي اللون على الجانب الأيمن من الصـورة،

وبقيت عصا الرعاية الذهبية الطويلة على جانبهـا الأيسـر كذلك.

وأنا أقول أن ثاونا جيد الإيمـان غزيـر المعرفـة، لا يصدرعن فمه إلا القول الطاهر؛ لأني كنت قد سـألته أثنـاء صناعته هذه الصور سؤالات عدة كانت تشغلني، خصوصـا عندما رأيته يرسم القديس قلتة بصحة وافرة، ووجه جميـل صبوح، وملابس متناسقة زهية، فقلت له معبرا عن أمر كنت كتمته في صدري زمنًا:

- أريد أن أسألك أيها العزيز ثاونا عن أمـر شـغلني دوما؛ إذ كنت قد شاهدت ذات مرة – في كنيسة تعـود إلـى الملكانيين الهراطقة ببلاد قريب من قريتي ترنيط – صورا من صور الجحيم وقد امتلأت بالشـياطين المخيفـة وأسـاليب العذاب، وكذا كان السيد مصورا وهو على نحو غايـة فـي الضعف والهزال، وقد صلب على صليبه، والدم ينزف مـن جسده وعلى رأسه تاج الحسك الشنيع، أما وجهه فكان يفيض ألما وحزنًا إلى حد أنني جثوت تحت الصورة ورحت أبكـي تألما وحزنًا، فما بالنا – نحن الأقبـاط – لا نرسـم السـيدة البتول والسيد له المجد إلا على أجمل صورة وأكثرها شرحا

للصدر؟ولعلني لم أر أبدا صورة من صور الجحيم أو الشياطين وقد رسمت على جدار من جدران كنائسنا، قل لي أيها العزيز بربك: أهذا أمر يخص العقيدة، ويدخل ضمن ما يفرق كنيستنا القبطية اليعقوبية عن كنيسة أولئك الملكانيين؟.

رد ثاونا بهدوء، ودون أن يستدير أو يرفع عينه عن موضع الدهان الذي كان يدهن به ثوب القديس بالأزرق:

- لا يا بدير، هذا أمر لا يدخل في فروق العقيدة من ناحية الفروع مثلما هي الحال في القربان مثلا، ولم يجتمع له مجمع للنظر فيه؛ فلعلك تعلم أنهم يقورون القربان حال القداس عليه، والسيد المسيح وقت إعطائه جسده الطاهر لتلاميذه ليلة صلبه وآلامه لم يقور الرغيف، لكن الإنجيل المقدس يقول أنه أخذ خبزا وبارك وكسر الرغيف وناول تلاميذه، ولم يقل أنه أخذ جزءا من رغيف وبارك عليه وناوله وكان مقورا بالسكين كما يفعلون هم، ونحن ما لنا غير المماثلة به، كل ما صنع نصنع مثله، لكن ما تكون عليه الصور من حال الترهيب أو الترغيب، فهذا ما يتعلق بخصال الناس وخلاف ذائقتهم من مكان إلى مكان؛ وفقا لما ربوا ونشئوا عليه من لين المعشر، ورقة الطباع، فصور القديسين

والقديسات إنما جعلت علـى سـبيل التـذكرة والموعظـة والاقتداء، أما صورة السيد المسيح. له المجد في الأعـالي – وأمه البتول، فقد جعلت كي يحفظه الناس ويحفظوها، وصار الآباء البطاركة يرشمون كل صورة بالميرون المقدس فـي عدة أعضاء من الصورة؛ لكي تقبل من الناس عنـد طلـبهم الاستشفاع بتلك الصورة، والقصد في ذلك أن المحسـوس لا يألف إلا المحسوس مثله.

ونحن نصور القديسين، وكذا السيد والبتول كيفما نـرى على أجمل وأفضل ما يكـون لتحنـين القلـوب وتعميرهـا بالإيمان، وكذا نفعل لتبدو قوة إيمانهم لدى الشعب؛ فليتجلـد ويصبر على ما هو فيه إذا ما ضـعف إيمانـه أو اهتـزت عقيدته تحت وطأة الزمن. واعلم يا بـدير أن الخلقـدونيين الملكانيين يصورون الشياطين وزبانية الجحيم حتى يخيفـوا الناس ويرعبوهم بالآخرة، ليتسلط من يريد التسـلط علـيهم باسم الرب، أما نحن اليعاقبة أصحاب الديانة الحقة، فالآخرة هي النعيم بالنسبة إلينا، وما تصويرنا القديسين وهم غاية في الرفعة والمجد وقت انتصارهم إلا لإيماننا بأن النسك والورع هما طريق نسلكه إلى آخرة النعيم، لذا فأنت ترى كيف تكون

دائما صورة القديس مارجرس وقد اعتلى فرسه وراح يسحق التنين الشنيع بحربته، ولعلك تلاحظ أن كل صـور القـون جميلة مذهبة، تبرز أجل حالات الطهـر والبشاشـة لـولاء الأبرار أبناء يسوع.

وعلى الرغم من كل ذلك الإيمان القويم والعلم الغزير، فإن البعض لم يكف حتى الآن عن مراقبة ثاونا، وتتبع كـل خطوة يخطوها هذا الأخ الطيب؛ حتى يمسك عليه ممسكا قد يورده إلى التهلكة ويؤدي إلى طرده مـن الكنيسـة فيفـارق ملكوت الرب وحظيرة الأبرار، ويعود كالشاة الضـالة فـي البرية بعيدا عن القطيع؛ لذا دخلت عليه متسحبا حريصا على ألا يراني أحد عنده، فيشيع عنا التـآمر أو يرمينـا بشـبهة الطمث اللوطي المرذول، وما إن اطمأننت إلى انعـدام مـن رآني وأنا أدخل عليه، حتى رحت ألتقط أنفاسي الضائعة وأنا أهمس له وجلاً:

- ثاونا.. لأي شيء طلبتني يا عزيـز عينـي، وأنـا سأخرج معك صبيحة الغد إلى الأراضي الموحلة كما أمرنـا أبونا يوساب؟. كان قمر بؤونة المكتمل فـي سـمائه النقيـة الرائقة قد جاد علينا ببعض من نوره عبر كوة القلاية الضيقة

التي فتحها ثاونا لتدخل الهواء في هذه الليلة من آخر شـهور الربيع، وقد أعلنت النسمات الحارة عن مقدم شهور الصيف شديدة الحرارة، وهكذا استطعت أن أتبين جانبا من وجهـه، وقد بدا مهموما وهو يقول:

- طلبتك كي أقول لك أن تحترز للأمر يا بدير، فرحلتنا في الغد إلى أراضي البشـموريين لـن تكـون سـهلة؛ لأن الأراضي الموحلة التي سنعبرها سرعان ما سوف يغمرهـا ماء الفيضان، وهذا سيجعل سفرتنا صعبة، قد نواجه فيها بما لا نتوقعه، ناهيك أن الحرب دائرة هناك على أشـدها بـين عسكر الوالي والأهالي، وما زال العسكر ينهزمـون كلمـا كروا على هؤلاء الفلاحين، ولا يدري أحد ما سوف يحصل، وأظن أن أبانا سوف يحملني رسالة إلى زعيم البشامرة؛ لأنه قال لي قبل اجتماع الأكليروس به أنه سيجعلني رسوله فـي أمر مهم غدا، وكنت قد سمعت أنه ذهب إلى والي البلاد في الفسطاط منذ يومين واجتمع به بناء على طلب الأخير، وربما طلب الوالي من أبينا الوساطة مجددا مع البشموريين؛ حتـى يرجعوا عما هم فيه ويدفعوا الخراج.

لقد اختاروني خصيصا لهذه المهمة لأنها غير مأمونـة، وربما كانت فرصة مواتية لبعضهم فيتخلص مني، فأنت تعلم أنهم يصرون أن أبقى في أدنى مراتب التشمسة على رغـم خدمتي وإخلاصي الحق منذ التحاقي بالبيعة هنا، أما أنت فلن يجدوا أدرى منك بمعرفة مسالك الأراضي الموحلة، ومعرفة اللسان البشموري الذي هو لسانك بالميلاد، ولسـان حياتـك الأولى الذي لا أعرفه أنا؛ ولهذا اختاروك لترافقني وتكـون لساني مع البشموري عندما يلزم الأمر.

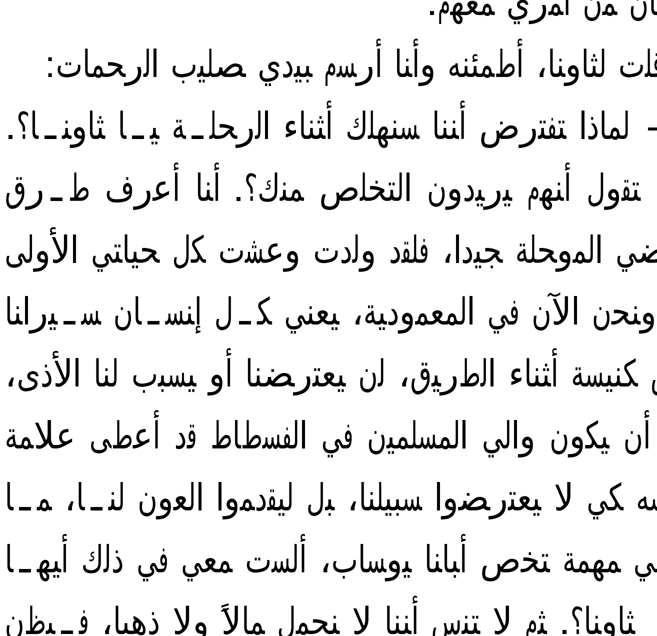
كنت أعرف أن ثاونا يلاقي الكثير من العنت في البيعة، ولو كان كسرابيون الشماس غنيا مقتدرا، يجود على البيعـة بماله بين الحين والحين، لكان ترقى في الأكليروس سـريعا وصار أرشيد ياقن على رأس التشمسة، يجوز له حمل عكاز البطريرك، لكنه وعلى الرغم من سنواته الطويلة في البيعـة وعلمه الواسع وتقواه البينة لكل ذي عين ترى وقلب يحـس، لم يترق بعد في الأكليروس، وهو مع ذلك صابر على الأمر لا ينقطع عن الصلاة والصوم، والتلاوة والتقديس، والقـراءة والتعمق في اللاهوت، وتشهد على ذلـك لفـائف البـردي، ورقوق الغزلان المكتوب بالأخميمي والعربـي واليونـاني،

والموجودة في كل موضع بقلايته، وثاونا لا ينقطع عن صيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، كما جرت العادة بالنسـبة إلى الرهبان في الأديرة، وهو يحمل وفقًا لرتبتـه كـأس دم المسيح الذي صار بالتقدس، وكذا الملعقة لتوزيع الدم الزكي لشعب ا ، وهو الذي يقوم بقراءة الإنجيل على الأنبل، إذا لم يقـ ـرأه القسـ ـيس ويقـ ـول Byaoticon، ولا يقـ ـول Keeyaoticon لأن هذه اللفظة الأخيرة ما ينفـرد بهـا إلا الكاهن فقط؛ فإن له البركة على الشعب، لا الشماس. وكـان ثاونا مجدا كثيرا وفقًا لدوره الكهنوتي في افتقـاد المرضـى والأيتام والأرامل، وكذا المسجونين، حتى أنه كان يعدي بحر النيل في عز طلوعه وقت الفيضـان أيـام شـهر مسـرى، والشمس وقيدة نار، ويذهب في الفلايك إلى بر الجيزة، على الرغم من خطر المياه في ذلك الوقت، ويـزور المسـجونين الآثمين في سجن يوسف هناك؛ فيخفف عنهم يوزع علـيهم العطايا والبركات، وفي واحدة من زياراته السـجن، كانـت هناك جماعة من الناس قد أُخذ أفرادها بجريرة إقامتهم شعائر وثنية في بربا بعيدة بصحراء هيليوبوليس، فقـبض علـيهم حراس الدولة وساقوهم إلى السجن بتهمـة السـحر وعمـل

الطلسمات والشغل بالكيمياء والسيمياء، وظل متولي السجن يعذبهم ويعصرهم؛ ظنًا منه أن لديهم أموالاً وذهبا أخرجوه من هذه البربا، وكان من جملتهم النساء، فلما لم يتوصل إلى شيء معهم تركهم بلا ماء ولا طعام حتى أوشكوا على التلف من شدة الجوع والعطش، وتصادف أن كان الشماس ثاونا خلال ذلك في زيارة للسجن وفقًا لعادته في عيد العنصرة، فأطعمهم وأشربهم مما لديه من الطعام والشراب المجلوب معه للمسجونين، فصحوا وتابوا، ثم إنه دفع لمتولي السجن مالاً وخلصهم منه، فصرف جماعة منهم إلى شئونهم، وعاد بجماعة أخرى، ودفعهم إلى أعمال البيعة، فاشتغل بعضهم في المعصرة المخصصة للزيت وبعضهم في بساتين البيعة الكثيرة المجاورة فعاشوا وصحوا، وحصلت البركة لبيعتنا بذلك الفعل الطيب لهذا الشماس التقي ثاونا.

رحت أنظر إليه محاولاً استجلاء ملامح سحنته الكريمة تحت ضوء القمر، وقد شعرت بأنها اكتست بنورانية وسكينة إيمانية خالصة، وسرعان ما انقبض قلبي؛ إذ رحت أتخيل حدوث مكروه له خلال رحلتنا، فقد كنت أحبه وأجله، بل أعتبره ملاذي الوحيد في كثير من الأحيان، خصوصا عندما

يأخذني الغم والندم على حياتي العلمانية السابقة، ويفيض بي الألم، إلى الحد الذي لا أطيقه وأحتمله فـأبكي بكـاء مـرا، وأتمنى الموت على الحياة، خصوصا لما أتذكر أهلي وناسي وما كان من أمري معهم.



قلت لثاونا، أطمئنه وأنا أرسم بيدي صليب الرحمات:

- لماذا تفترض أننا سنهلك أثناء الرحلـة يـا ثاونـا؟. ولماذا تقول أنهم يريدون التخلص منك؟. أنا أعرف طـرق الأراضي الموحلة جيدا، فلقد ولدت وعشت كل حياتي الأولى فيها، ونحن الآن في المعمودية، يعني كـل إنسـان سـيرانا بلبوس كنيسة أثناء الطريق، لن يعترضنا أو يسبب لنا الأذى، ولابد أن يكون والي المسلمين في الفسطاط قد أعطى علامة لحراسه كي لا يعترضوا سبيلنا، بل ليقدموا العون لنـا، مـا دمنا في مهمة تخص أبانا يوساب، ألست معي في ذلك أيهـا العزيز ثاونا؟. ثم لا تنس أننا لا نحمل مالاً ولا ذهبا، فـيظن بنا الظنون، ونتعرض لبعض اللصوص أو قطاع الطرق، أما البشامرة فهم قبط مثلنا ولن ينالنا منهم سـوء، وفـي أسـوأ الأحوال يا سيدي، إذا لم يصـدقونا، فسنشـمر لهـم عـن

سواعدنا، فنريهم عليها وشم الأسد، فيطمئنون لأن حالنا مثل حالهم تماما.

خلت – في ظل الضوء الشاحب – أن ثاونا قد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مشفقة عند ذكر الوشم، وإن ظـل صامتًا لا يقول شيئًا لبعض الوقت، لكنه أخيرا تنهد بمرارة، وقال:

- المسألة ليست في مخاطر الطريق يـا بـدير فهـذه نستطيع مواجهتها، لكن المشكلة في البشموريين ذاتهم؛ فأنت تعلم أنهم قد وصلوا إلى حد يصعب العودة عنه، منذ أن بـدأ نزول الغلاء بكورة مصر، وأنت تعلم أنه مازال يعمل فـي الناس، حتى أن القمح بلغ خمس ويبات بدينار خـلال هـذه الآونة، ومات من النساء والأطفـال والصـبيان والشـيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصى عـدده مـن شـدة الجوع، ومتولي الخراج ما زال يؤذي الناس في كل مكـان، وأكثر البشموريين كان يعذبهم عذابا شديدا إلـى أن بـاعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب؛ فقد كانوا يربطون في الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذي يعذبهم رجل اسمه غيث، وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلـى

الموت، فلما نظر أهل البشموريين أن لـيس لهـم موضـع يخرجون منه، وموضعهم لا يقدر عسـكر يسـلكه لكثـرة الوحلات فيه، وما يعرف طرقه إلا هـم؛ بـدءوا ينـافقون ويمتنعون أن يدفعوا خراجا واتفقوا وتآمروا على ذلك.

ومتولي البلاد يشن عليهم بعسكره ويفتك بهـم ويقتـل الأبرياء بجريرة المفسدين إلى أن ما بقي أحد يراه إلا قتلـه، وقتل جماعة من أراخنة النصارى في كل موضع، وها هـم البشموريون تمموا مؤامرتهم وصنعوا لهم سلاحا وحـاربوا السلطان وحموا نفوسهم أن لا يدفعوا خراجا؛ فكل من يمضي إليهم ليتوسط حالهم قاموا عليه وقتلوه، وأصبحوا لا كبير لهم ولا خشية من أحد، فلما نظر أبونا البطرك أنبا يوساب حزن على أولئك الضعفاء؛ لأنهم لا يقدرون على مقاومة السلطان، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم، فبدأ المهتم بخلاص شعبه الأمين بالحقيقة يرسل إليهم الرسل ويذكر لهم ما يحـلّ بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم، ويدعوا مقاومـة السلطان، فلم يرجعوا، وكان الرسل يقولون لهم ما قاله الأنبا يوساب على لسان العطر بولس: "كل ما يقاوم السلطان فهـو يقاوم حدود ا والذي يقاومه يدان".

وها هو يحملني رسالة جديدة إليهم، ولعلك تعلم أنهم قد أهانوا وضربوا من سبقونا من رسل أبينا قبل ذلك، بل كادوا أن يفتكوا بأسقف أصنطا عندما أرسله أبونا إليهم، بل وثبـوا على الرسل ونهبوا كل ما معهم، فعادوا إلى أبينا وعرفوه ما جرى عليهم، وأنت لا تدرك ما يفعله الجوع فـي الإنسـان، وكيف يحوله من الحالة الإنسية ويدخله في الطور الوحشي، وأبونا غاضب جدا بسبب ذلك، وقال إن لم يرعووا ويرجعوا عما هم فيه فلن يبطئ عنهم الهلاك، بل سيتم عليهم ما قالـه النبي أشعياء: "إني أسلمكم للسيف، ويقع جميعكم بالقتل لأني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وفعلتم الشر أمامي".

ولأجل هذه البلايا والأحزان المذكورة، ما تمكـن الأب البطرك أن يكتب سنوديقا إلى شريكه في الخدمـة والأمانـة بطرك أنطاكية، وكان مهتما بـذلك أكثـر ممـا نالـه مـن التجارب، فإنه لم يجد راحة يوما واحدا، ومع ذلك فأبونا مـا زال حزينًا خائفًا على أولئك الضـعفاء المسـاكين الـذين لا يعرفون عواقب الأمور ومغبة فعلهم. لـذلك لمـا سـمع أن الوالي لم يعد يحتمل تمادي البشموريين، وأنهم لا يعـودون عن فعلهم، وكتب إلى الخليفة في بغداد ليعلمه بما جرى، فقد

أدرك أنها ستكون الطامة الكبرى، إذا ما جاء الخليفة بنفسه لأنه لن يرحمهم، ولن يتركهم إلا بعد أن يجهز عليهم تماما؛ لذلك فأبونا يرسلنا إليهم غدا بكتاب ينصحهم فيه ويحذرهم ويطلب منهم العودة إلى طاعة الأمير ودفع الخراج، لكن المشكلة يا بدير أن هؤلاء قد يتصرفون معنا بحماقة، وربما قتلونا لفرط غضبهم وضيقهم، وفي هذه الحال يكون أولئك الذين لا يريدون وجودي هنا في البيعة قد حققوا مأربهم وتخلصوا مني وقد جاءتهم على الطبطاب.

ثم إن البشامرة يا بدير – على ما أظن – لا يصدقون كلام أبينا، ويظنون أنه لا يهتم إلا بأمان البيعة والمحافظة على ممتلكاتها، وهذا ما قالوه وجاهروا به لكل الرسل الذين أرسلهم أبونا إليهم قبلنا.

والأخطر من ذلك أن كثيرا من قبايل العرب أخذت تثور في غرب البلاد أيضا، وأن بعضا منها أخذ ينضم إلى البشموري في أسفل الأرض، ولعلك سمعت من هنا أو هناك عما جرى من أمر العرب، فقد انتفضت بعض قبايل القيسية واليمانية سواء بسواء، ورفضوا دفع الخراج، وكانوا قد قدموا ضمن من قدم من قبايل العرب إلى أرض مصر،

واشتغلوا بالفلاحة وتوطنوا بأراضينا، فحل علـيهم الخـراج مثلما يحل على الفلاحين القبط، فلما اشتد ظلم متولي الخراج وزاد فيه زيادة لم يعودوا يطيقونها انتفضوا جميعا حتـى أن أمير البلاد اضطر إلى إرسال جيش لهم، نزل بنواحي بلبيس وحاربهم بعد أن ثار أسفل الأرض له، وقد سمعتهم يتحدثون هنا يا بدير عن أن خليفة المسلمين ساخط جدا بسبب ذلـك، وغاضب على أمير البلاد بسبب كل هذه الحوادث، ويهـدده بلبس البياض عقوبة له، وكذا بحل لوائه؛ لأنـه لـم يحـتط للأمر، وتسبب في كل هذه الثورة، ويقال أن الخليفة أرسل له برد على رسالته يقول فيه: لم يكـن هـذا الحـدث العظـيم (ويقصد عصيان الناس) إلا من فعلك وفعل عمالك، حملـتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبـر حتـى تفـاقم الأمـر واضطرب البلد.

وهناك أخبار أن الخليفة عازم على وضع حد لكل ذلك بنفسه، بل يقول البعض أنه خرج من بغداد، وسير جيشه إلى بر مصر للوقوف على الأمر بنفسه وإيقاف العصيان، وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، حتى لو تطلب الأمر قتـل نـاس عديدين، خصوصا وأنه أذاع أنه لن يحصل الخراج إلا على

حكم الإنصاف في الجباية، وهذا معناه أن الخراج لن يزيـد بأية حال من الأحوال عن أربعة آلاف ألف دينـار ومـائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار.

نهض ثاونا فجأة وفتح بابا صغيرا في جـدار قلايتـه، وقلب فيه بهدوء واحتراس، دون أن يحدث أدنى صوت يمكن أن يسمعه أي كائن خارج القلاية، فلما عـاد وجـدت بيـده خنجرا صغيرا، التمع نصله تحت نور القمر، قدمه لي، ثـم قال وهو يلهث:

- خذ هذا، وأخفه بين ثيابك بسـرعة، واجعلـه معـك عندما نخرج باكرا في الغد، واحـرص علـى ألا يـراه أي مخلوق كان مهما كان الأمر.

أخذت الخنجر منه بيد مرتعشة وتأملته قليلا تحت النور السماوي الداخل إلينا، كان قصيرا متينًا معقـوف الطـرف، كذلك النوع من الخناجر الذي يرى مع المسلمين ويقـال لـه صنعاني، وكنت مضطربا جدا، فدسسته بسرعة تحت زناري الكهنوتي بداخل ملابسي، ووضعت يدي عليه، وقد انبهـرت أنفاسي؛ إذ هيئ لي أنني سمعت حفيف ثوب، ووقـع نعـل خفيف خارج القلاية في الدهليز. بقينا صامتين أنا وثاونا، ثم

ذهب ثاونا وأطل على الدهليز من الباب، فلما تأكد أنه لا أحد هناك، عاد وهمس:

- اسمع يا بدير، إذا كان لديك مهم عزيز فاحمله معك؛ لأن الرحلة خطرة وقد يحدث ما لا يحسب له حسبان.

لعب الفأر في عبي، فقلت:

- الخطر في كل مكان الآن يـا ثاونـا، كـل شـيء مضطرب، ولم يعد أحد يعرف رأسه من رجليه فـي هـذا الزمان، فكل شيء يتغير سريعا، وما كان بـالأمس مرئيـا بالعين ملموسا باليد، يصبح اليوم وكأنه لـم يكـن، وربمـا تغيرت ملامحه حتى يصعب على الإنسـان معرفتـه مـرة أخرى.. فليرحمنا الرب أيها العزيز ثاونا.

رد بسرعة كأن كلامي قد مس جرحا بداخلـه، وحثـه على أن يفضفض ما كان مكنونًا بصدره:

- أجل يا بدير هذا زمان صعب؛ فكل شيء الآن فـي صراع وقتال، فبالشامرة يزيدون مـن تمـردهم ويـردون عساكر الوالي مهزومين المرة تلو الأخرى، والعرب يتقاتلون فيما بينهم، وحتى كنسيتنا لا تخلو من صـراعات بـداخلها، والروم أتباع خلقدونية الطمث يتلمظون على كنيستنا طـوال

الوقت، وهم لا يكفون عن دفع البراطيل والبذل للوالي حتى يسلمهم كنائسنا ويستولوا على ممتلكاتها وتكون لهم الهيمنة والإمرة على أهل الدين في البلاد كلها، بينما الوثنية ما زالت بالديار تسري، غير مقطوعة الجذور، خصوصا في تلك المناطق البعيدة عن المدينة، وقد سمعت مرارا أن هناك مجوسا يعبدون النار، كانوا قد بقوا بالبلدان منذ زمن طويل وقت قدوم الفرس، أما أهل كورة النوبة من السودان، فقد أخبرني بعض العارفين الذين وطئوا أرضهم أن فيهم من يعترفون بالباري سبحانه ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة.

وأنت تدري يا عزيزي أحوال كنيستنا من أتباع البدعة الآريوسية التي ما زالت توجد في البلاد، ومن يدين بدين الطمث الخلقدوني من كنائس ملكانية تصارع ضدنا وضد الإيمان الحق وتسعى بالسعايات ضد كنيستنا لدى الحكام والولاة، إن الإنسان منا صار في حالة من البلبلة والعجز، لولا بعض من إيمانه يحميه، وبداخله بحر عات مضطرم، وقد تنازعته الأهواء، وشتتته الأفكار.

تنهدت وأنا أتمتم وأنسحب خارجا من القلاية:

- أجل يا ثاونا العزيز، فليرحمنا الرب، ويحمينـا مـن هذه الأيام الصعبة والأيام القادمة المجهولة.

ثم إنني ألقيت عليه تحية المساء؛ إذ صرت عند البـاب، وبينما كنت أعبر الدهليز ماشيا على أطراف أصابع قـدمي؛ خوفًا من أن يراني أحد، خيل إلي أنني سمعت حفيف ثـوب وتردد أنفاس في ظلمة المكان الحالكة، فصلبت مرتعدا وأنـا أفكر في الكلمات "فالواحد منا بداخله بحر عات مضـطرم، وقد تنازعته الأهواء، وشتتته الأفكار".

بت ليلتي ساهرا قلقًا داخل قلايتي، مهموما برحلة الغـد إلى الأراضي الموحلة، وكان مبعث خـوفي وهجسـي هـو العودة إلى مسقط رأسي ومرتع صباي مرة أخرى، بعـد أن تركت بلدتي هناك، وكانت تسمى ترنيط، وخرجت أهيم على وجهي هاربا وقد تركت أبي وأمي وأسرتي كلهـا؛ بسـبب كربي وضيقي من حال الدنيا، بعد أن سعى أبي الجسـداني إلى تزويج أخي الأكبر من تلك الجميلة التي هواهـا قلبـي دوما، ولم يغب عني يوما مذاق عشقها الآسر، ولم يكن عالما بما كان بيني وبينها ورغبتي فيها، فلما أتلفت الحبيبة نفسـها

وكان اسمها أمونة؛ بأن ألقت بنفسها في السـبخة الواسـعة الموحلة الخطرة، حتى أغرقتها وغابت تحت طينها السـائل، دون أن يستطيع إنقاذها أحد، عشت زمنًا في اللوعة لفقـدها، وأكل اليأس روحي شيئًا فشيئًا، حتى سلمني إلـى الضـياع، وكنت وقتها فتى يافعا في السابعة عشرة من عمري، فأخذت أقول لروحي أنه لا جدوى من هذه الحياة، ولا معنـى لهـا؛ فهي شيء كالكذب، لا يقين فيها، ولا أمان لأيامهـا، فهـي تظهر للمرء وجه السعادة ذات مرة، لكنها سرعان ما تريـه جل التعاسة في مرة أخرى، وكنت أقول ذلك وأنا أتذكر كل الأوقات الطيبة التي أمضيناها معا، خصوصا قبل أن تفاجئنا الحياة بما لا نشتهي، فقد ظللنا شهورا طويلة نتلاقـى، ولـم يكن أبي قد طلب من أهل آمونة تزويجها لأخي بعـد، ولـن أنسى ما حييت آخر مرة التقيت فيها هذه الحبيبة الغالية قبـل علمنا بهذا الخبر الخطير، إذ كنا نعمل معا في غيط القلقـاس تبعية أبي؛ لأن آمونة وأهلها كانوا يعملون جميعا في غيطان أبي الذي هو من مياسير الفلاحين، وكان نظـري لا يغيـب عنها أبدا وقد مالت تجمع الحشائش وتنظف الغيط، وأنـا لا أفرق بين لون خدها الوردي الجميل وبـين زهـر القلقـاس

المنتشر هنا وهناك، فاقتربت منها وقـد هاجـت مشـاعري ورغبت فيها رغبة لم أستطع لها سبيلا؛ فقلت هامسا لها:

- آمونة.. حبيبتي آمونة، فلنذهب معا بعيدا عـن هنـا بسرعة؛ فأنا أريد أن أكون معك الآن، سأذهب أنـا أولاً ثـم اتبعيني حتى لا يشعر أحد. كان الوقت وقت ظهيرة تقريبـا، وكانت الرطوبة قد تصاعدت وباتت الأجساد لزجة مترطبة، فلما وافتني داخل الدورة التي كنا نلتقي فيهـا بعيـدا عـن العيون، شددتها نحوي ورحت أقبلها قبلات كثيرة، حتى أنها ضحكت مني وقالت: أنت تقبلني وكأنك تفعل ذلك لأول مرة، أو كأنك لن تقبلني بعد ذلك أبدا، هل جننت اليوم؟. وراحـت تضحك، فقلت لها: آه.. جننت. وظللت سادرا بلثمها في كـل موضع من جسدها تطاله شفتاي، بينما يداي تزيحان الثـوب شيئًا فشيئًا عن تلك الدالية الريانة، فلما سرت نـار شـوقي إليها، وأشعلت شوقها بلهيب أشد، التحمنا ببعضنا بعضا حتى أرمدت جمراتنا وبقينا ساكنين مطرحنا، لا صوت معنا غير وصوصة عصفور على البعد ووجيب قلبينا الصغيرين.

ثم إننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا، نعيش أبدا علـى السراء والضراء، وكان ذلك العهد هو ما نأخذه على نفسـينا

في كل مرة نلتقي، وكان اتفاقنا أن أفاتح أمي في أمر زواجي من آمونة لتكلم أبي في ذلك حتى يأذن لي ويبارك زيجتنـا، لكن أمي التي طالما شعرت أنها تفضل أخي الأكبـر عنـي وتعزه كثيرا، وليسامحها الرب على ذلك، سارعت واختارت آمونة زوجة لأخي، وفاتحت أبي في ذلك، وكان جمال آمونة واضحا لا يغيب عن أية عين تحب الجمـال وتـرى آيـات الخالق في البشر، فلما علمت ذلك لم أصدق نفسي وبت وكأن النجم المذنب قد أرسل بناره الشيطانية فوقي وصعقني صعقًا؛ فبت محموما أياما لا أفارق الفراش، دون أن يكـون هنـاك سبب مثل وباء، أو تفشي فاشية مما يحدث عادة، وأوشـكت روحي على الخروج بعد أن قارب جسدي على التلاف حتـى أن أبي جهز تابوتي بكل مستلزمات التجنيز وأنزل غطـاءه الخشبي المصورة عليه صورة وجهي، وأنا في أبهى صورة وقد تحوط بشعري الأسـود الغزير،ووضـعه إلـى جـوار فراشي، بينما شددت أمي على النائحات أن يتأهبن فـي أي وقت لسماع خبري فيأتين في التو ومعهـن النيلـة لتلطـيخ شعورهن المحاولة بها، وكانت أمي قد بدأت الندب منـذ أن خرج من عندي آخر حكيم جلبه أبي وقال أنه لا فائـدة؛ لأن

الحمى قد بلغت مداها والقلب لم يعد قادرا على احتمالها، وأن كل ما أخذته من أشربة وابتلعته من أعشاب لم يأت بما يرتجى منه، وكان قسيس بيعتنا لا يفارقني منذ ذلك الحين كرامة لأبي ولأجل خاطر عينيه؛ لأنه كان صاحب خير وفضل كثير على البيعة خصوصا بعد أن قدم بعضا من أثاث البيعة ومنه تلك المنجلية ذات الحامل المنحدر لوضع الكتاب المقدس، وهي مزخرفة بتصميمات وأشكال بديعة قد طعمت وحشيت بسن الفيل، وتزينها الصلبان من كل ناحية، وكانت توضع على الرف المفتوح تحت حاملها أطباق العطاء والصنوج والمثلثات والأجراس الصغيرة المضروب عليها بالقضبان، وكان قد قدم – كذلك وهو المقتدر – للبيعة شمعدانًا على هيئة تنين تركب عليه شمعة كانت تشعل أمام باب الكنيسة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام، وكانت الحية التي على هيئة التنين تثبت الشمعة بفمها الذي هو ثقب محفور، وكان الشمعدان من النوع النقال غير الثابت في موضع واحد.

لكن ا أراد ما أراد وأفقت معافى من الحمى بعد ثلاثة أيام، فلما تذكرت ما كان من أمري، ونظرت ما كنت فيه من

مرض وقربي من الموت والهلاك، حمدت ا على مـا أنـا فيه، وقر قراري أن أقبل بما كتب لي، ولتكن آمونة لأخـي، ولأصبر على إرادة الرب وأكتم الأمر في صدري؛ تبجـيلا لخيار أبي، واحتراما لأخي الكبير، وعاهدت نفسي أن تكون آمونة حبي الأول وغرامي الأخير، فأنا لن ألامس امرأة بعد ذلك أبدا، ولم يغرم قلبي بأحد بعد هذه الغالية أبدا، ولتكن لي بمثابة الأخت العزيزة،وقد صارت زوجة لأخي. لكن بعد أن حدث ما حدث، وماتت وقد ألقت نفسها في السبخة الموحلـة لتفنى وتعدم، لم أتمالك نفسي، وفقدت أمري، بعد أن صـغر العالم في عيني، فخرجت من بلدتي؛ لأهيم في البراري، وقد كرهت الدنيا والحياة، وبقيت سادرا في سيري، لا أدري من أمري شيئًا كالملتاث دون طعام ولا شراب، وقد رأيت بـأم عيني ضواري السباع دون أن يطرف لي رمـش، وكنـت أدعو السماء أن يفترسني واحد من هذه السباع، أو يفتك بـي وحش من الوحوش، ولكن ا يريد ما يريد؛ إذ بقيت سـائرا حتى غبت عن الوعي وأوشكت علـى التلـف والضـياع، وتصادف أن عثر علي بعض من أبناء هذه البيعـة، ومـنهم ثاونا الذي كان قد خرج ليجمـع بعـض الأعشـاب التـي

يستخدمها في الرسم والتطبيب، فحملني معـه إلـى البيعـة وداواني، فلما أفقت شكرت الرب على تمـام نعمتـه علـي ووهبت نفسي لخدمة البيعة، ولم أغادرها قط، منذ ذلك الوقت حتى هذا الحين.

كان خوفي الأكبر هو العودة إلى الأراضي الموحلة مرة أخرى، فأنا أخشى ملاقاة أحد من أهلـي، خصوصـا أبـي وأمي، فلابد أنهم قد اكتشفوا أمري مع آمونة بعـد هلاكهـا، وفراري المفاجئ من البلدة، ثم إنه يشق على نفسي العـودة إلى موطن ذكرياتي المؤلمة، ويا خوفي لو غلبني الشـيطان فانهرت وأخذت في البكاء والعويل على محبـوبتي التالفـة، وحياتي الأولى الفانية. كانت دموع كثيرة تسقط مـن عينـي وأنا جالس بقلايتي أرقب انبلاج الفجر من الأفـق الأسـود الممتد عبر السماء أمامي بعد أن غاب القمر، وتلبدت السماء بغيوم لا تعهد في ذلك الوقت من بؤونة الحار، وكان النهـر هادئًا، ساكنًا، لا تنبعث منه بين الحين والحين غير أصـوات هادئة لبعض المخلوقات الكامنة في أعماقه، والتي يحلو لهـا عادة الخروج إلى أعلاه عند هذا الوقت المتأخر من الليـل، رحت أتخيل أن يراني بعض من أترابي الذين كانوا معي في

المكتب بالبلدة؛ حيث كنا ندرس ونحن صغار، أنهم سيأكلون وجهي ويعيرونني بما كان من أمري مع آمونة، وينعتـوني بالشؤم، خصوصا وأن ما حدث من خراب قد تم وقت عرس أخي العزيز وآمونة، وكان هؤلاء الأتراب في منتهى الفـرح والنشوة، مثل جميع أهل البلدة وأبناء أسرتي؛ إذ كنا نسير في موكبين كبيرين منفصلين بشوارع البلدة، العروس في موكب، والعريس في موكب آخر، ونحن نغني ونرقص على أنغـام الفرقة الموسيقية التي كنت قد جلبتها بمعرفـة واحـد مـن أصدقائي من مدينة أكسير نخوسي، بعد أن قـال لـي أنهـا أفضل وأشهر الفرق المعروفة بالبلاد. وما زال عقد عملهـا في عرس أخي محفوظًا بين أشيائي القليلة في القلاية؛ إذ إنه الأثر الوحيد الباقي لي من عالمي القديم في ترنيط، وقد كان داخل جيب جلبابي وقت خروجي منها، وأنا أنظره بين الحين والحين، كلما جاشت مشاعري بالحنين، وأخذني الشوق إلـى أهلي وأترابي وأتحسر على ما ضاع مني وافتقدته من الحياة هناك.

رحت أتذكر وأنا جالس في مطرحي ذلك العقد، وكيف أخذت وأنا أبرمه آنذاك، في مجادلة رئيس الفرقة الموسـيقية

أورليوس أونفريس بن آمونيوس الجريكي؛ ليخفض من أجر فرقته، حتى وافق على أن يحصل على أربعين زوجا من الأرغفة المصنوعة من البر والحلبة، وتسع جرار من النبيذ وأربعة أنصاف فضة لكل عازف من عازفيه الذين كانوا معه: تاسيوس وافونجنس بن هيراكليس وكوبروس وآرسينوي. وكنت قد جلبت هذه الفرقة الجميلة هدية عرس لأخي، على الرغم من آلامي وحزني؛ لأنه سيتزوج بمن تحبها روحي وتشتهيها نفسي وفقًا لمشيئة أبي الجسماني، لكني لم أنبس بكلمة لا، ولم أعترض على ما ارتآه ولم أبح بما في صدري من حب لآمونة؛ لأن الأب أب، والأخ أخ، وكلمة الوالد يجب أن تطاع وتنفذ، فحبست حزني في نفسي، ورحت أرقص مع الراقصين، وأغني مع المغنين، ونحن نسير في الشوارع مصطحبين أخي في موكبه حتى باب البيعة؛ ليلتقي بموكب العروس عند بابها، حتى ندخل جميعا ونعقد العرس وفقًا لمشيئة الرب وعملاً بقوانينه. وبينما نحن في غاية الفرح والبهجة، نتغنى مع أورليوس أو أونفريس ذي الصوت الصداح الشجي، بأغنية: "هو ذا الزمان طاب. فلنذق شهد الرضاب"؛ إذ أخذ قلبي في الانقباض، كلما اقتربت

اللحظة التي سوف نلج فيها جميعا من باب الكنيسـة؛ حيـث يرتبط العروسان برباط الزواج الأبدي المقـدس، وأخـذت دموعي تسيل وأنا أتمنى أن يحدث ما يمنع ذلـك؛ إذ كنـت رغما عني – وليسامحني الرب - لا أتصور أن تكون آمونة امرأة لغيري، وقد ظن كل من رآني وقتها أنني أبكي لفـرط فرحتي وانفعالي، وما إن وصلنا لباب البيعة حتـى اسـتقبلنا الشمامسة حاملين الشموع والأجراس مع الكهنة وهم يرتلون: "مبارك الآتي باسم الرب"، وكان موكبنا الذي هـو موكـب العريس قد وصل أولاً ليدخل الكنيسة، كما هـو مفـروض ومتبع في الأعراس، ثم إن الشمامسـة اقتـادوا أخـي إلـى الخورس الأمامي وهم يرتلون الألحان، وظلوا وقتًا يفعلـون انتظارا لوصول العروس واستقبالها عند الباب؛ حتى يبدءوا في ترديد لحن "السلام لك يا مريم" كما جرت العادة التي تتبع دائما في الأعراس، ويقتادوا العروس إلى مكانها في الموضع المخصص للنساء، وكان جميع الإكليروس لابسين الملابـس البيضاء الجميلة، وقد جهزت مستلزمات العرس المكونة من صليب ذهبي ومحبس الإصبع الذهبي، والمنطقـة والبخـور على صينية الفضة في الخورس الأمامي، وكان أخـي قـد

أعطى عباءة للبطرك كتقدمة بمناسبة العرس كما هو متبـع دائما.

فلما طال انتظار الجميع، وتعب الشمامسة مـن كثـرة ترديد الألحان، بدأ القلق يساور الحاضـرين بسـبب تـأخر موكب العروس، وأخذ الهمس يتعـالى والرقـاب تشـرئب بالرءوس وقد تركزت النظرات على باب البيعة؛ أمـلا فـي مطالعة العروس المتأخرة وموكبها، وما هي إلا لحظات حتى دخل من أعلى باب البيعة غراب أسود حائما، وقد بدا غريبا دخوله في مثل هذه اللحظات فتطير الناس، وسـارع القـيم بهشه وطرده، ثم أعقب ذلك صوت صراخ وعويـل، فهـب الجميع ينظرون الأمر، فإذا بواحد من الصارخين يقول بـأن العروس الجميلة قد غافلت أهلها وألقت بنفسها فـي السـبخة الواسعة ذات المياه الساحبة إلى الأسفل مما يلي آخر منـازل البلدة، فلم أتمالك نفسي عند سماعي ذلك؛ إذ شعرت وكـأن تنينًا مريعا، كذلك الذي صارعه القديس الشهيد مار جرجس، قد جثم على صدري، حتى كادت الأنفـاس تغيـب عنـي، ففغرت فمي محاولاً عب الهواء دون جدوى، وبت كالذي لا يملك من أمره أمرا، بلا حول ولا قوة، ثم إنه سـرعان مـا

أفلت زمامي، وقد تيقنت أنني على وشك أن يحمل حمـامي فراح جسدي ينتفض وأنا أصرخ مع الصارخين وأهرع مـع الهارعين إلى السبخة الموحلة المشئومة، فلما وصـلنا إلـى هناك وجدنا الحبيبة الغالية وقد استقرت إلى جانب المياه بعد أن أخرجوها منها، فلما نظرتها لم أتمالك نفسـي؛ إذ كانـت جسدا ممدا على الأرض بلا حياة؛ فصرخت بعزم ما فـي، وانهرت عند قدميها أبكي، وأنا أنظر جمالها وكان بعضهم قد أزال الأوحال عن وجهها وجيدها تلمسا لحياة أو نفس يكون فيها، فبدت أجمل مما كنت أظن، وقـد انسـدلت ضـفائرها السود الكثيرة على جيدها الأبيض، وكأنها غمام على رخام. فبكى الجميع مثلي عندما نظروها ولطم من لطم، وبقي أخي الأكبر عند رأسها يندب وينوح، وأنا مثله عن قدميها، حتـى لم يعد فينا ما نجود به من دمع، فراح الناس ينئون بنا عنها، ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا.

كانت تطوف بمخيلتي كل هذه الأحداث، بينما أنا جالس بصومعتي أفكر في خروج الغد إلـى الأراضـي الموحلـة، وأتساءل حائرا: كيف سيتسنى لـي مواجهـة مـا أخـاف مواجهته، وأهرب منه منذ سنوات؟. كيف سـيكون أمـري

وحالي إذا ما تعرف علي واحد من أولئك الذين كانوا معنـا في العرس؟. رحت أبكي وتمنيت أن يقبض الرب روحي قبل أن أعيش هذه الحال، وأن لا أعود إلى تـرنيط أبـدا، لكـن خوفي من أبي الروحاني في البيعة، الأب يوساب هو الـذي يدفعني إلى الذهاب؛ لأن طاعته واجبة، كما أني لم أعتـرف له أبدا بإثمي وخطيئتي مـع محبـوبتي الغاليـة آمونـة؛ إذ حرصت على أن أقول له كلما ذهبت للمناوبة والاعتـراف، بأنني هربت من بلدتي؛ بسبب سرقتي بعضا من جرار العسل من جار لنا، فلم اكتشف أمري، خفت من الفضيحة، وخجلت من مواجهة أبي، وهكذا كنت أكذب كل مرة في اعترافي لهذا الأب الطيب؛ لأنني كنت لا أجرؤ على الإفصاح عن خطيئتي ومأساتي الأولى في ترنيط حتى عندما شعرت أنه ارتاب في أمري مرة، وقال لي: هل هذه كل خطاياك؟. أمـن سـرقة بعض جرار من العسل تخشى العودة وتركت أهلك وذويك؟. هل قتلت؟. هل زنيت؟. فلما تلجلجت في الكـلام وأطرقـت برأسي، وكان شعوري بالندم والألم قد فاض، نظر إلي بشفقة وتحنان، ثم تلا كلمات الرب: "لا تضـطرب قلـوبكم. أنـتم تؤمنون با ، فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإنني

كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكانًا، وإن مضيت وأعددت لكم مكانًا آتي أيضا وآخذكم إلي؛ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا، وتعلمون حيث أنا ذاهب وتعلمون الطريق".

فبكيت وسالت دموعي عند سماعي ذلك، وقلت: لا.. لا يا أبي أنا لم أقتل، لكني سرقت، سرقت ما لم يكن لي.. وأنا نادم ما دمت حيا على ذلك، وها أنا الآن قد آمنت بأن عسل الرب أحلى وأشهى من عسل الحياة، فلتباركني يا أبي الجليل، وليرحمني الرب برحمته الواسعة.

وهكذا لم يقو لساني على الاعتراف وقول الحقيقة أبدا، فليغفر الغفور لي وليشملني بلطفه وكرمه.

غادرنا – أنا وثاونا – قصر الشمع ببابليون في اليـوم التالي، بعد صلاة باكر مباشرة وهي الصـلاة التـي تكـون الأولى من الصلوات السبع اليومية الآجبية وموعـدها فـي الفجر، وكنا قبل الصلاة قد تهيأنا للخروج فارتدينا عباءتينـا الصفراوين وقد خرج أكليروس البيعة جميعه لتوديعنا عنـد الباب الأخير المؤدي إلى الفسطاط، وكان على رأس مودعينا الأب الطيب يوساب، فغادرناهم جميعا والدموع تملأ مآقينـا ومآقيهم، بعد أن قبلنا يد الأب المباركة، وكرز علينا بعصـاه التي هي رمز المعمودية، ولن نركب ركائبنا إلى بعد إغلاقهم الباب خلفنا تأدبا وإجلالاً وكانت ركائبنا بغلين يـافعين مـن ثلاثة بغال جيدة، أحضرها للبيعة ذات مرة رجل مؤمن يدعى سراميتس من مدينة ليكوبوليس وقدمها هدية للأب يوسـاب بعدما أبرأ ابنا له، كان قد أصيب بمرض طال واشتد عليـه، فحمله الرجل إلى البيعة ليناوله المناولة الأخيرة، لكـن الأب يوساب أعطاه عقارا ومسحه بالزيت الفلسطيني وقرأ عليـه قرايات مقدسة، فبرئ الغلام لساعته وقام معافى ووقف على قدميه، ولم يكن مسموحا لنا باعتبارنا من القـبط أن نركـب الخيل، وكان هذا هو قانون الولاة المسلمين علينـا، منـذ أن

تملكوا بيعة مصر العتيقة وقصـر الشـمع زمـن الطمـث الهرطقي الخلقدوني قيرس المدعو مقوقس، وهكـذا خرجنـا على البغلين أنا وثاونا، حاملين معنا زاودة من السمك المملح والزيت والبتاو والمنين، وبعضا من التمـر، وجـرة نبيـذ، فاخترقنا الفسطاط خارجين إلى البساتين التي تليها، والفسطاط هو ما بناه المسلمون بعد دخولهم بابليون بمصر. وقد أخبرني ثاونا ونحن نعبر الفسطاط أنه قرأ في بعض الكتب أن دولـة الإسلام بدأت لما انتقل المر من المثلثة الهوائية التي هي برج الجوزاء إلى برج السرطان ومثلثته المائية، فصارت دولـة الإسلام عند تمام ستة آلاف وثلاثمائة وخمس وأربعين سـنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما من وقت القرآن الأول الواقع في بدء التحرك (يعني خلق آدم عليه السلام)، وأن القرآن وهـو كتاب المسلمين من هذه المثلثة وقف في أربع درجات ودقيقة واحدة من برج درجات ودقيقة واحدة من برج العقرب وهو قرآن الملة الإسلامية.

كما أخبرني أنه قرأ في ذلك الكتاب أن ابتـداء هجـرة رسولهم كانت يوم الخميس من أول الشهر المسـمى محـرم عندهم، وهذا مبتدأ تاريخهم وبين ذلك وبين الطوفان النوحي،

ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشـرة أشـهر واثنان وعشرون يوما.

لم أكن قد رأيت داخل الفسطاط من قبل فهالتني كثـرة خططه، وارتفاع منازله إلى أربعة وخمسة طوابق دون زينة أو استواء، وقد أخبرني ثاونا ونحن سـائران أن مـن هـذه المنازل ما يسكن فيه نحو مائتي فرد علما بأن الطبقة السفلى مما يلي الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلاً، ويقال أن رجلاً من المسلمين في الزمن الأول عند بناء الفسطاط، يسمى خارجة ابن حذافة، كان ينيبه القايد عمرو بن العاص، اتخـذ لـداره مشربة أو طنفًا، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى عمر أن خارجة ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حولـه ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها في الحـال. وكنا نسير داخل الفسطاط دون أن يعترضنا أحد، وقد رأينـا حمامها المسمى حمام الفار، وهو حمام صغير حقير إذا مـا قيس بحمامات الرومان القديمة، وقـد أخبرنـي ثاونـا، أن المسلمين الأوائل، كانوا أتقياء يميلون إلى الزهد والتقشـف، وأن مدينة الفسطاط بنيت بعد أن ضاق الحصن الذي استولى عليه المسلمون عقب دخولهم مصر، فوجد القايد عمرو أنـه

ليس من العدل إخراج أهل مصر من القـبط مـن ديـارهم المبنية حول الحصن، ليحل المسلمون محلهم، فتركهم وبنـى الفسطاط، الذي سرعان ما نما وصار مدينة ومركزا للحكـم والولاية بدلاً من الإسكندرية، كما كان معتادا فـي الزمـان الأول.

تركنا الفسطاط وجلّ البساتين التي هي تبعة البيعة حتى الآن، والتي كانت في الزمن القديم كما قال ثاونا، تمتد إلـى شاطئ النيل قبل أن يبنى المسجد المسمى بمسجد أهل الراية وسرنا بمحاذاة بركة الحبش، قاصدين الوصول إلى محـاذاة النهر، حتى ننحدر إلى شبرا، ومنها إلى الـبلاد الموصـلة للأراضي الموحلة. وكنت طوال الطريق أيمم نظري شطري المكان، فهالتني روعة هذه البركة الفسيحة، وقد تجلت روعة الخالق فيها؛ حيث نمت على أطرافها أشجار وارفة ظليلة من كل نوع وشكل، وكانت بينها أشجار مكللة بـورود زرقـاء وبنفسجية وحمراء، على نحو لم أره من قبل، كمـا رأيـت أطيارا عائمة في مياهها خلاف نوع الأوز والبط، على النحو الذي كنت أراه في أراضي البلاد البشمورية، وكان صـدح هذه الأطيار مع طير الشجر غاية في الروعة والحسن، كأنه

موسيقا ربانية تسحر القلوب، ويبدو أن ثاونا لاحظ انبهـاري وتباطئي في حثّ البغلة على المسير، فقال:

- علينا أن نجتاز هذا المكان بسرعة؛ إذ لا يصح بقاؤنا فيه كثيرا، فعلى أطراف هذه البركـة يعـيش أهـل اللهـو والخلاعة، ولا يسلم الأمر من قاطع طريق هنا أو هناك، ثم إنه يتوجب علينا أن نترك بر مصر قبل مغيب الشمس، لكننا سنتوقف قليلاً في حدائق شبرا؛ حتى نتزود ونسـد جوعنـا، لنواصل مسيرنا فندخل مدينة أتريب قبل حلول الظلام، فنبيت في ديرها حتى صباح الغد، لأننا لو دخلناها في الليل، قـد لا نسلم من بعض قطاع الطريق، أو عصابات الجوعى، التـي تخرج بين الحين والحين إلى الطريق طلبا للقوت بأية وسيلة.

وقبل أن نترك البحيرة ومنظرها الخلاب، تنهـد وهـو يعب بعينيه من مشاهدها الحسنة، وأضاف:

- تبا للفلاسفة والاستدلال. يا له من عـارف يعـرف بالمعرف. لم أعلق؛ إذ لم أفهم ما قصده ثاونا بـذلك الكـلام وسرنا بجد، حتى أوشكنا على الدخول إلى حدائق شبرا، وإذ ببعض من عسكر المسلمين الراكبين على الخيول يسـيرون ناحيتنا بسرعة، فنزلنا عن الركائب، بمجـرد أن رأينـاهم،

ويبدو أنهم كانوا من الأتقياء فلقد نزلوا عن خيولهم تأدبا واحتراما لما رأوا ملابسنا الكنسية، فقالوا لنا أشياء، وكنت لا أفطن للسانهم كما ينبغي فلم أفهم إلا بعضا مما قالوه، لكن ثاونا حياهم وقال لهم بكلامهم المكتوب، والذي أقرأه وأفهمه عندما يكون مكتوبا:

- نحن ذاهبون بأمر من أبينا الرئيس يوساب رئيس بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع، في مهمة خاصة في الأراضي الموحلة.

ما إن نطق ثاونا بـ "الأراضي الموحلة"، حتى بان الغضب على وجه مقدم العسكر، وبدا أنّه استراب فينا، لكن ثاونا، أسرع موضحا:

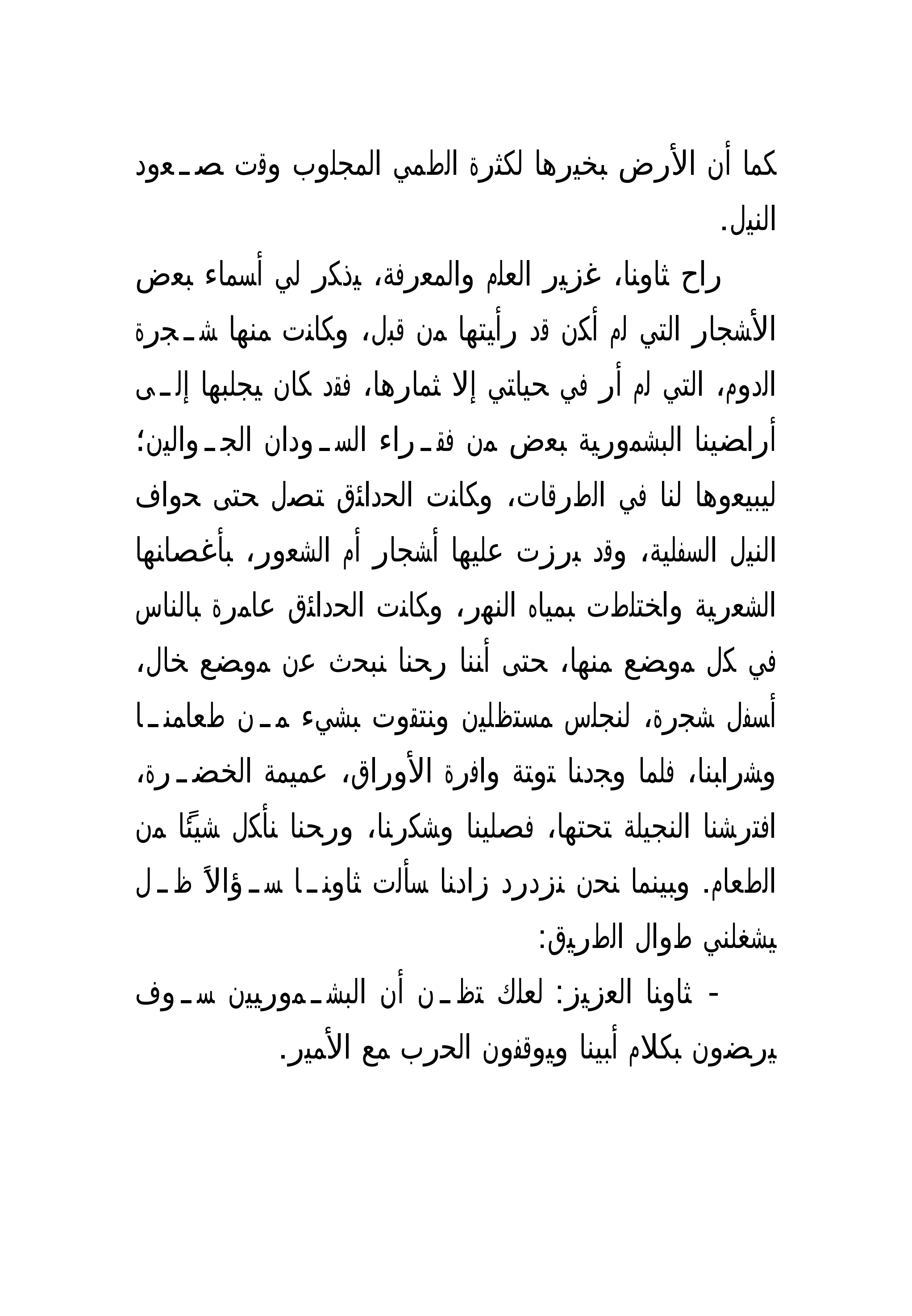
- معنا كتاب من متولّي الفسطاط بألا يعترضنا أحد منكم؛ لأننا ذاهبون في شأن يخص الوالي.

ثم إنه أخرج من جرابه لفيفة بردي، دفعها لمقدم العسكر، فلما فتحها الأخير، بان أنها مكتوبة بالقلم العربي، والقلم القبطي أيضا، فراح المقدم يقرؤها بعناية، وبعدما تأكد من صحة ختم الأمير الوالي عليها، طواها، ثم دفعها بأدب مرة أخرى إلى ثاونا، وقال:

- عليكم الإسراع في المغادرة؛ لأن بعضا من العامة قد تهيجوا في منية السيرج، وأخشى أن تلاقيا المتاعب؛ إذا كبسوا عليكما في الطريق؛ لأن أكثرهم من الغوغاء الصعاليك معدومي القوت والطعام.

ثم إنه أمر اثنين من جنده أن يرافقانا حتى نصل إلى حدائق شبرا.

شكرنا الجنديين وودعناهما عند وصولنا إلى حدائق شبرا، بعد أن أعطاهما ثاونا بعضا من المنين، وقدرا من التمر السكوتي الفاخر، كنا قد حملناه معنا من البيعة، وهو من ثمار عدة نخلات قديمة بالبيعة، ربما يعود زمن زراعتها إلى ما قبل إنشاء البيعة بسنين عدة ثم إننا دخلنا الحدائق، فبدت لي عظيمة الاتساع، بالغة العز بأشجارها وزراعاتها المتنوعة، وكأنه لا يوجد جنس زرع أو شجر في كل الدنيا، إلا وقد زرع أو غرس بأرضها، وبدا شجر النبق والجميز والسنط واللبخ والكافور والتوت، عظيما ضخما على غير المعتاد فالمياه المتسربة من النهر إلى الأرض في هذا الموضع غنية وفيرة، لا تترك الشجر في حاجة إلى شرب،



كما أن الأرض بخيرها لكثرة الطمي المجلوب وقت صـعود النيل.

راح ثاونا، غزير العلم والمعرفة، يذكر لي أسماء بعض الأشجار التي لم أكن قد رأيتها من قبل، وكانت منها شـجرة الدوم، التي لم أر في حياتي إلا ثمارها، فقد كان يجلبها إلـى أراضينا البشمورية بعض من فقـراء السـودان الجـوالين؛ ليبيعوها لنا في الطرقات، وكانت الحدائق تصل حتى حواف النيل السفلية، وقد برزت عليها أشجار أم الشعور، بأغصانها الشعرية واختلطت بمياه النهر، وكانت الحدائق عامرة بالناس في كل موضع منها، حتى أننا رحنا نبحث عن موضع خال، أسفل شجرة، لنجلس مستظلين ونتقوت بشيء مـن طعامنـا وشرابنا، فلما وجدنا توتة وافرة الأوراق، عميمة الخضـرة، افترشنا النجيلة تحتها، فصلينا وشكرنا، ورحنا نأكل شيئًا من الطعام. وبينما نحن نزدرد زادنا سألت ثاونـا سـؤالاً ظـل يشغلني طوال الطريق:

- ثاونا العزيز: لعلك تظـن أن البشـموريين سـوف يرضون بكلام أبينا ويوقفون الحرب مع الأمير.

نظر ثاونا إلي قليلا وهو يأكل، وبدا لي وكأنـه غيـر راغب في أن أغوص في مثل هذا الأمر. تردد قلـيلاً فـي الكلام، لكنه هم بذلك لولا أن امرأة جاءتنـا بوعـاءين مـن شراب السكر، وطمفور زلابية قدمتهم لنا بينما وجهت كلامها إلى ثاونا قائلة:

- هل يسمح أبي بتقبل هذا الشيء اليسير مني، ويبارك أطفالي الذين هناك؟.

ثم إنها أشارت بيدها إلى موضع شجرة حب العزيـز؛ حيث راح ثلاثة أطفال يجرون ويلعبون، فلما أومأ لها ثاونـا موافقًا، ذهبت، ثم عادت بالأطفال وكان جميعهم من الصبيان حسنى الصورة المفعمين بـالبراءة، فأخـذ ثاونـا يبـاركهم ويصلب عليهم ويرقيهم برقايا، ثم تلا: "بسبب هـذا أحنـي ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منـه تسـمى كـل عشيرة في السماوات وعلى الأرض، لكي يعطـيكم بحسـب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسـان البـاطن، ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسـيح

الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء ا ، والقادر يفعـل فوق كل شيء أكثر جدا مما نطلب ونفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا، له المجد في الكنيسة في المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين".

وبعد أن انتهى ثاونا من مباركة العيال وقراياته، دقـق في أوسطهم، ونظر في حدقته مليا، وكذا عمل في فمه، بعـد أن فتحه بيده، ونظر لثته، وكانت باهتة مبيضة، لا تشـوبها حمرة الدم، مثلما كانت حدقته على النحو ذاته، تصعب ثاونا وسأل المرأة:

- هل يأكل هذا الولد كثيرا؟

هتفت المرأة بدهشة، وقالت:

- أكثر مما يأكل أخواه مجتمعين يا سـيدي المبجـل، ولكن ليتك تبارك الأصغر، فهـو مصـاب بعلـة شـيطانية دوختني في علاجها، دون نتيجة، حتى يأست وخاب رجائي في برئه منها، ثم إنها رفعت جلباب الصبي، وأزاحت بعضا من سرواله وخاب الكتاني الخشن الساتر لعورته، حتى قرب نهاية فخذه، فبان على لحمه خراج متقيح جدا باحمرار مـن كل جانب، وقد تورم موضع الفخذ كله عند هذا المكان.

تأوه ثاونا لما رأى ذلك، فصاب وقال للمرأة بجد:

- تبا للشيطان أيتها المرأة الطيبة. هذا الخُراج خطـر بحق الرب، وقد يودي بالولد، إذا ما ظل على هذه الحال.

ثم إنه قام وهم إلى موضع البغلين، وأخرج من جـراب بغله، حقًا، فتحه بسرعة، وسألني أن آتيه بواحدة مـن أوراق التوت الطرية اليانعة، مكتملة النمو، فلما قطفت واحدة قدمتها له، وضع عليها بعضا من الدهن الذي بالحق، وقال للمرأة:

- عندما تعودين إلى دارك، اغسلي جيدا ذلك الموضـع من الفخذ بالماء الدافئ، واعصري ما بـالخراج مـن قـيح بخرقة كتان طاهرة، ثم ضعي من هذا الدهن عليه وعليك أن تغمسي خرقة الكتان جيدا في صحن مملوء بعرق البلح، وكذا عليك مسح أصابعك ويديك جيدا بعرق البلح؛ حتى لا يصيبك في يديك ما أصاب ولدك في فخذه. افعلي ذلك مـرة عنـدما يفيق ولدك في الصباح ومرة قبل نومه في الليـل، علـى أن تلفي موضع المرض بخرقة طاهرة مغموسة في عرق البلح كذلك.

ثم إنه التفت إلى الطفل الآخر، وقال:

- إن ولدك هذا مصاب بالدودة الشيطانية المسماة "بند"، وقد تمكنت منه واستقرت في جوفه، وهي تأكل مـا يأكلـه جميعه؛ لذا فهو مصفر هزيل، لذلك عليك إعطاؤه شرابا من صمغ السليخ ممزوجا بزهر النعناع الفلفلي مع الصاس الذي يسمونه – بلسان العرب – الآن الخروع، على أن يؤخذ قبل الترياق، بعد رجه جيدا في قارورة لمدة ثلاثة أيـام، حتـى تموت الدودة وتخرج من جوفه مع ما يخرج من فضـلات، وإذا تقيأ مرة، فلا تخافي، فهذا من الأمور المعتادة عند تناول مثل هذا الشراب، ومعناه أن الترياق قد بدأ يفني الدودة وهي في سبيلها إلى الموت والنزول، ولو شرب الشيح المغلي قبل النوم كل ليلة فسوف يأتي النفع سريعا، ويخلص الولد ممـا هو فيه.

صمتت المرأة قليلا، ثم قالت بعد تردد:

- ولكني يا سيدي أربط حجابا له داخل ملابسه، فهـل أتركه في موضعه مع ذلك، أم أزيله وأعمل الدواء لا غير؟.

رد ثاونا بتعجب:

- أي حجاب أيتها المرأة؟

قالت بتوجس:

- حجاب حافظ صنعه لي رجل مشهور بذلك في نواحينا، وقد أعطيته مقابله ثمن بر ونصفي فضة.

- أرني الحجاب، قال ثاونا.

مدت المرأة يدها، وأدخلتها تحت جلباب الصبي، ثم أخرجت لفيفة صغيرة كانت قد ربطتها بحبل من الصوف ولفّته حول بطنه، ليكون الحجاب على موضع السرة منه، فلما أخذ ثاونا اللفيفة، وكانت قطعة من القماش الكتاني الأبيض وقد خط عليها بالقلم الأحمر بكتابة قبطية، راح يقرأ ليسمعني: "أنا خرجت من مدينة آن شمس مع قسوس معبدها الكبير ومع أصحاب الحماية وملوك الأزلية والوقاية. أنا خرجت من صا الحجر مع المعبودات الأمهات اللاتي تراعينني بحمايتهن وتلقنني العزائم عن سيد جميع الأشياء بقدر ما توجد أبواب منها. هذا ومن جيدي هذا ومن ذراعي ومن لحمي هذا ومن أعضائي هذه؛ ولأجل أن يعاقبن سفلة الرؤساء الذين أدخلوا في لحمي هذا المرض وسحروا عظامي هذه، حتى أن الوجع دخل في لحمي هذا وفي رأسي هذا وفي ذراعي هاتين وفي جسمي وفي أعضائي هذه بحق شفقة رع القائل: أنا أحميه من أعدائه، وبحق مرشده هرمس

الذي يبلغه الكلام، ويبدع الكتب وعنه تأخذ العلماء والأطباء جميع المعارف فيستمدون منها ويحلون مشكل كل غامض أنا أحد الذين يحبهم المعبود ويجعلهم أحياء، فـالمعبود يحيينـي ويحفظ حياتي. هذا هو كتاب الشـفاء لكـل مـرض، فهـل لإيزيس أن تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أزوريس؟. فيا إيزيس أنت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ومن أمراض اللبسة والأمراض المقتلة والخبيثـة بأنواعهـا التي تعتريني كما خلصت وأنقذت ابنك حوريس.. فهـا قـد دخلت النار وخرجت من الماء، فهل من الممكن عدم وقوعي في الشرك هذا اليوم، بقولي – أنا صغير وجدير بالشفقة – يا رع أنت الذي قرأت هذه العزيمة على جسمك يا أوزوريـس أنت تعبد لإجلالك – يتلو رع لأجل جسمه ويعبد أزوريـس لإجلاله، هيا خلصاني من كل شـيء مكـدر أو رديء، أو شيطاني ومن أنواع الحميات الخبيثة والمقتلة".

سكت ثاونا دون أن يقول شيئًا، وبدا كمن يفكر في أمر من الأمور، ثم صلّب وقال:

- اسمعي أيتها المرأة الطيبة. هذه تعويذة قديمة، لا نفع منها في الشفاء من المرض، أنصحك ألا تضـعيها لولـدك، فالرب هو الحافظ وهو الشافي من كل علة، وعندما تعـودين إلى دارك احرقيها، أو ارميها بعيدا في أي مكان ولا تعودي لعمل مثل هذه التعاويذ أبدا عند أي ساحر أو خلافه.

ولكن ما إن قامت المـرأة مـن بـين يديـه وهمـت بالانصراف، حتى عاد يقول لها:

- على أية حال، إذا كنت تتوسلين بها إلى شفاء ولدك، وتظنين أنها ستجلب له النفع، أرجعيها إلى الموضـع الـذي كانت عنده كما كانت من قبل.

فرحت المرأة جدا لما قال ثاونـا ذلـك، وكـان الغـم والاسترابة قد ظهرا على وجهها قبل ذلك، فلما ذهبت قـال ثاونا:

- لقد قلت لها أن تحتفظ بالتعويذة؛ خوفًا من ألا تعطـي ولدها الدواء؛ فعوام الناس من العلمانيين وخصوصا النسـاء يعتقدون كثيرا في مثل هذه التعاويذ والأحجبة التي تعود إلى أزمنة الوثنية السحيقة، وما الأسماء التي في هذه اللفافـة إلا أسماء آلهة قديمة عبدت زمنًا على هذه الأرض.

كنت مشغولا بمعرفة الدهن الذي قدمه لعـلاج ولـدها الآخر، فانتهزت الفرصة وأنا أقول له:

- فليرحمهم الرب يا ثاونا، هؤلاء الناس الذين يخلطون الوثنية بالديانة الحقة دون قصـد؛ بسـبب ضـعف علمهـم وخضوعهم للهرطقات، لكن أليس الدهن الذي قدمته لها هـو الدهن الذي رأيت مثله كثيرا في نواحينـا البشـمورية فـي الماضي؟

رد ثاونا محاولاً إفهامي:

- لا.. يا بدير، إنه ليس دهن الحوت الذي تقصده، وإن كان يشبهه، لكنه دهن معمول من أوراق الصفصاف وأوراق الرجلة وعصارة الحلوة المرة والزعفـران وزلال البـيض وقليل من الأفيون. يسحق مجتمعه، ثم يضاف إليه بعض من النبيذ النقي، ويستخدم كما سمعتني أصف للمرأة منذ قليل.

هجست أقول له بما يدور في داخلي:

- لكن الولد ضعيف جدا وربما كان مبليا بعلة أخـرى غير دودة الشطيان. الرب أعلم.

لا أعرف لماذا داخلني وأنا جالس أنظر إلـى المـرأة وأطفالها أن هذا الطفل لابد أن يموت، ورحت أتفكـر فـي

موت الأطفال والرضع، وأنا الذي أشهد موتهم كثيرا، عندما يأتي أهاليهم بهم إلى البيعة للصلاة على أجسادهم قبل دفـنهم ويتوجب علي عندئذ عمل ما تتكلفه الجنازة، وأؤجـر علـى ذلك. كانت مسألة موت الأطفال تحيرني كثيرا فسألت ثاونا:

- أترى يا ثاونا أن ا يأخذ الأطفال كثيرا لأجل ذنوب والديهم.. أم لأمر آخر؟.

رد ثاونا قائلا:

- لا تظن يا ولدي ذلك. لكن ينظر ا جنس البشر، وقد عمل أكثرهم إرادة الشيطان باهتمام باطل، والجحيم عـامر، والنعيم الفردوس خال، فيأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيئـة إلى الفردوس موضع الرحمة.

عدت أسأله:

- ولماذا أخرج ا الشيطان من السماء مـن قبـل أن يخلق العالم والناس؟.

فأجابني وهو يتابع بنظره خنفسا قد حمل فتيتة خبز مما تساقط من أكلنا:

- يا ولدي، ومن أنا البائس الحقير عند هذا القول؛ حتى تسألني عنه.

لكني أكثرت عليه اللجاج والطلبة في السؤال، فقال لي: قال القديس غريغوريس الثاولوغس: "إن الشيطان كان منذ أن خلقه ا يسعى بأصحابه الملائكة إلى ا ، وكان ا يمهلـه ويصبر عليه، فلما خلق ا سماء جديدة، وأرضـا جديـدة، وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق فـي علـم ا أن الشيطان محب للكبرياء، فأمره أن ينظـر إلـى آدم وحسـن منظره، فأخذ معه العسكر الذي جعله مقدما عليه ومضى إلى حيث آدم، فلما نظره تعجب منه، وقال لأصحابه: أريـد أن أنصب لي كرسيا على السحب، وتكون الجبال العالية تحتي، وأكون مثل العلي، فيكون العالم كله في قبضتي وأملك عليه، ثم إنه صعد إلى السماء، فقال ا له: أأعجبـك مـا رأيـت ورضيت بالعالم المخلوق؟ لعلمه بضميره، ثم قال لـه: قـد جعلتك رئيسا عليه، وقال له: كل هذا لئلا يسقط من المجـد الذي كان فيه، وكان هو يحفظ الشر، وفكره فيه السوء، ثـم إنه بعد ذلك تأمل فقال: أنا أريد أن أعرف كيف اللاهـوت، لكي إذا نزلت أفعل ذلك ولا تبقى لي حاجة عند ا بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به، وأراد أن ينظر اللاهوت، فـدخل فـي وسط الملائكة بسرعة فأمر ا ربوة مـن قـوات الملائكـة

السمائية أن تحطه إلى الجحيم الأسفل في الظلمة البرانية هو وكل من معه، وهذا ما أظهره ا لإغريغوريس الثاولوغس، وهو الذي وضع لنا ذلك، والمجد إلى أبد الآبدين".

ثم إننا قمنا فسحبنا ركائبنا إلى حافة النهر، ونزلنا بها قليلاً حتى شربت وارتوت، وكنا أثناء الطريق نعلفها بـالفول المنياوي والحشائش فلما كفت عن الماء، أقلنا راجعين إلى الطريق وقد توكلنا على ا لندخل أتريب قبل حلول الظلام.

خيل لي ونحن نهم بدخول مدينة أتريب، أنني قد مررت على هذا المكان من قبل أثناء هيامي وتجوالي بعد هربي من بلدتي ترنيط، وقبل العثور علي هائما في البرية التالية لقصر الشمع من ناحية حلوان؛ إذ كانت صورة برباها الظاهرة على البعد من الأماكن التي أظن أنني رأيت مثلها من قبل، فلمـا صرنا عند أسوارها العالية وأبوابها العديدة التـي أحصـيتها عند وصولنا فكانت اثنى عشر بابا، دخلنا من بابهـا الكبيـر المسمى باب الخلق، فوجدناها مدينة عظيمة عامرة بالأسواق مليئة بالناس، وكان بها خليج تجري فيه مياه النيل تتفرع إلى ترع صغيرة، يحمل منها الماء إلى المساكن، أما بيوتها فبدت في عيني غاية في الحسن، خصوصا تلـك الواقعـة علـى شارعها الأكبر المتعامد على خط النيل، وكـان بـه منتـزه جميل، وكان هناك شارع أصغر عمـودي علـى شـارعها الأكبر ويشقها من جنوبها حتى شمالها.

قادنا بعض الطيبين – لما سألناهم – إلى المدير مباشرة، وكان يسمى دير العذراء على مسمى بيعتنا في قصر الشمع، وهالنا أن أبوابه لم تزل مفتوحة على الرغم من أن الوقـت كان حوالي درجتين قبل الزوال، فلما دخلنـا رأينـا أناسـا

كثيرين من الرجال والنساء يبيعون ويشترون، وبعضهم يأكل ويشرب، والأطفال يمرحون، وكان جل الناس من الفلاحين، وقد جلبوا معهم شراب السكر والجـلاب ومشـارد السـميذ، وقطع الخمير، والأطفال يشخللون بشخاليل الخوص، وهم في أثواب جديدة ولا يكفون عن النط والصياح والتهييص.

هتف ثاونا وقد أخذ بمشهد الناس غير المتوقع:

- فليرحمني الرب يا بدير، اليوم هـو العيـد السـنوي للبتول، فهو يقام في الحادي عشر من بؤونه.. إذن فقد وصلنا هنا يوم العيد.

رددت: آه. ثم تابعت مبهورا مشاهد العيد، وقد ذكرتني بمشاهد الأعياد التي طالما عشتها في بلدتي الحبيبة تـرنيط، وإن كان ملبس النساء هنا في أتريب أجمـل وأبهـى مـن جلاليب نساء تـرنيط؛ إذ إن معظمهـا قـد صـبغ بـألوان الأرجوان الزاهية، والزعفران الأصفر، وقل ما صبغ منهـا بالنيلة الزرقاء كما في ترنيط، كما أن نسيجها نـاعم رقيـق يشف ويرف على الجسد.

أخَذَنا قيم الدير إلى ناحية مقر الأسقف، فاستقبلنا بحفاوة وكرم، وقد عرفه ثاونا بنا، وبأسباب مجيئنا، فراح يسأل عن

الأحوال في مصر العتيقة وفي بيعتنا، فأخذ ثاونا يفضـفض عما يعتريه من قلق، ويقول:

- نحن لفي كرب طوال الوقت، فالوالي يضيق علينـا بالخراج، مثلما هو حادث في كل مكان، وعينه على بسـاتين البيعة ومعاصرها، وهو يرسل بين الحين والحين من يحصي القائمين عليها والعاملين في أرضها وزرعها، وليشم كل من يجده هناك، ومن يكون غير موشوم بعـد بعلامـة الأسـد، ليتعرض لمشقة عظيمة، وأنت تعلم أن ذلك كان قد سـرى، منذ سنة ٤٢٢ شهداء، على الفلاحين القرارية بغرض حصر الضرائب، لكن ذلك صار يسرى علينا الآن نحن أهل البيـع والأديرة، والتشديد في مصر العتيقة على ذلك أكثر مـن أي موضع آخر في البلاد؛ بسبب أنه صار في بساتيننا من القبط والمسلمين من يعمل بالفلاحة، وكذا بالمعصرة، فلزم تمييـز هؤلاء عن تلكم. أما في الفسطاط فالجند يثورون بين الحـين والحين بسبب انقطاع الرواتب، وبعضهم صار يعمل لدينا في البساتين سرا حتى يجد ما يتقوت به، وقد عطفنا عليه، وأثناء قدومنا إلى هنا في أتريب، قال لنا مقدم حراس الطرق الـذي

التقيناه أن الناس قد خرجت تطالب بالطعام في منية السيرج من نواحي شبرا.

تمتم الأسقف مؤمنًا على كلام ثاونا، وقال:

- ليرحما الرب جميعنا. القلاقل في كل مكان. وأنا خوفي يتزايد على هذا الدير يوما بعد يوم، خصوصا بعد حلول قبيلة كبيرة من قبائل العرب، ورسوها عند مشارف البلدة من ناحية الحصراء؛ فهي لا تفتأ تغير على زراعتنا وعلى الفلاحين؛ فتنهب الزرع وتفسد الأرض، بل إن الأمر وصل ببعض منها إلى حد خطف البنات والأولاد من الأهالي ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا، وقد سألنا الوالي أن يحمينا من الإغارات عدة مرات، دون جدوى، والآن الخوف كله، أن يدخلوا علينا الدير ذات مرة وينهبوه، وهذا الدير إن ضاع ضاعت معه المدينة واندثرت؛ لأن معظم أهلها من المشتغلين في أراضيه ومعامله، خصوصا معمل نسج الكتان، ومعمل الزجاج، فلدينا زجاج يضارع أفضل أنواع الزجاج المعمول في دير الزجاج الواقع ببرية هبيب قرب مريوط، وأنا أتضرع للرب ألا يحدث ذلك، خصوصا وأن كثيرا من

الأهالي قد تركوا بيوتهم، وذهبـوا للالتحـاق بالبشـموري كمحاربين في جيشه بالأراضي الموحلة.

صلّينا جميعا طالبين رحمة الرحيم، ثم إن قيم الدير قادنا إلى موقع قلاية لنستريح فيها قليلا حتى يحين المساء.

لبثنا في القلاية وقتًا، وسرعان ما حـل المسـاء فقمنـا وشاركنا الرهبان الصلاة ثم تلونا بعض الساذوكيات، وفـي الآخر تعشينا عشاء ربانيا خفيفًا، وكانت ساحة الدير لا تزال عامرة بالناس الذين أخذوا يوقدون الوقايد والشموع لحلـول الليل، أما خارج أسوار الدير فقد كان هناك لغط عظـيم؛ إذ تخالطت أصوات الغناء مع دقات الطبول والمزاميـر، وراح الراقصون يشطحون في حلقات عديدة، ضمت رجالاً ونساء على السواء، وقد بدوا جميعا في حالة من النشوة الغامرة.

زفر ثاونا بضيق وهو يحادث الأسقف محتجا على كـل ذلك اللهو داخل ساحة الدير وخلف أسواره، خصوصـا وأن ذلك لم ينقطع حتى أثناء إنشادنا المزامير وصلواتنا وتقديسنا، وكنا قد جلسنا معه بعد تناول العشاء، فقال الأسقف أنه حاول منع الناس مرارا من فعل ذلك دون جـدوى، وهـو يخـاف التشديد عليهم حتى لا ينفروا من الدين وأهله من الرهبـان،

خصوصا أن معظمهم كان في الوثنية حتى عهد قريب، ولـم يدخل حظيرة الإيمان إلا مؤخرا، بعد ذلك وأثنـاء توجهنـا لقلايتنا حكى لي ثاونا أن الأب شنودة رئيس الدير الأبـيض المتنيح منذ زمن بعيد قال ناهيا عن فعل العامة في الموالـد والأعياد: "جميل جدا أن يذهب الإنسان إلـى مقـر الشـهيد ليصلي ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسـه ويتنـاول مـن الأسرار المقدسة في مخافة المسيح، أما من يـذهب ليـتكلم ويأكل ويشرب ويلهو أو بالحري ليزني ويرتكـب الجـرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغي والفساد والإثم، فهذا هـو الكافر بعينه. وبينما البعض في الداخل يرتلـون المزاميـر ويقرؤون ويتناولون الأسرار المقدسة إذا بآخرين في الخارج يملئون المكان بآلات الطبل والزمر.

بيتي بيت صلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. لقد جعلتموه سوقًا لبيع العسل والحلي وما شابه ذلـك. لقـد جعلتم الموالد فرصة لتـدريب بهـائمكم ولسـباق حميـركم وخيلكم. جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع. فبـائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشـاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير أتعابه. حتى الأشـياء

التي لا يمكن أن تحدث للباعة في الأسواق العامة، تحدث لهم في موالد الشهداء.. يا للغباء؟. يا لعقولكم المغلقة؟. وإذ كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويـتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مـواطن الشهداء، فلماذا جعلتم لكم بيوتًا؟. هناك كثيرون يذهبون إلـى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا مـن أعضـاء المسـيح أعضاء للإثم والفُجر، بدلاً مـن أن يحفظـوا لهـا قداسـتها وطهارتها من كل رجس. دعوني أقول لكم بصراحة تامة أن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذرا قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء، فرصة لتدمير أجسادكم في المقابر التي حولها أو المبـاني القريبـة منها أو في أركانها".

هتف ثاونا متعجبا:

كان الأب المقدس شنودة حاضر بيننا، يشهد بعينه مـا يحدث هنا في هذا المولد الآن، وهو ما يجري مثله في كـل الموالد الأخرى بالبلاد فما أظن، فأنا أذكر من أيـامي فـي ترنيط أن وقت خروجنا إلى الموالد، كان من أبهج الأوقات،

ونحن كنا نقيم مولد القسيس استيفانوس في بشنس من كل عام، ونفعل فيه فعل هؤلاء الناس هنا في دير أتريب. يا أ !.

ولم أفض لثاولنا بما فاضت به مشاعري وأنا أقول ذلك، فلقد أخذتني الذكرى، وعصفت بروحي؛ إذ إن ولعي بالغالية آمونة بدأ عند ذلك الوقت الربيعي الجميل، كنت أنا وكذلك هي في مقتبل اليفاعة والصبا، فوقعت عيني عليها لأول مرة، وقد خرجت مع أخواتها وأمها، وهي ترتدي ثوبا من الكتان الأبيض الخفيف الموشى بخيوط من الحرائر المذهبة، فبدت لي أجمل من بسنتة الماء اليانعة، وأروع من زهرة الرمان المتوجهة، لم أتمالك نفسي لمرآها واشتهاها قلبي الآثم، وضعفت روحي، تحت وطأة رغبتي فيها، فرحت أتقرب منها وقت أن بدأ الرقص، وأخذت أهمس في أذنيها بأجمل كلمات الوجد، حتى سرت عدوى روحي في روحها، فأخذتها وابتعدنا عن حلقات الراقصين، وزحام الناس في المولد، وجرينا باتجاه الحقول فدخلنا دورة من دورات الفلاحين الطينية المعمولة في الغطيان للاستفاءة وقت القيظ، ورحنا نتهامس وأنا أقول لها: يا أجمل بسنتة على مياه النهر، يا

وردة البلاد الجميلة، يا رمانة الشتاء وبرتقالة الصيف، أمـا هي فقد همست لي بأجمل كلمات الحب وشـعرت أن قلبهـا فاض بما فيه وكأنه فيضان النيل إذ يجيء فجأة كل عام، وأن قلبها بات مثل قلبي ريشة لا تملك أمرها وقد طوحها النسيم.

ولم نتمالك أمرنا، فأخذتنا جاذبية الأجساد، وتملكنا جنون الأرواح إلى الحد الذي أقسمنا عنده على الحب والمودة مـا بقينا، وأعلنت لها أنني سأطلب من أبي أن يزوجها لي بعـد موسم الحصاد، لكن القدر كان أسبق، فكان من أمري وأمرها ما كان.

أظن أنني سرحت بعيدا بأفكاري، وأنا أستعيد كل ذلك؛ إذ لم أنتبه إلا لنهاية كلام ثاونا، وهو يقول:

- ثم إن الأب شنودة مات سنة ٤٥١ بتواريخ الروم بعد رياسة دامت ٦٦ عاما للدير. وهذا معناه أن كثيرا من الناس لم يتخلوا عن عادات الوثنية الأولى حتى الآن. يا رب ارحم: كيراليسون.

نمت نوما متقطعا في القلاية طوال الليل، فقـد كانـت الحرارة شديدة خلافًا لما هي عليه عادة في هذا الوقت مـن السنة وقد ترطب الهواء ترطبا شديدا ببخر النيل، على رغم

أننا لم نبلغ شهر مسرى بعد، وكانـت أصـوات الطـاربين والراقصين خارج الدير مع طبلهم وزمرهم لا تتـيح مجـالاً للنعاس والنوم، إضافة إلى هائمات الريـف مـن النـاموس والطائرات المتغذية على أخضر الأرض، وقد سهرت تطـن طوال الليل، وما إن قارب الفجر على الانبلاج، وبينما كـان النوم يأخذني حينًا والصحو حينًا آخر، إذ سـمعت أصـوات صراخ وهرج في الدير، فخرجت من القلاية مع ثاونا سريعا لنستجلي الأمر، وكان قد هب مفزوعا عند سـماعه ذلـك. تتبعنا مصدر الأصوات في الظلام، حتى وصلنا إلى الجنـاح الخاص بقلايات الرهبان عند الطرف الآخـر مـن الفنـاء المواجه لقلايتنا، فوجدناهم قد تجمعوا حول راهب بينهم،وقد أخذوا في ضربه وركله، بينما هو يصرخ ويسـتغيث، ثـم سحبوه واقتادوه إلى قلاية الأب الأسقف سرابيون رئيس الدير ونحن معهم، فأمرهم أن يكفوا عن ضربه ويتركوه ليـتمكن من استجلاء الأمر، وما إن كفوا عن ضربه وتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر وهدءوا قليلا حتى تقدم راهب، كنـا قـد تعرفنا عليه أثناء العشاء واسمه نركيصوص، حاملا لفـائف أوراقًا بردية خاصة بالراهب المضـروب، وكـان بعـض

الرهبان قد أشعلوا خلال ذلك وقيدة ليستضيء بها الجميع، وقال نركيصوص أنه لما فتح تلك الأوراق، وجد بها هرطقات ودسا على يسوع والكنيسة، فأمر الأب سرابيون بإحضار المزيد من المشاعل والشموع، فلما أحضروها، أمر الراهب المضروب أن يتلو على الجميع، والذين كانوا بقمصان النوم الخفيفة ما بها، بعد أن استفهم عن ملكية الراهب لهذه الأوراق، فلما قرأ ما بها، اتضح أنه فسر كلاما من الكتب العبرانية على غير وجهته، وأخفى ما فيها من نبوءات الأنبياء عن السيد المسيح، حتى أنه لما جاء إلى ذكر الشجرة التي كان فيها كبش إبراهيم الخليل مربوطًا بقرنيه، وفسر الآباء أنها مثال خشبة الصليب، أخفى ذكرها وأزاله، واتضح أيضا من قرايته أنه فسر كتبا كثيرة كذبا، كما أن له أقوالاً مخالفة كلها شقاق، مثل قوله: إن السيد المسيح مولود من مريم ويوسف، وأنكر قوة الولادة العجيبة، وأن السيد المولود بلا تعب، هكذا ولد من العذراء بلا تعب، هو الإله وهو الإنسان بالحقيقة وهو واحد من اثنين، وخالف الإنجيل الصادق كما شهد متّى، وما قال في الولادة ولا تقدر أبواب الجحيم أن تقاومها، واتضح من قرايته للفائفه المكتوبة بخط

يده الآثمة، إنه قرأ كتب الصابئة والمعتزلة، وكان يتلو ذلـك دون أن يعتذر أو يستغفر، بينما نحن جميعا نصاب ونستغفر ولا تكف أفواهنا عن قول: حاشا . وكان الأب سـرابيون صابرا عليه، وعلى سماع قوله الطمث حتى يستجلي الأمـر منه كله مرة واحدة، ثم إن الأب سأل نركيصوص عن كيفية وقوع أوراق الملعون فلاأس – وهذا كان اسمه – في يـده، فقال نركيصوص إن فلاأس دفعها إليه بعـد صـلاة الليـل ليقرأها، وأنه كان قد تجادل معه في الصباح، فقال الملعـون له، إنه يعتقد بأقوال الألعن منه آرابيا، وخصوصا مقالته بأن النفس تموت مع الجسد، وتقوم معه في يوم القيامة، فصـلّب الرهبان جميعا بعد أن قال الأب سرابيون: إن هـذه مقالـة مفسودة أبعدتها البيعة المقدسة بعد انعقاد مجمع للنظر فيهـا، ثم إنه آمن بأن الابن مخلوق والروح القدس، فمـا إن بلـغ نركيصوص هذا الحد من أقواله حتى أمره الأب سـرابيون بالسكوت، ثم إنه سأل فلاأس عن اعتقاده في هذه الهرطقات، فلم يرد ولم يستغفر، وعند هذا الحد، أمر الأب سرابيون أن يجر الملعون إلى سرداب مظلـم بالـدير، وأن يمنـع عنـه الطعام، وألا يعطي إلا شربتي ماء كل يوم حتى يتوب، ثـم

إنه أمر بإحراق هذه البرديات الطمث وأن تفتش قلاية فلاأس جيدا ويخرج كل من فيها، وأن تطهر بطهورات كثيرة حتى تخرج ما بها من شياطين وأن تُقرأ بها المزامير عند صباح غد، بعد فعل ذلك.

فأخذ الرهبان فلاأس وظلوا يضربونه حتى سح دمـه، وتمزقت ملابسه، وبان لحمه، فلما نظروا عورتـه، وجـدوا قلفته كما هي، وظهر لهم أنه غير مختتن، فاكتملت فضيحته وتأكدت نجاسته، وتيقن الكل من أنه ليس مسيحيا تاوضوسيا حقًا.

وهكذا عدنا إلى قلايتنا جميعا لنلبث بها، حتـى وقـت صلاة باكر عند الفجر.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ التحاقي بالبيعة، التـي أرى فيها إنسانًا هرطقيا بعيني، وأسمعه بأذني؛ لـذا كنـت مضطربا جدا، وزاد اضطرابي ما رأيته من ضرب وبهدلـة له، وهو لا يقوى حتى على رفع رأسه والنظر إلى أحد لشدة حنق الجميع عليه وكراهيتهم له، فما إن دخلت القلاية حتـى ارتميت على فراشي وطلبت من ثاونا - بكل أدب ورجاء – أن يعطيني شربة ماء من القلة الموضـوعة بجانـب كـوة

القلاية، فلما شربت واستعدت نفسي قليلا، قلت لثاونا وكنـت في غاية الانفعال:

- أنا حتى الآن لا أكاد أصدق كل ذلك الـذي رأيتـه، كيف يجرؤ بربك واحد كافر كهذا الفلاأس أن يخفـي أمـره ويدلس بالعقيدة على إخوانه في الدير؟!.

ما طينته بحق الرب، وا أظن أنها من طينة الشياطين يا أخي!. تنهد ثاونا وقال بعد أن تناول القلة مني وشرب:

- الشياطين ليسوا من طين يا بدير، إنهـم مـن نـار، وربما كان فلاأس هذا ملكانيا، وقد ثبتـت حقيقتـه بمسـألة الختان، فقد يكون اندس في الدير لسبب من الأسباب. ربمـا جاء ليتعرف على أحوال كنيستنا الديرانية، فهو لا يمكـن أن يكون يعقوبيا مثلنا، فنحن أشد تحفظًا في ديننـا ومسـكون بنظام الديانة أكثر من الملكية، ومسألة الختان هي من مسائل الخاف بيننا وبينهم في الفروع، فنحن القبط متبعون آثار أبينا إبراهيم في الختان الذي أمره ا تعالى به؛ حيث قـال لـه: "أكل نفس لا تفعل هذا تفرز تلك النفس من شعبها" وأطـاع إبراهيم من شخيوخته ا واختتن، والقبط يتبعون ناموس ا في ذلك هنا في العتيقة. والسيد المسيح له المجـد صـاحب

الشريعة الجديدة دخل بيت الختان واختتن، وإلا فمـا كـان اليهود يجدون عليه في صلبه علة أكثر من أنه غير مختون، ولولا أكمل سنّة التوراة في الختان ما كتب اليهود اسمه فـي منظره الكهنة ليخدم في الهيكل، كما شهد إنجيل لوقـا أنهـم دفعوا له السفر ليقرأ وكان الفصل الذي قرأه: "روح الـرب علي، لهذا أرسلني أبشر العميان بالنظر والمأسورين بالتخلية وأبشر بالسنة المقبولة للرب".

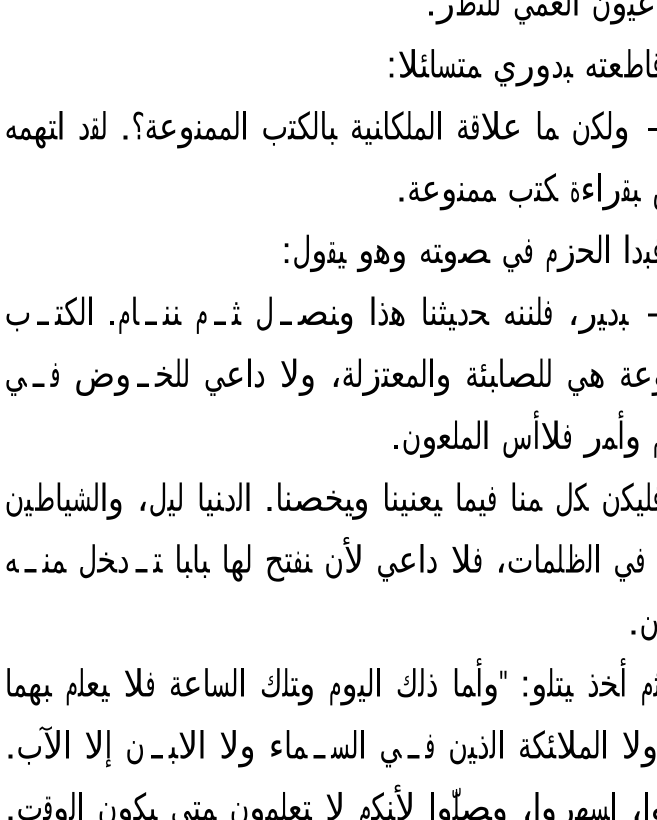
- آه. قلت. ثم واصلت قولي:

- كنت أظن أن الفرق بين القبط والملكية هو في أصل واحد فقط وهو الاتحاد.

قاطعني ثاونا موضحا:

- لا.. لا يا بدير. فنحن مختلفون في ثلاثة عشر فرعا غير الأصل، ومتفقون في الثلاثة الأقانيم ووحدانية الجوهر. فنحن الذين على مذهب يعقوب، نعتقد أن المسيح له طبيعـة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة من مشيئتين وأقنوم واحـد من أقنومين؛ لأن أقنوم الابن الوحيد الكلمة له المجد لما شاء اتحاده بطبيعة البشر أخذ من الظهر المريمي ناسوتا كاملاً ذا نفس عاقلة وجعله واحدا مع لاهوته من غيـر اخـتلاط ولا

امتزاج ولا استحالة ولا تغيير، فصارت الناسوت المأخوذ من الظهر المريمي مع كثافته بهذا الاتحاد الذي يفوق العقول البشرية من الابن الأزلي قبل كل الدهور، واحدا في فعله الإلهي من إشفاء المرضى وإقامة الموتى وتطهير البرص



وفتح عيون العمي للنظر.

قاطعته بدوري متسائلا:

- ولكن ما علاقة الملكانية بالكتب الممنوعة؟. لقد اتهمه فلاأس بقراءة كتب ممنوعة.

فبدا الحزم في صوته وهو يقول:

- بدير، فلننه حديثنا هذا ونصل ثم ننام. الكتب الممنوعة هي للصابئة والمعتزلة، ولا داعي للخوض في أمرهم وأمر فلاأس الملعون.

فليكن كل منا فيما يعنينا ويخصنا. الدنيا ليل، والشياطين تسعى في الظلمات، فلا داعي لأن نفتح لها بابا تدخل منه وتهيمن.

ثم أخذ يتلو: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب. انظروا، اسهروا، وصلّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت.

كأنما إنسان مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان، ولكل واحد عمله، وأوصى البواب أن يسهر. اسهروا إذًا لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت، أمساء أم نصف الليل، أم صياح الديك، أم صباحا لئلا يأتي بغتة فيجدكم نياما، وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا".

غادرنا الدير بعد الصلاة مباشرة، والشمس عروس مزهزهة في سمائها، فتركنا أتريب لنواصل رحلتنا إلى الأراضي الموحلة دون أن ننتظر لنقف على ما كان من أمر الملعون فلاأس، وكان الرهبان قد زودونا بزوادة من عسل أتريب المشهور بجودته وحلاوته، وقدرته على شفاء الأمراض؛ لأن النحل العامل للعسل أكثر غذائه على زهر البلسان الذي يقال أنه يكثر وينمو جيدا في هذه النواحي منذ الزمن البعيد، وكذا قدموا لنا جرة صغيرة من السمن المصنوع من أجود أنواع حليب الجاموس المنتشر بقرى المدينة، والذي أكثر مرعاه من الحشائش الطرية المنتشرة فيما بين النيل وبرية المدينة، وكان من عادة أهل القرى في هذه النواحي، كما قيل لنا، أنهم يتركون هذا الجاموس يرعى طيلة الوقت في أحشاش البرية دون خوف وكأنه يرعى في

الحقول، على أن يجمع للحلب والمبيت أواخر النهـار. وقـد علمنا كذلك أن العديد من أراضي قرى أتريب هـي تبعيـة ديرها؛ لهذا فهذا الدير يعد من أعظم وأغنـى الأديـرة فـي البلاد، وقد شاهدنا الفلاحين وهم منصرفون إلى أعمالهم في الغيطان، فكانوا كلما مررنا بالقرب من بعضـهم يرفعـون رؤوسهم ويحيوننا باحترام وإجلال، أو يسألوننا أن نباركهم. كما قدم لنا بعضهم جميزا وتوتًا وغيرهما مما كان يجمع من ثمار وقتئذ.

هكذا رحنا نجتاز القرى حتى وصلنا إلى البرية، وبقينا سائرين، حتى وجدنا نفسينا أمام عمارة مهيبة شامخة، قـال لي ثاونا: إنها برية أتريب القديمة.

بقيت وقتًا واقفًا أمام بربة أتريب، مأخوذًا بمشهدها العظيم، وقد رأيت عمارتها قائمة على عمد طوال ضخام من الحجر الأسواني الأسود، المكلل بتيجان حفرت على شكل زهرة البسنت التي لم تتفتح أوراقها بعد، وقد بدت لي هذه التيجان وكأنها تيجان أعمدة بيعتنا التي تركناها في قصر الشمع بمصر العتيقة. سألت ثاونا أن ندخل قليلا لنشاهد هذه البربا من الداخل؛ لأن البرابي القديمة العظام قلما كانت توجد في أراضينا البشمورية، ربما كان ذلك بسبب كثرة الماء والغمر في مجمل هذه الأراضي؛ مما يعرض العمائر مهما كانت عظمتها للتلف. وكنت مدفوعا برغبة الولوج ومشاهدة ما بداخلها؛ ربما لأن هذه المرة كانت الأولى في عمري التي تسنى لي فيها رؤية بربة كهذه من برابي الكَفَرة ومشاهدتها عن قرب. بدا ثاونا مترددا قليلاً، لكنه سرعان ما تحمس للدخول، وكأن هاتفًا قد هتف به أن يفعل. نزلنا عن ركائبنا، ودخلنا مجتازين العتبات الحجرية العالية، وما إن انتهينا، حتى وجدنا نفسينا داخل بهو فسيح ممتد، وقد خرجت جوانب من حوائطه وعمدِه، أمام ما تبقى منها، فهو مزين منقوش بالنقوشات البديعية التي لم تقع عيني على جمال مثلها قط؛ إذ

حفلت بتصاوير وأشكال، غاية في الذوق والتناسق. أخذ ثاونا يصلب وهو يتأمل النقوش. قلت له:

- يا أ !. بربا عظيمة يا ثاونا!. يبدو أنها كانـت ذات شأن في زمنها القديم، وربما بناها واحد من ملوك العمـاليق الأقدمين؟!.

لم يرد ثاونا؛ إذ كـان منهمكًـا فـي تأمـل النقـوش والتصاوير المحفورة على بقايا الحوائط، وبعد ذلك قال لـي أنها كتابات سجلت بالقلم العتيق.

لا أدري، لماذا خيل لي أن ثاونا يقرأ جيدا ويفهم ما هو موجود على هذه الحوائط، فلقد نظرت إليه وراقبتـه خلسـة أكثر من مرة أثناء تجوالي وتفقدي إلى البهو، فخيل إلي أنـه يحرك شفتيه حركة القارئ للكتابات، وهو يصلب بين الحين والحين.

قلت له لأخرجه من تأملاته، ولأجاذبه بعضا من حديث:

- أترى هذه العمد العظام يا ثاونا؟. أليست أخت أعمدة قاعة الصلاة الجامعة في بيعتنا المحروسة بقصر الشـمع؟!. وكأن من عمل تلك، هو من أبدع هذه التـي نقـف أمامهـا ونراها الآن!.

تتنهد ثاونا، ورد:

- في بيعتنا فقط؟! قل في كل البيع والمساجد، ألم تـر أعمدة المسجد الجامع في فسطاط المسلمين؟. إن عمارة بيـع القبط، وعمارة مساجد المسلمين، ما كان لها أن تكون علـى ما هي عليه من العظمة والجلال، لولا هذا البرابي يا بـدير؛ لأن العمد العظام، والأحجار الجيدة من الجرانيت والبازلـت وخلافه، والتي شيدت بها البيع والمساجد، إنما جيء بها من عمارة هذا البرابي، وخصوصا برابي منف وعـين شـمس وأتريب لقربها من بابليون وقصر الشمع وفسطاط المسلمين، أما في مصر العليا فقد تحولت برابي بكاملها إلـى كنـائس وجوامع، ولم يسلم منها إلا ما كان بعيدا عن الأعين، عزيزا على الأيدي، واقعا خارج القرى والبلدان، ولقد ظلـت هـذه البرابي لزمن ملاذًا ومقرا لكثير من المـؤمنين المسـيحيين الفارين من اضطهاد الروم والوثنيين وملوكهم، وفـي بريـة إدفو دلائل تدل على دخول المسيحيين إليها والعـيش تحـت أسقف قاعاتها المسربلة بسخام الشموع والوقايد والأسـرجة التي كان يستضيء بها هؤلاء الأتقياء أثناء قراءتهم المزامير وتأديتهم الثاذوكيات.

سكت قليلا وهو يشخص ببصره بعيدا، ثم واصل كلامه:

- لكن هذه البربة لن تستمر على حالها وتسلم من الأذى؛ إذ سرعان ما ستختفي مثلما اختفت من قبل بربة عين شمس، وهي المدينة التي كانت تسمى قديما "أون"، وهذه البربة كانت في الأصل هيكلاً يحج إليه الناس ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل التي كانت في قديم الدهر، ويقال أن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن هرمس الأول المتكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجد ا فيها.

ويقال أن هياكل هذه البربا، كانت عدتها في الزمن الغابر اثنى عشر هيكلاً وهي هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة وهيكل النفس، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشترى وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضا مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن.

وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: "لما كان صانع العالم مقدسا عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلالـه، ويتعين أن يتقـرب إليـه عبـاده بـالمقربين لديـه، وهـم الروحانيون، ليشفعوا لهم ويكونوا وسايط لهم عنده".

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنهـا المـدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، وهي هياكلها، وأنه لابد لكل روحاني من هيكل، ولابد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحاني إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لابد من رؤية المتوسط بين العبـاد وبـين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيـام والليـالي والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو في موضعه من العلم الرياضي.

وسموا هذه السبعة السيارة أربابا وآلهة، وسموا الشمس إلهة الآلهة ورب الأرباب، وزعموا أنها المفيضة على ألسنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون إلى الهياكـل تقربا على الروحانيين لتقربهم إلى الباري لزعمهم أن الهياكل

أبدان الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يصلون لكل كوكب يوما يزعمون أنه رب ذلـك اليوم، وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات: الأولى عند طلـوع الشمس، والثانية عند استوائها فـي الفلـك، والثالثـة عنـد غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشترى يوم الأحـد، وللمريخ وللقمر يوم الجمعة.

طفنا بالبربا قليلاً، كانت تماثيل عظيمة الحجـم، دقيقـة الصنعة، ملقاة هنا وهناك، وقد تهشمت أجزاء منها، أو سلب ما كان يغطي بعضها من ذهب على الرؤوس وجوهر فـي مواضع العيون، وكانت أحجار كثيرة ملقاة على نحو مهمل. وقد تغطت برسومات ملونة بديعة، أو نقشت بالقلم المصـور القديم، وقفت أتأمل كل ذلك بإعجاب، لكني كنت لا أكف عن اختلاس النظر إلى ثاونا بين الحين والحين، وقـد داخلتنـي ريبة بشأنه، فقد تيقنت أنه يقرأ القلم القديم، وربمـا عـرف مغزى هذه الرسوم والتصاوير، ويبدو أنه تنبه لذلك؛ إذ قـال لي فجأة:

- هيا يا بدير، علينا أن نجد السير؛ حتى نصل إلى مكان مأمون قبل أن يليل الليل علينا، ونواجه مشاكل قد لا نتوقعها في الطريق. هممت أن أسأله: هل كان يقرأ حقًا ما هو منقوش على الأحجار؟. وهل هو ملم بالقلم العتيق المنعدم الآن؟. لكني خفت أن يظن ثاونا بي الظنون بعدما تذكرت ما كان من أمر الراهب، فلاأس، وخصوصا أنني أبديت له إعجابي بالأصنام – وليسامحني الرب على ذلك – وقد حبست سؤالي، على الرغم من أن ثاونا لم يكن – فيما يبدو لي – كبعض من الكنسيين المتزمتين الذين أصادفهم في بيعتنا، بل كان واسع الصدر، غزير العلم، عميق الإيمان، وإن كان قد تردد عنه في البيعة. أنه كان في حياته العلمانية الأولى، قد درس في مكتب للصبيان ببلدته أخميم، كما تعلم الحكمة والطبابة وفنون التصوير على يد عجوز مشهورة في هذه البلدة، يقال لها دلوكة، وأن هذه المرأة ظلت حتى موتها متمسكة بوثنيتها، وكانت تجل دين آبائها من عبدة الشمس، وأن المسيحيين المؤمنين، كادوا أن يفتكوا بها أكثر من مرة، كما جرى مع كثير من الوثنيين.

وفي النهاية تركوها، بعد أن طالبوا الجميع بتجنبها، فلما شاخت، ذهبت إلى بربا قديمة بالبلد، وظلت مقيمة فيها، حتى وجدها بعض البدو الرعاة ميتة هناك ذات صباح، وهناك من يقول أن المؤمنين فتكوا بدلوكة داخل البربة وهـدموها، وا أعلم بذلك.

لذا كان بعضهم يتهامسون بين الحين والحين بأن ثاونـا له في السحر والكيمياء والسيمياء، ويقـال أن الأب يوسـاب أمر بتفتيش صومعته ذات مرة، لكنهم لم يجدوا عنـده شـيئا يشين، بل كانت صومعته كلها – وكما هي الآن – مملـوءة بكتب العقيدة، وكل هذا كان بسبب كتاب فيسيولوجي، وجدوه يقرؤه ذات يوم في فناء البيعة، وهو كتاب به كلام وأساطير وقصص خيالية وتلميحات لاهوتية، فنصحوه بتركه، والفروغ إلى كتب اللاهوت الخالصة.

عند خروجنا من البربا وكانت واسـعة جـدا، وجـدنا جماعة من هوام الناس ينبشون بهمة فـي أكـوام الحجـارة والشقافة، عند الأجزاء التي تهدمت منها. هالني منظر هؤلاء الناس؛ إذ كانوا برؤوس حاسرة لا تغطيها طواق أو عمـائم، كما هي عادة أهل الريف والمدن، وكانت شـعورهم متربـة

مهوشة منكوشة، على أجسادهم شملات خشنة رثة، وبدوا لي وكأنهم من العلمانيين البرابرة الذين لا يعرفون اللسان القبطي ولا اللسان العربي. داخلني خوف من مرآهم، وخشيت أن يهاجمونا فيلحقوا بنا مكروها، وأفضيت بمخاوفي إلى ثاونا، مقترحا عليه أن تختبئ حتى يذهبوا، لكنه أخذ يهدئني، ثم إنه أقبل عليهم وحياهم، وسألهم عن الطريق، وكنت أعرف أنه يعرفها كما أني أعرفها، لكن خيل إلي أنها وسيلة ابتدعها ليأخذ منهم الأمان، وقد صدق حدسي؛ إذ تحمس بعض منهم وتقدم ليدلنا على الطريق، فلما نظرت إليه متأملاً، وجدته يحمل صنما صغيرا من الحجر الأسود لا يزيد حجمه على كف اليد، وقد تعجبت عندما سأل ثاونا أن يأخذه ويعطيه مقابله أي شيء.

أخذ ثاونا الصنم في يد النباش، وراح يقلب فيه ثم قال:

- لا.. أريد شيئًا أفضل من ذلك، هل لديك ما هو من الذهب أو به جوهر؟.

أشار النباش على ثاونا أن ينتظر قليلا، ثم إنه غاب بعض الوقت، وعاد حاملا وعاد ارتفاعه حوالي شبرين، قدمه لثاونا وهو يرمقه، بنظرات ذات معنى.

تناول ثاونا الوعاء الذي بدا لي للوهلة الأولى، وكأنـه غير ذي معنى، وراح يرفع غطاءه المحكم عليه، وهو علـى هيئة ابن آوى، انقبضت قليلا بينما كان ثاونا يعمل ذلك فلمـا نظرت معه ما بداخل الوعاء، وجدنا ما يشبه بقايـا أحشـاء آدمية جافة، وإن كانت زكية الرائحة، أعاد ثاونا الغطاء إلى ما كان عليه مرة أخرى، ووضعه داخل جراب سراج بغله، ثم أعطى للنباش نصف فضة، ومضينا بينما الرجـل يلهـج بالشكر والامتنان لثاونا.

قلت لثاونا محتجا:

- ماذا ستفعل بهذا الشيء الذي أخذته من الرجل بربك يا ثاونا؟!.

رد ثاونا بهدوء:

- اسكت يا بدير، ولسوف ترى بعد قليل.

وقبل أن ألحف عليه بمزيد من الأسئلة، استمر شارحا:

- هؤلاء الناس من الحوربـات، وهـم جماعـة مـن العلمانيين الذين لم تهتد أرواحهم بالإيمان بعد، وقد ظلوا جيلا بعد جيل، لا يتعيشون إلا من نبش البراني القديمـة والحفـر والتنقيب فيها، وهم منتشرون في جميع أنحاء الـبلاد، ولقـد

أطلق عليهم اسم الحوربات، نسبة إلى معبود قديم، انتشـرت عبادته في أزمنة قديمة اسمه حور، وكان كثيـر مـن هـذه البرابي يقام لعبادته، والتقديس له.

عندما يتحدث ثاونا بكلام من هذا النوع أشعر أنه يخفي معرفة لا يبوح بها، لكنها تفلت من لسانه بين الحين والحين، وكان يبدو لي كلما تكلم، بكلام من هذا النوع، وكأن هنالـك أمر يعذبه، أو أن روحه لا تعرف الطمأنينة واليقين، وكنـت أوشك في كل مرة يخبرني فيها بمثل هذا الكلام، أن أسأله:

- كيف عرفت ذلك يا ثاونا؟. من أخبـرك بكـل هـذه المعرفة؟. لكني كنت أوثر السـكوت؛ إذ يظـل شـيء مـا بداخلي، مخرسا للساني، يمنعني من الفضفضة والبوح؛ ربما لأني كنت أخاف أن يقول لي ما هو غير إيماني فأفقده، بعـد أن أكون تأثرت، بما يقال عنه في البيعة، وربما لهذا السبب أتشكك دوما في صحة إيمانه. لكن، فليسامحني الرب، فأنا لم أسمع عنه أبدا ما يلوثه، ولم تخرج مـن فمـه إلا الكلمـات الطاهرة الطيبة.

آثرت السكوت، بعد أن قال ثاونا ما قالـه، وإن بقيـت متشوقًا إلى ما سوف يكون من أمر هذا الإناء الـذي حملـه معنا.

قطعنا مسافة تاركين أتريب وبربتها خلفنا، وبقينا سائرين حتى أوشك النهار على الانتصاف. كنا قد درنا حول الزراعات مرة أخرى، وبقينا ملتزمين الانحدار مع خط النهر، إلى حيث غايتنا في الأراضي الموحلة، وكنا قد بدأنا ندخل في مناطق حرشية من البراري؛ حيث انعدمت آخر قرى أتريب من نظرنا، بعد مدى قصير من رحلتنا، وكانت هذه المناطق البرية، لا تفلح ولا تزرع من قبل أي إنسان، بل كان ينبت في أغلبها البوص والهيش وأصناف عدة من الحشائش الطوال، وكانت الطريق صعبة بعض الشيء؛ إذ كانت تضيق حينا فلا يمكن لنا اجتيازها إلا ركوبة خلف ركوبة، وتتسع حينا آخر اتساعا عظيما، حتى أننا نضل، ولا نعرف إلى أية جهة نهتدي، اللهم إلا إذا بدت لنا علامة تدل على الطريق، كأثر لأقدام ركوبة، أو رجل إنسان، وكان خط النهر يضيع منا أحيانًا، فلا نعرف أين الأرض؟، وأين الماء؟؛ لكثرة المياه المتجمعة في الأراضي السبخة فلما بلغنا ذلك الحد من السير، قلت لثاونا:

- من هنا يكون مبتدأ أراضي البشموريين، فهي ممتدة من الشمال عند البحر الرومي، لكن ما زال أمامنا الكثير من

المسير حتى نصل إلى مبدأ البلدان والقرى ونصل إلى موقع حربهم، وهذا الطريق لا يسلكه إلا بعض من الأهالي؛ إذ إن أكثرهم يروحون ويجيئون بالمراكب والفلايك في النهـر، إذا ما هبطوا إلى بابليون أو بلاد الصعيد، أما إذا أرادوا التعدية إلى الإسكندرية أو مريوط فهم يركبون مراكب فـي البحـر الرومي، وهو لا يخلو من مخوفات؛ فقد ذهب عم لـي ذات مرة إلى الإسكندرية فظهرت للمركب الذي أقله دابة عظيمة من دواب البحر وكادت أن تقلب المركب أو تفتك بمن عليه، لولا أن الرب ستر، واستطاع المراكبية قتها بحرابهم والتغلب عليها.

غامت الشمس فجأة لوقت يسير، وسرعان مـا هطـل مطر غزير، لم يسبق لنا أن شاهدنا مثله في هذا الوقت مـن السنة؛ إذ إن شهر بؤونة الذي نحن فيه من الشهور الحـارة، المعتاد فيها انعدام الأمطار، رحنا نحمي أنفسـنا مـن ذلـك الهاطل، الذي باغتنا دون أن نحسب له حسابا، فقصدنا شجرة عريضة الأوراق، وقفنا نحتمي بها حتـى يتوقـف المـاء، وبالفعل فقد انتهى دفعة واحدة فجأة، مثلما هطل فجأة، ولكن لم يمر إلا وقت يسير، وبينما نحن نتأهب لمواصلة المسـير،

وإذا بالسماء تسود مرة أخرى، وتصبح الدنيا وكأنها حالـك الليل، على رغم أننا كنا فيما بعد الزوال، بقليل، تطلعنا إلـى الأفق، فوجدنا جيشًا جرارا من الجراد، يهبط إلـى الأرض، ويخبط بعضه بوجهينا ورأسينا، ويحط بعضه على البغلـين، فأخذنا ندفعه ونحن نصلب ونقدس، ذاكرين اسم الرب مرارا، بينما راح البغلان ينهقان وينفران وقد فزعا من هذه الهـوام الطائرة الهابطة من السماء. لا أدري، كم من الوقت مضـى علينا، مغمضين عيوننا ونحن على هذه الحال، لكـن مـا إن فتحناها مرة أخرى، ونظرنـا الأرض حولنـا، إلا وجـدنا الأخضر، وقد تحول إلى اصفرار، فقد أتى الجراد على كـل مخضوضر مورق، ولم يتـرك علـى مرمـى البصـر إلا الأعواد، التي بدت وكأنها حراب طوال تثبت إلى الأرض.

تمتم ثاونا بحزن:

- يا مخلصنا يسوع.. إنها مصيبة سوف تحـل علـى الفلاحين وأصحاب الزراعات في القرى والبلاد، فهذا الجراد لن يترك لهم شيئا من الزرع، الذي أوشـك معظمـه علـى النضج والحصاد.

لم أرد، إذ كنت أفكر في دويبـات الأرض ووحـوش المكان المختبئة بين الأعواد والحشائش، والتي لابد أن تكون قد خرجت بعد نزول الجراد، كنت أخشى فـي الحقيقـة، أن تسبب لنا أذى أو مكروها، فلما عبرت لثاونا عـن مخـاوفي هذه، قال:

- لا أظن ذلك يا بدير، فمعظم دويبات الأرض سـوف تسعد بهذا الجراد، فهو وليمة ربانية جاءتها من السـماء، إن الرب يسبب لكل شيء سببا، المسألة الآن هي أن لدينا عملا نريد أن ننجزه في هذا المكان قبل تركنا له.

كان يقول ذلك وهو يتلفت حوله كمن يبحث أو يفـتش عن شيء، بقيت أتبعه وهو يسير، حتى بلغنا موضعا توقـف عنده وراح ينظره باهتمام، كان بقعة بلقعا لا نبت فيهـا ولا خضرة، على نحو مغاير لما حولها كثيرا، تعجبت وسـألت ثاونا، وقد لاحظت ارتفاع ذلك الموضع قليلا عما حوله مـن الأرض:

- كيف تأتي ذلك يا ثاونا؟. كيف تتحجر الأرض فـي هذا الموضع ولا يشملها الطين مثل المواضع التي حولها؟!.

- انزل يا بدير أولاً، وهيا معي حتى ننتهي من مهمتنا.

طلب مني ذلك وراح يخرج الوعاء الحجري الذي كان قد أخذه من النباش والموضوع داخل خرجه، وحمله سـائرا وأنا أتبعه حتى وصلنا إلى فتحة في الأرض وقبل أن نـدخل أمرني ثاونا:

- اعقل الدابتين وتعال:

ذهبت إلى الشجرة التي كنا قد احتمينا بها منذ قليل وأنا أسحب الدابتين وكانت على بعد خطوات قليلة من الموضـع الذي بقي عنده ثاونا ينتظرني، فلما عدت هبطنا من الفتحـة قليلا لندخل إلى مساحة صخرية جافة، وبدا المكـان وكأنـه مأوى لوحش من الوحوش البرية التـي تعـيش فـي هـذه المنطقة. خفت أن أتقدم أكثر لكن ثاونا أشعل وقيدة من الزناد الذي يحمله بجيبه السيال دوما لشخوص وحيوانـات علـت جدران هذا الكهف، وزاد اندهاشي لوجوده في هذا الموضع، وكانت التصاوير جيدة وبحالة سليمة وألوانهـا زاهيـة دون فساد وكأنما رسمت بالأمس فقط. تمتم ثاونـا وقـد حـبس أنفاسه:

- إذن.. فقد قادتنا الكا إلى صـاحبها، والجـراد كـان علامة أظهرتها لنا. ثم إنه شمر عـن أكمامـه وراح ينقـب

الأرض بسكينة؛ حتى نقبها نقبا يكفي لإنزال الماعون بهـا، وكنت أرقبه مرتعدا، فأنا لم أفهم شيئًا مما قال، بـل الحـق أقول – لقد خفت منه قليلا أثناء ذلك، وقد شعر أنـه يعمـل عملاً من أعمال السحر والغموضات، فلما أقر الوعـاء فـي الحفرة، وهال عليه التراب مرة أخرى، طلب مني أن نشرع في ترتيل قداس جنائزي، ترددت قليلا قبل أن أفعل، لكنـي تذكرت وصايا الأب يوساب، وتذكرت أن مرتبة ثاونـا فـي الكهنوت هي ضمن التشمسة، وما أنا إلا قيم يأتي موضـعي في آخر ترتيب الكهنوت، فامتثلت لأمـره دون أن أنطـق، ورحت أرتل وراءه وأنا أصلب، وقد أخذتني آيات الرب:

"وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهـم هكذا، وإن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم: فإن الخطـاة أيضا يفعلون هكذا، وإن أقرضتم الذي ترجون أن تسـتردوا منهم فأي فضل لكم، فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضـوا وأنتم لا ترجون شيئًا فيكون أجركم عظيمـا وتكونـوا بنـي العلي، فإنه منعم على غير الشـاكرين والأشـرار، فكونـوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم، ولا تدينوا فـلا تـدانوا. لا

تقضوا على أحد فلا يقضى عليكم. اغفروا يغفر لكم. أعطوا تُعطوا كيلاً جيدا ملبدا مهزوزا فائضا يعطون في أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذي تكيلون يكال لكم".

فلما انتهى وانتهيت، تنحنحت وسألته بأدب واحتشام:

- عفوا أيها العزيز ثاونا، ولكن كيف نصـلي ونقـرأ كلمات الرب على هذا الشيء الذي هو بقايا جسم لم يتعمد؟. ألم يقل سيدنا يسوع المسيح للناس: "إن لم تولدوا من المـاء والروح لم تعاينوا ملكوت ا   لأن المولود من الجسد، جسـد هو، والمولود من الروح فهو روح" وحث على حياة الـنفس بهذا الشرط، فصار كل من يشتهي أن يحيي نفسه من موتها، يقبل شروط الغطس في ماء التوبة أولاً، ثم الاعتمـاد علـى اسم الثالوث المقدس الآب والابن والروح القـدس، وحفـظ جميع ما أوصى به سيدنا المسيح؟.

نظر إلي ثاونا بمحبة، وقال:

- صدقت أيها الأخ الطيب، وصدق الرب في كلماتـه، لكن هذا الإنسان الذي عثرنا على بقاياه، عاش زمن الوثنية، قبل أن يوافي ملاك الرب سيدنا، ربما بأكثر من ألف عـام، فهو لم يعش زمن الإيمان، لكنه إنسان ربما لو عـاش بيننـا

الآن، لكان قد آمن وصار مثلنا من أهل الديانـة والتقـوى، ونحن بصلاتنا هذه نتشفع له ونضمه إلى قطيـع المـؤمنين؛ وذلك لأن ساير النفوس كلها كانت ميتة، بخطية آدم منذ أول الزمان، لما أخطأ قال ا له لأجل خطيته: "موتـا تمـوت" فماتت نفسه من الحياة هو الذي كان حيا بروح القدس الـذي كان مشتملا عليه حتى أن آدم بذلك تنبأ وقال عن وحوى: إن هذه لحم من لحمي، وعظم من عظمي، هذه تدعى امرأة لأنها من المرء أخذت وتعرى آدم من ا العلي الذي كان لابسـه، وماتت نفسه الموت الحقيقي، ثم جسده بعد تسعمائة وثلاثـين سنة، ولم تزل نفوس نسله ميتة كما نفس أبينا آدم إلى حـين مجيء سيدنا يسوع المسيح وظهوره في عالم الطبيعة.

فصاحب الجثمان الراقد هنـا، سـلبت منـه أحشـاؤه الموضوعة في هذا الوعاء على عادة أهل الزمـان القـديم، الذين كانوا يعتقدون مثلنا أن الـروح تفـارق الجسـد عنـد الموت، لكنهم وليرحمهم ا ، كانوا يظنون بعودة هذي الروح إلى الجسم عن الدينونة؛ لذا فهم كانوا يحرصون على حفظه من التلاف، ويبذلون في سبيل ذلك الشيء الكثير للمشـتغلين بالتحنيط والحفظ، وفقا لمقدرة كل منهم وثروته، ولما كانـت

الحشا هي أكثر أجزاء الجسد عرضة للفساد، فقد كانوا ينزعونها من الجوف بطرق وفن، ويضعونها مع ملح النطرون الكثير، حتى تذبل ويجف ويزول عنها ماؤها، ثم يضعونها في آنية كذلك الإناء الذي نظرته ويخلطونه بالمر والحنوط وزيت خشب الأرز الثمين المجلوب من الجبل اللبناني، وها أنت نظرت الإناء بنفسك، فما وجدت غير بقايا المصارين وقد جفت وقطعة من كبد، وقلب متحجر، ويبدو أن نباشي القبور في الماضي البعيد قد نهبوا مقبرة الميت صاحب هذا الإناء بحثًا عما يدفن معه من ذهب وجوهر وثمائن؛ لأجل وقت قيامه في الآخرة وفقا للمعتقد القديم، فحملوا معهم هذا الإناء ضمن ما حملوه من المقبرة، ويبدو أنهم رموه في بربا أتريب، فعثر عليه هؤلاء النباشون الجدد، وباعه لنا هذا النباش، لكن روح الجسد الهائمة ظلت تدفع بالإناء حافظ الأحشاء إلى موضع الجسد، فقادتنا إلى هذا المكان وظهر لنا الجراد كعلامة، لنتوقف ونرده إلى مثواه، وربما كانت هناك قبور أخرى عديدة، جعلت في هذه البقعة كلها، لكنها اندرست مع اندراس مدن وقرى أصحابها وتغطت بالطمي والحشائش، فلم يتبق ظاهرا منها غير ذلك

الموضع الصخري لارتفاعه عن بقية ما حوله من أرض، فلم يترسب الطين عليه وتطلع به خضرة، وربما كان الموضـع كله في الأصل من الصخور، لكن الطمي طمرها شيئًا فشيئًا على مر الأيام والسنين، غفر ا لصاحب الروح ولنا جميعا يا بدير.

لا أدري لماذا تذكرت فلاأس النجس فجأة، وتشوقت لأن أعرف ما الذي سوف يكون من أمره، فسألت ثاونا:

- ترى أيها العزيز ثاونا، ما الذي سوف يكون بعد ذلك من أمر فلاأس في دير أتريب؟.

زفر ثاونا بقنوط ورد مفكرا:

- فلندعو الرب أن يهديه ويعود إلى زمرة الأتقياء يـا بدير فيقر ويعترف بخطاياه ويتوب عنها، فأنت تعرف أن ما قاله تجديف خطير، فإذا أراد أن يحيي نفسه من موتها عليـه أن يعترف لأبيه في دير أتريب بجميع خطاياه وأنه كان عبدا للشيطان بطاعته له في المخالفـة بكتبـه المقدسـة وقـراءة الهرطقات الطمث، وكل خطية أخرى يكون قد ارتكبها سواء بقتل أو زنا أو سرقة أو كذب أو شهادة زور، أو بارتكاب أي من المحارم، فيبتدي الأب يجربه، وهل أقبل إلى ا من كل

قلبه، أو ذلك تجربة منه وقنطسة لا لزوم لها، ويوجب عليـه الأب صوما وصلاة وصدقة من ماله، وسجودا علـى قـدر قوته مدة معلومة؟. وإذا ثبت في حرارة شدة شوقه إلى السيد المسيح وإلى الحياة الدايمة، فيما أمر الأب بـه، عنـد ذلـك يعذبه الكاهن مرة أخرى في دهليز سرداب ويوقفه فيه مـدة أخرى معلومة. فإن ثبت على هذا الشوق، عبر به إلى أحـد جوانب الدير ليحضر سماع الفصـول والإنجيـل المقـدس خاصة، ثم يمسكه الكاهن بيده ويخرجـه حتـى لا يحضـر تقديس السراير الإلهية، ولا تتقدس نفسه بحلول روح القدس عليها، كل ذلك امتحان وتجربة لصبره، هل هو عائد ثابـت لما يراد منه أو لا، وهذا هو حد الإقامة تحت التوبة والوعظ.

ثم يتقدم به ويدخله إلى عربي البيعة في الدير ويصـلي عليه صلاة الموعوظين أولا، ثم يقري عليـه التحليـل مـن نجاسة الأمم الغريبة، ويدهنه الكاهن بزيت فارغ ثم يقرأ عليه صلاة تليق بأوايل أمره، ثم بعد ذلك يؤمر برفع يده اليسرى إلى فوق ويستقر على حقيقة جحوده للشيطان وجنوده وأسبابه التي منه وبه، الصايرة إليه، وهي القتـل والزنـا والسـرقة والكذب وشهادة الزور والجور والحقد والـبغض والنميمـة

والكسل عن الصلاة والعظيمـة التـي هـي أول الرذايـل، والانصراف إلى قراءة الهرطقات والممنوعات، والتجـديف والزندقة.

فإذا تحقق عن الموعوظ جحوده ذلك بعدة دفـوع، فـي حضور جميع الكهنة والرهبان، يعرى حينئذ ذلك الفـلاأس، كما تعرى سيدنا المسيح له المجد عند صلبه ويشهره الكاهن كما شهر جسد سيدنا المسيح وهو عريان.

فإن بانت منه الأمانة المستقيمة التي هي: نـؤمن بـا واحدا إلى آخرها، ويقول ما يقوله الكـاهن ويـداه الاثنتـان مرفوعتان، ثم بعد فراغ تلقينه الأمانة يسأله الكـاهن سـؤالا استفهاميا: آمنت؟. يقول الموعوظ الذي هو هنا فلاأس:

- آمنت. هكذا ثلاثة دفوع.

ثم بعد ذلك يجري نقله إلى مكان المعموديـة المقدسـة ويدهن بدهن الغاليلاون. ثم يبتدي الكاهن بصلاة على مـاء المعمودية ويسأل ا الأب ضابط الكل باسم الابـن الوحيـد يسوع المسيح ربنا أن يحل على الماء العنصري الذي هو في المعمودية روحه القدس ليتقدس به الماء، ثم يقدس على الماء

قداسا كاملاً خصيصا به في إحياء تلك النفس المؤمنة بالآب وبابنه الوحيد وبروحه القدس.

ثم إنه لابد أن يجري تختين فلاأس ونزع قلفته حتى يتطهر بذلك تطهيرا كاملا، كل هذا إذا تاب وعاد، وبرئت نفسه مما بها من غواية الشيطان وجنوده الفاسقين.

سرح ثاونا بعد ذلك ببصره قليلا، وسألني فجأة:

- ترى كم تبقى لنا من الطريق حتى نصل إلى محلة البشموري؟.

فكرت، وأنا أحسب بالتقريب، البلاد والكور التي علينا أن نقطعها ومسيرة الوقت لزوم ذلك، حتى نصل إلى محلة البشموري، وقلت:

- سنعبر عدة قرى وبلاد وقد يتطلب الأمر بقية النهار قبل أن نصل إلى قرب بحر حاروس، ومن هناك سننطلق إلى سكة محلة البشموري بعد ذلك لو شاء الرب.

فكر ثاونا قليلا قبل أن يرد:

- إذن علينا أن نبيت ليلتنا في مكان قريب. ربما كان أول قرية تصادفنا، ونواصل بعد ذلك المسير مع بزوغ نور الصباح لو أراد لنا الرحيم البقاء حتى ذلك الوقت.

رحت إلى موضع الدابتين لأحلهما مـن الربـاط فـي الشجرة التي ربطناهما عندها. فلما جئت بهما وركبنا، بادئين التقدم والمسير، بدت الأرض زلقة للغاية صعبة السير بسبب سقوط المطر عليها، وكان الجراد يفترش الطريـق، بعـدما تعب من طول ترحاله وأكله بنهم، فمات أكثره وسقط، ويبدو أن البغلين قد عافا المسير فوق الجراد والزلاقـة؛ إذ إنهمـا أجفلا وتنحنا كثيرا، فلم نتقدم في المشي إلا قليلا، مع اقتراب الشمس من الدخول في الغياب وكنا قد تعبنا ومللنا هذا البطء الذي بلا طائل، فقال ثاونا:

- ما رأيك يا بدير، نبيت هنا في هذا الموضـع حتـى يصبح الصباح؟. الصباح رباح.

هتفت منزعجا:

- هنا في هذه البرية الموحشة غير المسكونة، لا أظـن أن ذلك سوف يكون من الحكمة والأمان يا ثاونا.

حاول إقناعي قائلا:

- لابد أن يكون هناك ما نأوي إليه في هـذا المكـان، ونحن نستطيع المبيت تحت شجرة من الأشـجار، ألا تـذكر رحلة السيدة البتول مع السيد المسيح من بيت لحم إلى أرض

مصر، وكل تعبها ومعاناتها، دون تفكر في متاعب الطريق؟. ألم تركن إلى جذع شجرة لتستريح وتستفيء، ولم يكن هناك من مأوى يحميها أو سقف يقيها حر النهار وبرد الليـل؟. إن الرب هو الحامي يا بدير، ونحن فـي رحلـة لأجـل مجـد الكنيسة، وخطاب الأب يوساب يجب أن نحفظـه ونصـونه حتى نؤديه للبشموري وتلك هي مهمتنا، فيجب أن نحتمل فيها كل ما يواجهنا من صعاب.

سكت وقد خجلت من اندفاعي في الكلام، ولـم أجادلـه فيما قال، وقد ردني إلى طمأنينة الإيمان، بينما راح يجـول ببصره باحثا بعينيه عما يمكن أن نأوي إليه، وكنا قريبين من حافة النهر، فتركني وابتعد قليلا لينظر المكان، وسرعان مـا ناداني لأتبعه، فلما وصلت إليه، أشار بيده إلى موضع قريب عند أسفل الشاطئ، وقال:

- أرأيت هذا؟. إنه فيما يبدو خُـص لـبعض صـيادي السمك، قد أقاموه ليستفيئوا فيه وقت صيدهم. إن ا لا ينسى عباده الصالحين يا بدير، هيا نحتمي به حتى صباح الغـد إن شاء ا .

بدا ثاونا فرحا جدا بعثوره على الخص، وكنت قد بدأت أشعر بالطمأنينة والسكينة بمجرد أن رأيته، فثاونا لا يعـرف مخاطر الأراضي الموحلة مثلما أعرفها؛ لأنه لم يعش فيهـا، إنها مليئة بالحيوانات والوحوش البرية المتخذة من أدغالهـا مستقرا ومعاشًا، وهي في أغلب الأحوال شرسة قاتلة، كثيرا ما تنقض على الدواب والناس وتفتك بهم، ولعـل أخطرهـا الحلوف الذي يفضل الاختباء والعيش في الأحراش وكل برية غير مأهولة، وهو شديد الخطورة والكل يحتقـره لنجاسـته وطياشته في العدوان على الزرع. نزلت عن البغل ومشـيت ساحبا إياه منحدرا مع ثاونا إلى أسفل الشاطئ، وقد أمسـكت طرف ثوبي الطاهر الكنسي بيدي حتى لا يتوسخ ويتدنس من حماة الأرض، ثم إننا دفعنا باب الخص ووقفنا نسـتجلي مـا خلفه قبل حلول الظلمة، فوجدنا فيه بالفعل ما يدل على أثـر لصيادين، مثلما توقع ثاونا؛ إذ كان به منقد لحرق الأخشـاب وبعض من فروع الأشجار الجافة، كما كانت به حصيرة من تلك الحصر التي يصنعها الصيادون، ملمومة ومركونة إلـى جانب أحد الحوائط اللبنية للخص، إضافة إلى جرة بها بعض

الماء، وسنانير وشبك تالف وعدة من الأشياء لـزوم حرفـة الصيد.

أدخلنا الدابتين حتى نأمن عليهمـا، وسـارعنا بفـرش الحصير، ورحنا ننزل الزاد من الأجربـة؛ حتـى نسـتريح ونأكل شيئًا، وبينما نحن نفعل، قال ثاونا:

- ما رأيك أن نتعشى سمكا من عطايا الرب؟. سأصطاد سمكة أو اثنتين نشويهما. ونأكل قبل أن نبيت ليلتنا.

ثم إنه سحب سنارة وخرج إلى النهر، بينما بقيـت أنـا أهيئ مائدة ما حملناه معنا، وكان رهبان الدير في أتريب قـد زودنا ببعض أرغفة أتريبية معجونة بلية الخروف مما تشتهر به أتريب، وبعد ذلك قمت فوضعت بعضا من فروع الأشجار في المنقد وأشعلتها وخرجت لأجمع بعضا مـن الأعشـاب؛ لأقوت البغلين قبل أن يحل ظلام الليل علينـا، ولا نسـتطيع الخروج من الخص.

صلبت وصليت في سري وأنـا أتمنـى ألا تكـون الحشائش عشبة سامة تفتك بركائبنا، فتتعثر رحلتنـا، وكـان الأب يوساب قد عرض علينا بغلا ثالثا نسيره معنـا طـوال الطريق، كما هو متبع في العادة، حتى إذا أصـاب مكـروه

بغلاً، وجدنا ما يعوضنا عنه، لكن ثاونا آثر الاكتفاء ببغلين؛ لأن الثالث لابد أن يلازم الإكليروس في شئونهم إذا خرجـوا من قصر الشمع إلى أي موضع من المواضع في الفسـطاط، أو إذا عدوا بالمراكب إلى بر الجيزة، وقال للأب يوسـاب: وهل ركب السيد غير أتان واحدة؟ الرب هـو الحـافظ يـا سيدي، فَسر الأب يوساب لذلك وباركـه وهـو يـدعو لنـا بالتوفيق.

بينما كنت أحش بعض الأعشاب بالخنجر الصـنعاني، الذي أعطاني إياه ثاونا قبيل رحيلنا مـن قصـر الشـمع، إذ سمعت صرخة تتعالى من الجهة التي هبط إليهـا ليصـطاد أسفل شاطئ النهر.

تركت ما بيدي، وهرعت إليه قاصدا وجهة صـرخته، وقد حملت الخنجر بيدي لأتصدى به لمن يهاجمه سواء أكان وحشا أم إنسانا، إلا أنني عنـدما بلغتـه وجدتـه جالسـا القرفصاء، وقد تكون على نفسه، ممسكا بساقه، الـذي أخـذ ينزف من أسفله بغزارة، وما إن رأيته على هذه الحال حتى صرخت بدوري، لكنه أخذ يهدئني بصوت متماسك، ويقول:

- اهدأ يا بدير، إنه حنش. لقد لدغني دون أن أشعر، يا أ ، إن أنيابه كأنها موسى حادة لحكيم، هيا يا بدير، شـرط الجرح بسرعة بالخنجر، قبل أن يسري السم مع الدم إلى كل أنحاء الجسد.

ترددت قبل أن أفعل ما طلبه مني، فمنظر الدم يثيرنـي ويقلب أحشائي؛ مما يجعلني على وشك التقيؤ، كما أن جرح ثاونا بخنجري كان أمرا يشق على نفسي، أخيـرا تحاملـت وتجلدت ورحت أشرط موضع الجرح باسم الصليب، حتـى خرج منه أكثر الدم، ثم إن ثاونا انحنى علـى سـاقه وراح يمتص دمه بفمه، وينقله سريعا، ثم خلـع زنـاره الكنسـي الملفوف على وسطه وراح يربط به سـاقه فـوق موضـع الجرح جيدا، وأخيرا قام وأخذ يتوكأ علي كتفي حتى دخلنـا الخص.

ما إن تمدد على الحصير حتى قال لي:

- اذهب إلى خرج بغلتـي، هنـاك بعـض الحقـوق، أحضرها بسرعة وعد لي بها. مددت يـدي إلـى الخـرج، وأخرجت منه عدة أحقاق مثلما طلـب، وكنـت فـي غايـة الدهشة؛ إذ كانت هذه المرة الأولى منذ ارتحالنا أعرف فيهـا

أن ثاونا يحمل معه كل هذه الأشياء داخل خرجه، كان بعض هذه الأحقاق قد صنع من خشب السنط والعنبر والأبنـوس، وبعضها الآخر من الألباستر والجمشت والجـزع العقيقـي، والعاج واليشب، طلب مني أن أفتح ذلك المصنوع من العاج؛ لأعطيه بعضا مما فيه ليبتلعه.

رفعت غطاء الحق، وأخرجت منه حبوبا بنية صـغيرة، لم أر مثلها من قبل، فهي لا تشبه الذرة أو الفول، أو أيا مـن الحب الذي أعرفه مما يؤكل أو ينقع، وبدا لي حبا أقرب إلى فول النوبة، وإن كان أصغر حجما مع بنيته، قدمت له الحب فجرشه بأضراسه قبل أن يبتلعه، ويقول:

- هذا حب العرب يا بدير، يجلبونه من بلادهم البعيدة، وهو عظيم الفائدة وسيجعلني متنبها لا يغلبني النعاس، إيـاك أن تتركني أوسن ولو قليلا يا بدير، حتى لو اضطرك الأمر لأن تلطمني على وجهي، أو تصب على رأسي ماء بـاردا، فلو غبت عن الوعي فإن السم سوف يسري في دمي بسهولة حتى يصل إلى مكامن الأعصاب في الرأس، وتكون في ذلك نهايتي المحتمة.

صلبت وأنا أتمتم بخوف وانفعال:

- بعد الشر عنك يا ثاونا وعافاك. سوف أفعل كل مـا تأمرني به. لا تخش شيئًا، أنا معك والرب يحفظك، سـأظل ساهرا إلى جوارك طوال الليل. ثم إنه طلب مني أن أعطيـه حق الأبنوس بعناية فائقة، وكان حقًا صغيرا للغايـة، فتحـه بهدوء وحذر بعدما تناوله مني وراح يأخذ شيئًا يسيرا مما فيه من دهن، بدا لي أشبه بدهن الميرون المقدس، وراح يمسـح به موضع الجرح حيث غرز الثعبان أنيابـه، وهـو يجـز أضراسه جزا، صابرا متجلدا، دون أن يتأوه أو يتأفف ممـا أصابه من بلاء، فما إن انتهى من الـدهن، أخـذت الحـق وأعدته إلى موضعه في الجراب ثانية، ثم إني رحت أعمـل وقيدة في بعض من قلاحات الذرة الجافة لنستدفئ بها، فلمـا بانت النار وأجمرت كما يجب، دفّأت شيئًا من العسـل فـي قارورة من ثلاث قوارير زجاجية كنا ابتعناها، فـي أتريـب وقدمته له كي يشربه، فلما انتهى جلست إلى جانبه وعرضت عليه أن يأكل شيئا مما معنا أو أن نشرب نبيذا، لكنه رفـض وقال أن النبيذ لا يفيد في حالة اللدغ، وكنت أظن أنه سيخفف عنه أوجاع الجرح، لكنه أفهمني أن كل مغيب عن الوعي لا يفيد في مثل حالته.

تضرعت إلى ا في سري أن ينقذ ثاونا ويحفظه من سم هذا الحنش الذي كان أبي دوما يحذرني من أمثاله؛ فحنشان الشط خطيرة. ولدغتها يصعب الفكاك والبرء منها. كنت أقوم بين الحين والحين لأغذي النار حتى لا تنطفئ وأرتل:

"أما الروح فحياة بسبب البر. وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضا بروحه الساكنة فيكم" وتلوت كذلك بعضا مما أحفظه من المساغوجي والتعاليم الإيمانية كما رحت أذكر قول يوحنا فم الذهب: "كل إنسان على ظهر البسيطة لابد أن يرى ما كُتب عليه".

لكن بعد انتصاف الليل بقليل، بدأ ثاونا يغيب عن الوعي بعد أن أخذته الحمى، وراح جسده في الارتعاد بشدة حتى أني وضعت خرج الدابة الصوفي عليه، مع أنه كان قد تغطى بغطاء الكتان الذي حملناه معنا لنتغطى به أثناء الليل في الطريق.

سددت باب الخص ووضعت خلفه حجرا، وعلى رغم سخونة الجو فإن ثاونا ظل يرتعد وبدا لي وكأن الحمى قد

دخلته وتمكنت منه؛ إذ صار واهنًا ضعيفًا يبذل جهدا كبيـرا كي تظل عيناه مفتوحتين وهو يقول بصعوبة:

- اسمع يا بدير، إذا غبـت عـن الـوعي، عليـك أن تعالجني بالماء البارد، اجلبه من النهر فـي أي قـدر وبلـل رأسي طوال الوقت به، فإن هذا يفيد، أما إذا حم قضـاء ا ، فلا تبتئس، افعل ما يفعل للموتى، واطلب لي الرحمة. لكـن عليك أن تذهب بأقصى سرعة إلى البشـموري؛ لأن أبانـا يوساب ينتظر رده، فهو يريد أن يواتيه ويكلمه وجها لوجـه إذا ما وجد منه اللين والقبول. فهذه مهمتنا الكنسية الآن يـا بدير، يا أخي الطيب العزيز.

ثم إنه أخذ يدخل شيئًا فشيئًا في الحمى، على رغم أنني قمت لفوري وجلبت ماء باردا مـن ميـاه النهـر، وكانـت قلنسوتي المضروبة كما هو مفروض في قلانس الأقباط مفيدة لتشربها بالماء جيدا، حتى بعد عصرها ووضعها على رأسه، لكن ذلك لم يوقف الحمى، بل إنها زادت إلى الحد الذي بـت فيه يائسا تماما، فرحت أبكي عليه بكاء مرا؛ إذ كان ثاونا هو كل ما لي في الحياة الآن، وهو أقرب الناس إلـى روحـي وقلبي، تذكرت ما كان من أمري الأول فـي هـذا العـالم،

آمونة. أمي. أبي. إخوتي. أصدقائي وأترابي، فلـم أتمالـك نفسي ورحت أنتحب كالنساء؛ لأنني بعد غياب ثاونـا، لـن يكون لي أحد في هذا العالم، فليرحمني الرب. فجأة وبينما أنا جالس إلى جواره، ضائع الروح، كمدا لا أدري ما الحـري بي أن أفعله في هذه المحنة، إذ به يهذي متمتما بين الحـين والحين:

- يسوع المخاص مريم البتول، عشاءنا الأخير، الحنش، سم. البلسان، آه الإله أعظم مـن الـزمن والأبديـة وكـل المخلوقات. لا يمكن تسميته، لا يمكن رؤيتـه بأيـة عـين. نستعين على معرفته بالأسماء والصـور. الـذهب. العـاج. الصندل. هو رب الجميع. كل يعرفـه بطريقتـه. الثـالوث المقدس. هرمس المعظم ثلاثا. تحوتي. مثلـث الرحمـات. أتريب الضائعة. فلأس الطمث. البلاد تقاسي الألم. الآلهـة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق في كل مكان. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعـط الفقراء ن ى ف ي[1]. كا. با. ب ن و م ا[2].

---

(١) ن ى ف ى: "روح نفس" بالقبطية.

(٢) ب ن و م أ: "الروح القدس" باليونانية.

أمحوتب. أوكير يوس ميتابنتون إيمـون[1]. أمحوتـب. رئيس الكهنة أيـن أنـاتولاس فليبـاس[2] مـاـك الحكمـة. أناستاسيس[3]. ساكالمورا. ذوكسا. باتري كي أيوكي اجيو[4] ابنفماتي هكسبلا.

لم أتمالك نفسي وأنا أستمع إلى كل ما يتفوه ويهذي بـه ثاونا. وراح جسدي يرتجف خوفا، مثلمـا يرتجـف جسـده بالحمى، وقد أيقنت أن الشيطان قد تغلب على روحه ودفعـه إلى مثل هذا الكلام المخلوط مع كل ما هو طاهر ومقدس من كلمات. تملكني قلق عظيم من أن هذه الاختلاطـات علامـة على اقتراب تلف أخي العزيز وفنائه. وأن هلاكـه سـيكون هلاكا للروح والجسد. فهذي هي الشياطين – ويا حسرتي – تقود روحه إلى السعير. أسرعت بإحضـار لفيفـة الكتـاب المقدس الذي كان قد أعطانا إياه أبونا يوساب لنسـتعين بـه

---

(١) أوكير يوس ميتابنتون إيمون: "الرب مع جميعكم" باليونانية.

(٢) اين أناتولاس فليباس: "وإلى الشرق انظروا". باليونانية.

(٣) أناستاسيس: القيامة. باليونانية.

(٤) ذوكسا. باترى كي أيوكي أجيو: المجد للأب والابن والروح القدس. باليونانية.

على مخاطر طريقنا وما قد يصادفنا مـن شـياطين وأرواح شريرة، إن لم تسعفنا الذاكرة مما نحفظه من آيـات تسـتلزم ذلك. كان الكتاب قد دون بالقلم الإخميمي في كل آيـة مـن آياته، يقابله القلم العربي، فكنت أقرأ مرة من هنا ومرة مـن هنا؛ إذ كان ثاونا صاحب الفضل. وولي المعرفة قد علمنـي قدرا يسيرا من الإخميمية وقد كنت أجهلها، أما العربية فقـد حصلت مقدارا منها على يد خال في ترنيط كان قد اسـتعمله متولي الكورة التي تتبعها البلدة، كمـا زوت مـن موازيـت القرى، والذين كان أكثرهم من القبط للترؤس علـى القـرى والبلاد؛ لأنهم أعلم بأمورها وأعرف بأحوال أهلها.

وكنت خلال قراءتي المتعثرة يداخلني ندم كثير؛ لأننـي لم أتعلم كما يجب ويصح، فليغفر الرب لـي إن كنـت قـد أخطأت في رسم كلماته المقدسة بلساني، ولتعمي عينـي؛ إذا لم أتعلم بعد ذلك – بمشيئة السيد – لغة كتبه المقدسة.

ثم إنني نذرت أثناء ذلك، أن أعتـرف صـادقًا لـلأب يوساب بخطيتي الأولى وأتوب توبة حقة؛ إذا ما قدر لثاونـا أن يبرأ من علته ونعود سالمين إلى قصر الشمع بعد انتهـاء مهمتنا عند البشموري. وقد حلفت برأس المبارك مرقس ابن

القنبري أن أفعل صادقًا وهو القائل: "لا غفران للخطايا بدون الاعتراف".

ذلك أنني أوقن الآن بأن ما حل بثاونا وما أنا فيه مـن حيرة وضياع. لم يكن إلا بسبب ضعف إيماني وتدليسي على أبينا في الاعتراف، فليرحمني الرب وليواتني سريعا باللحظة التي أعترف وأتطهر فيها، ولتحل أربطتني بكلمته مثلما أحل الأنبا ساويروس شماسا بكلمته، ولسوف أرضى بحكم أبينـا يوساب، وما يأمر به، من تأديبات كنسية تحل علي، ولسوف أقف بين يديه بكل أدب كما يجب، جاثيا على ركبتي مطأطئ الرأس، مؤديا مطانيات ثلاث أمام المذبح، وليصلّ علي فـي النهاية صلاة التحليل لأمنح بركة التناول. وقد تُبت وتطهرت روحي من كل إثم مضى.

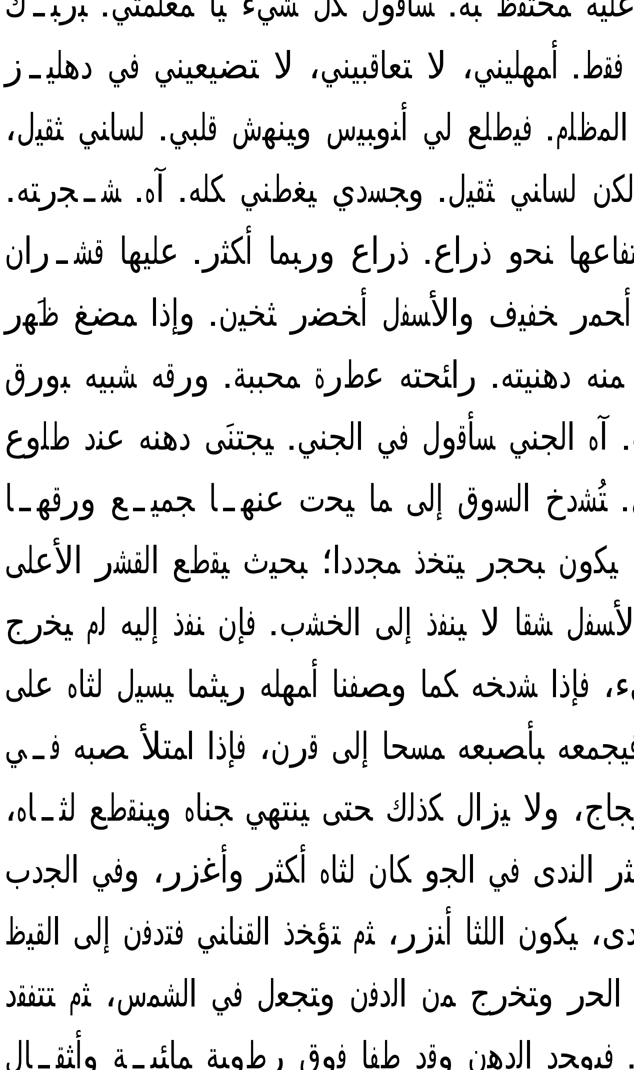
كانت دموعي لا تتوقف عن النزول، وأنا أفكر في كـل ذلك، بينما لساني يعمل في تلاوة الآيـات والمزاميـر. وإن كنت قد توقفت عن تبليله بالماء، وقد اضطربت وخشيت أن أضع يدي عليه أو ألامسه حتى لا يصيبني مس من الشيطان مثلما أصابه. وقد تأكد لي ذلك بعدما نطـق باسـم هـرمس الممنوع وتخلط كلامه عن يسوع والعذراء بتجديف خرج من

أعماقه. ونطق لسانه بطلسمات لا أدري من أمرهـا شـيئًا، وعلى رغم أنني أعتبر ثاونا قرين نفسي، وخليلي، ورفيقـي، وتوءم روحي، وأخي الروحاني بالمعمودية إن لم يكن أخـي الجسداني بالدم، إلا أنني بدأت أشك في صحة إيمانـه، وأنـا أستعيد، ما كان يتردد عنه ببيعتنا في قصر الشمع، وما كان يتناقله البعض عنه من أحاديث وحوادث جرت لهم معه مثل تلك الحادثة التي حكاها ذات مرة الشماس اسطفانوس من أنه في إحدى الليالي أراد أن يخرج من القلاية لشم الهواء فـي ساحة الدير، فلما وصل إلى قلاية ثاونا وجد ماء كثيرا آخـذا في الارتفاع شيئا فشيئًا، حتى وصل إلى ما هو فـوق قامـة الإنسان وهو واقف فخاف جدا، وتسمر في موضعه ممتنعـا عن التعدية والعبور كيلا يغرق، وعاد إلى قلايته مرة أخرى وهو يرتجف. وكذلك ذكر قَيم آخر في البيعة اسمه سـمعان أنه نظر ثاونا ذات مرة عند الظهيرة. فوجده يحادث هدهـدا صغيرا، حط على ركبته، ويقول له كلاما بلسان غريب لـم يسمعه من قبل، لكن الأب يوساب كان يستمع إلى كل ذلـك، ويدحض أقوالهم بالآيات لما ظهر له من حسن إيمان ثاونـا وطاعته الكاملة لقوانين البيعة وتفانيه في الخدمة.

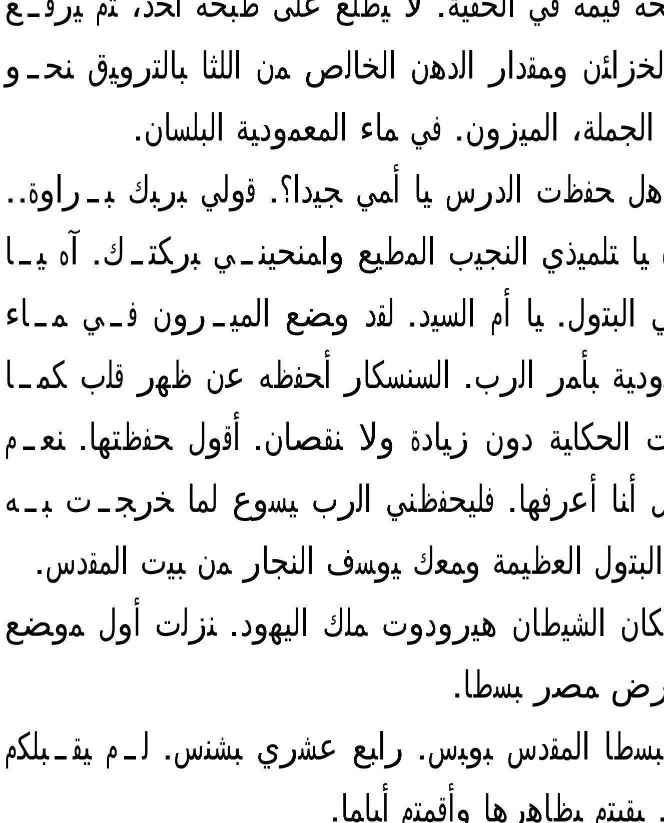
ساورتني رغبة في فتح أحقاقه جميعا لأتبين ما بها. وأن أفتش في خرج البغلة فقد أجد ما يشفي غليلي ويرسيني على حقيقة الأمر، لكني كنت خائفًا أيضا. فربما مسني ضر مـن جراء ذلك، أو لحقني سحر، فبقيت في مكاني ساكنًا، مرتعدا، أنظر إليه، وقد تورم ما حول جرحه وانتفخ. وقد تحول لونه إلى الأحمر وكأنه نقع نقعا في صبغ الأرجوان، وفي لحظـة لم أتمالك نفسي فأوشكت على الصـراخ رعبـا، إذ وجدتـه يهتف:

- دلّوكة.. أيتها الأم العظيمة يا من بوركت من المقدسة أم الآلهة إيزيس سليلة الآلهة الأوائل، سيدة العطر والمر. يا من زرعت الساكمورا وأدخلتها إلى بر مصـر. يـا ربـة الأرباب. معلمتي في المكتب. يا من دنت لك طوال الحيـاة بالعلم والمعرفة. ربة أرباب أولئـك الـذين لا يعرفـون ولا ينطق باسمهم أبدا.

تحوتي.. معلمتي.. أجل.. أجل.. أحفظ كيميت في قلبي، مجدها العظيم.. لا.. لن يزول.. البلسان. أجل. أجل. يا أمي سأتلو عليك ما حفظته من درس. آه. انعدم وقل. نعم وهـو في المطرية وعين شمس الآن فقط. أعرف أنه في موضـع



محوط عليه محتفظ به. سأقول كل شيء يا معلمتي. بربك أمهليني فقط. أمهليني، لا تعاقبيني، لا تضيعيني في دهليز المكتب المظلم. فيطلع لي أنوبيس وينهش قلبي. لساني ثقيل، سأقول لكن لساني ثقيل. وجسدي يغطني كله. آه. شجرته. يبلغ ارتفاعها نحو ذراع. ذراع وربما أكثر. عليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين. وإذا مضغ ظَهر في الفم منه دهنيته. رائحته عطرة محببة. ورقه شبيه بورق السذاب. آه الجني سأقول في الجني. يجتنَى دهنه عند طلوع الشعري. تُشدخ السوق إلى ما يحت عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ مجددا؛ بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ إلى الخشب. فإن نفذ إليه لم يخرج منه شيء، فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود، فيجمعه بأصبعه مسحا إلى قرن، فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر، وفي الجدب وقلة الندى، يكون اللثا أنزر، ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحماره الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس، ثم تتفقد كل يوم. فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال



أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها؛ فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية. لا يطلع على طبخه أحد، ثم يرفع إلى الخزائن ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة، الميزون. في ماء المعمودية البلسان.

هل حفظت الدرس يا أمي جيدا؟. قولي بربك براوة.. براوة يا تلميذي النجيب المطيع وامنحيني بركتك. آه يا سيدتي البتول. يا أم السيد. لقد وضع الميرون في ماء المعمودية بأمر الرب. السنسكار أحفظه عن ظهر قلب كما حفظت الحكاية دون زيادة ولا نقصان. أقول حفظتها. نعم سأقول أنا أعرفها. فليحفظني الرب يسوع لما خرجت به أيتها البتول العظيمة ومعك يوسف النجار من بيت المقدس.

كان الشيطان هيرودوت ملك اليهود. نزلت أول موضع من أرض مصر بسطا.

بسطا المقدس بوبس. رابع عشري بشنس. لم يقبلكم أهلها. بقيتم بظاهرها وأقمتم أياما.

بدير. بدير الطيب. القراري العائش في الخطيئة. نعـم سرتم إلى سمنود تعدية النيل إلى الغربية. السير إلى مدينـة الأشمونين..

هتفت باكيا وقد قال عني في هذيانه ما قاله:

- لا.. لا يا ثاونا العزيز.. لا لن أعيش في الخطيئة بعد ذلك أبدا.

فليرحمني الرب. اشُفَ يا ثاونا وعد لي، ولن تجدني إلا طاهرا تائبا سأعترف لك يا ثاونا. سأعترف لـك بخطيئتـي وإثمي الأول الذي يعذبني ويأكل روحي.

بدأ جسده في الرجفة والارتعاد، لكنه ظل يواصل، وقد تسارعت كلماته وزاد في تخليطه:

- فرس النماس القائم على أربعة أعمدة. سقط الفـرس وتكسر لما نظرته ودخلت. له المجد. آيته فـي الأشـمونين. خمسة جمال محملة. زاحمتكم أيها المقدسون في مـروركم. صرخ يسوع فيهم. فيهم صرخ في الأشـمونين. فصـارت الجمال حجارة فليس. فليس بها أيام، ومنها إلى قس وقـام – القوصية – فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التـي بهـا. وقال: قال: قال...

كدت ألطم وجهي وقد لبث وقتا يردد قال هذه، وقلت ها هو قد دخل في النزع الأخير. يـا لتعاسـتي وشـقائي. يـا لمصيبتي في خلي وصفيي ثاونا.

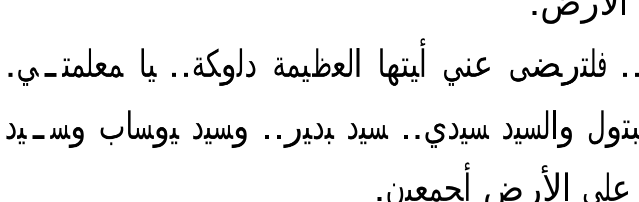
ولكن ما أذهلني بعد ذلك هو أنه يتكلم وكأنه يردد عـن ظهر قلب بعضا من الساذوكيات إذ أخذ يقول:

- نطق الشيطان من أجواف الأصنام التي بها، وقـال: إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون خراب بيوتكم ومعابدكم، فخرج مائة رجل بسلاحهم وطردوكم من المدينة.

فمضيتم إلى ناحية ميرة غربي القوصية ونزلتم موضع الدير المحرق وأقمتم به ستة أشهر وأياما، فـرأى يوسـف النجار – في المنام – من يخبره بموت هيرودوس ويأمره أن يرجع بالسيد إلى القدس.

فعدتم جميعا من ميرة حتى وصلتم قصر الشمع. أقمـتم بالمغارة عند كنيسة أبي سرجة، ثم خرجتم منها إلـى عـين شمس واسترحتم جميعا بجوار ماء فغسلت البتول ثياب السيد يسوع من ذلك الماء.

وصببت أيتها المقدسة غسالتك قبالة الأراضي فأنبت ا هناك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فانقطع من هناك وبقـي



في هذه الأرض.

آه.. فلترضى عني أيتها العظيمة دلوكة.. يا معلمتـي. مريم البتول والسيد سيدي.. سيد بدير.. وسيد يوساب وسـيد كل من على الأرض أجمعين.

عندما فتحت عيني وقد غشاهما ضوء النهار الساقط من بين أعواد البوص المكللة لسقف الخص، لم أجد ثاونا ممـددا إلى جانبي في مكانه على الحصير، فهببـت وقـد أخـذتني الدهشة، وتملكني الخوف الذي لم يفـارقني منـذ الأمـس، وخرجت مسرعا بعد أن وضعت قدمي داخل خفى وكنت قد عدلت شراكه، مخالفا بذلك أوامر والي الفسطاط، كما أشـار على ثاونا عند دخولنا في البرية الحلفاء للأراضي الموحلـة، حتى لا تتلوث مؤخرة أقدامنا وكعوبنا بالوحـل، ففـي هـذا المكان لا يمكن أن يرانا أحد من رجال الوالي.

وإن كنا قد التزمنا طوال الوقت بملابسـنا زعفرانيـة اللون، وبعقدي زنارنيا المعمولين من خيط الكتان الغليظ على وسطينا وكذا برمانات الخشب على سـروج الركائـب فـي

موضع القرابيس، وكل ما فرض علينا كأقباط حتى نفترق في هيئتنا عن هيئة المسلمين.

ما إن خطوت مبتعدا عن الباب، حتى وجدنا ثاونا واقفا قبالتي، يبتسم ويلقي إلي بتحية الصباح، وكأن لم يكـن فـي الأمر شيء، أو كأنه لم يحم طوال ساعات ليلته.

هتفت مذهولا وقد أخذني الفرح:

- ثاونا.. العزيز ثاونا.. يا أخي الحبيـب، هـل أنـت بخير؟. كيف استطعت القيام والخـروج؟. حمـدا علـى نجاتك. هذه معجزة من عند الرب يا ثاونا.. يا أ !.

كنت مضطربا للغاية، والكلمات تتلاحق مندفعة خارجة من فمي، بينما الدموع تنهمر من عيني، كنت أشبه بطفل تائه عثرت عليه أمه بعد حين. ضمني ثاونا إليـه، وراح يربـت علي قائلا:

- يبدو أنك سهرت إلى جانبي طويلا ليلة أمس يا بدير وتعتب جدا، حتى لم تفق وقت صلاة الصبح. على أية حال، لقد أديت صلاتي، وصليت لأجلك أيضا، الحمد للرب، الـذي بفضله ونعمته نجوت مما كنت فيه. دهن البلسان من أعظـم الدهونات الشافية للـدغ الحيـات والعقارب،وكـل الآفـات

والدويبات الضارة، كما أن ابن العرب أفادني في أن الغيبوبة لم تصل إلى مداها في الدماغ، حمدا هيـا نتريـق، فقـد جمعت بعضا من ثمرات رمانة، يبدو أن صاحب الخص قـد زرعها بالقرب من هنا ووجدتها دانية فأتيت بها لأنها ممسكة للمعدة إذا ما أكلناها، ولسوف تمنع زلاقة أي خضار نأكلـه من الأرض أثناء مواصلتنا المسير.

دخلنا لنأكل، وهممت أكثر من مرة أن أفاتحه فيما بـدر منه أثناء حمته في الليل. لكني كنت أتراجع في كـل مـرة، وآثرت تدبر الأمر حتى أصل إلى وسيلة فيها كياسـة وذوق لقول ما أريد طرحه عليه من سؤالات دون أن أجرحه، فلما أشار علي أن ننجز طعامنا بسرعة ونواصل المسير، وافقته على الفور ولم أضف شيئا.

التزمنا السير بحذاء النهر معظم مسيرنا بعد ذلك، وكان الطريق يقطع أحيانا بالمياه التي أخذت في الزيادة كلما توغلنا أكثر، فنضطر إلى الالتفاف والدوران حتى نجد طريقنا مرة أخرى، وكان بعض الصيادين يتطوعون بنقلنا في قـواربهم لمسافات قصيرة بالقرب من الشاطئ؛ فهم يخافون الخـوض بعيدا داخله خلال ذلك الوقت، وكانت كثرة من البلاد والقرى التي عبرناها أثناء ترحالنا، قد خربت، وباتت مهجورة مـن أهلها تماما وكان كثير من حقولها قد تلـف وخـرب، وقـد أخبرنا بعض الصيادين أن كثيرا من الأهالي الـزراع، قـد التحقوا مع نسائهم وعيالهم بالبشموريين وراحوا يحتمون بهم معلنين العصيان، بعد أن سدت السبل في وجوههم ولم يعـد لديهم ما يقتاتون به، وهم يخشون التعصير والضرب من قبل مشدي الكور والمحتسبين، وكنا نشاهد أثناء سيرنا كثيرا من الهائمين على وجوههم من الرجال اليافعين، وكـذا النسـاء، وهو يتسولون في الطرقات، وهم في ملابس بالية، وأحـوال مزرية قذرة، وقد نصحنا الصيادون أن نتجنب هؤلاء قـدر استطاعتنا؛ لأنهم قد يخطفون منا الرحائل، ويسلبون ما نحمله

من حوائج وما معنا من طعام عنوة وقد عز القوت عليهم فلم يجدوا ما يأكلونه.

وقد أخبرنا عجوز ممن التقيناهم أثناء ذلك، أن معظـم هؤلاء الناس كانوا من أهل القرى الموجودة علـى أطـراف البرية من ناحية الصحارى التي سـكنها العـرب القبائـل، وخصوصا قبائل الحوف الشرقي؛ فأكد لنا أن هؤلاء لا ينئون عن مهاجمة هذه القرى، فيسلبون سكانها ممتلكاتهم وعيـالهم وأحيانا نساءهم، وكذلك يتلفون الزرع، حتى خربت معظـم هذه البلاد وهجرها أهلها؛ فرارا من هذه الحـال، وأن ذلـك العجوز، هو الذي أخبرنا بحادثة دير العذارى العجيبة، ولـم نكن أنا وثاونا قد سمعنا بها من قبل، ولا أظن أن أي إنسـان من أهل بيعتنا قد علم بأمرها شيئا حتى هذا الوقت، فكل مـا علمناه هو أن مروان متولي البلاد قد أباح لأعوانـه الـذي عادوا إليه بعد أن هزمهم البشامرة وطـردوهم، أن ينهبـوا ويعملوا القتل في كل البلاد التي يطلعون إليها، فسار هـؤلاء إلى الصعيد وقتلوا جماعة من الأراخنة ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وأهاليهم وأولادهم وأحرقوا ديارات الرهبان.

أخبرنا العجوز أن بدير العذارى رهبانات كن عـرائس للمسيح وعدتهن ثلاثون عذارء، فملكهـن عسـكر مـروان، وكانت فيهن صبية عذراء دخلت إلى الدير وهي ابنة ثـلاث سنين، فلما نظروها بهتوا من حسنها وقالوا ما شاهدنا قط في بني آدم صورة مثل هذه، فأخذوها وأخرجوها مـن وسـط أخوتها وتشاوروا فيما يفعلونه فيها، فمنهم من قـال نقتـرع عليها، ومنهم من قال نمضي بها إلى الملك، وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبية: أين هو مقدمكم أعلمه بشيء يسـاوي أموالا، وتخلوني فأنا عابدة وما يحـل لكـم أن تفسـدوا عبادتي، بل إذا أعلمتكم بذلك الشيء الذي يحصل لكـم فيـه أموال تردوني إلى ديري؟؛ فقال لها مقدمهم: أنا هو. فقالـت له: آبائي كانوا قوما مقاتلين شجعانا أقوياء، دفعوا لـي دواء كانوا يدهنون به إذا خرجوا للقتال فلا يعمل الحديد فيهم شيئا، وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قـدامهم، فـإن خليـت سبيلي دفعته لك، وإن كنت لا تصدق كلامي فأنا أدهن رقبتي قدامك، وجب أجود سيف يكون مع رجالك ودع أقوى مـن فيهم يضربني فلا يقطع في شيء لتعلم صحة قولي، وإنمـا قالت ذلك لأنها رأت أن تموت بالسـيف، ولا تلتصـق بهـا

نجاسات الإثم ولا يتنجس بها جسدها الطاهر، ثم دخلت بيتها فأخرجت برنية فيها زيت قد صلى عليه القديسـون، وكـان محفوظا عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها، وجميع جسـدها، وصلات تركب على ركبها ومدت عنقها؛ فظـن الجهـال أن الأمر صحيح، ولم يعلموا ما في قلبها. ثم قالت لهم: من كان فيكم قويا وسيفه ماض قاطع فليظهر قوته في، فإنكم تـرون مجد ا في هذا الدواء؟. عند ذلك وثب شاب شجاع بسـيف يفاخر به، فسترت وجهها ببلينها وطمأنت رأسها وقالت لـه: اضرب بقوتك كلها ولا تبال؛ فضـرب القديسـة الشـهيدة، فطارت رأسها فعلموا حينئذ ما فعلت، وأنها خدعتهم فنـدموا وحزنوا حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد، ولـم يلتفتـوا بعدها لواحدة من الرهبانات العذارى، بل تركوهن ومضـوا وهم يمجدون ا .

فتمتمنا بمجده نحن أيضا بعد سماعنا ذلك، وراح ثاونـا يكفكف دموعه المتساقطة رغما عنه تأثرا، ومضينا تـاركين العجوز، على أن نحكي لأبينا يوساب عـن هـذه القديسـة الشهيدة، بمجرد عودتنا إلى قصر الشمع، إن كان لنا عمـر ونصيب في العودة.

لاحت لنا بعد مسافة قرية على البعد، فاقترح ثاونـا أن نعرج إليها، لنغتسل ونبدل ملابسنا التي كانت قـد اتسـخت أطرافها على رغم حرصنا على ألا تتلوث بقذارات الأرض، وكنت ميالا للتوقف أيضا؛ حتى نتمكن من حلـق رءوسـنا، وفكرت أنه ربما سنحت لي فرصة خلال ذلك لسؤاله عمـا بدر منه أثناء مرضه. لكن وبينما نحن نسير على الطريـق، رحت أفكر في كل ما مر بنا فلما وصلت إلى حد ما كان من أمر فلأس الهرطيق، تذكرت حكايـة الشـماس السـاحر، ووجدت أنها تمحيكة مناسبة لمفاتحـة ثاونـا فيمـا أرغـب بمفاتحته، فهتفت بسرعة أقول له:

- ثاونا.. هل تذكر حكاية الشماس الساحر التي رواهـا بعض الآباء البطاركة توقف قليلا، لدرجة أنني تقدمته بعـدة خطوات رغما عني، وقال:

- أعوذ با !. لماذا تتذكر حكاية هـذا الملعـون الآن ونحن في الطريق؟!.

صمت قليلا ثم قلت:

- لا أدري لماذا خطرت ببالي الآن؟. أظـن أن ذلـك الشماس قام بعمل سحر وقتل طفلا؛ فعوقب لهذا السبب.

تحمس ثاونا، وقال:

- لا.. لا.. لم يقتل الصبي، فوفقا لما هو مروي، أن ا أنزل على كورة مصر بلاء عظيما، لما خرج عبيد ا من مصر وتولى بعده القاسم ولده الذي صار فيه الشر أكثر من أبيه دفعات كقول الإنجيل المقدس: إن كل شجرة ردية تثمر ثمرة ردية، هذا فعل الشر قدام ا والناس في مملكته وسلك المسلك الردي، وقد قال سليمان بن داود الحكيم: الويل لأهل المملكة التي ملكها صبي. وكان هذا القاسم صبيا في عمره وفعله، وارتكب خطايا كثيرة، وكان أول البلاء غلاء عظيما؛ فأول سنة كانت البلاد شراقيا فقلت الخيرات وغاب القمح وعدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كثير وبهائم كثيرة، ثم جاء وباء على كورة مصر ثاني سنة لم يكن مثله،ومع ذلك لم ينقص شر القاسم بل ازداد، وضاعف الخراج على الناس، وكان الإنسان إذا نام ليلا يخاف من ضوء الصبح، وما يشتهي الليل حتى يفرغ من كثرة البلايا، وبعد السنة الثانية المواتة، جاءت السنة الثالثة شراقيا، لم يصعد النيل التبة، ولم ير الناس في أيامه خلاصا، بل كانت السنين تتقلب، هكذا بأمر ا سنة وباء وسنة شراق إلى آخر السنة التي أخذت

منه فيها المملكة وهي السنة السابعة، وكان الوباء مـن أول هتور كل سنة إلى الثاني والعشرين من بؤونـة، ومعظمـه بمصر لكثرة الخطايا التي كانت بها، وكان من ثامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونة حل بالناس فناء لـم يحـص بعض من مات فيه. يوم يموت ألفان، ويوم ألـف ومائتـان ويوم ألف وأربع مائة بمصر والجيزة مـن سـائر النـاس القاطنين بهما، وتجار من الغرباء، حتى انقطع دفـن النـاس الأموات، والقبور، ولا يدفن رجل حتى يعلم بـه السـلطان، ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذي يرضـع، ثـم إن آباءنا سألوا الرب، وأيضا الفقراء والأغنياء وتضرعوا إليـه بالصوم والصلاة والبكاء والابتهال إلى أن ترأف الرب بهـم ورفع الوباء ورحمهم.

وبعد هذا باع التجار القمح للناس، وظهر وكثر، فمضى قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن في منـف وهي مصر القديمة، ودفعوا له مالا كثيرا، وسألوه أن يعمـل سحرا ليغلوا به القمح، فبدأ يعمل أعمالا تغضب ا بصنعته وسحره المرذول، وكان عنده صبي يتيم ابن امرأة أرملة ليس لها ولد سواه، فقال لها: أنت مالك شيء تأكلينه ولا تطعمـين

ابنك، ادفعيه لي أجعله لك ولدا وأعلمه صنعتي، فسلمته لـه وهي مسرورة، وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحرة كثـر في مواضع حتى علموه سحرا عظيما، ففعل مـا غـلا بـه القمح، ثم إن الكافر أخذ ولد الأرملة ودخل به بيتـا وأغلـق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عـن الأرض وفعـل بمـا يغضب ا ، ولم يزل يسلخ جلد الصبي من وجهه إلى رأسه كل يوم إلى أن انتهى إلى أكتافه؛ فغاب القمح وعدم بعـد أن كان قد بيع عشرة الأرادب بدينار وبيع مـدان بـدينار، ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الأرملة، وقال لها: لولدك عدة أيام ما جاء عندنا فبأي موضع هو، فمضت إلـى ذلك الكافر وسألته عن ولدها فقال لها: لي عدة أيام ما رأيته وخرج من عندي ومضى إلى عندك ولم أعلم له خبرا، فلمـا سمعت هذا منه مضت بحزن عظيم، وكان الصبي إلـى ذل اليوم لم يمت بل كان معلقا قد سلخ كثير منه، وكان الصـبي العريف ينظر معلمه الساحر يدخل ساعة بعـد سـاعة إلـى الخزانة التي فيها الصبي معلقا، فقال في قلبه: مـاذا يصـنع معلمي في هذه الأيام، يدخل هذه الخزانة ويخـرج؟. وكـان ذكيا فدخل المعلم فتتبعه الصبي بمكر فسمع ابن الأرملة يبكي

ويتضرع إليه وهو لا يرحمه، وكان يقـول كلامـا يحـزن القلب: الويل لك يا أمي الحزينة الأرملة لأنك ما تعرفين مـا حل بي، الويل لبطنك التي حملتني ولثدييك اللذين أرضعاني، أين أنت تنظري عذاب ولدك اليتيم؟. ليتني مت وأنت حامـل بي ولم تلديني على الأرض حتى أقع في هذا العذاب. ويقول مثل هذا كثير، والصبي العريف يسـمعه، فخـرج مسـرعا بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيـت الأرملة أم الصبي، فقال لها: قد وجدت ابنك. فجاءت مسرعة بعد أن أعاد عليها ما سمعه من فم ابنها، فمضت إلى الوالي وأعادت عليه القضية وما سمعته، فأنفذ معها قوما ثقات مـن المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت الكـافر، فوجـدوه داخـل الخزانة التي فيها الصبي معلقا مسلوخا من رقبته إلى كتفيـه فحملوه، والساحر مكتف معه إلى الوالي، وبغتةً ربطوا يديـه ورجليه وقطعت أذناه بين يدي الوالي، فاعترف له بكل مـا كان منه، وأحضروا الصبي، وعاينوه على تلك الحال وكتبوا في الوقت إلى القاسم ملك مصر، فلما وقف على الكتاب أمر برجم الكافر وحرقه بالنار.

ما إن فرغ ثاونا من حكاية الشماس الساحر، حتى التفت لي بجد وقال وهو يثبت نظره في ناظري:

- بدير.. اصدقني القول: هل قلت شيئا لا يليـق بينمـا كنت محموما أهذي؟.

رحت أراوغ، محاولا ألا أغضبه أو أخجله وهو بمكانة المعلم مني، فقلت له أنه تحدث بكلام كثير تضمن اختلاطات في المعاني والألسنة، وأنه كان يهذي بلسان قبطـي حينـا، وعربي حينا آخر، كما قال يونانيات، وقد ذكر يسوع الكلـيم والسيدة البتول، وأسماء أخرى وكلمـات غيـر مفهومـة لا أعرف بأي لسان هي، وإن كنت أظن أنه اللسان العتيق.

احتدت نظراته وبدا ساهما وتساءل:

- أية أسماء غريبة يا بدير تلك التي نطقت بهـا وأنـا غائب عن الوعي؟. بالله عليك قل يا بدير أخي الطيب شـبيه يوحنا فم الذهب.

قلت وقد ضيق علي:

- أسماء لا أتذكرها الآن يا ثاونا.

- بدير.. اصدقني القول بحق الصليب؟.

عند هذا الحد، فاض بي، وكنت قد استشـعرت مـدى ضيقه وألمه، فقلت:

- الحق وقد قلت بحق الصليب، أقول لك أنـك نطقـت باسم ذلك الذي لا يجوز النطق باسمه، كمـا أنـك ذكـرت الأوثان يا ثاونا. رحت أزدرد ريقي الجاف وأنا أخبره بذلك، ولم أكن أجرؤ على النظر في عينيه خوفا مـن أن يتهمنـي بشيء أو يكشف لي عن إثم أكون قـد اقترفتـه؛ فالشـيطان شاطر ويستطيع أن يخدع الإنسان دون أن يدري، وما أنا إلا قيم مسكين أخبز القربان وأرعى شئون البيعة، ولا طاقة لـي بالعمل الكنسي ولا أملك الخوض فيه، وما زال إثمي الدنيوي الذي اقترفته في ترنيط يعذب روحي ويدنس أفكاري.

زفر ثاونا بحزن ويأس، ثم قال:

- إذن. فقد أفلت لساني لما كنت محموما، ونطق بما لا أرغب في النطق به. أجل يا بدير لقـد عشـت زمنـا فـي الهرطقات قبل أن تطهرني الكنيسة، وعرفت العلم والفلسـفة سنين طويلة. وكنت مسيحيا غنوصيا أقول بالمعرفة الحقـة الموصلة إلى السبب الأول الذي هو الخير عن طريق الحدس واكتشاف النفس للخاصة المصطفين وذلك لفترة من الـزمن،

لكني تطهرت بفضل الرب من كل ذلك الـرجس، وصـرت تاوضوسيا حقا، والفضل في ذلك يعود إلى كثرة اجتهادي في الإيمان وقراءة اللاهوت الحق. ولكن الحق أقول لك يا بدير: في بعض الأوقات تراودني أفكار مختلطة عن هـذا العـالم الذي نعيش فيه، وهناك مسائل لا أفهمها على الـرغم مـن اجتهادي في العلم ودرايتي، بالناس وأمورهم، قل لي بربـك يا بدير: ما معنى كل ذلك الذي يحدث الآن؟. وأبونـا فـي قصر الشمع يبعث الرسل بين الحين والحين إلـى البشـامرة يأمرهم بطاعة أولي الأمر والسلطان ودفع ما علـيهم مـن خراج، وها نحن من أولئك الرسل الذين يرسلهم، والخـوف كل الخوف أن يتجرأ علينا البشامرة بالعنف، أو يقتلونا مثلما قتلوا إسحق ومن معه، وهو الرسول الذي كان أبونا قد أرسله لهم في العام الماضي. ثم إن العرب المسلمين يثورون أيضا ضد هؤلاء الولاة ويرفضون دفع الخراج مثل القبط، وديـن المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن فعل المنكر، ولا ينكـر السيد والبتول، وعامة الناس من المسلمين العـرب بسـطاء متقشفون في حياتهم وملبسهم وجوامع الصلاة لا ذهب فيهـا ولا فضة فهم يركعون ويسجدون للرب في خشية وخشـوع

بكل أدب وبساطة، إذن.. قل لي بربك يا بدير: لماذا يتجبر هؤلاء الأمراء والولاة ويسلكون مسلك أباطرة وملوك الروم في الزمن القديم؟، ولماذا يتوسطهم أبونا يوساب بينهم وبين البشامرة بدلا من أن يقوي البشامرة عليهم؟، ولماذا لا يأمر الولاة بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ليكونوا مثلما كان الولاة في مبتدأ الإسلام، كما قرأت عنهم في الكتب وسمعت: أتقياء بسطاء، يخشون الرب ويعيشون في الزهد والتقشف وكأنهم رهبان داخل قلايات؟. لكن انظر أولئك الذين يحكموننا الآن. انظر هذا المروان، كيف يتصرف ويسلك هو وأجناده، الذين باتوا متغطرسين جبابرة وكأنهم عسكر في جيش بيزنطة. أنا لم أعد أفهم شيئا يا بدير، لا أفهم لم كل هذه الحرب؟، ولم كل هذه المشاحنات في البلاد؟. أنا خائف يا أخي وا ، ولم أعد أعرف أين الحقيقة وأين رأسي من قدمي.

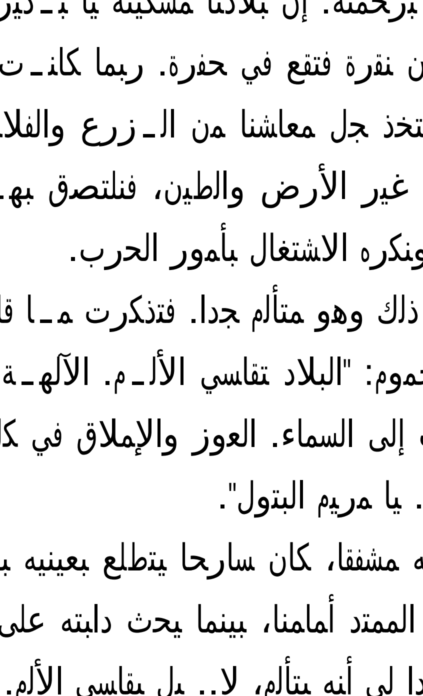
صلبت وقد أخذتني الدهشة ورحت أقول:

- أأنت أيها العزيز ثاونا الذي تقول ذلك؟. أأنت لا تعرف أين الحقيقة وأنت غزير العلم والمعرفة. لا، لا أظن ذلك، ولكن لعلك لا تعرف البشموريين مثلي؛ فهم أهلي

وناسي، إنهم أجلاف قساة، خشنون لا يعرفون شيئا من أمور السياسة، فهم أهل فلاحة وصيد، ولعل أبانا أدرى بمصلحتهم منهم، فهو في قصر الشمع بمصر العتيقة يرى مالا يرونه هم في كورهم البعيدة، وهو يريد تجنيبهم سفك الدماء ويحـرص على سلامتهم وسلامة نسائهم وعيـالهم، ويريـد أن يكـون واسطة خير بينهم وبين الوالي.

تنهد ثاونا بضيق، وبدا وكأن كلامي لـم يعجبـه، بـل لمحت ما يشبه البسمة الساخرة المشفقة على وجهه، بينما هو يلكز بغله ليبطئ سيره قليلا، ويقول:

- يا لك من بريء طاهر يا بدير الطيب. لا، لا أظن أن ذلك هو السبب فقط يا عزيزي؛ فأبونا يوسـاب عينـه أولا وأخيرا على بيعتنا اليعقوبية ومملكاتها وثرواتها، وحربه أولا وأخيرا ضد الملكانيين الهراطقة، وهو يتمنى الوقـت الـذي يجيء فينقطع دابرهم من البلاد، فانتشار الإسلام في القـرى والكور لا يقلقه، هو حريص على رباط الود مع المسـلمين جميعا وخاصة الولاة والأمراء؛ حتى يقووه في حربه ضـد الكنيسة الملكانية، التي إن سادت في البلاد، فربما عاد الروم إليها وسادوا مرة أخرى مثلما كانوا في الماضي. آه يا بدير،



فليرحمنا الرب برحمته. إن بلادنا مسكينة يا بدير، مبتلية دوما، تخرج من نقرة فتقع في حفرة. ربما كانت مأساتنا تكمن في أننا نتخذ جل معاشنا من الزرع والفلاحة، ولا نعرف لنا حيلة غير الأرض والطين، فنلتصق بها نروم السلام والدعة ونكره الاشتغال بأمور الحرب.

كان يقول ذلك وهو متألم جدا. فتذكرت ما قاله في هذيانه وهو محموم: "البلاد تقاسي الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق في كل مكان يا يسوع المخلص. يا مريم البتول".

نظرت إليه مشفقا، كان سارحا يتطلع بعينيه بعيدا إلى الأفق الأخضر الممتد أمامنا، بينما يحث دابته على المسير مرة أخرى، وبدا لي أنه يتألم، لا.. بل يقاسي الألم.

دخلنا القرية وقد قيل لنا أن اسمها "غيفة"، وبدت للوهلة الأولى وكأن بها قليلا من الناس الساكنين؛ إذ كـان معظـم أبواب بيوتها مغلقا، وليس هنـاك مـن يسـتقبلنا بالصـياح والزياط عند ولوجنا طرقاتها من الأطفـال والعيـال الـذين يوجدون في ذلك الوقت عادة للهو واللعب؛ فيعلنون بذلك في التو لأهاليهم عن مقدم الأجانب والأغراب.

فلما بلغنا ساحتها، وكانت ساحة واسعة لزوم درس البر وذرايته كما هو معتاد في البلاد والقرى، لـم نجـد بهـا إلا نورجا واحدا في ركن منها، ثم إن فلاحة ذات وجـه شـائه كثير الغضون انبرت لنا، وراحت تتأملنا باسترابة من خلـف باب دارها الموارب، ويبدو أنها اطمأنت إلينا بعد حين، وقـد تيقنت من لباسنا الأصفر وزنارينا المجدولين، وأننا من أهل البيع وأصحاب الملة، فرحبت بنا كثيرا، وكأنها عادت إلـى الشباب، وهي العجوز التي ليس في فمها إلا سـن وحيـد، إضافة إلى ناب ظهر لنا وهي تتبسم، ثم إنها اعتذرت عـن استرابتها وتلكؤها في الترحيب بنـا بسـبب خوفهـا مـن الأغراب، وضعف باصرتها بسبب المرض، وقد ألـم منـذ زمن بعينيها، ثم إنها لما سلمنا عليها وطمأناها ورحنا نستفهم

منها ونسألها، أخبرتنا أن القريبة صار يسكن بها قليل من الفلاحين المشتغلين بالأرض، بعد أن هجرها معظمهم، وأن القرية صارت منزلة قافلة الحاج فأسلم كثير من الناس لما يحصلونه من فوائد وميز من جراء ذلك، وفضلوا خدمة الحاج على خدمة الأرض لإدرارها عليهم الفضة والدنانير؛ مقابل ما يؤدونه من طعام وشراب للمرتحلين، لذلك لم تعد بالقرية إلا قلة من أهل الكنيسة، وقد أخبرتنا هذه الأم الطيبة لما سألناها، أن هذه القرية القديمة كانت عامرة حتى وقت قريب، وأن من هم أكبر منها وحضرتهم قبل موتهم، كانوا يقولون بأن البلد تعود إلى زمن صواع الملك، الذي فقد من مدينة مصر، ووجد في رحال إخوة يوسف النبي، وأنه كان من "غيفة" هذه.

ثم إن العجوز استقبلتنا في مودة، وأجلستنا في مكان المضيفة، وقدمت لنا الكامخ والصحناء والصبر وشيئا مما طبخته لغدائها، كما أشربتنا شراب الحلبة المحلى بالعسل، وقدمت لنا ما كان عندهم من عنب الفيوم وردي اللون كبير الحب، وهو عكس ما كان من كروم بيعتنا المخصص للخمر، الأصفر اللون صغير الحب والمسمى بالبناتي لخلوه

من البذر، فلما انتهينا من كل ذلك شكرناها كثيرا وهممنا بتوديعها ومعاودة المسير، لكننا قبل أن نفعل قالت أنها تريد أن تسألنا مسألة، ونساعدها على حل مشكلة، أما المسألة فهي أنه لما كان معظم سكان القرية الذين تبقوا فيها قد تحول إلى الإسلام، ولم تعد هناك إلى قلة من المسيحيين لا يوجد منهم من يصلح لابنتها البكر، فقد اضطرت لتزويجها برجل كان قد دخل في الإسلام منذ زمن يسير، وشارطته أن يترك البنت على دينها إذا ما أرادها تحته في بيت واحد، على أن يكون له كل مالها وموجودها وأرضها بعد أن تموت وترثها الفتاة، فوافق الرجل وترك زوجته على ما هي عليه، تتطقس بطقوس الكنيسة، مثلما كانت تفعل في بيت أمها، وقالت العجوز أنها تخشى أن تكون قد عصت أمرا ؛ لأنها ما أرادت غير سعادة ابنتها والاطمئنان عليها قبل موتها، لكنها لا تريد أيضا إلا رضا السيد المخلص عنها، وأن تموت وهي مطمئنة للتنعم في ملكوت الرب.

أسقط في يد ثاونا، وهو المتكفل بالكلام في هذا المقام، أما أنا فسكت؛ لأنه لا تحق لي الفتيا فيما لا أعلمه. وظل

ثاونا صامتا لفترة، يتأمل المرأة وأحوال الدنيا، لكنـه قـال أخيرا:

- هذا زمن صعب يا أمي، وهناك مسائل لا تحـل إلا يوم الدينونة، فليغفر ا   لك ولابنتك ولزوجها ولنـا جميعـا، ولكني أقول لك ما قاله بولس الرسول إلى أهل رومية مـن كلمات درية مقدسة:

"وأما أنا فجسدي مبيع تحت الخطيئة؛ لأني لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإياه أفعل. فإن كنت أفعل ما لست أريده فإني أصـادق النـاموس أنـه حسن. فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطيئة الساكنة في. فإني أعلم أنه ليس ساكن في، أي في جسدي، شيء صـالح لأن الإرادة حاضرة عنيد وأما إن أفعل الحسنى فلست أجـد؛ لأني لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الـذي لسـت أريده فإياه أفعل، فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل، فلسـت بعد أفعله أنا، بل الخطيئة الساكنة في".

ثم إن ثاونا أخذ يصلي ويصاب، والمرأة تصاب وتصلي معنا، وبعد ذلك أشار عليها ثاونا بضرورة أن تتحصل على كتاب الرب وتحفظه في بيتها؛ حتى يحفظها ويحفظ ابنتهـا،

ولو أنها لا تقرأ ولا تنظر فيه، كما نصحها بالذهاب كل أحد إلى البيعة للصلاة الجامعة،وكذا بالصوم، والحـرص علـى التطقس بالطقوس التاضوسية والالتزام بهـا، وأن تحصـن ابنتها على فعل ذلك دوما؛ لأن المسلمين لا يخـالف ملـتهم التزوج من ملة اليهود والتضاوسيين؛ لأنهـم أهـل كتـاب يعترف بنو الإسلام بأنبيائهم ورسلهم، ثم إنـه قـام برقـي العجوز كما طلبت منه. ثم قادتنا إلى موضع المشكل الـذي أرادت أن نعينها على حله، وكان قنًا للدجاج وضـعته إلـى جانب موضع حيواناتها التي تربيها وترعاها في فناء دارهـا الخلفي؛ حيث كانت إلى جواره حضانة كتاكيت، وقالت أنهـا تتبع الأصول المعتادة في التفريخ بالحضـانة، لكـن أغلـب البيض يفسد ولا تخرج منه الكتاكيت، ثم إنهـا أرتنـا بيـت الترقيد، وكانت صفته مربعا طوله ثمانية أشبار في عـرض ستة في ارتفاع أربعة تقريبا، وله باب في عرضـه سـعته شبران وعقد في مثله، وفوق الباب طاقة مسـتديرة قطرهـا شبر مسقفة بأربع خشبان، وفوقها سدة قصب يعنـي نسـيجا منه وفوقه ساسي وهو مشاقة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين، وكان الطوب مرصوصا كما هي العادة، وسائر البيت

مطين ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتـى لا يخـرج منـه بخار، وكان في سقفه شباك كما ينبغي، سعته شبر في شـبر بما يحكي صدر الدجاجة، وكان هناك أيضا حوضـان مـن الطين المخمر بساس، طول الحوض ستة أشـبار وعرضـه شبر ونصف وسمكه عقدة إصبع، وحيطانـه نحـو أربعـة أصابع، وكان هذا الحوض لوحا واحدا كما ينبغي على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن وقد جـف الطاجنـان وركبا على طرف السقف، أحدهما على وجه الباب والآخـر قباله على الطرف الآخر تركيبا محكما، وقد أخذ وصـولهما بالطين أخذا متفقا، وهذان الطاجنان يحاكيان جناحي الدجاجة كما هو مقدر، والبيت مفروش بقفة تبن وممهد وفوقه ضـب حصير، والبيض مصروف فوقه رصفا حسنا بحيث يتمـاس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه، وكان كله قد وضع فـي هذا الوضع الذي هو وضع الترقيد، والحضانة مسدودة الباب بلبد مهندم، والطاقة مسدودة بساس وكذا الشباك، وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار. وكان فـي الطـاجنين زبل البقر اليابس أي الجلة، وهو حوالي قفتين أي نحو ثلاث ويبات، وموقد فيه سراج من جميع جهاته وهو لـم يصـبح

رمادا بعد ولم ينته اشتعاله. وقد قالت العجوز أنها ظلت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن وضعته على عينهـا،واعتبرت حرارته، أي أنها اختبرت زواقه، فلم تجده يلذع العين لتقلبـه ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعـلاه وأعـلاه أسفله، بما يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارهـا وتفقـدها إياها بعينها، وهذا ما يسمى السماع الأول، لذا فهي لم تـزل الزبل الذي صار رمادا، ولم تتركه بلا نـار إلـى نصـف النهار، بل أضافت إليه زبلا وعاودت الإشعال وذاقت البيض بعينيها فلم تجد أن حرارته معتدلة، بل كانت تلذع، وقد تكرر معها ذلك عدة مرات، وكان البيض يفسد فسألت كاهنا ممـن عرفت عنهم الأعمال لعينيها على نجاح الحضانة، فعمل لها تعويذة لم تنجح ولم تؤت مفعولها، ثم إنها دفعت إلينا بـرق، أخرجته من حفرة كانت قد حفرتها بـالأرض إلـى جانـب الحضانة، فلما فتحها ثاونا رحنا نقرؤهـا، وكانـت مكتوبـة بالعربية واليونانية والقبطية التـي أدركـت قراءتهـا جيـدا وكانت:

"أنا أدعوك أنت يا أتراك، العظيم الذي يقف عن يمـين الشمس والذي تدين له بالولاء كل قوات الشمس، اذهب حتى

حافة الهاوية، الفضة اذبحها، الصلب اكسره. الحديـد أذبـه. الحجر فتته. مياه البحر جففها. الجبال حركها. إني أدعـوكم يا رؤساء الملائكة الســبعة ميخائيـل وجبرائيـل وأرييـل وراكوئيل وسروييل وأنوئيل وسلفوئيل، لتنزلوا جميعا حتـى ميخائيل إلى هذا المكان ولا تسـمعوا شـيئا إلاّ مـا أقولـه لتمنحوني طلبي وتحققوا الرغبة التي تجيش في عقلي وتتوق إليها نفسي. أنا سأعبر أنهار النار السبعة. وأصعد إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصباؤوت. وسأجد ميخائيل واقفـا عن يمين الآب. أسرعوا.. أسرعوا.. أسرعوا. أنا أتضـرع وأستحلف وأتوسل إليكم أيها الشهداء القديسون. أنا تيودوروا المرأة العجوز الخاطئة، أضع أمامكم هذا الاتهام ضد كل من يفسد بيض حضانتي من الناس والأرواح الشريرة المتخفيـة في الحيوانات، ولتحل اللعنة على كل مـن يفسـد بيضـي وليشتت شمله ولتشمله النقمة ولتنزل فـي الحـال الـذراع الجبارة واليد القوية عليه. أيها الشهداء القديسـون أسـرعوا ونفذوا مطلبي. أرسلوا قواتكم ومعجزاتكم. أسرعوا ونفـذوا مطلبي". دفع ثاونا الرقعة إلى تيودورا مرة أخرى وهو يقول لها:

أستغفر ا من كل هذا. أحرقي يا تيودورا الطيبة هـذا اللغو في النار عندما تخبرني خبرك، أما كتاكيتك وحضاناتك فالمشكل فيها أن السراج لا يشتعل كما ينبغـي؛ إذ إن فتيلـه مهترئ ويحتاج إلى تغيير. ولم تكن العجوز تدرك ذلك بسبب ضعف بصرها.

ثم إنه قال بحنو وهو يربت على كتفها:

- هل استعملت يا أمي شيئا يفيد في تقوية البصر، حتى يمكنك تأدية ما ترغبين لتدبير شئون حياتك؟

ردت المرأة بقبطيتها الممزوجة بالعربية، والتي كانـت تحدثنا بها من قبل:

- أنا أقطر فيها بين الحين والحين ملح الشب المطحون، بعد أن أمزجه بالماء الأول من النيل والـذي أخزنـه فـي قواريري عند نزوله كل عام وقت هلول بشنس.

رد ثاونا بسرعة:

- لا.. لا.. محلول الشب لا يكفي وحده يا أمي لعتامـة العين، بل عليك بالعصارة الطرية من الجميز، ثم إنه يتوجب عليك بين الحين والحين، خصوصا في شهور ا الحارة، أن تقطري في عينيك مزيجا من الخروع والزاج الأزرق وزيت

الفجل وبعضا يسيرا من القلافونية، على أن يكون كـل مـا سبق بمقادير متساوية ومقدارين من المـاء الطهـور، فهـذا القطر يدرأ سموم الحر التي يدفع بها الشيطان إلـى أبصـار الناس.

على الرغم من المشقة وتعب الطريق، فإن رحلتي مـع ثاونا إلى الأراضي الموحلة، بدت لي من أجل الأزمنة التـي عشتها في حياتي؛ فملازمة رجل قليل الوجود مثله لهو مـن دلائل النعم التي يفيض بها الرب على الإنسان، ولئن قال من قال: الرفيق قبل الطريق، فإن ثاونا لم يكـن مجـرد رفيـق جديد، ولا مجرد شماس تقي، غزير العلم، واسع المعرفـة، أرافقه في مهمة كنسية واجبة، بل كان مني بمثابة الروح من الجسد، والهواء من التنفس، أو إنه ضـياء يستضـيء بـه وجداني ويعتمر؛ فأهتدي إلى شطآن السكينة واليقـين، أنـا المتخبط دوما في ظلمات اليأس والعذاب، لا يفارقني القنوط أبدا وهو من أرشدني إلى حقيقة أن الحجاب على منى، وأني الغمامة على شمس نفسي، وأن علـي أن أعـرف حقيقتهـا ومواطن العتمات واللين فيها.

لقد حدثته ذات مرة بما يثقل صدري، وكنا جلسنا تحت شجرة نبق لنستفيء ونستريح قليلا، فوجدتني أبوح له بما لم أبح به لأحد أبدا، حتى لأبينا يوساب، وحكيت له حكايتي مع آمونة كما كانت وجرت على وجه الدقـة، دون زيـادة ولا نقصان، فأمسك بكفي، وهو يكفكف دمعي. بمنديله وقال:

- أتعرف يا بدير أن الرب يسبب الأسباب، فلولا حكايتك هذه مع آمونة.. لما كنت قد سلكت طريقك في الحياة، حتى وصلت إلى طريق الرب في البيعة وصرت مسيحيا جيدا سليم الإيمان، وربما لو بقيت إنسانا علمانيا بعيدا عن الخدمة، لم تسلك في الأكليروس، أخذتك الدنيا إلى شطآن الضلال تتخبطك الأفكار، وتدفع بك في كل اتجاه ولا تسلمك إلى سكة اليقين أبدا. إن قصتك ليست وحيدة فريدة أيها الأخ العزيز، فأنا أيضا، كلما تذكرت قصتي الأولى عندما كنت أعيش في الوثنية والضلال، أتيقن أن الرب إنما وضعني فيها حتى تقودني قدماي في النهاية إلى طريق الصدق والإيمان.

هتفت بدهشة، وقد دفعني الفضول:

- ثاونا.. قل لي بربك ولا تحجب عني شيئا، هل لك قصة مثل قصتي؟. هل عرفت صنف النساء في حياتك من قبل يا ثاونا؟ يا أ !!.

ابتسم ثاونا ابتسامة باهتة؛ ربما لأني قلت ذلك بلهفة بينة، ورغبة قوية في معرفة أمر يخصه ويخفيه. ربت على كتفي وقال:

- ولماذا تظن أنني لم أعرف نساء من قبل، وتدهش إذا كانت لي قصة معهن ذات يوم؟. ألست رجلا كاملا أمامـك. وكنت ذات يوم شابا فتيا يافعا له جسد يطلـب مـا يطلبـه الرجال؟.

ثم إنه أخذ يبتسم مرة أخرى وهو ينظـر إلـي بحنـو وعطف.

خجلت من نفسي، وقد رد علي بذلك، لكني في الحقيقة، كنت أرى ثاونا وكأنه كائن نوراني، وكأنه ساروفييم سماوي وليس كبشر جسداني، فقلت له:

- لا.. لا بحق السيد ثاونا، أنا لم أقصد ما يعنـي أنـك لست كاملا، لكني أنزهك عن كل خطيئة شهوانية وأستحيلها بالنسبة إليك، فأنت حكيم، راجح الوجدان، راسخ المعرفة.

قاطعني بسرعة:

- لا.. لا يا بدير؛ ذاك لأنك عرفتني بعد أن اهتـديت، أما في الماضي فقد عشت في الخطيئة، والمشكل يا بـدير – ودعني أصدقك القول، وليسامحني ويغفر لي الـرب – هـو أنني حتى هذه اللحظة التي أجلس فيها وأحدثك، لا أشعر أنها خطيئة، بل كلما طافت الذكريات برأسي، وتمثلـت صـور

الماضي أمام ناظري، وكأنها حدثت بالأمس القريب، انتعشت روحي بالفرج، وغمرتني سعادة لا أقـوى علـى احتمالهـا أحيانا؛ فأشعر أنني أرغب فـي القفـز والطيـران والعلـو والارتفاع حتى أعالي السحاب.

فتحت عيني بقوة وأنا أحدق في عينيـه بدهشـة، وقـد وجدتهما تلمعان بقوة زادتهما جمالا وبهاء، فصار وجهه أكثر وسامة وجلالا، وقلت له وقد أخذني الشوق والعجـب ممـا يقول:

- يا أ   يا ثاونا! أنت تقول ذلك؟. تقول أنك لا تشـعر حتى هذه اللحظة بالخطيئة؟!.

- أجل.. أجل يا بدير.. أن لا أشعر بالخطيئـة أبـدا، وأتعذب لذلك كثيرا؛ لأنه يفترض أن أشعر بالخطيئة وأتوب إلى الرب، ولا أعرف، لماذا يحدث لي لذلك يا بدير؟.. قـل لي لماذا لا أندم وأتوب؟. بل لماذا أتمنى أن أعيش ما عشته من قبل والذي يسمى خطيئة؟.

صلبت بسرعة، وداخلني شعور مباغت، بأن ثاونا بدأت تداهمه اختلاطات.

وقد تذكرت من جديد ما أشيع عنه في السـابق وكـذا هذياناته وهو محموم، وآثرت أن أنهي الكلام؛ فربما كانـت ثمة شياطين تحل في المكان أخذت في الهيمنة علينا مبتدئـة به، قلت له بارتباك:

- ثاونا، هيا بنا نصلي صلاة المسـاء، فالسـاعة الآن حوالي الرابعة بعد الزوال، ولنتوجه بعد ذلك بسـرعة إلـى غايتنا ونعاود المسير.

قال بسرعة، وكأنه يحادث روحه أمام صفحة نبع رائق، وكأن قوة جبارة تدفعه إلى الكلام دفعا، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفه.

- لا يا بدير لن نعاود المسير قبل أن تسمع حكايتي، أنا أريد أن أقص لك خبري عن دلوكة، أريدك أن تعرف حبيبتي دلوكة، معلمتي وسيدتي ومولاتي أمس واليوم وغدا، وحتـى أبد الآبدين.

كيف أصفها لك يا بدير؟. أأصف لك روحها، أم أنشدك أغنيات جسدها؟. إنها معلمتي الأولى، عرفت الحكمة علـى يديها، فهمت الفلسفة والحساب، خبرت أمور الطبابـة، إنهـا آخر النساء العظيمات.. وربما لن تجود القـرون القادمـات

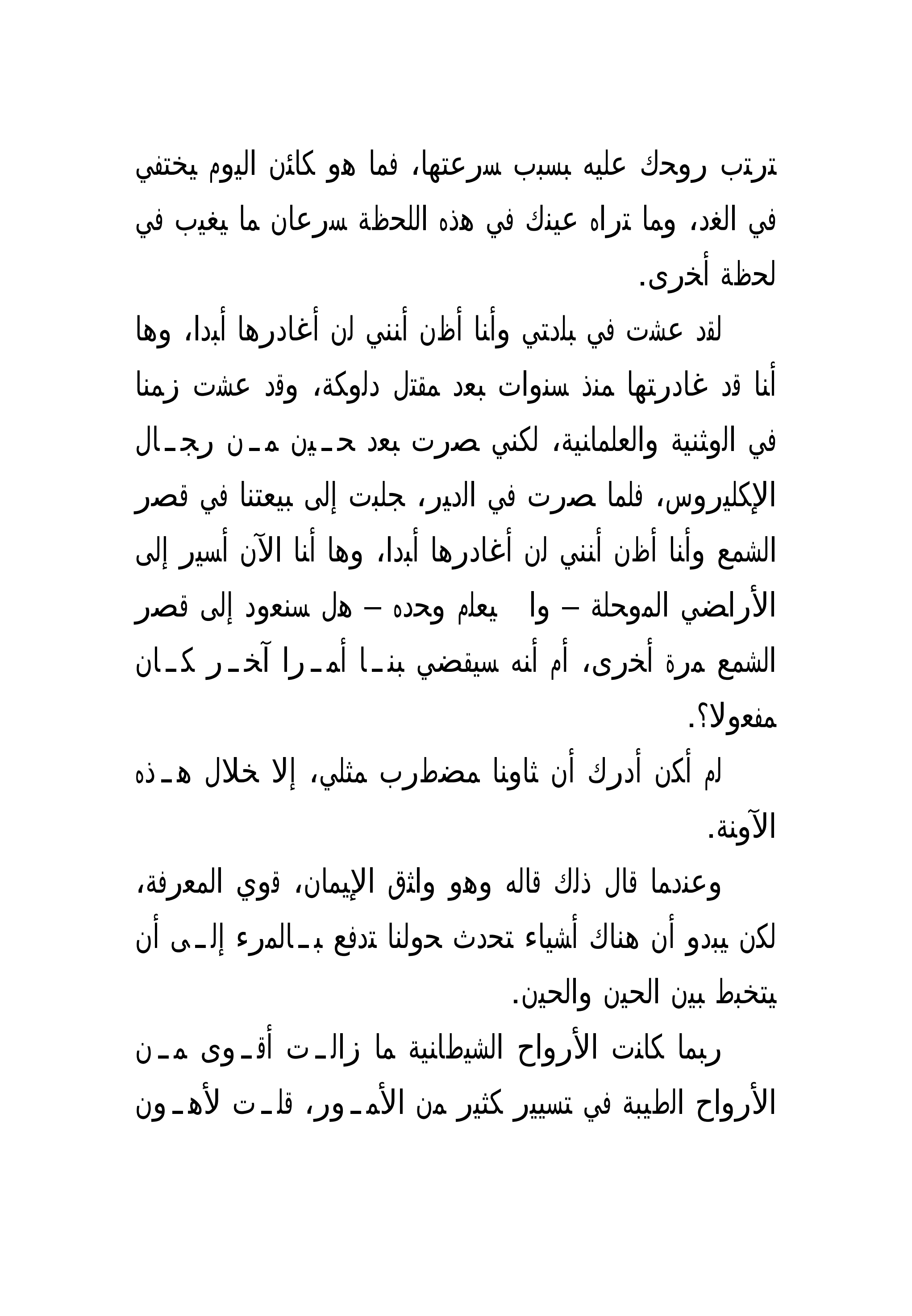
بمثلها. كانت تعلم في مدرسة بربـة بلـدة أنطونيوبـوليس، وكانت هذه البرية تقع عند آخر البلدة على مشـارف الجبـل القريب منها، وكانت دلوكة موقرة، محترمـة بـين النـاس، مشهورة بعلمها ومهارتها، التي يقال أنها ورثتها عن آبائهـا وأجدادها، وكان أبي أثناء ذلك متمسكا بدين الوثنية، يـذهب إلى البرابي ويتعبد، فدفع بي إليهـا لتعلمنـي منـذ أن بلـغ العاشرة، فلما بلغت وصرت فتى يافعـا، تأخـذني أشـواق الذكورة والرجولة إلى نوع النساء، تولعت بها، ولم أعد أملك من أمري أمرا، وكانت دلوكة جميلة آسرة، كشمس شـتوية في نهار بارد وقد زادها العلم بهاء، والحكمة فتنة وحضورا وقد هيمن على جسدها فأصبح يأتمر بأمره، ولعلك تعلـم أن أبدع الأجساد هو ما كان مطية للعقول، فتتحول الغرائز إلـى ملكات، ويروض الإنسي كل ما هو وحشي. وهكـذا كانـت دلوكة؛ فالمرء لا يدرك سر هيامه بها، أهو بسبب تشـكيلها الجسماني المترتب في تناسق وإحكام، أم أنه يعود إلى فيضها الروحاني السابغ عليه بما لا يقوى على مقاومته ولا يسـعفه به الفهم والتفسير؟. وهكذا باتت تهيمن على روحي وعقلـي، وتأسر كلي، وبعضي، فزهدت الطعام، وأخـذت بالشـراب،

وصرت أبيت ليلي وأصبح صباحي، لا أدري قمرا مثلها ولا شمسا، ويبدو أنها فطنت إلى حالي، وهالها ما سوف يصـير إليه مآلي، وهي المرأة العليمة الحاذقة، فقالت لي ذات يـوم وقد ذهبت إليها في البربة لأسألها في أمر من أمور جالينوس في التشريح، وقد كنت رأيت في بعض الرمم أن عظم الفـك الأسفل هو عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، على عكس ما يرى جالينوس في كتابه حيث يقول أنـه عظمـان بمفصل وثيق من الحنك، المهم أنها أفادتني وأجـابتني عـن المشكل بما نفعني، ثم إنها قالت وهي تحدق في عيني طويلا:

- ثاونا.. اتبعني يا حبيبي الجميل، إلى حيث أكون معك وحدي.

سرت وراءها كالمسحور، وكأنها أرسـلت مـن لحـظ عينيها نارا أشعلت بها جسدي، وضجت بها نفسـي، حـين هتفت بندائها: "حبيبي الجميل".. فلا أعرف كيـف عبـرت الدهليز، أسرت أم طرت؟. ثم إنها أمسكتني لما وصلنا الباحة المنتهي إليها ذلك الدهليز، وراحت تنضو عني ردائي شـيئًا فشيئًا، وتدفع بجسدها – وقد تعرت مثلي – تجاه جسدي، فما لبثنا إلا قليلا؛ حتى غرقنا في منهل القبـل، وسـرعان مـا

ارتفعنا حتى بلغنا فراديس النشوة العلوية، وكانت هذه هي مرتي الأولى التي ألج فيها إلى بساتين النساء، وكانت الأخيرة أيضا أيها الصديق العزيز؛ فقد وجدت دلوكة ميتة بعد ذلك بوقت يسير وقيل وقتها أن جماعة من المسيحيين المؤمنين هاجمت البربا في وضح النهار؛ وهدمتها بعد أن قتلت كل من فيها، وحطمت ما بها من أصنام وأتلفت كل ما كان على جدرانها مكتوبا بالقلم المرسوم، ثم إن أبي ارتحل بي وبأهلي من البلدة بعد ذلك، بعد أن بقينا مختبئين فيها ننتقل من مكان إلى مكان سرا؛ وذلك بسبب تخوفه من هذه الجماعة. فليرحمني الرب يا بدير وليغفر لي، وليحشرها في زمرة التائبين، لكني أقول لك أن دلوكة أول وآخر النساء في حياتي؛ فأنا لا أرى النساء كلهن إلا فيها، ولا أراها إلا كل نساء الأرض، ولذا أقول لك، وليرحمني الرحيم، إنني لا أنساها أبدا؛ فهي كامنة في أعماق روحي كسلافة عتيقة، تزيدها الأيام تعتقًا ويندر مذاقها؛ لذلك فإن ذكراها تعطر روحي وتمنحني نشوة حاضرة تعينني كقنديل مضيء في ليل حالك، فما من شيء – في عالمنا هذا – يمنح المرء اليقين. كل شيء مضطرب يا بدير، والتحولات لا تترك لك مجالا



ترتب روحك عليه بسبب سرعتها، فما هو كائن اليوم يختفي في الغد، وما تراه عينك في هذه اللحظة سرعان ما يغيب في لحظة أخرى.

لقد عشت في بلدتي وأنا أظن أنني لن أغادرها أبدا، وها أنا قد غادرتها منذ سنوات بعد مقتل دلوكة، وقد عشت زمنا في الوثنية والعلمانية، لكني صرت بعد حـين مـن رجـال الإكليروس، فلما صرت في الدير، جلبت إلى بيعتنا في قصر الشمع وأنا أظن أنني لن أغادرها أبدا، وها أنا الآن أسير إلى الأراضي الموحلة – وا يعلم وحده – هل سنعود إلى قصر الشمع مرة أخرى، أم أنه سيقضي بنـا أمـرا آخـر كـان مفعولا؟.

لم أكن أدرك أن ثاونا مضطرب مثلي، إلا خلال هـذه الآونة.

وعندما قال ذلك قاله وهو واثق الإيمان، قوي المعرفة، لكن يبدو أن هناك أشياء تحدث حولنا تدفع بـالمرء إلـى أن يتخبط بين الحين والحين.

ربما كانت الأرواح الشيطانية ما زالـت أقـوى مـن الأرواح الطيبة في تسيير كثير من الأمـور، قلـت لأهـون

عليه، وقد شعرت بمزيد من الحنو، وبنوع من الشفقة عليـه: إنه زمن صعب يا ثاونا، ولكن لكل شـيء آخـر، وا   لـن يتخلى عنا أبدا، وهو القادر وحده على منح الراحة لأرواحنا.

تنهد، ثم سألني فجأة:

- أتعلم أنني متشوق جدا لرؤية الأراضـي الموحلـة؟. فأنا أتخيلها وكأنها جزر في البحر يحيطها المـاء مـن كـل جانب، ولا أعرف كيف تكون موحلة كما يقـال عنهـا يـا بدير؟!

شعرت للمرة الأولى عندما قال ذلك أنني أعرف شيئا لا يعرفه، وربما – وليسامحني الرب – داخلنـي شـيء مـن الرضا بسبب ذلك، فسارعت أقول:

- وا   من الصعب أن أصفها لك، لكنك – علـى أيـة حال – سوف تراها بعينك بعد وقت ليس بكبيـر، وهـي – على أية حال – أرض يتم فيها اختلاط مياه البحر الرومـي بمياه النيل العذبة، وقد تداخل فيها رمل البحر مع طمي النيل وغرينه. وترسب كله ترسبا قويا متينا في بعض المواضـع، بينما بقي لطيفا خفيفا في مواضع أخرى من الأرض، وباتت له سيولة وزلاقة تغوص فيها أقدام السائر، وأقل إهمـال أو

عدم احتراز في السير أو غياب للتنبه، قد يؤدي إلى الغوص والتهلكة؛ لأن كثيرا من مواضع تلك السيولة ليس له قـرار، ويمكن أن يبتلع الإنسان ويحتويه داخل الطين مثلما هو الماء الخالص تماما؛ لذلك يجب أن يكون هنـاك أدلاء عـارفون بمواضع السير في هذه الأراضي، إذا ما كان هناك غربـاء، أما أهالي هذه الأراضي وساكنوها – وكلهم من البشموريين أمثالي – فهم يعرفونها جيدا؛ بسبب تمرسـهم عليهـا منـذ صغرهم، وقد بنوا كورهم وقراهم على ما بها من مواضـيع راسخة التربة متينة القرار.

تنحنح ثاونا قليلا، وبان كأنه متحرج مـن أن يسـألني شيئا، فقد صمت، وربما كان يفكر في قول ما يرغبه علـى نحو لا تجانبه الرهافة، ثم قال:

- ولكن – ولتسامحني في ذلك يا بدير – لماذا اشـتهر أهل الأراضي الموحلة من البشـامرة بالخشـونة والغلاظـة والعنف؟!. ولا تؤاخذني – يا عزيزي – في ذلك فأنت منـذ أن عرفتك في البيعة وما زلت حتى الآن لطيف المعشر، لين الطباع، لم يظهر منك ما يعتبر من الغلاظة والخشـونة فـي المسلك والأخلاق.

حرت جوابا، فأنا وإن كنت قد سمعت ذلك مرارا خلال تجوالي، لا أدري له سببا، وإن كنت أتضايق كثيـرا بسـبب ذلك، بل كدت أضرب رجلا ذات مرة؛ لأنه عيرني عنـدما عرف أنني بشموري، فقال: مياه مالحة ووجوه كالحة، وكان يقصدني ويقصد أهلي البشامرة بذلك، ولم أتركه إلا بعـد أن خلصه الناس مني، وكان ذلك بالقرب من قريـة صـادفتها وبدت في عيني وقتها كئيبة مريبة لا زرع ولا خضار فيها، أهلها المجذومون المنبوذون الذي يترقبون خروج ووصـول الحجاج المسلمين عند البركة الواقعة على أطراف الصحراء، فيتسولون منهم ما يقتاتون به.

أفضيت إلى ثاونا بذلك، ثم قلت مجيبا عن سؤاله: كـان أبي يقول لي دائما، أننا نعيش كمن يعيش في الماء، فنحن لا نعرف مبتدأ أراضينا من منتهاها وهي في حالة تغير دائـم؛ بسبب دخول البحر إليها حينا، وانحساره عنها حينا آخر، كما قال لي ذات مرة، أن مبتدأ وجودنا في هذه المواضع، كـان سببه البحر؛ فأجدادنا الأوائل كـانوا مـن راكبـي البحـر والمشتغلين به، لكنهم مع مرور الأزمنة تواطنوا وأنسوا إلى الزراعة فصارت معاشا لهم، وإن ظلت طباع البحر وأخلاقه

هي المهيمنة عليهم، السائدة فيهم، فانتقلت إلينا من جيل إلـى جيل، كما أن وجودنا في مبتدأ البلاد بالقرب من البحر دوما، جعلنا في موضع الصدارة لكل وافد غريب، أو معتد بـاغ، فكثيرا ما تعرضنا للغزو والنهب، خصوصا مـن لصـوص البحر، الذين كانوا يسرقون إذا ما هبطوا – كل شيء – حتى الناس.

لذا فأنت ترى أن سـحنات النـاس عنـدنا متخالطـة، متداخلة، وإن مالت إلى البياض وكأننا مـن الـروم أو مـن السوريين.

كنت قد تذكرت أبي وأهلي وأنا أروي له ذلك، فجاشت مشاعري بالشوق إليهم، لكني تجلدت كثيرا حتى لا تتسـاقط دموعي، ويبدو أن ثاونا أدرك ما أنا فيه، فقال محيدا بالحديث إلى موضع آخر:

- ياأ يا بدير.. أذهبت إلى قرية المجـذومين أثنـاء هيامك قبل وصولك إلى البيعة؟!. عجيـب أمـرك وا يـا بدير!. لكن الحمد للرب لأنك لم تصب بعدوى مـن هـؤلاء المجذومين؛ لأن الجذام مرض فظيع يا عزيزي، ورحـم ا يوحنا بن ماسوية الطبيب، فقد كان واسـع العلـم، عظـيم

المعرفة، وقد صنف كتبا كثيرة، فاق عددها الأربعين، ومن بينها مصنف عظيم في مرض الجذام، لم يسبقه إليه أحد ولا حتى جالينوس، ويقال إن هذا المرض يأتي وينتشر من علة تتعلق بدابة عضاضة، وربما كانت نوعا من السلاحف، والتي يسميها بعض العرب "فكرون".

بقيت فترة صامتا أسير وقد تجسدت في عيني مشاهد المجذومين في قريتهم الغريبة، بعد أن نجح ثاونا أن يأخذني بعيدا، عما يهيج ذكريات أهلي في ترنيط. ربما كانت مشاهد هؤلاء أبشع ما رأيت طوال حياتي، وقد تجمعوا نساء ورجالا في ذلك المكان وكأنهم ليسوا من أهل الأرض، وقد تساقطت أنوف معظمهم، وبقى كثيرا منهم بلا أصابع تقريبا، وكانوا قذرين على نحو لا يصدق، وربما لا يدل على بشريتهم إلى عيونهم الشاخصة دوما إلى لا شيء، وعلى الرغم من توهاني خلال ذلك الوقت، إلا أنني لم أنس مناظر هؤلاء القوم أبدا، بل أقول أنهم ربما ردوا إلي جانبا من وعيي وشعوري، وكانوا عبرة لي لأحمد الرب على ما أنا فيه، وعلى كل حال، في كل وقت ومكان.

هكذا رحنا نتحايل على ساعات الوقت ودروجه، وكلما أوغلنا في الكلام ومكاشـفة الـنفس للـنفس بمـا يعتريهـا ويهجسها، ازداد شعوري بأن ثاونا هو قرين روحي، وصنو ألمي وهمي، وهو أهلي وناسـي، ومـن يمنحنـي اليقـين ويساعدني على تقبل وجودي وحياتي.

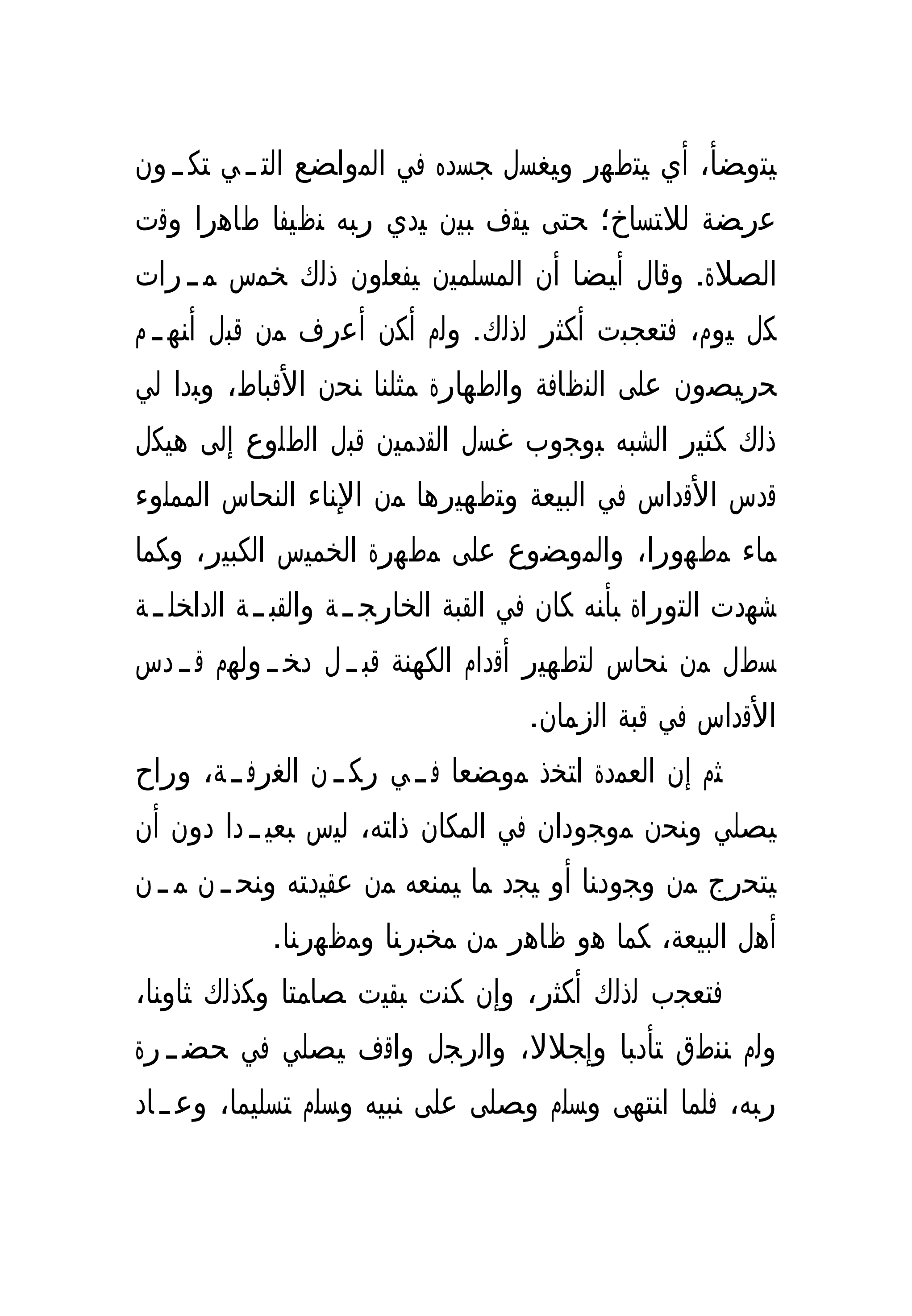
بقينا نقطع الطريق تلو الطريق، حتى وصلنا موضـعا يقال له الحوف الشرقي، لم أكن قد رأيته مـن قبـل، ولـكـذا ثاونا، فلما ولجنا إليه، وجدنا أن أكثر ناسه من العـرب، وإن كان بينهم من هو من القبط؛ لأن الرجل الذي رآنا عند مبتدأ الغيطان أثناء قدومنا، تحدث إلينا بلسان قبطي مخلوط بلسان العرب، ورحب بنا ترحيبا بالغا، قبل أن يقودنا إلى دار كبيرة حسنة البنيان، قال لنا أنها لمترئس هذه البلدة مـن الحـوف، ويقال له بلسان العرب "العمدة" وهو فـي مقـام المـازوت باللسان القبطي، وإنه يتوجب علي أي قادم إلـى البلـدة أن يلتقيه ليستعلم منه عن سبب قدومه، ويأذن لـه بـالمكوث إن أراد.

وقد أخبرنا الرجل أن هذه البلدة، وكثيـرا مـن بـلاد الحوف، تقع على طريق حجيج المسلمين على البلد المقـدس المكرم، وأن كثيرا من الناس صاروا يتعيشون على خدمـة الحجاج وتركوا الفلاحة والزرع بسبب تكسبهم الكثيـر مـن ذلك. فلما دخلنا على صاحب الدار الذي هو العمدة، استقبلنا بحفاوة كبيرة وكأننا من أهل ملته؛ لأنه كان من المسـلمين، وكان لطيفا بشوشا، دون افتقار إلى الوقار والنبل، وتعجـب

كثيرا من مجازفتنا ومرورنا في هذا الوقت؛ لأن الحوف كله في حالة ثورة وانتقاض ضد الولاة، فلما أعلمناه بأننا نحمل رسالة إلى رئيس البشامرة، تعجب أكثر؛ لأنه لم يكن يعلم بانتفاضة هؤلاء.

وظل يقول: سبحان ا ، ويكثر من قول ذلك وهو يصلي على رسوله الكريم.

ثم إنه أصر على أن نأكل في داره، وقام فأمر بذبيحة، فلما قدم لنا شواءها، وكانت شاة جيدة المذاق، إضافة إلى ثريد العرب، وفاكهة الموسم، أكلنا وحمدنا الرب كثيرا، فراح الرجل يسألنا عن ديننا وطقوسنا، ومبتدأ دخولنا في ملة المسيح وأنا ساكت تأدبا، بينما ثاونا يرد، والرجل يستمع إليه بكل جد ووقار، ثم إن المؤذن نادى للصلاة كما في عادة المسلمين، فقام الرجل مستأذنا، فدخل إلى محل الأدب ثم عاد وجاء غلامه بماء طهور في سطل من النحاس، وراح يصب على يديه فغسلها حتى رسغيه، ثم غسل فمه ووجهه وأذنيه، وكذا ساعديه ومسح على رأسه. وكذا غسل قدميه؛ فتعجبت لذلك عجبا شديدا، وهمست لثاونا مبديا دهشتي ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل فقال لي بصوت خفيض أن الرجل



يتوضأ، أي يتطهر ويغسل جسده في المواضع التـي تكـون عرضة للاتساخ؛ حتى يقف بين يدي ربه نظيفا طاهرا وقت الصلاة. وقال أيضا أن المسلمين يفعلون ذلك خمس مـرات كل يوم، فتعجبت أكثر لذلك. ولم أكن أعرف من قبل أنهـم حريصون على النظافة والطهارة مثلنا نحن الأقباط، وبدا لي ذلك كثير الشبه بوجوب غسل القدمين قبل الطلوع إلى هيكل قدس الأقداس في البيعة وتطهيرها من الإناء النحاس المملوء ماء مطهورا، والموضوع على مطهرة الخميس الكبير، وكما شهدت التوراة بأنه كان في القبة الخارجـة والقبـة الداخلـة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبـل دخـولهم قـدس الأقداس في قبة الزمان.

ثم إن العمدة اتخذ موضعا فـي ركـن الغرفـة، وراح يصلي ونحن موجودان في المكان ذاته، ليس بعيـدا دون أن يتحرج من وجودنا أو يجد ما يمنعه من عقيدته ونحـن مـن أهل البيعة، كما هو ظاهر من مخبرنا ومظهرنا.

فتعجب لذلك أكثر، وإن كنت بقيت صامتا وكذلك ثاونا، ولم ننطق تأدبا وإجلالا، والرجل واقف يصلي في حضـرة ربه، فلما انتهى وسلم وصلى على نبيه وسلم تسليما، وعـاد

إلى مجلس بيننا، وأخذ يحدثنا عن العرب اليمانية، وكذا العرب القيسية الذين جاءوا إلى هذه البلاد وكان مبتدأ ورودهم زمن الولاة الأوائل، وأنهم نزلوا بهذا الحوف الشرقي، واتخذوا الزرع معاشا، لكن الولاة ظلوا يضيقون عليهم بالخراج بين حين وحين مثلما فعلوا مع القبط، كما ظلوا يضيقون في حساب القصبات كثيرا؛ حتى ضجت الناس وضاقت بعسف هؤلاء الولاة؛ لذلك فلقد امتنعوا – في نهاية الأمر – عن دفع الخراج، خصوصا بعدما جاءهم آخر مساح وأخذوا يمسحون الأراضي المنزرعة. فانتقصوا من كل قصبة أصابع، فتظلم الناس إلى أمير البلاد فلم يسمع منهم؛ لذلك فقد عسكروا جميعا وثاروا.

كان الرجل يحكي هذا وهو غاية في الغضب، يمسح على لحيته بعصبية وتأثر بين الحين والحين ويدعو دعوات كثيرة على الولاة، متمنيا على ا أن يحل عليهم نقمته، فتكون آية تجعلهم يرعوون عما هم فيه من ظلم للناس، ويعودون إلى العدل وفعل الخير، وظل يقول أن فعلهم ليس بفعل المسلمين الأوائل، الذين يجب الاقتداء بهم في الأفعال والأقوال، وأن دين الإسلام ما أمر بظلم أو بجور أبدا، وأن

هؤلاء الولاة والأمراء، إن استمروا سـادرين فـي غـيهم، يزرعون الشر، فإنهم – في النهاية – لن يجنوا غير الحسـك والشوك.

وظل الرجل يقول كلاما كثيرا بلسـانه العربـي، وقـد فهمت بعضه، وثاونا يترجم لي ما لا أفهمه، وكنت لا أتردد في سؤاله أثناء ذلك، ثم إن الرجل خرج ليودعنـا بعـد أن استأذنا في معاودة المسير، ومشى معنا ونحن إلـى جانبـه مترجلين عن الدابتين تحشما حتى بلغنا نهاية البلدة، كنا أثناء مسيرنا قد رأينا الناس في الأزقة والطرقات، وقـد ارتـدى أغلبهم الملابس العربية، وكانت النساء يسـرن مكشـوفات الوجوه، يخالطن الرجال فيمـا يسـتوجب المخالطـة مـن معاملات وبيع وشراء، دون أي حرج، وقد كنـت أظـن أن نساء المسلمين لا يخرجن من دورهن ولا يخالطن الرجـال في أي أمر من الأمور.

فارقنا الرجل بعد أن ودعناه شاكرين وقد أوصـى بنـا العسكر الذين كانوا يحرسون مخارج البلدة وهم فـي حالـة تأهب واستعداد، فأكرموا خروجنا دون أية مضايقة، ودلونـا على الطريق الأسهل للوصول إلى حذاء النهر بغيتنا؛ حتـى

نسلكه صعودا إلى الأراضي البشمورية، لكن مـا إن سـرنا قليلا حتى استوقفنا رجل قبطي طيب، حذرنا من السير بحذاء النهر قائلا أن هناك بلدة قبطية يقال لها سـمنود، يمكـن أن يحصل لنا مكروه كبير لو دخلناها، لأن بها شغبا كثيرا. وقال بسبب أن بعض الرهبان، قد وفدوا عليها من دير لم يسـمه، ودخلوا بيعة من بيعها، فلما كان وقت القداس الإلهي، أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخير كلاما وقالوا: "المحيـي كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحيي"، فثـار علـيهم القساوسة والناس، وكادوا يفتكون بهم.

ثم إن الرجل نصحنا بالدوران حول البلدة لنلـزم خـط النهر من الجهة الأخرى، فشكرناه ومضينا، فلما بقينا وحدنا بعد أن غادرنا الرجل، قال ثاونا:

- أرأيت ذلك الاضطراب في كل شيء حتى الرهبـان في الأديرة صار بعضهم يخلـط ويهرطـق دون خجـل أو مواربة!. بل ما زال هؤلاء يفعلون مثلما كـان يفعـل فـي الماضي، من صياغات تلفيقية إيمانية لمآرب فـي نفوسـهم، وأغراض تخص مصالحهم، فيقولون بمشـيئة واحـدة فـي المسيح، بدلا من طبيعة واحدة في المسيح!. كما فعـل ذات

مرة الطاغية الرومي هرقـل الـذي ابتـدع هـذه البدعـة المونوثيليتية المرذولة، وحاول إرغامنـا – نحـن الأقبـاط التاوضوسيين- على قبولها، وقام بتعيين بطريرك نسطوري على كنيستنا في ذلك الوقت. ماذا أقول؟. لنا ا   يا بدير وهو الحافظ للجميع أولا وأخيرا.

بقينا سائرين، أقود ثاونا حامل رسالة الأب يوساب بمنتهى السهولة واليسر، وأنا أميز بين التربة المأمونة الراسخة التي يتوجب السير عليها، وتلك المرملة المبيضة التي هي غيض غائض لا قرار له، حتى أوشكنا على الاقتراب من بلدان كورة البشموري، ولم نلبث إلا قليلا حتى اجتزنا الأريسيية، بعد أن استجوبنا العسكر الحراس على مداخلها، فشرحنا لهم الغاية من مرورنا بها، ولما أذنوا لنا، توجهنا إلى النجوم وهي محلة البشموري ذاته، وقد هالنا عندما نظرناها، ما كان قد أخذنا عند مرورنا بالأريسية كذلك، أن الفلاحين منتشرون في كل مكان وقد تسلحوا بالعصى والقسي والحجارة والمقاليع والآجر المقطع والبارية المقيرة والجعبة أو المخلاة والتراس من البواري، كما كانت على رءوسهم الخوذ من الخوص النابت كثيرا في المستنقعات والمجاري بأراضيهم الموحلة، وكان بعضهم يكتفي بمئزر يلف به وسطه، وقد جعل في عنقه الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب، وهو عار ما عدا ذلك المئزر الساتر للعورة وموضع الحياء، ثم إننا طلبنا الحمام من بعضهم لنغتسل ونتهيأ قليلا

قبل دخولنا على مينا بن قيرة، فلما أوصلونا إليـه، وجـدناه حماما قديما حسنا، قال ثاونا: إنه ربما يعود إلى زمن حكـم الروم للبلاد. ثم إنهم قادونا إلى حجرة ضيقة قالوا لنـا أنهـا المستخدمة الآن في أمور النظافة والتطهر من بين مواضـع الحمام كله؛ إذ إن مساحاته وفسحاته كلها قد عينـت لأمـور الحرب والقتال، فهو بمثابة موضع السلاح ومخزنه لرجـال البشموري المحاربين، كما أنه كرس لمبيت أكثـر عسـكره، فطلبنا بلطف أن نعاين ذلك ونراه بعد فراغنا فوافق القائمون على الحمام بعد لأي وقد تلمسوا فينا الطيبة والخير، وتأكدوا أننا لسنا من الجواسيس أو البصاصين التابعين لوالي الـبلاد، بل رجال كهنوت لا ناقة لنا ولا جمـل فـي هـذه الحـرب الدائرة، ولا نبغي غير حقن دماء عباد ا ، سواء أكانوا مـن القبط أم من المسلمين.

فلما جلنا متفقدين المواضع داخل ذلك الحمـام، هالنـا السلاح الكثير وتعدد الرجال المحاربين من البشامرة الفلاحين ومعهم بعض المسلمين العرب، الذي انضموا إلى البشموري، وثاروا ثورته. وكان من يجلس منصرفا إلى عمـل يعملـه بسلاحه، ومن يقف يتدرب على الرمي وقد اتخذ من صـحن

الحمام ميدانا للتدريب والرمانية، فلما رأونا التفوا حولنا، وقد سمعت بأذني البعض يرمينا بالشتائم القبيحة، وينعتنا بأننا من أهل مصر المنعمين، وهو يقصد بمصر أهل قصر الشـمع، فلم أترجم لثاونا ذلك؛ حتى لا يغضب ويتضايق، بل حثثتـه على الإسراع بالخروج خوفا مما لا يبتغيه قبل وصولنا إلـى موضع مينا بن بقيرة، وقد هالنا خلط النساء بالرجال في هذا الموضع من الحمام؛ إذ كان هناك من النسوة مـن يشـتغلن بتكسير الطوب وإعداد الحجارة والآجر، وعمل المخالي، كما كانت هناك عجائز منصرفات إلى شؤون الخدمة من طهـي وتنظيف وخلافه، وقد شاهدت "أزانا" ضخما يصطلي بنـار قوية أعدت من خشب البوص، وبه مرق يغلي من ذلك النوع المسمى السخين، وقد قال لنا من لازمنا أثناء تفقدنا مواضـع الحمام، إن جل أكل المحاربين هو من خبز بر الشعير، وذلك المرق المتخذ لهم كإدام.

وأثناء خروجنا من الحمام، تقدم منـا أحـد الفلاحـين العسكر برق، فلما فتحه ثاونا، وجد مكتوبـا فيـه بعربيـة واضحة:

لا صبر لا صحناة ولا دلنيس

ولا نيدة أو ثريد أو خبيز

فثر على الولاة وقم

لا ترج سببا لهم أو عذرا

فوضعها ثاونا في جيب ردائه وهو صامت، فلما تركنـا هؤلاء وخرجنا لنعاود المسير مرة أخرى، قال ثاونا:

- ألا ترى أن هؤلاء العسكر لا يعتنون بـأمور الـدين كثيرا؟!.

قلت له موافقا:

- أجل.. لاحظت ذلك وتعجبت كثيـرا، لكـن تعجبـي الأشد كان لوجود هؤلاء العرب المسلمين بين البشامرة. نحن لن نسمع عن ذلك من قبل في قصر الشمع.

رد قائلا:

- ليسوا عربا مسلمين فقط، ولكن مسلمين مـن القـبط أيضا.. ألم تر ذلك الذي كان يحت بسكينة قرون البقر؟. إنه من المسلمين القبط وملبسه يشي بذلك؛ فهو يلبس عمامة وإن كانت مهترئة. أما المرأة التي كان يحادثها وهي تغرف لـه المرق فهي قبطية؛ لأن أحد خفيها كان أسود والآخر أبيض.. إن التذمر والغضب دفع أناسا للانضمام إلى البشموري، وقد

تتعدد الأسباب لكن الرغبة واحدة في العصيان والتمرد. وقد سمعت في قصر الشمع أن هناك بعضا من أولئك الذين قالوا بخلق كتاب المسلمين، قد تسللوا سرا إلـى مصـر السـفلى والتحقوا بالبشموري؛ بسبب اشتداد الملاحقة لهم مـن قبـل الخليفة، والحث على طلبهم والقبض عليهم. إن من العجيـب أن ترى هؤلاء المقاتلين في نشاط وهمة دائبين يهزرون فيما بينهم ويتضاحكون على رغم الهزال الواضح عليهم!. أرأيت ذلك الذي كان جالسا يغني هازجا وكأنه في حفل وليس فـي وقت حرب واقتتال؟.

وكان قد جاءنا ونحن في الحمام بعضهم، وطلب منا أن نرسمهم بالزواج، وقد رجونا أن نبقى في البلـدة مـدة مـن الوقت، فلا رجل كهنوت فيها ليقوم بذلك.

عند مدخل المحلة، وجدنا رجـالا مسـلحين بعصـي وسيوف ونقافات وقسي ونبال، وما إن رأونا نقتـرب مـنهم حتى صاحوا صارخين فينا وقد وجهوا إلينا أسلحتهم، وكادوا يرموننا برميهم لولا لطف ا وصياحي فيهم بلسان بشموري جلي ألا يفعلوا؛ لأننا قبط جئنا من مصـر العتيقـة حـاملين رسالة تخص رئيس مينا، من متولي بيعة السيدة العذراء في

قصر الشمع بمصر العتيقة. فتوقفوا قليلا، ثم اقتربوا منا بحذر، وراحوا يفتشون ملابسنا وكذا جرابات البغلين، وبدوا لي أفظاظا غلاظا، ذوي مسلك يفتقد إلى الذوق والأدب، وعلى الرغم من ذلك صبرنا عليهم وظل ثاونا يتلاطف معهم؛ حتى تيقنوا أننا لم نكذبهم القول. وقد أبرز ثاونا لهم الرسالة وعليها أختامها، فقادونا إلى مقر البشموري عابرين بنا طرقات البلدة، وقد حرسوا علينا من كل ناحية بأسلحتهم.

كنت أسير خلال ذلك أفكر متوجسا في أن يتعرف علي أحد من الناس في هذا المكان فيكتشف أمري، وكنت أتلصص خلال المسير، متطلعا إلى الوجوه التي تصادفني، دون أن أنظر البيوت والأبنية، كما يفعل ثاونا الذي بدا لي مندهشا من تواضع بيوت الفلاحين وافتقارها إلى العمارة الجيدة، كما هي الحال في مصر العتيقة والفسطاط. وعلى الرغم من خوفي وتوجسي، كنت أتمنى أن أجد أو أتعرف على واحد من أترابي الذين عرفتهم وصادقتهم ذات يوم، أو أن أجد شخصا من أهلي، لكني حمدت ا كثيرا على أنني لم أصادف أيا ممن عرفتهم في الماضي؛ وربما كان ذلك من حسنات الزمان وقوته.. فهو يغير كلما مر سحنات البشر

ويبدلها، دون أن يشعر بذلك إلا من يتأمل نفسـه ويطالعهـا كثيرا، فمن كنت تعرفه في طور اليفاعة والصبا، قد لا تعرفه عندما يكبر ويشيخ، وللقدير في ذلك حكم.

لما وصلنا إلى مقر مينا بن بقيرة، وكـان دارا قديمـة واسعة مبنية من الطوب اللبن، كما جرت العادة فـي بيـوت الفلاحين يشي حسنها واتساعها بأنها ربما كانت فيمـا سـبق مقرا لمازوت البلدة ورئيسها، لم يكن مينا حاضرا وقيل لنـا أنه خرج في أمر من أمور تحصيناته في قرية قريبة، فبقينـا ننتظره، وخلال ذلك رحنا نتحدث إلى من مكثوا معنـا مـن أتباعه حتى يجيء، وقد أجلسونا على "دكـة" مـن "دكـك" الفلاحين الخشبية المعتاد صنعها من خشب الجميز في هـذه المناطق، وكان فرش المكان كله مـن الحصـير المجـدول والطبالي الفلاحي، ولا أكثر من ذلك، بعيـدا عـن التـرف ومظاهر النعمة والغنى، وقد قيل لنا أن مينا كثير التواضـع، ميال إلى التقشف، لا يسعى إلى خير يستأثر به وحده أبـدا، وأنه لا يأكل غير الخبز إن وجد ويصوم كثيرا، بل قـال – من يحبه كثيرا من بين الذين تحدثنا إليهم – أنـه لا يشـرب غير نبيذ البطيخ الأحمر في بعض الأحايين، وأنه صار يأكل

الفأر المتولد في الغيطان مثلما بات يفعل الفلاحون، ويطلقون على ذاك سماني الغيط، والجميع يجله هنا؛ لأنه عاش قبـل ذلك زمنا في العز أيام أن عمل في حسابات الخراج، فكـان يأكل الحلويات المتخذة من السكر كخبيص اليقطين وخبيص الجزر والورديـة المتخـذة بـالورد والزنجبيلـة المتخـذة بالزنجبيلية وأقراص العود وأقـراص الليمـون وأقـراص الممسكة، وقد زعم بعضهم أنه رآه يأكل في زمن العز مـا يأكله الولاة والملوك؛ فكان يصنع في داره رغيف الصـينية، وصفته أن يؤخذ من الدقيق ثلاثون رطلا ويعجن مع خمسـة أرطال ونصف رطل سيرج، ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس، ثم يعبي على الرغيف ثلاثة خرفان مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق وقلب بالسيرج والفستق المهروس والأفاوية العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكربزة والكمون والهال والجوزة ونحو ذالـك، ويرش عليه ماء ورد قد أضيف فيه مسك، ثم يجعـل علـى الخرفان ويبدو أن من قال ذلك كان جائعا يتشهى الطعام، فبدا كمن يحلم وهو يقظان مفتوح العينين، فتبسم ثاونا قليلا وأخذ يسايره بالكلام؛ حتى نقطع الوقت، ونصرف ملل الانتظـار،

ثم إن ثاونا أخذ يسألهم "سؤالات" ويطرح عليهم حزازير لاهوتية حتى يقوي إيمانهم، ويعلمهم العقيدة الحقة دون أن يستشعروا ذلك، أو يدركوا إدراك المتلقي للموعظة والعلم، وكان يستمع إلى إجاباتهم الخاطئة بكل صبر وعطف مهما كانت مرذولة محشوة بالحماقة والجهل، ثم يدلهم إلى الإجابة الحقة آخذا بيدهم إلى طريق الإيمان، وكان مما سأله لهم: لماذا أوجب الرب عقاب الجسد مع النفس؟. فلما تخبطوا في الإجابة وتشتتوا، قال لهم: إن وجوب عقاب الجسد مع النفس القصد منه تهديده وتأديبه؛ لأن البهيمة غير الناطقة إذا أدبت بالضرب عن إتيان شيء مرة بعد مرة، تأدبت وانتهت عن فعل ذلك خوفا من الضرب، وكذلك الجسد إذا عوقب مع النفس عن ارتكاب الخطايا، تأدب هو أيضا كمثل أدب البهيمة، فإذا اشتهى الخطيئة خوفته النفس بالأدب الذي عوقب به، فيخاف ويوافق النفس على ترك الخطيئة التي اشتهاها، هذا إذا كان يبادر بأخذ العقوبة عن كل خطيئة يفعلها أولاً بأول ولا يتوانى عن ذلك، فإذا ما فعل ذلك مدة يسيرة، يبادر بعقوبة نفسه وجسده كليهما بالفضيحة والقانون،

ويثبت ذلك في نفسه ويتوطد، وعندئذ تثبت مخافة العقوبة في نفسه وجسده.

ثم إن البشموري جاء فجأة، ودخل علينا بين ثلة من رجاله وأعوانه، فما إن رآنا حتى نظر إلينا بدهشة وريبة، وسمعته يسأل واحدا من أعوانه عنا، فلما أعلمه قال: مرة أخرى يرسلون رسلا إلينا، ويكتبون لنا كتابا. ألن يكفوا عن هذا الأمر أبدا؟. فترجمت لثاونا هامسا ما يقول، وقد كنت حريصا أن أبقى قريبا منه قدر استطاعتي لأقول له كل ما يقال بالبشموري، أو لأجيب عما يريد السؤال عنه، ثم إن مينا اقترب وحيانا، فرددت عليه تحيته بلسانه، فلانت أساريره، وهدأ حنقه، ولطفت خشونته قليلا، وراح يسألني عن أصلي وفصلي وأنا أحتاط في الكلام معه خشية اكتشاف أمري، فقلت أنني تلسنت البشمورية عن أمي التي كان أبوها من هذه المواضع، لكنه ارتحل إلى مصر العتيقة، وقد مات كلاهما مبكرا فلا أعرف شيئا عن أهلي بعد ذلك، وقد تبناني رجل حجار بعد وفاة أبي ورباني حتى اشتد عودي وصرت يافعا، وقدر ا لي الاشتغال في البيعة.

ثم إنه طلب لنا نبيذ البطيخ لنشربه، واعتذر لأنه لا يجد لديه شيئا غيره يقدمه لنا، فشكره ثاونا كثيرا، وبدأ يكلمه بكل أدب واحترام، بينما رحت أنا أترجم له لسان ثاونا الإخميمي، وهو يقول:

- لقد جئت أيها الأخ الطيب حاملا إليك رسـالة مـن رئيس بيعتنا في مصر، وهي بيعة السيدة العذراء في قصـر الشمع، وأنت تعلم أنه كان قد أرسل رسائل عدة قبـل ذلـك فأرجو أن تقرأها وتوافيني بالرد في التو، لكني قبـل ذلـك أقرئك السلام، وأعرفك أني ثاونا الشماس بالبيعة ومن العباد المؤمنين، وقد تشرفت بمعرفتك ودعوت ا كثيرا أن يحفظك ويحفظ رجالك منذ دخولي إلى محلـتكم، ولـي رجـاء أن توافيني بالرد سريعا؛ لأعود إلى سيدي البطـرك المنتظـر هناك في مصر، فالأمر لا يحتمل التأخير والإبطاء كما قـال لي نيافته، وكل درج من دروج الوقت يعني الكثير الخطيـر بالنسبة إليه.

كان أتباع البشموري ورجاله يتفحصوننا مليا أثناء ذلك، وقد التمعت أعينهم بتحد وعداء لنا، بينما نظـراتهم تجـول بملابسنا الكهنوتية وأحذيتنا، وتنطق بما يعتمل في داخلهم من

إدانة لنا وهم أشباه الحفاة العراة الجائعين، بينما مد ثاونا يده مقدما الرسالة إلى البشموري، وكانت محطوطة في جـراب من جلد التمساح.

وكانت رقا مخطوطا بأقلام عدة، ومعها رق آخر، قـال ثاونا أنه حجاب حافظ صنعه الأب يوساب بنفسه؛ لأجل مينا؛ وعليه أن يحمله معه أينما ذهب وحل.

أخذ البشموري يقرأ الرسالة بدقة بعد أن فض أختامهـا على عجل، فلما انتهى رفع رأسـه، فبـدا كأسـد مزمجـر بالغضب والعنف، على رغم وسامته الظاهرة، ثم قال وقـد جلس قبالتنا القرفصاء على الحصير، مثلما كان يجلس مـن كانوا معه:

- هكذا تطلبون منا مجددا في قصر الشـمع، أن نسـلم للوالي ونرمي سلاحنا، فنطيعه ندفع له ما فرضه علينا مـن دمز[1] كل عام، وأن نحضر بعد ذلك بأنفسـنا لملاقـاة الأب يوساب بكل سرعة؛ حتى يقدمنا للوالي ونقدم لـه فـروض الطاعة والامتثال؟.

---

(١) دمِز: خراج بالقبطية.

ثم إنه التفت إلى جميع الجالسين حوله، وكانت عيـونهم تتطلع إليه بكل جد واهتمام، وقال: سأقرأ عليكم يا إخـواني الرسالة بحذافيرها، وأرجوكم أن تصبروا على ما فيهـا وأن تملكوا زمامكم فلا تفعلوا مـا يغضـبني مـنكم ويعرضـكم للعقوبة، مثلما فعل البعض في المرات السابقة، ثم تلا:

بعد السلام والتحية:

"كما قال الكتاب في المزمور ٧٧" الذي سـمعنا رأينـا وأخبرونا آباؤنا، وكما أخبر موسى النبي، فإنه كتب ما كـان في الأرض من آدم الأول إلى زمانه، ثم بعده الأنبياء الـذين تنبئوا على هذه القضية وتعاليم الآباء المؤيدين الذين للبيعـة والكلام المقوي للأمانة والأخوة بين المعمودية اللابسين النور والآباء المؤيدين الذين أثبتوا الأساس القوي والدعامة الوثيقة والرب يسوع المسيح المخاص الذي نجانا وخلصنا من آثامنا بتجسده من العذراء الطاهرة والمـنعم علينـا بفـتح قلوبنـا وأذهاننا بسماع كتبه المقدسة، فيلن ويستن ويوسابوس الـذين من اليهود، الذين أخبروا أولا بخـراب أورشـليم، والـذين وضعوا لنا سيرة البيعة المقدسـة أفريقنـوس وأوسـابيوس الوصوزامنوس، أظهروا لنا الجيد والرديء والبلايـا التـي

حلت بالقديسين والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم مـن التعب على البيعة والشعب الأرثوذكسي من المتولين في كل زمان ليس بكورة مصر فقط، بل أنطاكية ورومية وأفسـس التي كان فيها هارسيس نسطور الذي يستحق لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين في ذلك الزمان، وبدد ا جمعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم كيـرلس الـذي قطعـه وغيره من المخالفين وجعل كتبه في سائر بيـع المسـكونة الأرثوذكسية، كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذي ابتدأ بأسـمائهم إلى أن انتهوا إلى المعترف المجاهد بالحقيقة ديسقرس الـذي أحرم لاؤون الذي هو السبع المفترس للأنفس كاسمه وأحرم الستمائة والثلاثين المجتمعين بخلقدونية، وأحرم مرقيان الملك والملكة بلخارية المرذولة وجميع مـن اتبـع لاؤون تحـت الحرم.

أما بعد، فأنت أعلم أن كورة مصر، قد هلك أهلها مـن الظلم والخسائر والخراج، كمـا أن أصـحاب تـاووفيلكس الخلقدوني لا يألون جهدا لاغتصاب بيعنا التاوضوسية بغيـر حق، مع ما تعاني منه بيعنا الطاهرة الآن من ظلم وعسـف، وما ندفعه عليها من خراج، والخلقدونيون يحملـون الهـدايا

ويدفعون البرطيل لذوي السلطان حتى يغتصبوا بيعنا وهم يقولون.. في البداية كان الملك لنا والكنائس وجميع ما لها لنا، وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر ونحن الآن يا ولدي مقيمون في مواضعنا، وكنائسنا بيدنا وا ما يغفل عنا ولا يتخلى عن معونتنا، ثم إن هؤلاء العرب لا طاقة لنا بمقاومتهم، فهم قوم خلقوا للكر والفر، ونحن قوم قدر ا لنا الزرع والفلاحة منذ ساحق العصور، ولا قدر لنا على نزالهم، فإن نحن نازعناهم وضيقنا عليهم، انقلبوا علينا حتى يهزمونا، وعندئذ قد تسوء عاقبة الأمور.

وقد يؤذون الكنيسة الجامعة ويقطعون خبرها من البلاد، فتورد إلى منازل التهلكة؛ لأن الكنيسة هي الحافظة لمصر، فإن ضاعت، ضاعت معها البلاد إلى الأبد، فلنفاوضهم يا بني على الخراج، ونصالحهم على ما يرضينا ويرضيهم؛ حتى نحفظ كنيستنا القبطية الأرثوذكسية من كل شر وضيق.

وأنت تعلم يا ولدي أنني أطلب إليك الكف عن منازلة الحكام كارها. كما تعلم أنه قد أصاب الآباء والكهنة منهم بلاء كثير منذ وجودهم حتى الآن، ولعلك تعلم ما فعله عبد الملك مع مروان بعد أن جاءه بحشود كثيرة، وجرى بينهم

سفك دماء لا حصر لها، ثم إن عبد الملك جمع بمصر مقدمي جيشه واعتقلهم سبعة أيام واعتقل أيضا كتاب الدولة ومقدمي البلاد والمواريث، وطلب منهم دفع الحساب والقيام بما عليهم، ثم أحضر الأب أنبا ميخائيل إلى مصر لأجل خراج البيعة، فلما وصلنا إليه طلب منا ما لا نقدر عليه، فأمر أن نعتقل وأن ترمي في أرجلنا خشبات عظيمة وأطواق حديد ثقيل في رقابنا، وكان معنا الأنبا مويسيس أسقف أوسيم، وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا إيلياس بولس ولد أنبا مويسيس بالروح، وجعلونا في خزانة مظلمة، لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق؛ لأنها كانت نقرت في حجر، وكنا تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادي عشر من توت إلى ثاني عشر بابة لم ننظر في هذه المدة شمسا، وكان معنا ثلاثمائة رجل، ونساء أيضا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولي السجن علينا، ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار، وكان المرضى والإعلاء يجيئون إلينا في السجن لنباركهم ويسروا، ومن النصارى والمسلمين، حتى

البربر كانوا يجيئون إلينا ويعترفون بذنوبهم التـي فعلوهـا، وكذلك المسجونون.

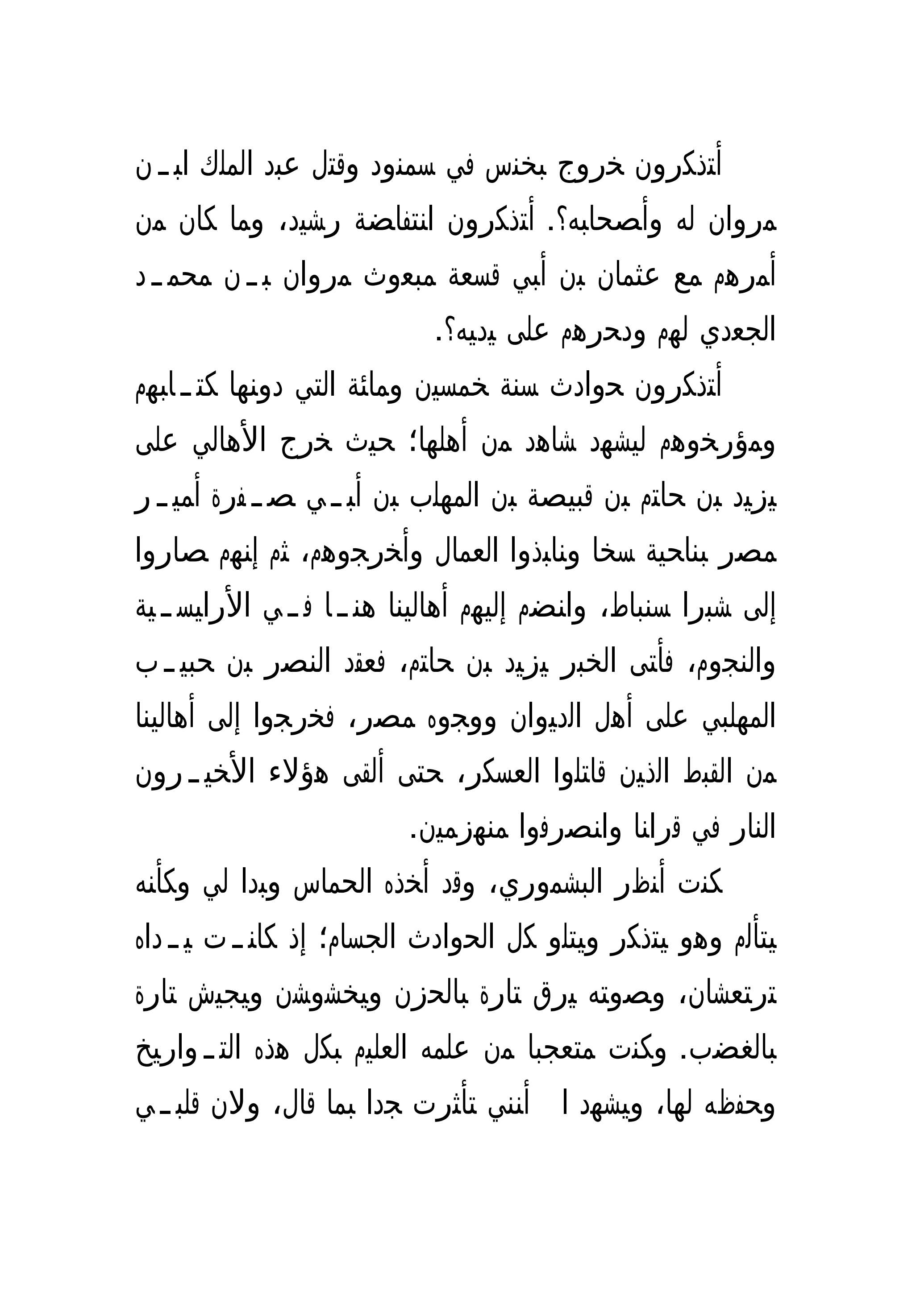
وأنا أقول لك يا ولدي: هذا بلاء قليل من بـلاء كثيـر قابلناه مع الكهنة الأرثوذكسيين من أبناء بيعتنا، وبيعتنـا فـي خطر، فارجع عما أنت فيه؛ لنحفظ كنيستنا وبيعتنـا وتسـليم بلادنا من كل أذى، وأنا أكتب لك هذا السـنوديقا، وأباركـك باسم الرب، وأبارك جميع البشموريين في كورة مصر".

ما إن انتهى مينا بقيرة من قراءة رسـالة أبينـا إلـى أعوانه، حتى طواها مرة أخرى بسرعة، ودفعها إلى ثاونـا، وراح يجز على أضراسه، ثم قال بصـوت خنقـه انفعـال الغضب وهو يقول لإخوانه، وقد بدا لي وكأن شـيطانا قـد ركبه:

- ها هي الرسالة أمامكم حرفا حرفـا دون زيـادة ولا نقصان، هم هناك في مصر العتيقة يريدوننا أن نرجع عمـا نحن فيه، ونسلم لقائد المسلمين، بعد أن دوخنا عسكره وبات النصر قريبا دانيا منا على أولئك الـذين أذلونـا وأجاعونـا وخربوا ديارنا واعتصرونا اعتصارا، وحلبوا الـبلاد كمـا تحلب البقرة حتى جف الضرع وذبل الزرع، ألم يقل قائـل

منهم ذات يوم مخاطبا سيده في هذا الأمر: "إنما أنا مثل ماسك قرني البقرة لغيري ليحلبها، أو ليس رأيهم فينا أن يجلدونا بالخراج بدلا من السياط؛ لأننا إن تيسر عيشنا وهنئت حياتنا تفرغنا عليهم وأخرجناهم الآن وقد دوخناهم وهزمناهم جيشا تلو جيش في كل الكور من أراضي مصر السفلى، وهذا ما لم يحدث منذ مبتدأ انتفاضتنا زمن المدعو الحر بن يوسف الذي تأمر علينا وقت حكم هشام بن عبد الملك، عندما كان متولي الخراء الذي يسمونه الخراج عبد الملك بن الحباب، فزاد على كل دينار قيراطا فانتفضت كورة وتمي، وقربيط، وطرابية، وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقتل منهم بشر كثير، ثم انتفض بعد ذلك أهل الصعيد.

أتنسون يا إخواني المقتلة التي أعملوها في أهلنا، عندما حارب هؤلاء الفلاحون عما لهم سنة إحدى وعشرين ومائة بتاريخ هجرة رسول العرب، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان؛ فظفروا بنا ولم يتركوا من أهلنا حتى النساء والأطفال؟.



أتذكرون خروج بخنس في سمنود وقتل عبد الملك ابن مروان له وأصحابه؟. أتذكرون انتفاضة رشيد، وما كان من أمرهم مع عثمان بن أبي قسعة مبعوث مروان بن محمد الجعدي لهم ودحرهم على يديه؟.

أتذكرون حوادث سنة خمسين ومائة التي دونها كتابهم ومؤرخوهم ليشهد شاهد من أهلها؛ حيث خرج الأهالي على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم، ثم إنهم صاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهالينا هنا في الأرايسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد النصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر، فخرجوا إلى أهالينا من القبط الذين قاتلوا العسكر، حتى ألقى هؤلاء الأخيرون النار في قرانا وانصرفوا منهزمين.

كنت أنظر البشموري، وقد أخذه الحماس وبدا لي وكأنه يتألم وهو يتذكر ويتلو كل الحوادث الجسام؛ إذ كانت يداه ترتعشان، وصوته يرق تارة بالحزن ويخشوشن ويجيش تارة بالغضب. وكنت متعجبا من علمه العليم بكل هذه التواريخ وحفظه لها، ويشهد ا أنني تأثرت جدا بما قال، ولان قلبي

له جدا، حتى أن عيني ندعت، وكنت أمسك نفسي وأتصـبر حتى لا تفر الدمعة منها، ثم إن البشموري واصـل كلامـه، بينما أعوانه شاخصون إليه بكل شعور واهتمام، لا يحيـدون بأبصارهم عنه، ولا يهمس بينهم هامس، حتى لا تفوتهم كلمة واحدة من كلماته التي واصلها بقوله:

- أقول لكم كل تلك الحوادث يا أخواتي؛ حتى أذكـركم بما كان فيه آباؤنا، وحتى لا تثبط لكم عزيمة، ولا يهمد لكـم حماس، والآن: آباؤنا الطيبون في مصر العتيقة يريدوننا أن نترك السلاح.. وما هم إلا أهل بيعة أتقياء، تفرغوا لخدمـة الرب، وهم ليسوا بزارعين للأرض ولا كادحين فيها، بل هم لا يعلمون حقا ما نحن فيه، هنا في مصـر السـفلى وفـي الأرض الموحلة، وقد ضيق هؤلاء الولاة علينا بالخراج حتى أكل الناس حشائش الأرض، وديدانها، وهرب من هرب إلى الصحراء والبوادي مع نسائه وعياله، ومات من مات، بل إن كثيرين قد جنوا، وهاموا على وجوههم بسبب الجوع وانعدام الغذاء، وانتشر الوباء وتمزقت الأسر وتخرب وجدان الناس؛ لأن البعض آثر الدخول في الدين الجديد، حتى أصبح تحـت سقف البيت الواحد أخوان: أحدهما مسلم والآخر مسيحي، بل

يجوز أن يظل الأب مسيحيا دون سائر أهل بيته، والآن أنا أقول أنني لن أدع لهذا الأمر نهاية إلا بحد السيف، ولن أكف عن القتال حتى آخر نفس في جسدي، وقد صارت الحياة كالموت، لا فارق بينهما في ظل هذه الأحوال والأهوال.

فلن أعيش عبدا على أرضي، ملزما بدفع دينارين وثلاثة أرادب حنطة، وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل من كدي وعرقي، وأن ألبسهم مما أصنع جبة صوفا وبرنسا وعمامة وسراويل وخفين لزاما فرضا، لا والله لن أعيش مع كل هذا أبدا، وليسامحني الرب إن كنت قد خالفت ما ارتآه أبونا في مصر العتيقة، وليرحمني الغفور، إن كنت عصيت له أمرا رغما عني؛ لأن الرب لا يرضى الظلم، وهو الحاكم لنا ومقدر معاشنا ومماتنا، وليتولنا برعايته ورحمته الواسعة ويقضي بنا أمره ونحن له لطائعون ممتنون.

كنت أترجم لثاونا خلال ذلك، بصوت خفيض هامس، كل ما يقوله مينا الزعيم، فما إن انتهى، حتى علا اللغط وتداخلت كلمات التأييد له والثناء عليه من جميع القرارية أتباعه، وراحوا يهتفون ويجددون له الولاء معلنين عن

تبعيتهم له واستمرارهم معه فيما هم فيه، وعندئذ تيقنـت أن هذا الشاب الذي لا يمكن أن يكون عمره قد جاوز الثلاثـين بأية حال من الأحوال مهيمن كالساحر بسحره على هـؤلاء الفلاحين المأمورين بأمره، وجعلهم من القراريـة الملـزمين جبرا على عدم مغادرة الأرض كمعظم الآخرين وفقا للأحكام المفروضة عليهم منذ زمن قديم، وقد شعرت أثناء ذلـك أن هذا الزعيم البشموري ذو كياسة، وكأن شيئا قد مسه مما لدى أهل المدن من لطافة وذوق. على رغم أن شـكله لا يفتـرق كثيرا عن القرارية؛ فهو غليظ الملامح مثلهم، وإن خالطـت ذلك وسامة وعافية؛ إذ إنه طويل ممشوق لجلده لون الحنطة والشهد، يكلل رأسه شعر أسود جعد.. يمتد حتى كتفيـه دون أن يضفره ولا يقطعه، وهو يرتدي وجميع مـن معـه مـن الفلاحين اللباس الشيت والصديرية المصفرة بالزعفران، كما هو متبع هنا في هذه النواحي البشـمورية، وإن بـدا ذلـك الملبس عليه أليق صدق من قال: مهما كانت رداءة الخـرق، فإنها لا يمكن أن تخفي حسن الخلق.

كنا أثناء وجودنا في الحمام أنا وثاونـا، قـد تسـايرنا بالكلام مع رجل خدم البشموري طويلا، فحكى لنا شيئا يسيرا

عن حياة هذا الزعيم، وأنه كان قد تعلم ودرس في مبتدأ أمره بمكاتب الإسكندرية.. فلم يهتد عن ذاك الوقت إلـى الديانـة الحقة، وقد أرسله أبوه منذ كان صبيا إلى هناك، فدرس العلم الدنيوي، واطلع لسنوات عدة على علوم الحسـاب والفلـك والتاريخ والفلسفة، وحصل شيئا من السيمياء والكيمياء، وقرأ كتب الأقدمين في علم الفراسة، وكذا معارف أخـرى ممـا اشتهرت به مكاتب الإسكندرية منذ الزمن البعيد، وتسـربت من جيل إلى جيل، فحفظها بعض مـن أولئـك الشـغوفين بالمعرفة الدنيوية وكتموها، مع أنهم أظهروا الديانة للكل حتى لا يفتك بهم مثلما جرت العادة بين الحين والحين، من فتـك عامة الشعب المسيحي المؤمن بـالوثنيين الـذين يظهـرون دياناتهم.

وقد قال من حكى لي طرفا من أخبار البشـموري أنـه ظل زمنا طويلا في الضلال يخلط العلم بالدين، وإن كان قد تخبط وخالط أكثر من مرة بسبب كثرة قراءاته ونظره فـي الكتب، وإنه اعتقد فترة في مقالات وكتاب أوريجانس الـذي قطعه الأب ديمتريوس في الماضي؛ بسبب كتابتـه السـحر ورفضه كتب القديسين وتجديفه بالقول مـن أن الأب خلـق

الابن وأن الابن خلق روح القدس، ولم يكن يقـول أن الأب والابن والروح القدس إله واحد وأن الثالوث لا يعجزه شيء، بل قوته واحدة وربوبيته واحدة. وقد قال لي ذلـك الرجـل أيضا، وكان ضمن من رافقونا وقت فراق الوطن، بعـد مـا حدث ما حدث، أن مينا وقع زمنا في غواية ما سـلكه بولـة السميساطي الكافر، الذي بقي على ضلالته مفتريا علـى ا بكلامه فأنكر وجحد الرب في أمانته، وهـو الـذي أخرجـه مكسميوس البطرك الجالس على كرسي القديس مرقس بمدينة الإسكندرية زمن الملك غليانوس ووالاريانوس، وكانت صفة بولة أنه استغنى من مال البيعة بعد فقر، وكان ينهب الهياكل بالناموس ويقطع مصانعات الأتقياء فـي الحكـم، وإذا زاده خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكتسب له غنـى بـاطلا منكل وجوه الظلم، وكان مع هذا يظهر أنه عابد ، وكـان يمشي مع الأعوان ويتسلط على الضعفاء ويدور في الشوارع ويحب أن يتسمى باسم الأسقفية، ويقلق النـاس بكثـرة مـن يصحبه مع الجمع، وكانت معه كتب يقرؤها، كأنـه يطلـب الخراج، ويوهم الناس أنه مقدم ويصحبه قوم متسلحون قدامه وخلفه، وكان يبغض التعلـيم الروحـاني، ويحـب التعـاليم

البرانية، ويرفض الغرباء إذا دخلوا في البيعة، ويطلب المجد من المقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع حتى أنـه وضع له كرسيا بمنبر عال كأنه تلميذ للمسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النساء يقرأن في ليالي الأعيـاد وفـي جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكـان المؤمنـون يسدون آذانهم إذا سمعوهن يقرأن، وكان لا يقبل شـيئا مـن الكتب ولا يقول أن المسيح ابن ا   ولا أنه نزل من السـماء وتجسد من مريم العذراء، بل كان يجدف تجديفا كثيرا.

ثم إن مينا بن بقيرة، افتتن زمنا كذلك بـأقوال الكـافر ماني عابد الشيطان، وكان ماني هذا قد أظهر أفعـالا رديـة زمن فزوبوس الملك، وجدف على الرب ضابط الكل، وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسـر أن قال أن جميعه بارقليط، وكان هذا عبدا لامرأة أرملة كان لها مال كثير، وكان قد أوى إليها ساحر عظـيم مـن أهـل فلسطين وقع من فوق السطح فمات؛ فاشترت المـرأة ذلـك العبد السوء وعلمته في الكتب، فلما كبر دفعت له كتب ذلـك الساحر، فلما قرأها وعرف منها السحر مضى إلى الفـرس وحضر إلـى الموضـع الـذي فيـه السـحرة والعرافـون

والمنجمون، فلما قوي في علم الخطية ظهـر لـه الشـيطان وقواه وحبب له بغض البيعة فأضل قومـا كثيـرا بسـحره وصارت الأموال تحمل إليه وصار لـه صـبيان وصـبايا يخدمون شهواته النجسة وكان يسـتعبدهم بسـحره ويضـل جماعة من الناس ويقول لهم أنه البارقليط الذي وعد السـيد المسيح في إنجيل يوحنا بإرسـاله، وكـان يقـول بضـلال المعلمين والآباء – قطع ا لسانه – لأنهم يقولـون أن ا – جل ذكره – حل في بطن امرأة، وقد قال الأنبياء قولا غيـر الحق عن المسيح؛ لأن إله العتيق شرير لا يريد أن يؤخذ منه شيء فأما إله الحديث فهو صالح إذا أخذوا منـه لا يـتكلم، وقال كلاما كثيرا تجديفا لا يجوز ذكره ولا قـال الشـيطان مثله.

ثم إن البشموري عاد واهتدى إلى الدين الحق، بعـد أن تعقل، واعترف بخطاياه على يد أبي بيعـة بلدتـه النجـوم، وصار تقيا حكيما، لا يرتكب الفاحشة ولا يفعل الإثم عنـدما عاد إلى أرض آبائه وموطنه في الأراضي الموحلة، وكـان أبوه من الميسورين فكرسه للعلم باعتبـاره أكبـر إخوتـه، وكرس بقيتهم للفلاحة كعادة أهل نواحينا البشمورية، ولم تزل

منذ العهد القديم وحتى الآن، فلما تعلم مينا وجد فـي العلـم، وبانت عليه علامة النجابة والذكاء، ونشط في علم الحساب، استخدمه متولي الخراج في مصر السـفلى كحاسـب لـدمز الكور في بعض النواحي، وليدل ذاك المتولي علـى أفضـل السبل لاعتصار ما بها من خيرات، ولقد ظل مينا على تلـك الحال فترة من الزمن لكنه – في النهاية – تاب واستغفر بعد أن انتفض ضميره، ويقال أنه كان قد عايش وشاهد بأم عينه ما كان من أمر هؤلاء القرارية المساكين، والذين هم أقنـان الأرض بأمر المتولي، لا يحـق لهـم مغـادرة الأرض أو أماكنهم هم وذراريهم أبد الآبدين؛ حتى يزرعوها، علـى ألا يباعوا أن يشتروا كالعبيد، وكان هؤلاء لا يجدون ما يقتاتون به، حتى عدموا صناعة خبزهم المسمى بتاو والذي اعتـادوا عمله من طحين الذرة والحلبة، في الوقت الذي كان، وهـو المتمرد الآن، يستخرج الخراج من أراضيهم وكورهم، حتى أنه استخرج منهم في عام واحد من الغلة ثلاثـة آلاف ألـف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتين وتسعين وثلاثين أردبـا وثمن ونصف وسدس وثلثي قيراط، ومن العناب ربع أردب، ومن ورق الصباغ ألفين وأربعمائة وثلاثـة أرادب ونصـف

إردب، ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربعا، ومن الفوة أربعمائة وسبعين رطلا ومن الأغنام مائتي ألـف وخمسـة وثلاثين ألفا وثلاثمائة من الرءوس، ومن الجاموس الأسـود غزير الحلب مائتي ألف ومن البسر ثلاثمائة وثلاثـة عشـر قنطارا وثمانية وثلاثين رطلا، ومن عسل النحل خمسـمائة وواحدا وأربعين قنطارا وسدس قنطار، ومن الشـهد اثنـين وثلاثين زيرا وقادوسا واحدا، ومن السمن ألفـين وتسـعمائة وستة وتسعين مطرا وسدس وثمن مطر، ومن الجبن بخيـره ثلاثمائة وعشرين رطلا.

وقيل أن رجوع البشموري عما كان فيه من عمل مـع الوالي هو أنه بعد ما انتهى من وضع واسـتخراج الخـراج المذكور، وبينما هو يسير ذات يوم من الأيام عائدا إلى داره في محلته، وكانت دارا كبيرة عامرة بالخيرات علـى عـادة الموسرين من أهل هذه النواحي، إذ به يتسمع إلى أنين واهن لطفلة صغيرة في موضع من المواضع بين أعشـاب الحلفـا الطوال النابتة دوما في المستنقعات بالأراضي البشـمورية، بينما رجل يحادثها حديثا عنيفا غليظا وهـي لا تكـف عـن التشكي والرجاء، فنزل مينا عن دابته واتجـه إلـى ناحيـة

الصوت؛ ظنا منه أن الرجل يسعى إلى مفاحشـتها وقضـاء وطره منها، ولكن ما إن وصل إلى موضعهما، حتى هاله ما رأى من أمرهما، إذ كان الرجل – يهبر – ناهشا بأنيابه لحم الفتاة الصغيرة وهي حية وينهب منه، حتى أنه نهـش لحـم الذراعين والفخذين والمواطن الطرية منها، بينما الصـغيرة تتوجع وتتوسل أن يكف أذيته عنها ويتركها، لكن الرجل ظل سادرا في نهشها دون أن يتسمع لرجاها واسترحامها. فلمـا نظر البشموري ذلك، غلى دمه، وأخذه الغضـب، وانقـض على الرجل منتزعا الصبية من بين يديه، وهي بين المـوت والحياة، ثم إنه نازله لفترة من الوقت، وكـان الرجـل دون الحالة الإنسانية، وقد دخل في الصفة الوحشية؛ بسبب شـدة الجوع وانعدام الغذاء، فأجهز عليه مينـا دون جهـد كبيـر؛ بسبب ضعف بنية الرجل، وبحول ا وقوته عليه. ومن وقت ذلك، صغرت الدنيا في عين مينا، وقد هالـه مـا رأى مـن أحوالها، وأدرك أنه مشارك في الجرم الواقع على مثل هـذه الطفلة المسكينة؛ بسبب عمله في الخراج، فتركه ولم يعد إليه بعد ذلك أبدا، ثم إنه أخذ الطفلة إلى داره فجاب لها الحكمـاء ليطببوها، وكانت مليحة الوجه، نورانية الروح، فصبر عليها

حتى بلغت، وعزم التزوج بها رحمة بها وتيمنا بجودهـا؛ إذ اعتبر من حكاياتها واعتبرها آية قد أظهرها ا له ليكف عما هو فيه من ظلم وجور، ثم إنه بعد أن أظهر الندم على زمنه الأول جمع حوله البشموريين والفلاحين والقرارية، بعد مـا وزع ما كان يملكه من أراض وممتلكات عليهم عملا بقـول يوحنا في الذهب: "إن أردت أن تكون كاملا، فاذهـب وبـع أملاكك وأعط للفقراء".

وقد قال من حكى حكاية البشموري لي ونحن مرتحلون من مدينة تنيس العظيمة في المراكب، بعد ذلك، أنه حضـر عرس البشموري على هذه الصبية، وقد صارت شوهاء، وإن ذلك كان مشهدا مؤثرا لن ينساه أبدا طيلة حياته، وخصوصا عندما تحرك الكاهن القائم بالخدمة من الخوروس الأمـامي وهو يقود العريس داخل البيعة، إلى المكان الذي تنتظر فيـه العروس، ثم طلب الكاهن من مينا أن يلبس عروسه الدبلـة المربوط بها التاج، فلما لم تمد الفتاة يدها كما هو متبع لتـدل على موافقتها؛ لأن يدها كانت مقطوعة بسبب ما جرى لهـا، بكى جميع المدعوين تأثرا، خصوصا وأن مينا أزاح الثـوب عن قدمها بعد أن انحنى أمامها ووضع يـده علـى الأرض،

فلامست الفتاة كفه براحة قدمها، فألبسها الدبلة فـي إصـبع القدم، وحينذاك قام الكاهن بحنى رأسيهما بحيث تلامستا معا، ثم إن مينا أخذ عروسه إلى مدخل الخوروس وأوقفهـا عـن يمينه كما هو متبع، فقام الكاهن بتغطيتها بعباءة من الحريـر الأبيض رمزا للاتحاد النقي المقدس، وكانت الصلوات تقـرأ أثناء ذلك وتنشد الألحان وتطلق البخورات.

وقال لي ذلك الرجل: إن العرس أبكى الجميع، حتى أن بعض الشمامسة القائمين بالخدمة بكوا خلال ذلك، خصوصا وقت أن كان الكاهن يباركها ويمسحها بقنينـة مـن الزيـت المقدس، على جبهتيهما ورسغيهما كما هو متبـع، ويبـارك أيضا التاجين ويضعهما على رأسيهما، فلما لم يجد السـاعد والرسغ عند الفتاة، لم يتمالك نفسه وتهدج صوته ضعيفا، بدلا من أن يصيح بصوت مرتفع وفقا للأصول وهو يقول: "بمجد وكرامة توجهما أيها الأب، باركهما أيها الابن، وتوجهما أيها الروح القدس، وحل عليهما وكملهما. فلم يتمالـك المواضـع بالبيعة، وجرى نواح كثير، على الرغم من أن المناسبة كانت وقتا للفرح ولم تكن وقتا لموت أو تجنيز.

وقد قال لي ذلك الرجل أيضا: إن مينا بن بقيرة، ظـل يحث هؤلاء القرارية، وظل خلفهم، يـدفعهم إلـى التمـرد والعصيان والثورة وعدم دفع الخراج للمتولي، وهـو يقـول لهم: إنكم لن تخسروا شيئا، فأنتم مقتولون بسبب قلة القـوت، فقاتلوا سارقي قوتكم حتى تقتلوهم أو تقتلوا، ثـم إنـه ظـل يقويهم بالكلام، ويحسن في عينهم الخـروج علـى الـوالي ومحاسب الخراج وكل من يتعامل مع الدولة، ويقول لهم أن ذلك يتم برضا ومباركة السيد المسيح، الذي لـم يقبـل أبـدا ظلما، بل هو لعن جامعي المال ومحبيه، ولعن كهنة أورشليم بسبب حبهم للدنانير، فانقلبوا عليه. وإن مرقص لم يدعنا لدفع الدمز ويقصد بذلك مرقص البشير، وراح يزين لهم الكـلام، حتى وافقوه وتجمعوا حوله، بعد أن يئسوا من حياتهم البائسة، ومن تحسن أحوال معاشهم ومعاش عيالهم، فخرجـوا معـه يقاتلون، وقد سحلهم بالقسي والحراب، التي قيل أنـه كـان يجلبها سرا عبر مراكب في النيل من بلاد النوبـة، وكانـت المراكب تسير على نحو لا يشتبه فيه؛ إذ كانت توضع عليها الأسلحة، وتغطي بالجرار والقلل والأزيار وكـل الفـواخير

القناوية المجلوبة من مصر العليا، كما جرت العادة في جلب الآنية والفواخير منها لمصر السفلى.

ويقال أن القسي والحراب هذه كانت من أفضل الأنواع التي تصنعها قبيلة يقال لها البجة. اشتهرت نسـاؤها بعمـل ذلك، وأنساب هذه القبيلة من جهة النساء، ولكل بطن مـنهم رئيس عليهم متملك، وهم يعترفون بالرب ويتقربـون إليـه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من يعبد الشمس والنـار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجر! وبهيمـة!. أي أن معظمهم في الوثنية، ويقال أنهم يورثون ابن البنـت وابـن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون أن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال.

وكان البشموري يسلح جيشه بهذه الحراب المجلوبة من البجة، والتي يطلق عليها اسم الحراب السباعية، مقدار طول الحديدة ثلاث أذرع، والعـود أربـع أذرع وبـذلك سـميت سباعية، الحديدة في عرض السيف، وكانت هذه الحـراب لا تخرج من يد حاملها إلا بصعوبة؛ لأن في آخر العود شـيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم، وكان البشـموريون

حاملين لهذه الحراب، عند دخولي عليهم مع ثاونا الشـماس، ويقال أن صناع هذه الحراب من النساء يتخذن لها موضـعا في كورة البجة لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن، فـإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلاما قتلته، ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب.

وكانت القسي التي رأيناها مع البشموري آنذاك أيضـا، كبارا غلاظا، صنعت من شجر السدر والشـوحت، يرمـون عليها بنبل مسموم، يعمل من عروق شجر الغاف بعد طـبخ على النار، حتى يصير مثل غراء وقد حكى ثاونـا، كثيـر العلم؛ عن ذلك لما سألته، بعد خروجنا من عند البشموري.

لا أعرف ما الذي حدا بثاونا إلى السكوت وعدم الـرد على كلام البشموري، ولا أدري لماذا لم يحثه علـى تـرك القتال وإطاعة كلام أبينا يوساب. والحقيقة أن سـكوته هـذا جعل شعورا خفيا يساورني – وليغفر لي الرب – بأن ثاونـا قد تأثر بمقالة البمشوري ويوافقه عليها، وكنت أنا قد شعرت وتأثرت بكل ما قال – لكن هذا شيء ومخالفة كلام أبينا شيء آخر، لذلك هممت أن أتكلم لأذكّر مينا بما جاء فـي رسـالة

أبينا إليه، لكن ثاونا لكزني برجله كي أصمت، وكنت جالسا إلى جانبه، فسكت.

فلما وجد البشموري من ثاونا الصمت والسكوت وعدم الرد، تمادى وراح يعتب على أبينا أنه يسعى إلى تثبيط همته، بدلا من أن يقويه على حربه ويباركه وينصحه بالكف عن القتال، بدلا من الاستمرار فيه. ثم إنه قال: إن رئيس بيعتنا يخشى على بيعته من المسلمين إذا ما ساندت البشموريين. وإنه لا يعينه إلا أن يغضب الوالي على البيعة الأرثوذكسية؛ فيشمل برعايته الكنيسة الملكانية. فلما وصل إلى هذا الحد من الكلام، رأيت ثاونا وقد غضب غضبا شديدا – وكنت أراه لأول مرة منذ ملازمتي له في البيعة وخلال ترحالنا يغضب إلى هذا الحد – يندفع بالكلام قائلا:

- أنت لا تقر بالحقيقة بل تخشى منها حتى تظل سادرا في القتال. إن الأراضي الكنسية هي أرضنا جميعا نحن الأقباط، وممتلكات الكنيسة سوف تذهب مع كل ما في البيع من فرش وأوان إلى الملكانيين الهراطقة وكنائسهم، وجلهم من الأروام الأجانب، إذا ما غضب الوالي وعسكره على كنيستنا وآبائها التاوضوسيين، وهذا معناه أن تذهب كل

ممتلكاتنا وأراضينا التي ورثناها وحزناها منذ أوايل الـدهور عن آبائنا وأجدادنا إلى الإغريق والروم، وكل الأغراب مـن أتباع المذهب الملكاني، ثم ألم تسائل نفسك مرة: مـن أيـن جاءت ممتلكات الكنيسة هذه، هه؟. قل لي بربك: أليس كثير من هذه الممتلكات والأراضي، كان في مبتدأ الأمر لكثير من الآباء الأغنياء الذين زهدوا في الدنيا ومتاعها ووهبوا كل ما لديهم من ثروة وجاه للأديرة والبيع؟. أأذكر بأن الأراضـي وعقارات البيع جاءت جلها من الهبات والتبرعات، وما ذاك إلا ملكية لنا جميعا نحن الأقباط؟. ثم إن.. سكت ثاونا فجأة، إذ دخل علينا بين أيدي الحراس، رجل وامرأة وأربعة مـن العيال، وقال الحراس أنهم وجدوا هؤلاء يتسللون إلى الكورة، فظنوا بهم الظنون، فضربوهم واقتادوهم إلـى هنـا، وكـان الرجل والمرأة وجميع العيال في حالة مزرية بائسـة وقـد تسربلوا بعجينة الوحل لكثرة سـيرهم حفـاة فوقـه، وكـان الأطفال شبه عراة، ينظرون ذاهلين وقد تمكنت منهم الـبلادة لشدة الجوع والهزال والتعب. فلما سأل البشـموري الرجـل واستفسر منه عن أمره وأمر من معه، طلب الأخيـر المـاء أولا، ثم حكى أن اسمه بخنس، وأنه هـرب ذات ليلـة مـع

امرأته القادمة معه وعياله من بلدته الأصلية في الصعيد؛ بسبب انعدام ما يدفعه إلى ملتزم الخراج في ناحيته الذي يتشدد في التحصيل والجباية، وأنه ذهب بامرأته وعياله إلى بلدة تسمى كوم أشقاو يلتمس الخلاص، مثلما فعل كثيرون وجدهم في تلك البلدة،وقد أطلق رجال الوالي على هؤلاء الفارين من أمثاله اسم الجالية، وأنه تناهى إليه أن الوالي كتب إلى صاحب أشقاو برد كل من كان من الجالية إلى أرضه مرة أخرى، فخرج مع عياله هاربا، وراح يركب الماء تارة صاعدا مع النهر في مراكب الصيادين خلسة، ومرة أخرى يسير مع عياله في البراري حتى وصل إلى مبتدأ الكورة فتسلل إليها وهو لا يعلم شيئا عن الحرب الدائرة فيها بين الأهالي وجيش الوالي، ثم إن الرجل سجد محاولا تقبيل قدمي مينا بن بقيرة ليرحمه، فلا يسلمه لمن يعيده مرة أخرى إلى أرضه، وظل يسترحمه ويستعطفه على نحو مؤثر دفع الدموع إلى عيني، فطمأنه مينا ورفعه بيده لينهض عن الأرض، وطلب من أعوانه أن يأخذوه وأهله ويقدموا لهم ما يؤكل ويشرب ويستر أجسادهم، ثم إنه طلب من الرجل أن يبقى إن شاء وينضم إلى أعوانه المحاربين. ران الصمت بعد

أن ذهب الرجل وعياله، قبل أن يقول البشـموري بصـوت خفيض: أرأيتم؟. هذا يسير من كثير يمر علينا هنا كل يـوم، ووا لو تراجعت بيني وبين نفسي لحظة عما أنا فيه، فإنني واجد ما يردني إلى الحقيقة في اللحظة التالية لذلك، فإنما أنا مثلي كمثل من يده موضوعة في النار، لا يشعر من الـدنيا بشيء غير لسع السعير وأكلانه للحمه، ولو عشتم معنا هنـا أيها الآباء الطيبون يومين فقط، لانقلبتم عما أنتم فيه، وكفرتم بوجود أي حق، أو عدل في هذه الدنيا، وهذا العالم الصعب.

صلبنا واستغفرنا عند سماعنا ذلك، وكنت أترجم لثاونـا بسرعة وبصوت خفيض كل كلمة يقولها البشموري، لـذا رد عليه قائلا بحزم:

- اسمع يا مينا، أنا أستطيع أن أحكي لك العديـد مـن القصص مثل ما رأيناه الآن، فما تقوله.. وما رأيناه هو مـن الحادثات المعتادات في كل مكان من البلاد الآن، لكن هـذا شيء، وما أنت فيه شيء آخر، فحربك ضد الولاة المسلمين لا يمكن أن تدوم إلى الأبـد، وإنهـم إن آجـلا أو عـاجلا لهازموك بعتادهم الأقوى وجيوشهم الأعتى، فـالعرب قـوم قوتهم الكر والفر، وليسوا بأهل أرض وزرع، وأنت لا يمكن

أن تستقل بأرضك وأهلك.. وتكون لك سياسة ورياسة بمعزل عن أولئك القائمين المتحكمين في مصر والفسطاط، فـارجع عن أحلامك وأوهامك ولعلي أرى ما لا ترى لأنـي بعيـد، وعموما فأنا لم آت إلى هنا لإقناعك ومحاجتك. ولا تفـويض لي بالرد على مقالتك، فالرسالة هي رسالة أبينا إليك، وما أنا إلا حاملها لك، ومطلبي هو أن تحملني رسالة منك، أعود بها إليه في قصر الشمع، وهذه هي غايتي ومهمتي أولا وأخيرا. أذكر في النهاية أن هؤلاء المسلمين هم أقرب إلينا من الروم الملكانيين، فهم وإن كان بعض من ولاتهم قد عسف وتجبـر وجار علينا، إلا أنهم في مبتدأ الأمر لم يبتغوا لنا إلا السلامة والأمان، ورسولهم كريم أوصى بنا خيرا، وفي مبتدأ أمرهم ببلادنا أحسن ولاتهم معاملة الناس، والآن أن تعلم أن هنـاك الكثير من القبط المسلمين، والعرب المسلمين، ضـد الـولاة وظلمهم، ولا تنس أننا نحن الذين جلبناهم في سالف الـزمن ورحبنا بهم لنتقوى بهم ضد الروم، وارتضينا حكمهم بـديلا لحكم هؤلاء الأجانب. أتريد يا مينا أن تقع البلاد فـي أيـدي الروم مرة أخرى؟. فكر في الأمر واتق ا ؛ فنحن في زمان صعب، كل شيء فيه يتحول ويتغير ويتبدل، الحصيف هـو

من ينظر إلى الأفق البعيد، ويترك النظر إلى ما تحت رجليه. وثورتك هذه قد تقود البلاد إلى طريق لا عودة منه؛ لأنها إن وقعت مرة أخرى في أيدي الملكانيين، فلن تقـوم لكنيسـتنا قائمة بعد ذلك، ولسوف تضيع مملكاتنا وثرواتنا إلى الأبـد، ولعلك تعلم أن الآباء الطيبين يسعون بكل وسيلة إلى الحفـاظ على الكنيسة، ولقد عربوا الصلاة حفظا للديانـة، وسـلامة للطقس اللاهوتي، وقد وجدوا أن أكثر الشعب لن يفهم الديانة ولا الصلاة القبطية، بعد تحول أكثره إلى لسان العربية يوما بعد يوم، وأنا أقول لك: لو قضى علـى انتفاضـتك، فـدماء هؤلاء الفلاحين سوف تكون رقبتك؛ لأن بطش العسكر لـن يكون يسيرا، وأنت أدرى بمعنى المثل القائل: إن وقع العجل كثرت سكاكينه، فلن يرحمك أحد، وكما تدين تدان، والنـاس يا عزيزي – وهذا أمر فيه حكمة – مـع الغالـب ضـد المغلوب دائما، وأنا أقول لك ذلك حرصا عليك وعلى هؤلاء الذين حولك، وقد توسمت فيـك صـدق العقيـدة، وطبـاع القديسين، فأنت تعيش عيشة خشنة مثل هـؤلاء القراريـة لا تبغي جاها ولا تروم مجدا، ولكن فكر فـي الأمـر، وزنـه بميزان العقل والحكمة، ولا تكن كمن ينطبق عليه القول خيرا

تفعل، شرا تلقى. وهذه مقالتي لك، من عند أخ لا يبغي لـك غير الخير، ولا يرتجي لقومك إلا الأمان والسلام.

حدق البشموري في ملابسنا الكهنوتية مليا، وكأنه يفكر في أمر من الأمور، ثم قال بصوت بحه الانفعـال، دون أن يطرق له جفن:

- ما سمعته ورأيته الآن عندنا أيها الأب المحترم هـو رسالتي إلى أبينا المعظم في قصر الشمع، وزد عليه ما تراه عندنا؛ فنحن قوم دفعنا لأن يأكل بعضنا بعضا، ورحـم مـن قال: الفقر يولد الكفر، ووا لن يستمر ذلك حتى أبد الآبدين، فإننا قد عزمنا على أن نأكل بحرابنا وقسينا من أكلوا قوتنـا، وأباعونا أولادنا وعيالنا، ولسوف نكون نارا تشوي أجسادهم، أو نكون مأكلة لسيوفهم وخناجرهم، وليكن لحمنـا خـراجهم ورءوسنا المقطوفة جزيتهم.

ما أريد أن توضحه لأبينا في قصـر الشـمع أن الأذى الذي جرى لرسله السابقين إلينا قد تم دون علم مني، فالـذين ضربوا أو سرقوا أو أخذ ما معهم، جرى لهم ذلك من قبـل بعض أتباعي الدهماء؛ بسـبب سـوء مسـلكهم وتـرفعهم واستكبارهم على هؤلاء الرجال، والذي قتل، جرى له ذلـك

لأنه سب الجميع هنا بمن فيهم أنا، واتهمنا بالكفر والمروق، فلم يتمالك أحد الرجال نفسه فقتله. وعلى الرغم من ذلك فلقد عاقبت جميع من تعرض لأولئك الرسل ورميت القاتل بنفسي حتى يكون عبرة لمن يعتبر. أقول ذلك وأنا غاية في الأسف والحزن؛ لأننا لسنا قطاع طريق، ولا لصوصـا مجـرمين، لكننا قوم اضطررنا إلى ما نحن فيه، وا وحده أعلـم كـم أكره الحرب، وكم أمقت السلاح؛ فأنا رجل لم أشتغل بمثـل هذا أبدا طوال عمري، ولم أكن أتصـور أن الأيـام سـوف تدفعني إلى ما أنا مدفوع إليه.

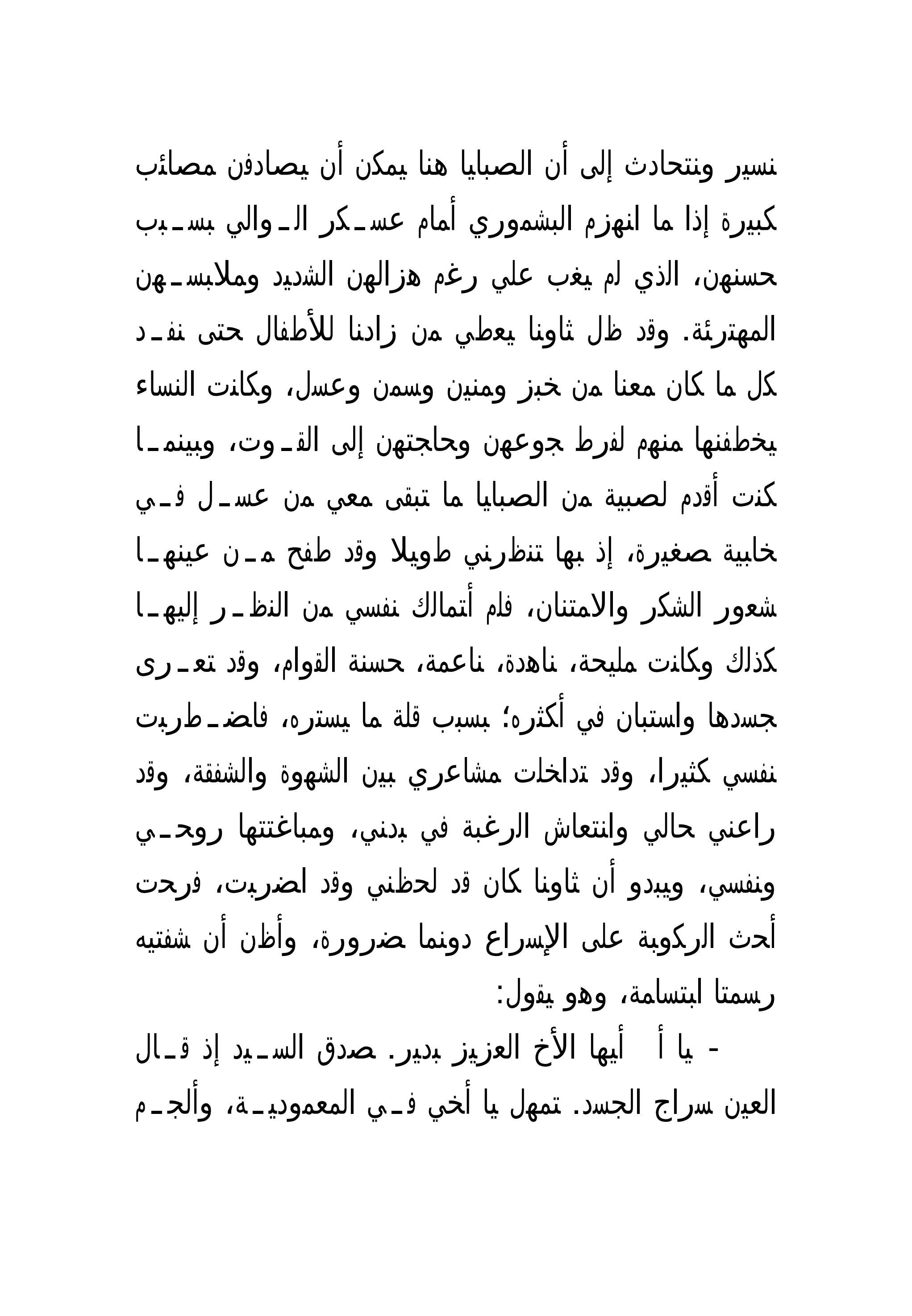
انصرف الآن أيها الشـماس المحتـرم إن أردت، وإذا رغبت أن تكون بيننا حتى صباح الغد، فأهلا بك في ديارنا، والأفضل ألا تذهب وقد أوشك الليل على الحلول، فتتعـرض لأي شر في الطريق.

توجست خوفا من أن يوافق ثاونا على المبيت فيحدث ما لا تحمد عقباه، لكن ثاونا رفض البقاء، متـذرعا بضـرورة عودتنا سريعا إلى مصر العتيقة، وأنه لا يرغب في التلكـؤ ليوافي أبانا يوساب بالجواب، ويرسيه على حقيقة ما يـدور هنا.

هب البشموري واقفا عندما وقفنا، ومد يده بالتحية لنـا، ثم قال:

- إذن... أنتما سوف تمضيان الآن.. كمـا تشـاءان. فلترافقكما السلامة. ثم أمر أتباعه أن يوصلونا إلى أبعد نقطة ممكنة بالنسبة إليهم خارج حدود البلدة. ولاحظت أثناء ذلك، أنه اكتفى بالشد على أيـدينا، دون أن يقبلهـا مثلمـا يفعـل المؤمنون عادة مع أهل البيع والكهنوت.

كان الوقت قد أوشك على الغروب، حينما بدأنا الخروج من أراضي البشموري، وكانت الأرض قـد زادت وحلتهـا بسبب زيادة مياه النيل المفاجئة، فلم نكد نسير قليلا، مبتعدين عن الشونة الواسعة التي التقينا فيها البشموري، وندخل فـي طرقات القرية، لنعبر طريقها الرئيسة ونخرج منها في اتجاه خط النيل إلا وكان رجال ونساء وأطفال قـد خرجـوا مـن دورهم وتجمعوا حولنا لمشاهدتنا، بعد أن شاع خبر وجودنـا بالمحلة. نظرت إلى الجميع فداخلني شعور بأنهم يحدقون فينا وكأننا بدعة من البدع، أو أعجوبة من الأعاجيب لم تصادفهم خلال حياتهم من قبل، وكان الأطفـال والصـبايا يسـيرون ركائبنا، وقد راحت تترك بصعوبة وبطء على زلاقة الأرض المتزايدة؛ مما دفع الأطفـال لانتهـاز المناسـبة، فأخـذوا يتحسسون أرديتنا الكهنوتية، وينظرون بدهشة إلى أخفافنا كما لو كانوا لم يروا أخفافا من قبل، أو كأنهـا مـن الثمينـات المفتخرات النكات، وكان بعض الصغار عراة تمامـا لـيس عليهم ما يسترهم، والبعض الآخر تسترهم أسمال بالكاد، أما النساء فقد بدون – على رغـم دلائـل الضـنك علـيهن – صبوحات ذوات وجوه حسنة، وقد لفت ثاونا نظري ونحـن



نسير ونتحادث إلى أن الصبايا هنا يمكن أن يصادفن مصائب كبيرة إذا ما انهزم البشموري أمام عسكر الوالي بسبب حسنهن، الذي لم يغب علي رغم هزالهن الشديد وملابسهن المهترئة. وقد ظل ثاونا يعطي من زادنا للأطفال حتى نفد كل ما كان معنا من خبز ومنين وسمن وعسل، وكانت النساء يخطفنها منهم لفرط جوعهن وحاجتهن إلى القوت، وبينما كنت أقدم لصبية من الصبايا ما تبقى معي من عسل في خابية صغيرة، إذ بها تنظرني طويلا وقد طفح من عينها شعور الشكر والامتنان، فلم أتمالك نفسي من النظر إليها كذلك وكانت مليحة، ناهدة، ناعمة، حسنة القوام، وقد تعرى جسدها واستبان في أكثره؛ بسبب قلة ما يستره، فاضطربت نفسي كثيرا، وقد تداخلت مشاعري بين الشهوة والشفقة، وقد راعني حالي وانتعاش الرغبة في بدني، ومباغتتها روحي ونفسي، ويبدو أن ثاونا كان قد لحظني وقد اضربت، فرحت أحث الركوبة على الإسراع دونما ضرورة، وأظن أن شفتيه رسمتا ابتسامة، وهو يقول:

- يا أ أيها الأخ العزيز بدير. صدق السيد إذ قال العين سراج الجسد. تمهل يا أخي في المعمودية، والجم

جسدك بتلاوة الآيات وذكر الحق، واحفظ دوما ما قاله اللسان العطر بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الـذي لكم من ا ، وأنكم لستم لأنفسكم؟. لأنكم قد اشـتريتم بـثمن. فمجدوا ا في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي ا ".

هتفت أرد عليه وأنا أزدرد ريقي بصعوبة، وقد شعرت بسخونة تسري في كل جسدي وبنار تستعر لتحرق روحي:

- فليرحمني الرب أيها العزيز ثاونا، فليرحمني الـرب وليغفر لي إثمي الذي داهمني رغما عني، وليذهب شـيطان الجسد إلى الجحيم.

لم أشعر إلا والدموع تنحدر من عيني، فرحت أمسـحها بكم ردائي، وقد تدافعت ذكرياتي مع آمونة تطوف بمخيلتي، وقد جاشت ذكراها بداخلي جيشان ماء تفجر من باطن نبـع عميق، فرحت أتذكر أوقات سعادتي الدنيوية معها، وما كان من شقائي وتعاستي بعد فراقها، ثم إني أخذت أستغفر الـرب كثيرا وأقرأ آيات التوبة والندم، محاولا طرد صـورة الفتـاة التي رأيتها من مخيلتي فتغيب صورتها برهة، لكن شـيطان الجسد ظل يراوغني ويلاعبني، فكانت صورتها تتجسد مـن

جديد في ذهني على نحو كبير من القوة والوضـوح، وأنـا أحاول جاهدا أن أهدئ نفسي، وأستعيد ثباتها ويقينها الضائع ميمما البغل بعيدا عن الفتاة التي سرعان ما لحقتني، وبحركة مباغتة، مدت يدها وتحسست صليبي المدلى في حبله الطويل على صدري، وكنت قد وضعته من سيور جلد البقر الجيـد، فلم أتمالك نفسي – ولم يكن قد تبقى معي شيء لأعطيه لها – فخلعته دون أن أشعر ووضعته في عنقها، وأنا أتجنب النظر إلى لحمها المستبين، فأمسكت كفي بكلتا كفيها وضمتها إلـى صدرها قويا، ثم انحنت عليها ولثمتها، وعندئذ خفت ألا أقوى على لجم مشاعري فسحبت يدي متسرعا، ورحت أدفع البغل دفعا حتى كأنني رغبت أن يطير بي طيرانا، ولم أتوقـف إلا عندما صرخ ثاونا في: أبطـئ. أنسـيت أن الأرض زلقـة موحلة ومن الخطر العجلة والإسراع عليها.

كان البشامرة الحراس، الذين ظلوا برفقتنا حتى أواخـر البلدة، يوبخون الناس ويعنفونهم، حتى لا يقتتلوا علـى مـا أخذوه منا من طعام، وقد أخبرنا بعـض هـؤلاء الحـراس، ونحن نسير، أن العسكر التابعين للوالي قد نهبوا كل شـيء في الكورة أثناء إغارتهم المتتالية عليها، وأنه لم تعد هنـاك

بيعة واحدة بين مدينتي دمياط وريد، علـى امتـداد بلـدان الساحل البشموري، إلا ونهب كل ما فيها من فـرش مهـم، حتى صنوج الخورس، وأواني الهيكل، وأن أحدا لم يـذهب إلى الصلاة الجامعة. وأن المقابر خربت ونهبت، إن لم يكـن بفعل العسكر، فبفعل اللصوص والعيارين وأولئك البـاحثين عن أي شيء يأكلونه أو يلبسونه، وقد قال واحد ممن خرجوا لحراستنا، أنه بالقرب من سمنود مقبرة ليهود نهبـت فكـان أعجب ما وجد فيها موتى جرى تصبيرهم ولفهم باللفـائف، كما جرت العادة في الأزمان الغابرة، مثلما يوجد بين الحـين والحين في البرابي الوثنية المتبقية من الزمن العتيق.

وقالوا لنا كذلك أن عقود الزواج ظلت تتم داخل ما تبقى من البيوت وأحيانا في الطرقات، وأن القسس ندر وجـودهم لعمل ذلك، لأن معظمهم تركوا هذه البلاد وغادروهـا إلـى برية هبيب وأديرة النطرون، بعد أن يئسوا وخربت بـيعهم، ولم يجدوا من ينفق عليها، أما الميـرون المقـدس الـلازم للتعميد، فقد انعدم في هذه النواحي تماما وعز وجوده، ولـم يعد يوجد ما يعمد به، وقد حدث أن بعض الناس جلبوا قسيسا بالقوة إلى بلدة مجاورة، وحملوه إليهـا مقيـدا بالسلاسـل،

فاستبشر الناس خيرا بذلك، لكنه امتنع عن التعميد والطقس بسبب انعدام الميرون، فعجبنا أنا وثاونا لذلك أشد العجب، وقد قيل لنا كذلك أن أكثر المكاتب قد خربت ولم يعد الصغار يذهبون للدرس وبات أكثرهم لا يعرفون قراءة ولا كتابة الحرف، كما أن الصناع وأهل الحرف قد ضجوا بالحياة هنا، فهاجر من هاجر منهم للاشتغال بالبلاد الأخرى، ويقال أن جماعة منهم عدت البحر إلى جزيرة قبرس عن طريق اللسان الموصل إليها من مدينة الفرما والعريش.

وقال رجل: إن أقباطا كثيرين قد أسلموا بعد أن ضاقت بهم السبل وعدموا الحيلة، واستصعبوا الحياة مع مينا ابن بقيرة، لكن هناك من المسلمين من انضم إليه ثائرا منتفضا، وإن ظل على دين الإسلام، والبشموري لا يحول بينهم وبين ما ارتضوه من ديانة، وفي كل يوم يتسلل قوم من هنا إلى مواضع عسكر الوالي ويلتحق قوم من الغرب المسلمين بالبشموري والأمر غاية في التقلب والتغير والاختلاف بين الحين والحين.

فلما سمعنا ذلك تأثرنا كثيرا حتى أن ثاونا تندت عيناه بدموع واضحة، وقال أنه يشعر بالأسف والحسرة؛ لأنه لم

يجلب معه طعاما ولا لباسا لهؤلاء المساكين، ولأنه لم يـأت بمراهم وعقاقير ليعطيها لأولئك النسوة والأطفال، وقد لاحظ عليهم كثرة الأمراض الواضحة على أجسادهم التي ملأتهـا التقيحات والبثور، وتبدت الانتفاخات في أعضائهم وبطـونهم خاصة مما يعني انتشار عل الخالوروز بين الناس وهي العلة الناتجة عن عظم فقر الـدم؛ وذلـك لشـدة، افتقـاد الغـذاء وانعدامه، وقال: إن هذه العلة على الرغم من خطرها إذ مـا استدامت طويلا، يسهل الشفاء منها إذا خلـط تـين بنسـبة ٣٢/١، إلى ملح بحر بنسبة ٨/١ ثم يطبخ جميعـه ويصـفى ويؤخذ في يوم واحد، وأن هذه وصفة قديمة جدا متوارثة منذ أجيال بعيدة، وأنه لو علم بوجود هذه العلة بكثرة هنا، لكـان قد أعد من دوائها الشيء الكثير بنفسه وأحضره معه ليوزعه على الناس.

وقال لي ثاونا: إن هناك عللا تشفى بالقرابيات الربانيـة عليها، وعللا تشفى بالتطبيب والعقاقير، وإن أكثر علل البطن الناتجة عن الجوع تشفى بالعقاقير المعوضة للأكـل الجيـد، ولما كان هؤلاء القرارية يأكلون أكلا ضعيفا رديا منذ زمـن

طويل، فقد أصيبوا بالهزال واصـفرار الوجـه وانتفاخـات الأمعاء مما يمكن التغلب عليه.

أما ما يكثر هنا من بعوض وهوام بسبب كثـرة الميـاه الراكدة وانتشار السبخات فهو الطامة الكبرى؛ لأنه الجالـب للحميات وأمراض الدم التي تروح وتجيء كلمـا زاد وكثـر اللدغ، وهنا تذكر ما كان ذات مرة، زمن طفـولتي البعيـدة حين مات في قريتي خلق كثير بسبب الوباء، والـذي قيـل وقتها أن سببه ذبابة شيطانية وفدت إلى البلدة من البـراري، وراحت تعمل المرض في الناس، حتى اكتشفت أمرها، بعـد أن أفنت عيلا بأكملها، فلما ذكرت لثاونا ذلك، قال:

- إن الوباء يحل على الكور والـبلاد، ويفنـي أكثـر الناس، عندما تنزل عليهم لعنة من لعنات الرب بسبب جرائر اقترفوها، فيسلط عليهم الزلازل أو الصـواعق، أو السـيول المهلكة حينا، كما أنه يسـلط علـيهم الهائمـات كـالبعوض وخلافه، بعد أن تحل بها الأرواح الشـريرة، فـتهجم علـى الجسوم، وتحدث الأمراض والأوجاع وتوهن العظام وتشرب الدم وتحدث النهوكة في أجسادهم ويعقب ذلك الموت. لـذلك فعلى الحكماء المطببين، أن يبحثوا في سبب اللعنـة؛ حتـى

يرفعوه، كما أن عليهم تبيان حقيقة الأرواح الشريرة الحالة في الهائمات، ويكون ذلك بكثرة التعزيم والقرايات الربانية، ثم عليهم معالجة الناس بالنباتات والمعادن ووصف الجواهر التي تناسب أمراض الوباء.

ظللنا سائرين نتحادث، والناس يتبعوننا ماشين خلفنا وحولنا من كل جانب كي نباركهم حتى أوشكنا على الخروج إلى البراري، وهم وراءنا في الطرقات الضيقة، فلما بلغنا الطريق الذي كنا قد جئنا منه، توقفوا وتركونا نسير منفردين بعد أن ودعونا وداعا حميما مؤثرا.

سرنا والمشاهد التي رأيتها في محلة البشموري لا تفارق خيالي، الأطفال الهزيلون في أسمالهم، والنساء الجائعات وهن يتخاطفن الطعام، البيوت المهدمة، رجال البشموري القرارية في ملابسهم الغريبة، وأسلحتهم التي كأسلحة اللصوص والحرافيش، كانت مشاعري تتردد وتنقلب من لحظة إلى أخرى، بين العطف على أولئك الناس وبؤسهم المريع وبين الكره لعصيانهم وتمردهم وعدم امتثالهم لكلام أبينا يوساب، وكان الحنين يأخذني أخذا، ويخطف قلبي خطفا وأنا أخرج من هذه المواضع، وأخذت أسأل نفسي:

ترى.. هل لو بقيت هنا في مسقط رأسي، وأماكن أهلي، وسارت حياتي في مجراها المفترض، ولم يدفع بها القدر إلى ما أنا فيه الآن. هل كنت سأكون واحدا من هؤلاء؟. هل كنت سأصير واحدا من أتباع البشموري؟. أأتمر بأمره بينما أرتدي مئزرا وأعتمر خوذة من الخوص وأتسلح بحربة من الحراب؟. كنت أشعر أنني ضائع، حزين، وكأن كبدي قد انتزع مني انتزاعا فأسئلتي لا إجابة لها، لكن ما تيقنت منه وأنا على هذه الحال، هو أن للأوطان ملمسا وروائح وصورا مجسمة، محسوسة لا يمكن أن تغيب عن الحواس والنفس، مهما تباعد الوقت وطال الزمن. يبدو أن ثاونا لاحظ كدري وسكوتي الطويل، فقال:

- إذن. ها نحن نعود مرة أخرى من حيث جئنا، لينطبق علينا قول من قال: "تيتي تيتي، زي مارحتي زي ما جيتي"؟. إن أبانا الذي ينتظرنا في قصر الشمع سوف يتنكد لعودتنا، دون البشموريين بل حتى دون وعد منه بالكف عن القتال؛ لأنه سيبدو أمام متولي البلاد، وكأنه لا كلمة له على أتباع بيعته، ولا سلطان لأمره عليهم، ثم إن الملكانيين سيعلمونها جنازة، وهات يا لطم، بينما يلعبون في أذن المتولي ويزينون

له كلاما شيطانيا بأن الأب يوساب، لا يرغب في إخماد فتنة البشامرة، وأنه متواطئ معهم، ويرغب في إحـداث القلاقـل بالبلاد، وكثير من مثل هذه الأكاذيب التي يروجون لها عنده كثيرا؛ أملا في أن يكون لهم ما لبيعتنا، من هيمنة ونفوذ على الشعب، وطمعا في الاستيلاء على كنائسنا وأديرتنا وما للبيعة من ممتلكات.

على أية حال، ها أنت رأيت مسقط رأسك وبلادك مـرة أخرى، ودون حدوث مالا يرغب فيه، ألست مسرورا بـذلك با ؟

هممت بسرعة، بينما كنت ما أزال منشغلا بما قاله لـي في التو:

- أجل أجل، والحمد للرب الإله؛ لأن أحدا من معارفي لم يرني ولم يتعرف علي.

تابع ثاونا وهو يتبع سيري بدقة ويحترس كثيـرا كـيلا يمشي بالدابة على موضع غائص:

- لكني أخشى يا بدير أن ذلك البشموري سوف ينتهـي نهاية بائسة مؤسفة، ولعلي أخبرتك بما يتردد سرا في البيعة قبل خروجنا إلى هنا، من أن خليفة المسلمين سـوف يـأتي

بنفسه لحسم الأمر، إذا لم يسكت هؤلاء البشامرة ويكفون عن قتال عسكر المتولي، ويرضخون لدفع الخـراج المطلـوب منهم، لقد آثرت ألا أخبر مينا بذلك؛ حتى لا يثور ويتمـرد، ويظن أنني جئت حاملا إليه تهديدا من أبينا، يوساب، فيسلك معنا مسلكا خشنا قاسيا قد لا تحمد نتائجه، لكنـي لا أكتمـك سرا، أنني كدت أضعف، في لحظة من اللحظات، خصوصا كلما زاد تشدده – وبت على وشك أن أهتف صائحا: أتدري أيها الأحمق أن خليفة المسلمين سوف يأتي بنفسه لإنهاء هذا الأمر، إذا لم ترتدع وتعود عما أنت فيه؟. أو تعلـم معنـى ذلك؟. إنه سيكون المحق والسحق ولا شيء غير ذلك. لسوف تكون الجاني، على قومك ونفسك؛ لأن الرجل لن يرحمهم أو يرحمك، وهو الذي يحارب بعسكره، جيش بيزنطة ولن يكون قتالك بالنسبة إليه إلا كاللعب والبرجسة في ساحة من ساحات البرجاس.

قلت بسرعة:

- لا.. لا.. حمدا أنك لم تقل له ذلك، لأنـه وكمـا رأيت ليس من النوع الذي لا يأخذ بالنصيحة ويرعوي، ثـم إن الأب يوساب لم يطلب منك أن تحدثه في هذا الأمر، لكن

ما يحيرني يا أخي هو انضمام بعض هؤلاء العرب المسلمين للبشموري، فكيف يكون ذلك بربك؟.

صمت ثاونا قليلا، ثم قال:

- إن المسلمين شيع وفرق مثلما نحن فـي المسـيحية يعاقبة وملكانية، وهناك اختلاف ومسائل تتعلق بصحة الديانة بين هذه الفرق. أتذكر عندما كنت تغتسـل بالحمـام، وأنـا أنتظرك خارجه؟. لقد جاءني أثناء ذلك رجل وهـو يلتفـت يمينا ويسارا، فلما اطمأن إلى خلو المكان، أعطـاني رقعـة وهو يرجوني أن أقرأها، ومضى بسرعة فلما دخلت لأغتسل بعدك، قرأتها، فوجدته يطلب مني أن أصل إلى أهله وعيالـه القاطنين عند جبل يشكر المشرف على النيل، وعلى بركـة الفيل؛ لأنه التحق بالبشموري سرا، بعد أن هرب من ملاحقة الوالي له ولجماعته التي يقال لها القرامطة، وأن الخليفة نفسه يشدد عليهم ليس في العراق فقط، ولكن في جميـع أمصـار خلافته، وأن كثيرا من رفاقه قد صيروا في الحبوس وعذبوا بسبب خروجهم على الخليفة الذي جعل المشايخ وأهل الـدين يرمونهم بالكفر والزندقة، وكان رجاؤه هو أن أطمئن أهلـه

عليه، وأقدم لهم ما أستطيع إليه سبيلا؛ بسبب انعدام من يعولهم وينفق عليهم.

وقد سمعت عن جماعة أخرى من المسلمين يقال لها العلويون، وهم ممن شقوا عصا الطاعة على الخليفة أيضا، وها أنت رأيت بعينك ما يقع في الحوف الشرقي. إن الصراعات لا تنتهي هنا وهناك، والدنيا كلها في فوضى واضطراب، وكل ذلك يبلبلني كثيرا يا بدير، وأشعر أن قلاقل الدنيا حولي، تخز داخلي، فأنا مع إيماني وصدق معتقدي، لا أكتمك أني خائف، خائف جدا، وكأنني ملاح ضائع في بحر الظلمات الرهيب، وأنا أخشى على مصير كنيستنا ولا أعرف ما سوف يكون عليه إذا ما قدر وانتصر البشموري، وأخاف على هؤلاء المساكين إذا تمت هزيمتهم، ولا أعرف ماذا سيكون عليه الحكم في البلاد، ولأي فريق من المسلمين سوف تكون الغلبة، وكل ما أتمناه يا بدير هو ألا تقع بلادنا أبدا ومهما حدث، مرة أخرى، تحت سيطرة الأباعد من الروم الملكانيين.

لم يكد ثاونا ينتهي من كلامه، إلا وكان الأفق أمامنا قد ارتسم بشريط قاتم من السواد الممتد إلى ما لا نهاية، وكأنـه خط من المداد قطع زرقة المدى السماوي المفتوح فوقنا عن خضرة الأرض المترامية على مرمى البصر، وكان قـرص الشمس قد توهج بنار حمراء وهو يغيب شيئا فشـيئا معلنـا نزعه الأخير، مفسحا السماء لظلمة تتقدم حثيثـا، والشـريط الأسود يتدفق باتجاهنا شيئا فشيئا، وقد وقفنا متسـمرين فـي موضعنا ونحن مبهوتان مأخوذان، وسرعان مـا راح ثاونـا يحثني على الفرار، وقد ملك أمره مرة أخرى، وهو يقول:

- لابد أنهم فرسان الخليفة لابسو السواد، ترجل واهرب قبل أن يدركونا ويدهسونا بسنابك خيلهم.

فما إن تحركت وفعلت، إلا وكانوا قد بلغـوا الموضـع الذي كنا فيه، وأخذوا يتقدمون شيئا فشيئا فـي يسـر، ودون معاناة؛ فلقد كان معهم من يدلهم على المواضع الحسنة للسير من الأدلاء القبط، وقد توضحوا وبانوا بسبب أرديتهم عسلية اللون.

كنت قد اختبأت في موضع ليس ببعيد بين أعشاب الحلفا الطوال والبوص وقد قفزت بسرعة من فوق البغل وتركتـه،

ولم أنتبه إلى ما فعل ثاونا؛ لشدة ارتباكي وخوفي، وقد بوغت فأنا لم أحسب لما حدث لنا حسابا من قبل.

وقد كاد قلبي يتوقف من الخوف.. لما رأيـت أحـدهم يسحب البغلين ويتردد قليلا في المسير وكأنه يرغـب فـي التفتيش عن صاحبيهما، لكن من كان خلفه حثه على الحركة والمسير وعدم التلكؤ حتى لا يعوق مـن وراءه، ثـم إننـي أخذت أزحف زحفا يسيرا باحتراس حتى أخفي نفسي جيـدا بين الحشائش، محاولا التدثر بها والاختباء فيما بينها حتى لا يلحظني أحد من العابرين، ثم أخذت أنادي ثاونـا بصـوت خفيض محاولا استبيان مكانه وقد هبطت الظلمة شيئا وغشت المكان، كنت أثناء ذلك متخوفا جدا، أدعـو ا ألا تلـدغني حية، كتلك التي لدغت ثاونا، أو تخرج علي دابة مـن دواب البرية المفترسة فتهبر لحمي أو تحدث بي مكروهـا. ولـم يمض على اختبائي إلا وقت يسير، حتى كان العسـكر قـد انقطع مقدمهم وورودهم؛ إذ كان أواخـرهم قـد بقـوا فـي موضعهم على مقربة مني في الطريق الضيقة عرفت ذلـك على رغم الظلمة بسبب صهيل الأفراس وتحمحمها المثيـر، ويبدو أنها أخذت تجفل كثيرا بسبب غرابة المكـان بالنسـبة

إليها وكثرة مواضع الماء فيه، وخمنت أن العسـكر هـؤلاء ربما كانوا على الأرجح قد حوطـوا وحاصـروا الطريـق والطرقات المؤدية إلى المحلة، وقد صدق حدسي؛ إذ سرعان ما أشعلت المشاعل، وأخذت تلقي باتجاه المحلة، وسرعان ما جاء الرد من ناحية عسكر البشـموري، إذ أخـذوا يرمـون بدورهم النيران باتجاه عسكر الخليفة، فأخذت أزحف مجـددا ملتمسا النجاة لنفسي، لكني خشيت أن تسحبني المياه الموحلة إلى بعض مواضعها الخطرة، فرحت أربط نفسي بالأعشاب اللينة الطوال الراسخة المستقرة دون أن أقطعها، وكنت قـد تعثرت كثيرا خلال ذلك وتوسخ ثوبي وأكثر جسدي، حتى أن وجهي لحقه الطين وقذاه، واستمر القتال دائرا، وأنا أدعو ا ألا يصيبني مكروه، وقد أخذ البشامرة يرمون في اتجاه جنـد الخليفة الأحجار وقطع الطوب وما جهزوه مـن مقـذوفات للمقاليع، أما عساكر المسلمين فكان أكثر رمـيهم بـالحراب والسهام وإن ركزوا على كرات النار الملتهبة، وكأنهم يبغون حرق المحلة كلها، قبل الدخول إليها.

أخذت أصاب كثيرا وقد أخذني اليأس وهـدني التعـب ورحت أقرأ القرايات ليعينني الرب على ما أنا فيه، وفككـت

نطاقي الكهنوتي وربطت نفسي أكثر بالحشائش إذ شعرت أنني على وشك النعاس وبقيت قليلا على هذه الحالة، حتى غبت عن الوعي تماما.

أفقت عند الصباح على تغريد طير حاطط على مقربة مني، فلما فتحت عيني ونظرته وجدت بشروشا ضخما ينبش بحثا عن سمكة من الأسماك التي تصل سابحة من المالح إلى هذه المواضع، وربما كانت من البني أو اللبيس أو الراي أو الشلبة، استبشرت خيرا حين رأيته واعتبرته فألا حسنا أستقبل به هذا اليوم الجديد، خصوصا وقد أخذ يغرد ساردا تراتيله الصباحية للرب، فقمت أنظر نفسي، فإذا صعوبة تعتريني، كلما حاولت تحريك طرف من أطرافي، فتحاملت على نفسي بصعوبة، وقد صممت أن أنهض مهما كانت آلامي، لأبحث عن ثاونا العزيز، وأقف على ما كان من أمره، واكتشفت أن ملابسي قد توسخت وتبللت بطين الأرض الأخضر الذي كنت راقدا فوقه، فدرت بعيني باحثا عن موضع ماء جار، أذهب إليه فأطهر لباسي الكهنوتي فيه، إلا أن عيني لم تر غير مدى ممتدا من الأخضر، بسمات

وصليت، وقلت لروحي: فلأسر قليلا حتى أجد موضعا هنا أو هناك.

سرت أجر ساقي بصعوبة، كأنني وليد يخطو خطواته الأولى، وكنت حريصا على تمييز الماء من الأرض لئلا تذل قدمي في زلاقة تسحبني إلى داخلها فأغرق، ثم إنني وصلت أخيرا إلى قناة ضيقة بها ماء جار، فوقفت على أطرافها وخلعت ردائي الكهنوتي وبقيت حاسر الذراعين لا أرتدي سوى الصديرية الفلاحي واللباس اللذين حافظت على لبسهما تحت الرداء، رحت أغمر الثوب في الماء أبسمل وأصلب وأقرأ قراليات الطهارة، ثم إنني عصرته، ونفضته حتى أزيل ما به من ماء قدر استطاعتي، وسطحته فوق الحشائش، على أمل أن ألبث ساعة في مطرحي حتى تجففه الشمس فأرتديه، وبينما أنا أفعل ذلك أخذت أفكر في كيفية عودتي مرة أخرى إلى مصر العتيقة في ظل هذه الظروف الصعبة، وكنت أرغب في معرفة ما تم من أمر البشامرة مع عسكر الخليفة ليلة أمس، لذا قلت لروحي: إنني سأعود بمجرد أن أرتدي ثوبي مرة أخرى قافلا إلى محلة البشموري حتى أستجلي الأمر، ولعلي أجد ثاونا الذي ربما كان تسحب أثناء الليل

وقت المعركة إلى هناك ليحتمي بجماعة البشموري، إن لـم يكن قد استطاع الفرار عائدا إلى بيعتنا في مصر العتيقة.

فجأة، تذكرت أن ثاونا قد جاءني في المنام أثناء غفوتي بالليل، رحت أستعيد المنام في مخيلتي، كان ثاونـا يرتـدي أسمال وخرق المساكين ويتوكأ على نقف من الجميز علـى النحو الذي يفعله أولئك الهائمون في البراري، وكان يعتلـي تلة عالية وهو يشير نحوي بيده، ويقول: اتبعنـي يـا بـدير العزيز إلى برهة هبيب، وبدا لي وهو يقول ذلـك مبتسـما راضيا نوراني الوجه وكأنه قديس مـن القديسـين، فالتفـت حولي، أفتش عن موضع أسير فيه لأصل إليه، فإذا أنا محاط بوحوش كواسر من كل ناحية، تمنعني من النفاذ والتقدم إليه، فرفعت يدي وصرخت بعزم ما في: ثاونا.. ثاونا يا غزيـر العلم والمعرفة، هب لنجدتي، فإني غير مسـتطيع، وبقيـت أناديه، لكنه كان يبتعد عني شيئا فشيئا، حتى اختفى تمامـا، فأخذت أنوح وأندب حظي العاثر وأصاب، وكان ثاونا وهـو آخذ في الغياب يباركني بيده المرفوعة، وأنا أمد يـدي إليـه آملا في الخلاص.

انقبضت روحي وقد تذكرت ذلـك المنـام، وأخـذتني الطيرة؛ إذ صاح البشروش فجأة وطـار، فنظـرت السـماء فوقي، فإذا بنسر رهيب من نسور الفلاة يحوم فـوق البقعـة التي جلست فيها أنتظر جفاف ثوبي، ولم تكن النسـور مـن الطيور المعتادة في هذه النواحي البشمورية حسـب علمـي ودرايتي بها؛ إذ إن أغلب طيورها تكون مـن ذلـك النـوع المهاجر القادم من جهة البحر الرومي كالسـمان والطوريـة والذهبية، واللقالق، بالإضافة إلـى طـائر آبـيس الأبـيض المشهور بالديار كلها.

لبثت وقتا أفكر حائرا، وقد جف حلقي لكثـرة انفعـالي وتوجسي، وقلت لروحي: ربما أراد النسر اقتناص طير قـد حط، أو دابة خرجت تسعى من دواب الأرض المحوششة في هذه البقعة، رحت أصلي مشجعا نفسي على الاصطبار، وقد أخذ عطشي في التزايد، ولم أرض أن أحفن بيدي شيئًا مـن مياه المجرى خوفا من أن يكون به شيء من عليق الحشا ينفذ إلى جوفي؛ بسبب أن بعض البرابرة من سـاكني البـراري كانوا قد حذروني من مياه السبخات وجداولها الصغيرة حتى وإن بدت جارية، وكانوا قد أتوا إلى البيعة وفاء لنذر نـذروه

لأمر من الأمور، فقالوا أن بنواحيهم نوعا من العليق يـدخل إلى الحنك مع الماء المشروب، لينفذ إلـى مواضـع البلـع ويلتصق بها، ويظل ثاويا بها، يقتات على دم الجسد؛ حتـى يفنى صاحبه ويتلف تماما.

هبط النسر المحلق فجأة وخطف لباسي الكهنـوتي فـي لمح البصر وارتفع عائدا إلى السماء، لـم أتمالـك نفسـي، فحاولت الجري خلفه واللحاق به، لكني لم أتمكن من المضي في ذلك؛ بسبب ضعف ساقي وجسدي ولخوفي من الانزلاق، شعرت بحنق وغيظ عظيمين، وأنا أرى النسر يبتعد بثـوبي، وقد بهت من مسلكه، فماذا يفعل ذلك الطائر بمثل هذا الثوب، دعوت عليه وتذكرت قول القائل:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

بقيت في مكاني مذهولا ساكنا لفترة، أنظر نفسي وأنـا على هذه الحال بلباسي أبي دكة وصديرتي الكتان، وتحيرت كثيرا فيما أنا فاعل، وقد شعرت أنني صرت كالعريان حقا، وقلت لأنهض وأسير قليلا، فربما يكون النسر قد ألقى بالثوب على أرض قريبة، فألتقطه وأضعه فوقي لأستر نفسي، حتى لو كان قد توحل بكامله في الطين وربما وجدت أناسا طيبين،

أسألهم أن يعيروني ثوبا أيا كان، أعود به إلى مصر العتيقة. على أية حال، كنت في حال عجيبة من اليـأس والدهشـة، وبقيت حائرا لا أجد تفسيرا لما جرى لي، فقلـت لروحـي: ربما ينعم علي الرب ويظهر لـي كرامـة الآن، فيسـترني ويطمئن روحي الضائعة، ورحت أتصبر وأعين نفسي علـى ما أنا فيه متمتما بما قاله بطرس الرسول إلى أهل روميـة: "فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع ا ، بربنا يسوع المسيح الذي به أيضا قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمـة التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد ا ، ولـيس ذلك فقط، بل نفتخر أيضا في الضيقات عـالمين أن الضـيق ينشئ صبرا، والصبر تزكية، والتزكية رجـاء والرجـاء لا يخزي؛ لأن محبة ا قد انسكبت في قلوبنا بـالروح القـدس المعطي لنا". ورحت أتلو أيضا ما تيسر لي من آيات الـرب وأصلي وأصاب كثيرا وأنا أتذكر سير القديسين والشـهداء، والآباء والبطاركة، قائلا لنفسي: فلـيكن لـي فـيهم عبـرة وموعظة، وليكن اتكالي على الرب وحده، وأنا في هذه البرية الموحشة وحيدا غريبا كفرخ سمك صغير في شـبكة صـياد هائلة، ولأكن شاهدا على زمني، وأحوال هذه الدنيا الغريبة،

ثم إنني أخذت في تذكر وقت هيامي وترحالي في البراري بعد خروجي من ترنيط، وكيف صادفت وحوش الفلا وبت الليالي الطوال على رحم بطني دون أن تدخل في جوفي لقمة خبز أو شربة ماء، لكن الرب في الأعالي، أراد لي النجاة والسلامة، فإذا كان – وهو الجبار السيد – قد امتحنني في صباي الأول ببلية الهوى الجسداني، والعشق الشهواني، فما ذاك إلا ليدخلني في هوى العبادة وعشق المسيح زمن رجولتي واكتمالي، فها أنا بكرم ا وفضله، صرت في الأكليروس راضيا قانعا حامدا له على كل حال، وهو لابد ناظر في أمري الآن، مثلما نظر في أمري من قبل، ولعله يدخلني امتحانا أمتحن به حتى أفوز بما يحوز نعمته ورضاه.

لبثت على هذه الحال ساعة، وربما أكثر من ساعة، إذ كانت ظلال النباتات حولي قد أخذت في التغير، وقد بدأت في التطابق معها؛ مما يعني أن الشمس باتت في كبد السماء، وقد تعامدت على الأرض، والوقت وقت ظهيرة، فقلت لروحي: فيم الانتظار يا ولد؟. إن الوقت يسرقك وأنت جالس لا تفعل شيئا غير التفكر، فقم وامش حتى تجد ما يخرجك مما أنت فيه وتحصل بأية طريقة على ما تلبسه بدلا من

ثوبك المخطوف، ولتبحث عن ثاونا وتطمئن عليه. لكني مـا إن هممت بالوقوف والمشي، إلا سمعت وقع أقـدام أفـراس تقترب مني وهي تدب على الأرض، فلما نظرت وقد ظننت أن الفرج قد جاء، وأسعفني بما أبتغيه من رجاء، إذ أجـدني محاصرا، حصار طير في فخ، وقد وقفت فوق رأسي جماعة من لابسي السواد، وقـد تمنطقـوا بعـدة الحـرب. خفـت وتراجعت قليلا بينما هم يتصايحون ويشيرون نحوي قـائلين بلسانهم، هذا بمشوري قراري مختبئ هنا، تعـالوا بسـرعة فأتى عسكر آخرون وسحبوني من مكاني وأنا أصيح بدوري بلسان عربي كي يفهموا، وقد أخذني الرعب، وسيطر علـي هلع كاد يرسل البول مني، وقد فقدت كـل سـيطرة علـى مواطن الشعور فـي أعضـائي وجسـدي: لا.. لا، لسـت بشموريا، لست فلاحا قراريا. أنا بدير قيم بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع في مصر العتيقة. ثم إني وجدت الـدنيا تلـف حولي، ولم أعد متمالكا لنفسي، فغشي علي من شدة الهـول، وعظم الصدمة.

أفقت من غشيتي، لأجد نفسي في محلة البشموري مرة أخرى، وفي الدار ذاتها التي كنا التقينا بداخلها مينا بن بقيرة

الزعيم، أخذت أتلفت حولي لأتبين الأمر فوجدتني في المكان هو هو الذي جلسنا أنا وثاونا فيه بين رجال البشموري فـي اليوم الفائت وقت كلامنا معه، لكن الجدران كان قـد تهـدم معظمها بفعل النزال والرمي، وقد ملأت آثار الحريق والنار من سخام وخلافه ما تبقى من هذه الجدران، ورحت أهتـف لروحي: ثاونا – أين أنت يا عزيز عيني ثاونا، هل هربت أم قتلت، أم أسروك مثلما أسرت؟... كنت أرتعـد وقـد بـدد حواسي القنوط وأقول محادثا روحي: سبحان مغير الأحـوال بين عشية وضحاها، ثم رددت بصوت خافت قانط: "وليرأف بي أبو الرأفة وإله كل تعزية، الذي يعزينا في كل ضـيقتنا؛ حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في ضيقة بالتعزيـة التـي نتعزى نحن بها من ا ". وظللت أردد هذه الكلمات العطـرة لبولس الرسول مرارا وقد وجدتني محاطـا بجماعـة مـن العسكر ومقيدا بقيد الفولاذ، وكذا كانت أحوال جماعة كبيـرة من النساء والرجال والعيال، بعضهم أخـذ يبكـي ويولـول والآخر ظل ساهما واجما ربما لشدة التعب؛ أو لفرط الصدمة والذهول، حاولت أن أشرح للعسكر حقيقـة أمـري، لكـن مقدمهم قال قبل أن أبادر بالكلام، وهو يضحك:

- هه.. أما زلت مصرا على أنك واحد من رجال بيعة قصر الشمع بمصر العتيقة؟.

استبشرت خيرا بكلامه، وقد ظننت أنه قد فهم وصـدق ما سبق أن قلته له من قبل:

- أجل يا سيدي.. أنا بدير قيم السيدة العـذراء بقصـر الشمع.

ضحك العسكر جميعا، وقال واحد منهم:

- قسيس بلا لحية؟. هل رأيتم ذلك من قبل يا ناس؟.

تحسست ذقني بيدي رغما عني، وشعرت بضيق لأنني أمرد، لا شعر على صدغي وذقني، لكني سرعان ما تذكرت ثاونا العزيز عندما كان يقول لي: يا شبيه يوحنا فم الـذهب، لم أتمالك نفسي وقد هاجت مشاعري بذكره وأخذتني اللهفـة عليه، فرحت أبكي وأنتحب وقد أسقط في يدي، ولـم أعـد واجدا ما يقال، فهم لن يصدقوني مهما قلت لهم، وقد التفـوا حولي، التفاف وحوش صادوا فريسة، وراحـوا ينهشـونها، قلت ليكن ما يكون فلأسألهم عن ثاونا، فقلت بضراعة:

- بحق دينكم ومعبودكم أيها السادة، هل رأيتم زميلـي ورفيقي الشماس ثاونا؟.

ضحكوا جميعا لقولي هذا، وقد بدوا مصرين على عدم تصديقي، لكن واحدا منهم قال بجد:

- ماذا قلت أيها الرجل؟. هل كان معـك رفيـق مـن القساوسة؟. أظنني رأيته؟.

هتفت وقد صرت كمن هو ميت وردت إليه روحه:

- هل هو حي؟.. قل لي بربك ينوبك ثواب في الـدنيا والآخرة.

رد وقد بدا مذهولا:

- لقد خيل لي أنني رأيت إنسانا في رداء القساوسة، بدا لي كالمخبول، وهو يعبرني سريعا عند دخول البلدة، وهـو يصيح زاعقا، إذن لا أمل ولا ملاذ غير البرية، فلتـدم لنـا بريتنا.. برية هبيب المقدسة. ولنلوذ بها مثلما لذنا بهـا مـن قبل. ثم إنه التفت إلى زملائه العسكر، وقال:

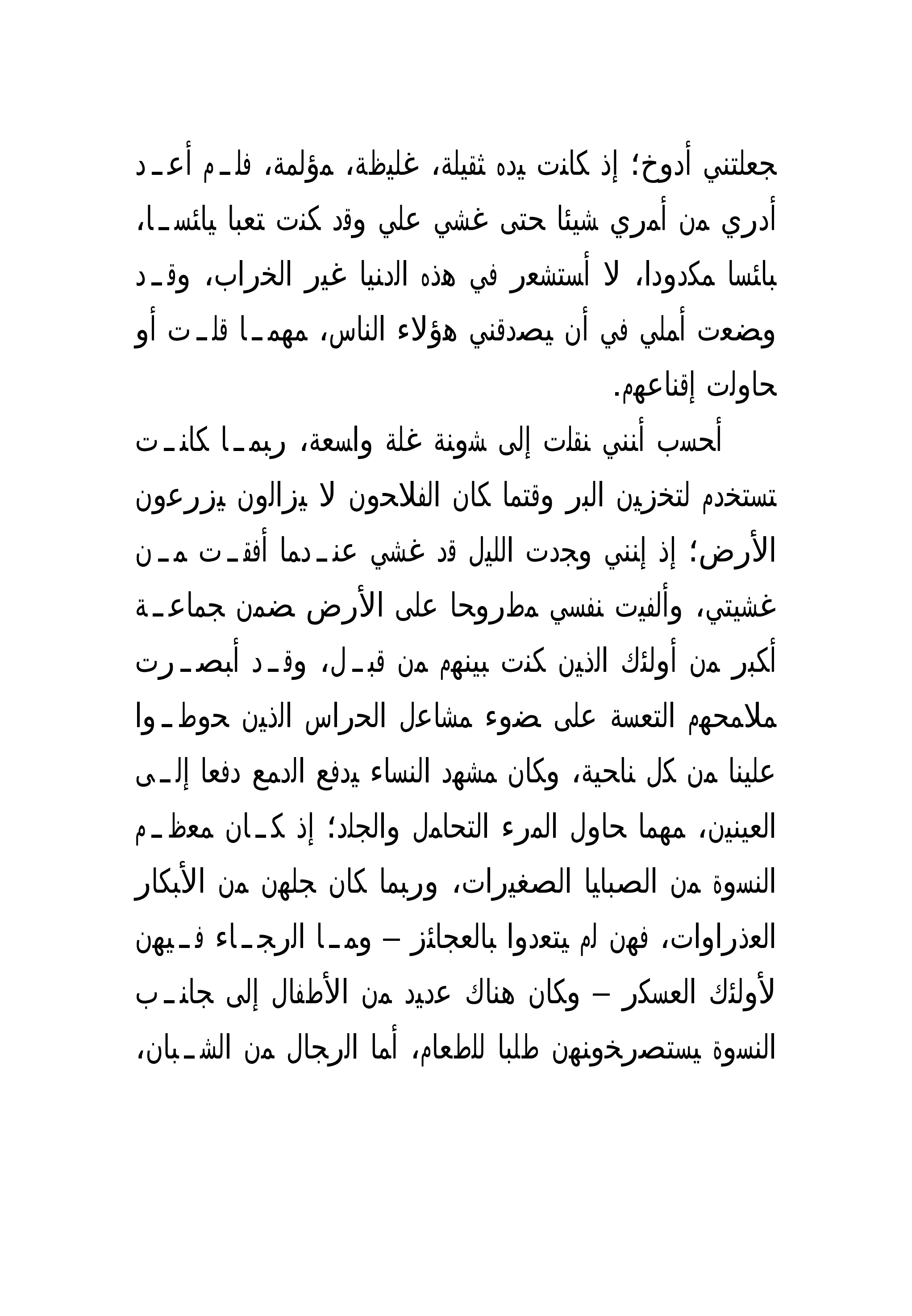
- أظن أن هذا الرجل صادق، فهو من القساوسة، وربما يتوجب علينا تركه وإخلاء سبيله.

- صادق؟. أتقول صادق؟.

قال رئيس العسكر بغضب وهو يزيح زميله من أمامي، ويمسك بساعدي شاهرا إياه في وجوههم جميعا وهو يسألني بسخرية:

- وما هذا الذي على ساعدك أيها الفلاح الكاذب اللئيم، أليس هذا وشم الأسد؟. أهذا يكذب أيضا؟.

كدت أقول له مدافعا عن نفسي، إن هـذا الوشـم قـد وسموني به عندما كنت طفلا صغيرا وقبل دخـولي البيعـة بزمن طويل، ومع ذلك، فحتى الرهبان فـي الأديـرة بـاتوا يوشمون كالفلاحين وسائر الأقباط المفروضة عليهم الجزيـة بعد صدور مرسوم من الوالي يقضي بذلك، بعد أن تمـادى الولاة في تعصير الأقباط، وبعد أن دخل كثيرون منهم فـي الإسلام هربا من دفع الجزية، أو التحاق بعضـهم بـالأديرة تهربا من تلك الضريبة الغشوم؛ إذ كان الرهبان لا يـدفعون جزية في مبتدأ الإسلام زمن أوائل الخلفاء المسـلمين، كمـا أردت أن يمهلني وقتا يسيرا حتى أثبت لـه حقيقـة أمـري وسبب وجودي في محلة البشموري، لكن الرجل كان عنيفـا غشوما – قبحه ا ووضعه في سعير الآخرة – فلم يسـتمع إلي ولم يمهلني لأقول له ما أريد، بل لطمة قوية على وجهي



جعلتني أدوخ؛ إذ كانت يده ثقيلة، غليظة، مؤلمة، فلم أعد أدري من أمري شيئا حتى غشي علي وقد كنت تعبا يائسا، بائسا مكدودا، لا أستشعر في هذه الدنيا غير الخراب، وقد وضعت أملي في أن يصدقني هؤلاء الناس، مهما قلت أو حاولت إقناعهم.

أحسب أنني نقلت إلى شونة غلة واسعة، ربما كانت تستخدم لتخزين البر وقتما كان الفلاحون لا يزالون يزرعون الأرض؛ إذ إنني وجدت الليل قد غشي عندما أفقت من غشيتي، وألفيت نفسي مطروحا على الأرض ضمن جماعة أكبر من أولئك الذين كنت بينهم من قبل، وقد أبصرت ملامحهم التعسة على ضوء مشاعل الحراس الذين حوطوا علينا من كل ناحية، وكان مشهد النساء يدفع الدمع دفعا إلى العينين، مهما حاول المرء التحامل والجلد؛ إذ كان معظم النسوة من الصبايا الصغيرات، وربما كان جلهن من الأبكار العذراوات، فهن لم يتعدوا بالعجائز – وما الرجاء فيهن لأولئك العسكر – وكان هناك عديد من الأطفال إلى جانب النسوة يستصرخونهن طلبا للطعام، أما الرجال من الشبان،

فقد كانوا في حالة مزرية بين جريح ومكسور، وقد ضـرب الذل عليهم جميعا فأخذهم اليأس والبهات.

ومضت ساعات عدة قبل أن يأتوا لنـا بمقطـف خبـز وزلعة ماء، فصاروا يوزعون على كل منا رغيفا، ويمررون الزلعة علينا لنبل ريقنا، فما يكاد الإنسان يرفعها إلـى فمـه ليلعق منها شربة سريعا، حتى يخطفها منه الجندي وربما قبل أن تصل فمه، ليعطيها لإنسان آخر، فلم يشرب أكثر الناس، وظل الأطفال على صراخهم وربما أزهقـت أرواح بعـض منهم بسبب ذلك. ثم إن واحدا من المعسكر أخبرنا أمرا أنـه يتوجب علينا الاستعداد؛ لأننا سنرتحل إلى تنيس بعد سـاعة من طلوع النهار، وأن علينا بمجرد أن ينفخ فـي الصـور، ونسمع ذلك، أن نهب جميعا ونصطف، النساء مـع النسـاء والأطفال، والرجال مع الرجال في طابور مؤلف من اثنـين وراء اثنين، فما إن سمع الجميع ذلك حتـى ارتفـع البكـاء والعويل، بل راح بعض من الرجـال يصـرخون كالنسـاء ويلطمون الخدود، وقد أدركوا أنهم مأسورون أسرا لا فكـاك منه، ولا راد، وكأن حمامهم قـد حـم وقضـاؤهم قـد أذ،

خصوصا أن الجندي أضاف أننا سنرتحل من مدينـة تنـيس بالسفن والمراكب إلى مقر خليفة المسلمين في مدينة بغداد.

كنت قد بدأت في قضم رغيفي، عندما سـمعت ذلـك، فتوقفت عن الحركة وبقيت جامدا واجمـا أشـخص إلـى لا شيء؛ فالأمر برمته منذ خروجنا من البيعة في قصر الشمع، وحتى هذه اللحظات، بدا لي وكأنه كـابوس مـن كـوابيس الشيطان، التي تهيمن على المرء أحيانا إذا ما نـام دون أن يخلص في صلواته، وينقي قلبه من آثام النهار، وكنت أجدني في لحظات، أثناء ذلك – وكأني وقعت تحت ضـرب مـن ضروب السيمياء أو السحر – فمهما شطح خيالي بخصوص المخاطر والصعوبات التي طالما حدثني عنهـا ثاونـا منـذ خروجنا من قصر الشمع إلى هنا، لم أكن أتخيل بأية حال من الأحوال، أن ينتهي مصيري إلى ما سيكون عليه في الغد عند انبلاج النهار، أأرتحل عن بلادي وأرضى مرغما، وأؤخـذ كأسير، قد يباع في أسواق النخاسة ببغداد، أنا بدير بن بشاي البشموري المصري، الذي ولدت وعشت حياتي كلها علـى هذه الأرض التي عاش آبائي وأجدادي عليهـا منـذ أقـدم السنين، أينتهي بي الأمر أسيرا من أسرى الخليفة المـرحلين

إلى بغداد؟!. لا أعرف أأبكي أم أبتسم؟!. إنها مسـخرة وا كمساخر الكافر الهرطيق بولة السميساطي، كما كـان يقـول ثاونا دائما عن أي شيء يتداخل فيه الجد والهزل، تصـورت حالي، وقد وضعوني على منصة دلال، يتفرج علي الـرائح والغادي ويساوم النخاس في ثمني وكأني بهيمة من البهـائم، أو متاع من الأمتعة، شعرت أنني على حافة الجنـون، وقـد صعبت علي نفسي، ورحت أسترجع كل ما قاسـيته خـلال حياتي كلها، وكل العذابات التي عشتها فزفرت رغما عنـي وأنا أهمس متضرعا للرب:

"أوصنا[١].. أوصنا يا يسوع الرحيم"، مثلما كان يقـول دوما ثاونا الحبيب، كلما تضايق أو ألمت به ملمة.

رحت أصلب بيد مرتعشة؛ إذ شعرت بأنه لم تتبق لـي إلا معجزة سماوية من عند الرب، تحدث فجأة فتخرجني مما أنا فيه. ويبدو أن جاري الذي كان يرقد إلى جانبي قد لاحظ ذهولي وجمودي وانصرافي عن الطعام، فسألني أن أعطيـه رغيفي إن كنت زاهدا فيه، فقدمته له راضيا، إذ لم تكن بـي رغبة في طعام أو شراب، بـل كانـت أمنيتـي أن أمـوت

---

(١) أوصنا: اللفظ اليوناني للكلمة العبرية: هوشعنا، أي: خلصنا.

ويحشرني الرب في ملكوته، قبل أن تـرى عينـي فراقـي لأرضي وأوطاني، وهواني في بلاد غريبة لا أعرفهـا ولـم تطأها قدماي من قبل.

قلت وقد رجعت أقوي نفسي، وأثبت إيماني ويقيني بها : لابد أن تكون هناك حيلة ما للخروج مما أنا فيه، ولابـد أن يظهر الرب علامة إن عاجلا أو آجلا، تبين لأولئك العسـكر الغشومين خطأهم وحمقهم فيما فعلوه معي، وربمـا سـارع أبونا يوساب في قصر الشمع بإرسال من يدركنا ويغيثنا أنـا والعزيز ثاونا، وقد حمل معه أمرا من الوالي أو الخليفة، إلى هؤلاء الحراس ليفكوا أسري، ويأتوا بثاونا فنعود إلى حيـث جئنا، انتعشت روحي وأنا أفكر في ذلك، وداخلني أمل كبير، حتى أني عدت لا أشعر بآلام جسدي، وبذلك العطش الشـديد المحرق لحلقي، فأخذت أعب مرتويا من الماء الذي كانوا قد جاءونا به في أساطل، وقررت أن أشرع في تلاوة صـلوات الليل، وأخلد إلى النوم، حتى حلول الصباح، فيكون الرب قد نظر إلي بعين العطف وشملني برحمته الواسعة.

نمت ربما ساعة أو ساعتين وأفقت فزعا؛ إذ شعرت أن هناك من يتلمس جلدي ويتحسس لحمي، فانتفضت جالسا في مطرحي، وسرعان ما أبصرت على الضوء الشاحب للقنديل الوحيد، الذي تركه الحراس مضاء في ركن الشونة، الفتـاة الشابة المليحة، التي كنت قد رأيتها في الطريق، عند خروجنا في اليوم الفائت أنا وثاونا، بعد أن التقينا البشـموري، وقـد جلست إلى جانبي، أجفلت، ورحت أباعد ما بيني وبينها وقد شعرت أن نارا سرت في جسدي وأحرقت روحي وكيـاني، اضطربت وتعجبت لوجودها في هذه البقعة بجواري؛ لأنهـم كانوا قد وضعوا الرجال والصبيان الذكور في جانـب مـن الشونة، أما النساء والصبايا والأطفال الرضع، فقد كانوا في الجانب الآخر منها، رحت أتلفت حولي، وقد أسقط في يدي، ولم أدر ما أنا فاعل، وقد داخلني خوف، فربما استيقظ واحد من النائمين فظن بي الظنون، أو لحظ واحد مـن الحـراس الساهرين على بوابة الشونة وجودها إلى جانبي فاستراب في أمرنا، وحدث ما لا تحمد عقباه، ويبدو أن ما اعتمل بداخلي قد ظهر على وجهي؛ لأن الفتاة همست إلي متوسلة أن أبقى

ساكنا، وكنت على وشك نهرها بصوت عال كي تبتعد عني، ثم إنها أخذت راحتي بكفيها وهي تقول هامسة:

- أرجوك أن تستمع إلي أيها الأب الطيب، لقد رأيتـك في اليوم الفائت مع رفيقك الأب الآخر عند خروجكما معـا من محلتنا وأعطيتني صليبك، وكنت ضمن اللواتي بـاركهن رفيقك الأب الآخر؛ لذا أرجوك أن تساعدني وتجد حيلة لئلا يأخذني هؤلاء العسكر معهم، أريدك أن تجنبني مـا سـوف يحدث لي إذا ما تملكوني وصرت وحيدة بين أيـديهم فأنـا عروس بكر، قتل أهلي جميعهم، ولسوف أجن إذا ما مسـني واحد من هؤلاء الملاعين، أو لامست يـده موضـعا مـن مواضع جسدي.

ثم إن الفتاة راحت تبكي بمرارة وأنا لا أدري ماذا أفعل لها، وفجأة توقفت عن البكاء وحدقت بي بقوة وهي تقتـرب بأنفاسها من أنفاسي وتلامس جسدها بجسدي، وتقول:

- تزوجني أيها الأب الشاب – اسمي سويلا – تـزوج سويلا الضائعة. الآن، الآن وبسرعة، فربما حدث ما يفسـد عليهم آمالهم؛ إذ أصير حاملا، فلا أباع عنـد النخاسـين إلا بأبخس الأثمان إذا ما عرفتهم أنني حبلـى، وربمـا أخـذني

أحدهم لأخدم في بيت من البيوت، فتـأمن نفسـي وتسـتقر روحي، إذ أظفر بالبعد عن هؤلاء، فأنا يا أبي فكرت في قتل نفسي، لكني أخاف.. ولا أقوى على فعل ذلك.

ثم إنها ارتمت على صدري بسرعة وراحـت تعـانقني وتلثم وجهي وفمي بقوة وعنف، فلم أتمالك نفسي وقد ثـارت شهوتي، فنسيت الدنيا، وفقدت الزمن الزمان، ولم أعد أنتبـه إلى المكان، فرحت أضمها وأقبلها، وأتحسس كـل مواضـع جسدها اللين الناعم، وأنا أهتف هامسا: سويلا.. سويلا.. فلما لامست أناملي وشفتاي فاكهة صدرها اليانعة، لم أتمالك نفسي وصرت كمن مسه مس من الجنون، فطرحتها وجثمت فوقها ورحت أستجمع طاقة الحياة التي انتفضت في جسدي، نافحا إياها لها، وكأنني كنت خلال ذلك، أتحدى الضعف واليـأس والفناء، وقد أخذتني لذة شيطانية باهرة لم أسـتطع لـدفعها سبيلا، فلما انتهينا – وكانت سويلا قد قابلـت جـوابي لهـا بجواب أشد – وجدت نفسي بعد ذلك وقد غمرتني راحـة لا حد لها، وكأن كل آلام جسدي لم تكن، وشملت بصفاء عجيب لم تعهده روحي منذ زمن وصالي القديم مع الفانية آمونـة، فبقيت فترة أضم يد الفتاة إلى صدري، عند مواضـع القلـب

مني، وأربت عليها حينا، وألثمها حينا آخر، وأنا أقول لهـا: لن أتركك أبدا، سأضعك في بؤبؤ العين، وسـأجعل رمشـي حجابا عليك ولن أتركك أبدا ما حييت، وأنت منذ هذه الساعة ومن مبتدأ ذلك الوقت زوجتي وخليلتي ووليفتي حتـى يـوم الدينونة، ثم إن سويلا لملمت حالها وقامت متسـحبة بهـدوء واحتراز دون أن يشعر بها أحد، وهي تشكرني وتحمد الرب كثيرا، فلم أعرف ماذا أقول أو أفعل، إذ إننـي علـى رغـم عهدي لها – وقد كنت صادقا – داخلني نـدم شـديد، وقـد أدركت أنني وقعت في الخطيئة، وأن الشيطان قد تمكن مني وهيمن على روحي وجسدي بنجاسته. وأنني استسـلمت لـه وضعفت دون أن أسعى لدفع غوايته وشره، وعرفت خـلال هذه اللحظات معنى الخطيئة والإثم، وأن ما كان ينصحني به الآباء في بيعتنا بقصر الشمع، لهو عين العقـل؛ إذا فطالمـا نصحوني بأن أتزوج حتى لا تقع نفسي الخطيئة، وأشـاروا علي أكثر من مرة بصبية صالحة لأربطهـا معـي بربـاط الزوجية المقدس، لكني كنت أذهـب عـن ذلـك بـوجهي، وأرفض قطعيا؛ إذ لم تكن لي رغبة في النسـاء بعـد فنـاء غاليتي آمونة، أما هذه الفتاة فلا أدري بربي كيـف أقبلـت

عليها بنفسي، والحق أقول الآن، وأنا أندم على فعلتي: إننـي اشتهيتها منذ اللحظة التي وقعت عينـي عليهـا فيهـا، بـل اضطربت نفسي كثيرا لما وجدتها تنظرني طويلا ونحن في الطريق.

رحت أستغفر وأستعيد بعضا من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، والتي طالما كان ثاويا يسعى لأن أستذكرها وأحفظها حتى تعصمني دائمـا، كلمـا تـذكرتها ورددتها بلساني: (أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هـو جسد واحد؟. لأنه يقول "يكون الاثنان جسدا واحدا" وأما مـن التصق بالرب فهو روح واحد. اهربوا من الزنا. كل خطيـة يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد، لكـن الـذي يزنـي يخطئ إلى جسده، أم لستم تعلمون أن جسـدكم هـو هيكـل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم مـن ا ، وأنكـم لسـتم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن؟. فمجدوا ا في أجسـادكم وفي أرواحكم التي هي ا).

بكيت بحرقة، وتمنيت لو كنت قد اسـتطعت إخصـاء نفسي، مثلما فعل القديس أوريجانوس بنفسه فـي الماضـي، على الرغم من غضب البابا عليه وقتها لذلك؛ إذ إن معانـاة

الرغبة والتغلب عليها لهو ضرب من ضروب اختبار صدق الإيمان.

تمنيت أن تحدث معجزة فأغمض عيني وأفتحها لأجـد نفسي في بيعتنا بقصر الشمع، وقد وقفت بـين يـدي أبينـا يوساب لأعترف له بكل خطاياي: خطيئتي التي وقعت فيهـا الآن وخطيئتي القديمة مع آمونة، بل أن تتم فضيحتي لـيس أمامه فقط، بل في خورس خاص لوحدي، فيفتضـح أمـري أمام جميع الناس، وأن تحل علي العقوبة التي يرتضيها؛ لأني لم أومن إيمانا خالصا أن الذي في الصـينية والكـأس هـو المخلص وهو الديان، ثم إني عاهدت نفسي ألا أعاقب جسدي بصوم ولا بسهر ولا بغير ذلـك قبـل اعترافـي وقبـولي الفضيحة، وإن لم يقدر الرب لي العودة إلى بيعتنا في قصـر الشمع، فسوف أعترف داخل أقرب بيعة ألتقيها بعد خروجي من هذا المكان، حتى لو لم تصادفني بيعة في طريقي إلا في بغداد.

كان كل ما لاقيته من متاعب وأهوال في حياتي كومـا، وما قابلته خلال خروجنا من محلة البشموري وحتى وصولنا إلى تنيس كوما آخر، فالرحلة، التي قطعناها فيمـا لا يزيـد على يوم واحد، مرت علي وكأنها دهـور بكاملهـا، فلقـد أخرجونا في الصباح الباكر ونحن مصطفون، ثـم اقتادونـا سيرا ونحن محوطون بالحراس والعسكر من كل جانب، وقد سار أمامنا مقدم العسكر في كوكبة مـن فرسـانه، وكانـت الطرقات الصاخبة بالحياة والناس حتى ما قبـل المعركـة، وكأنها طرقات سدوم منتشرة في كل مكان، وقـد اختلطـت بروائح التراب الناتج عن تهدم البيوت الطينية البائسة، بينما الجثث ملقاة هنا وهناك، ولقد تعجبت مـن طغيـان هـؤلاء الجبابرة، فلم كل هذا التخريب والدمار لهذه المنازل البسيطة التي يمكن أن تنهار بسرعة إذا ما ألقي عليها بعـض مـن الحجارة.

وكان خروجنا ونحن في أبأس حال وسيرنا في طرقات هذه الخرائب، من الأمور التي يصعب وصفها فقـد مشـينا نجرجر أرجلنا جرا، وقـد كابـدنا آلام العطـش والجـوع، وأوجاع الجسد، فما من أحد منا إلا وكان مكدوما أو مكسورا

أو جريحا، وبقيت أحوال النساء اللواتي سرن في المـؤخرة هي الأسوأ، ومعاناتهن ظلت أشد، وقد فقد كثير من الأطفال خلال تلك اليوم حتى وصولنا إلى تنيس.

كنت خلال ذلك أقول لروحي: إن كل ما عانيته، ومـا سوف ألاقيه بعد ذلك، ما هو إلا حصاد زراعتي الإثم منـذ زمني الأول مع آمونة، وكذا بسبب إثمي الأخير الذي أوقعني فيه الشيطان داخل الشونة، وشعرت وكـأنني خلقـت للإثـم والخطيئة، وأن هذا قدري الذي لا فكاك منـه مهمـا مـرت الأيام. أليس استسلامي السريع لسويلا تأكيدا لـذلك أيضـا، وكأن روحي لا تعيش ولا تحيا إلا بعذابات الإثم، والندم عليه في كل ساعة ووقت؛ وكان يزيد عذابات روحـي – خـلال رحيل الأسر – هذا عدم تيقني مما آلت إليه حال ثاونا وعدم وجوده إلى جانبي؟. فهل هرب ونفـذ بجلـده بعـد أن رآه الجندي؟. هل ما قاله الجندي صحيح من أنه ذهب إلى بريـة هبيب.. أم تراه عاد إلى أبينا يوساب في قصر الشمع؟. كان أخشى ما أخشاه أن يكون قد حدث له مكروه أو قتـل، ليتـه كان إلى جانبي هنا، يواسيني ويعضدني بروحـه الطـاهرة وعلمه الغزير فلربما كان ألجمني وحال بيني وبـين سـويلا

وردني إلى جادة الصواب، لكنني كنت على رغم شعوري البالغ بالإثم، أشعر بالشفقة على سويلا، هذه الفتاة المسكينة التي أظن أنها ستلاقي أسوأ مصير في حياتها المقبلة، بعد أن فقدت أهلها وذويها وكل من يهتم بها في هذه الدنيا، كنت أنظر هؤلاء المرتحلين معي جميعا وأفكر في مصيرهم المجهول، الذي هو مصيري أنا كذلك، ورحت أتخيل حالنا وقد عرضنا جميعا في سوق النخاسة؛ ليتفرج علينا، ويقلب فينا الرائح والغادي فتذكرت مشهدا كنت قد رأيته أثناء هيامي بعد خروجي من ترنيط وقبل وصولي إلى قصر الشمع، ربما كان ذلك في مدينة منف، وربما كان عند عين الصيرة أو حلوان، لا أذكر الموضع الآن على وجه الدقة، كانت بلاد مصر جميعا غير معروفة بالنسبة إلي، وهي تتشابه على الأغلب، لكني لا أنسى كيف كان النخاس قد نصب خيمته على أطراف بستان، وقد أوقف عددا من الغلمان على دكته وراح ينادي عليهم، والناس واقفون يقلبون فيهم وكأنهم بهائم من جنس الحيوانات وبينما هو يفعل ذلك، إذ برجل عجوز، وبصحبته امرأة شمطاء، وقد جرا خلفهما صبية مليحة، وهو يصرخ ويقول صائحا أن النخاس قد غشه؛ لأنه باعه الجارية

على صفة أنها قندهارية، صفراء، مولدة ولهذا قبض ثمنهـا عشرين دينارا، فلما ذهب بها إلى البيت، بان تدليسه وغشه، إذ وجد أنها من جملة أجناس السودان بذات بدن يابس، وقـد غاب عنها اللون الذهبي، بعدما استحمت وقد قالت في سبب ذلك أن النخاس وضعها في أبزن فيه مـاء الكراويـا أربـع ساعات من النهار السابق لبيعها.

ثم قال الرجل، وكان يستشيط غضبا ويزبد لشدة غيظه، أنه اشتراها لكونها بكرا، فوجد أنها ثيب، وشهدت العجـوز التي كانت معه أنها اختبرت الفتاة فوجدت فيها قلوب الرمان الحامض وعفصا أخضر وقد عجنا بمرارة البقر. وقالت: إن الطامة الكبرى بالنسبة إلى المشتري، وكـان قريبهـا علـى الأغلب، هو أن الجارية حامل، وأنها عرفـت ذلـك، بـأن وضعت تحتها بخور العنبر، ومنعت خروجه مـن أدرانهـا وفرج ثيابها فلم تظهر الرائحة، من فم الجارية، وأنها متيقنة – والعلم عند ا – أن الجارية حامل في أنثى بسبب كآبـة لونها وعدم إشراقه بعد أن راح عنها ذهب الكراوية، وأنهـا قاستها بخيط من وسط السرة حتى وسط الفقرة المحاذية لهـا من أحد الجوانب، ثم علمت المكان بمداد وأدارت الخيط إلى

الجانب الآخر، فطال الخيط ولم ينقص؛ مما يـدل علـى أن الجارية حامل في أنثى.

عند ذلك الحد، هجم الناس على النخاس وأوسعوه ضربا هو وغلمانه، وأجبروه على أن يرد الدنانير إلـى صـاحبها، ويستعيد الجارية المغشوشة، ثم إنهم اقتادوه إلـى صـاحب الشرطة في ديوانه.

شعرت بآلام رهيبة في بطني عن تذكري ذلـك، وقـد تخيلت أن يحدث ذلك لسويلا البائسة، فشعوري بالحنو عليها كان هو الأشد كلما فكرت فيها، وكنـت أرجـو مـن ا ألا يمسها مكروه، بل تحدث معجزة فلا تؤخذ كسبية أو تباع في سوق النخاسة.

أما خراب الديار وفراقها، فكان ينحر في قلبي وكأنـه نحر الموج لشطآن البحر، فالأسر، وفراق الأوطان هما العدم في عز الحياة، وهو آية البلوى التي كتب علـي أن أحياهـا على مدى حياتي وأيامي. فكرت فيمن سوف يشتريني، فأنـا وإن كنت صحيح البدن موفور الصحة، إلا أنني – وأحمد ا على ذلك وأشكره شكرا كثيرا -، لست بالشاب الـذي يقبـل عليه الرجال بغرض المتعة، كما أني لست من القوة والعافية

المغربية للشاري لاستخدامي في عمل من الأعمـال الشـاقة المجهدة، رحت أتخيل من سيشتريني: صفته وعمله، وعملي معه، وكيف سيسلك معي؟. وهل سيصدقني إذا مـا أعلمتـه أنني قيم بيعة السيدة العذارء في قصر الشمع بمصر؟.

كنت أفكر في ذلك وأدعو ا أن يلهمني فكرة ووسـيلة أهرب بها من أسري هذا، فأنجو بجلدي وأعود إلى مصـر العتيقة مرة أخرى، ولا أغادر الديار. أخذت أقـدح ذهنـي؛ باحثا عن مخرج مما أنا فيه، وقد حضرتني حكاية، رحـت أتمثلها جاهدا؛ لأغزل على غرارها واحدة تنفعني، إذ كنت قد التقيت لصا أثناء هيامي بعد خروجي من ترنيط في موضـع خرب آويت إليه لأبيت فيه حتى طلوع النهار، فلما رأى مـا عليه حالي من مسكنة وذل، وأن لا رجاء له في أن يحصـل على شيء مني، أشفق علي وصادقني وأخبرني أنه ذات مرة تسور إلى منزل رجل يهودي من أهل الغنى والمـال، لكـن اليهودي اكتشف أمره، واستطاع هـو وخدمـه أن يحبسـوه بالدار، ثم سلمه إلى متولي الشرطة، الذي أمر بحبسـه فـي حجرة لها جدران عالية داخل السجن، وكان على باب هـذه الحجرة سجان يحفظه ويكلمه من خلف الباب، ويناوله مـن

تحته ما يتقوت به، فقال له زعبل – وكان هذا اسـمه – أن أظافره طالت جدا وهو محتاج إلى مقراض، فجاءه الحارس بمقراض.

ثم قال للحارس:

- إن في هذا البيت فيرانا تؤذيني إذا قربوا مني، فاقطع لي جريدة من النخل تكون عندي أطردهم بها ففعـل، فأخـذ يضرب بها في الحجرة التي هي محبسه، ويسـمعه صـوت ذلك أياما، ثم إنه قشر الخوص عنها، وقطعها علـى مقـدار يوهم أنه من عمل الفيران، وضم كل ما قطعه منها ببعضـه إلى بعض وقطع اللبد الذي كـان يتخـذه وطـاء وفراشـا بالمقراض، وضفر منه حبلا وتسلق به إلى أعلى الحجـرة، وتدلى من طاقتها خارجا أثناء هزيع الليـل الأخيـر دون أن يشعر به أحد.

وتمنيت أثناء رحيلنا هذا أن نلاقي في طريقنا وحوشـا كاسرة تطلع علينا فتفترسنا ونخلص مما نحـن فيـه، أو أن يرسل الرب ريحا صرصرا تطيح بالمركب التي ستنقلنا إلى الشاطئ الفلسطيني لنعبر من هناك إلى مقـر الخلافـة فـي بغداد، وكانت يداي تؤلمانني كثيرا؛ بسـبب الوثـاق الـذي

أوثقوني به مثلما أوثقوا بقية المأسورين، وكان العسكر لابسو السواد يحثوننا على السير كي ندرك تنيس قبل حلول الليل، وما إن فارقنا محلة البشموري، حتى علا الصراخ والعويل من جديد، وقد استشعر الجميع أن فراق الوطن حادث لا محالة، وأن البعد عن مرابع الأهل والأحباب آت كالموت الفاجع، فأخذت أبكي بدوري، وقد شعرت بضياع حياتي، وبلوغ أوج شقائي، توسلت للرب أن يرحمني، ويرفعني إلى ملكوته لأستريح، لكنني سرعان ما تذكرت ما كان يقوله لي ثاونا عن رحلة السيد وأمه المباركة، ومعاناة الآباء البطاركة وسائر القديسين الأحرار فهدأت روحي قليلا وتصبرت، وقلت لنفسي: ربما أراد الرب حشري في رحلة هؤلاء المساكين المعذبين؛ حتى أشد من أزرهم وأعمل على تقوية إيمانهم، وأدفعهم إلى أن يصبروا على ما هم فيه من بلاء، وقلت لروحي: سوف أحدثهم عن القديسين الشهداء، سوف أحدثهم عن عذابات البابا ديوناسيوس زمن الملك الكافر ولاريانوس الذي أخذ نوابه الباب واعتقلوه بأمر منه وقتلوا جماعة من الشهداء لا يحصى عددهم، وكانوا يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفائف على أنابيب

القصب ويرمون بها للشياطين، وقـد عـاقبوا ديوناسـيوس البطرك وطالبوه أن يسجد لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد تعالى، وأنتم تسجدون لما تحبون وسجودنا للسـيد المسـيح خالق السماء والأرض الذي نحبه، فقال له الحاكم: أنت مـا عرفت قدر صبر الملوك عليـك، فـإن سـجدت لآلهـتهم أكرمناك. وأخذ جماعة ممن كانوا معه فأمر بقتلهم بعـد أن خاطبه كثيرا، ثم أخرجه ونفاه إلى موضع يقال له "قولوئي"، وتفسيره حاجب؛ فعمل أهل ذلك الموضع الجميل معه ومـع كل من كان معه ممن لم يسجدوا للأصنام، وبعد ذلك أعادوه رجال الحاكم إليه ليحكم عليه بالموت، فقال له: بلغنـا أنـك تتفرد في الموضع وتقدس أنت وأصحابك. فقال له: نحن مـا ندع صلاتنا ليلا ونهارا وخاطبه خطابا كثيرا، ثـم تركـه. والتفت البطرك إلى الذين كانوا معه وقال لهم: امضوا إلـى كل موضع وصلوا وقدسوا، فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم إن البطرك أعيد إلى الموضع الذي كان فيه منفيا فحزن الذين كانوا معه لأنه افترق عنهم، لكنهم قالوا: نحـن نعلم أن السيد المسيح معه في كل طرقه. ثم استشهد في تلك

الأيام جماعة لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح؛ لامتناعهم عن السجود للأصنام.

وقد شاهدت أثناء صعودنا إلى تنيس الخرائب والدمار الذي خلفه العسكر وراءهم، فلم نمر بمحلة ولا بلدة، ولا كورة، إلا وكانت محروقة الزرع، متهدمة المنازل والبيوت، وكانت الطرقات والسكك خالية من الكلاب والقطط والهوام الضالة.

وفي أثناء سيري، تصاحبت مع شاب من البشموريين اسمه بخنس بن أيوب، قال لي: إن العسكر قد خربوا كل مواضع البشموريين في سمنود وسحا وشبرا سنباط والأريسية والنجوم، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر، بعد إضرامهم النار، حتى أن حيوانات الدور الداجنة كالإوز والفراخ والأرانب، كانت تجري في الطرقات صارخة ناطة والنار مشتعلة بريشها وجلودها، وأن ما حدث في ناحيتنا، يقصد ناحية البشرود كما يطلق عليها هؤلاء العسكر بلسانهم، لم تكن الوحيدة وإن كانوا قد شنوا عليها أكثر لعلمهم بأن الزعيم مينا بن بقيرة، كان يتحصن فيها ويتخذها محلة لحربه ضدهم لصدهم عن البلاد.

وقد قال لي ذلك الشاب، أثناء سيرنا أيضا: إن مينا ظل يرمي على العسكر ويقاتلهم حتى نفدت ذخيرته، وكان أكثـر رميه ورمي رجاله لا ينفع؛ لأن العسكر كانوا واقعـين فـي الظلمة وما يسقط عليهم من مشاعل البشموري ينطفـي فـي الحال لكثرة الماء في المواضع التي كانوا فيها، أما الوقايـد التي كانت تسقط على محلة البشموري، فقد كانت تحول الليل نهارا لكثرتها، وتجعل كل شيء يستبين وكأنه تحت ضـوء الشمس، فلما تمكن العسكر منه ودخلوا عليه، أعملوا السيوف فيه وفي أعوانه، وكان بخنس منهم حتى قتل أكثرهم، لكـن البشموري ظل يدفعهم عنه وقد أخرج لهم سيفه وهـو مـن الحسامات القوية التي كان قد جلبها له بعض خواصـه مـن عند الروم، فظل يذود عن نفسه حتى دوخ العسـكر؛ فلمـا تناهى ذلك إلى مقدمهم المدعو الأفشين، وكان هذا هو الـذي يتقدم مسيرتنا الآن – جاء ونازله بنفسه ودام النزال بينهمـا، حتى أجهز الأفشين على مينا، فظل مينا يلعن ويسب ويدعو عليهم بالخيبة، ويتمنى على ا   أن ينتقم منهم وتدور علـيهم الدوائر حتى لفظ أنفاسه.

ثم إن الشاب بكى بكاء مرا على زعيمه مينا بن بقيرة، وهو يقول لي: إن الفتاة المسكينة التـي كـان قـد أنقـذها وصارت زوجته بعد ذلك، جاءت ولبثت تبكي علـى جثتـه وتندبه مدة، فلما رأى العسكر ما أصابها بسبب ما كـان قـد جرى لها، تركوها دون أن يسبوها ضمن السبايا، وقد وجدوا أن لا نفعا ولا رجاء فيها.

كانت سويلا تسير خلفنا مع جماعة النساء المسـبيات، وقد حرصت على تجنب النظر إليهـا؛ خشـية أن يتصـادم نظري بنظرها، فأضعف ويلين قلبي بسبب ذلـك، أو تهـيج ذكرى مواقعتها بجسدي، فأصبو إليها من جديد ولا أملك من أمري أمرا. لكن عندما أوقفونا لنستريح قليلا ونشرب بعضا من الماء اختلست النظر إليها رغما عني فوجدتها في حالـة شنيعة، وقد أخذها الضعف والإعياء، وتسخم وجهها بالغبار، وتشعث شعرها الجميل، فلم أتمالك نفسي من الرثاء لحالهـا ورق قلبي من جديد، وعاهدت نفسي أن أبذل كل مـا فـي طاقتي لأحميها، وأنا أدعو الرب وأقري القرابيات لأجل ذلك، دون أن أصاب كما أشتهي بسبب يدي المغلولة.

دخلنا مدينة تنيس قبل الزوال بحوالي ساعة فوجدنا عسكر الخليفة ممن كانوا فيها، قد تهيئوا وخرجوا لملاقتنا، وقد تجمع هوام العوام لمشاهدتنا وتجريسنا مثلما هي عادتهم في نصرة كل غالب على المغلوب، فأخذوا يصيحون في وجوهنا، وينعتوننا بالكفار المارقين، وراح عيالهم يرموننا بالوسخ والقاذورات، بينما العسكر يذبونهم عنا بالأسواط لئلا يهجموا علينا ويفتكوا بنا. فلما دخلنا إلى الطريق الكبير بالبلد، لنتجه منه بعد ذلك إلى جهة البحر ونركب المراكب التي سوف تخرج بنا من بر مصر، وجدت بخنس بن أيوب يبكي وهو في غاية الحزن والألم، فرحت أواسيه وسألته الصبر والتجلد، وحاولت الأخذ والعطاء معه في الكلام، لأسايره فينسى ما هو فيه من غم وكرب، فقال: إن ما يبكيه هو أن أمه أصلها من تنيس، وأنه عاش جانبا من طفولته في هذه الكورة عندما كان يأتي لزيارة جده مع أمه وقت الأعياد، وأنه يحب هذه المدينة حبا عظيما؛ لذا فهو حزين؛ لأنه سوف يفارقها ويكون فراقه لبر مصر منها، ثم قال لي أنه كان قد قرأ في المكتب، وله ولع بمعرفة تواريخ الأولين، على رغم أنه من الفلاحين؛ لأن جده لأمه كان من الوراقين المشتغلين

بالكتب، وكذا بوضع التواريخ، وقد ترك عدة من الكتب، قرأ فيها – أي الشاب – كورة تنيس أنها واحدة من أعظم كـور المعمورة على الرغم من وقوعها وسط الماء؛ لأنها من كور الخليج، وأن البحر أغرقها مرة، وكانت لها قرى ومعاصـر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها، لكنها قامت مرة أخـرى بعد غرقها بزمن طويل فعمرت واستوت جنانا ونخلا وكرمة وشجرا ومزارع، وكانت في مجار على ارتفاع من الأرض، وقد أخبرني ذلك الشاب العليم أيضا – وكنـت أحثـه علـى الكلام حتى نتناسى ما نحن فيه ولا ننتبه لأذى العـوام – أن الماء لا يزال ينحدر إليها لا ينقطع عنها صـيفا ولا شـتاء، وسائره يصب – بعدما يأخذ الناس حاجتهم منه – في البحر؛ وأنه كان بين البحر وأرض تنيس مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش التي ربما نهبط إليها بالمراكب وبين جزيـرة فـي البحر يقال لها قبرس طريق مسلوك تسلكه الدواب يبسا حتى علا الماء وغطى ذلك الطريق.

وأنه لما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتـان وإحـدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضـع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس، فأغرقها، وصار يزيد كل عام

فما كان من القرى التي في قرارها غرق، وأما الذي كان منها على ارتفاع من الأرض فبقي منه تونة وبور، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت، والماء محيط به.

وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدا بعد واحد.. وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن يتملك المسلمون مصر بمائة سنة.

قال: وقد كان لملك من الملوك التي كانت دارها الفرما، مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتنع بها كل واحد من الآخر، وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض.

وأضاف – أفاده ا – أنه قرأ أيضا في كتاب أن لهذه المدينة سورا كان في الماضي له مائة باب، وأن أهلها اشتهر عنهم في القديم اللهو والخلاعة وأنه كان يولد بها كل سنة – كما قال بعضهم – مائة مخنث، وأهلها كانوا يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة، وأكثرهم كانوا يبيتون سكارى، وقد حصل لهم مرة مرض يقال له الفواق التنيسي أقام بأهلها

ثلاثين سنة،وقد لاحظ بخنس ونحن نسير في الشارع الكبيـر تعجبي من عمارة البلد الجميلة ودورها العظيمـة وانتشـار الحاكة الجالسين على أبواب دكاكينهم وجلهـم مـن الكبـار العجائز يحيكون الثياب الموشاة، وهم يرفعون رءوسهم عما بيدهم بين الحين والحين وينظروننا دون مبالاة، وكأنهم قـد تعودوا على مناظر الأسرى المرتحلين من مدينتهم بين أيدي العسكر إلى السفن جهة البحر، فقال لي بخنس أن أكثر أهـل البلد هنا من الحاكة المنصرفين إلى أعمالهم، إنهم لا يحبـون دس أنوفهم فيما لا يعنيهم؛ لأنهم يتكسبون كثيرا من حياكـة الثياب الشروب وهي نوع فخيم لا يصنع مثله في كل أنحـاء الدنيا، وأن أعظم ثوب لخليفة المسلمين يصنع هنا في هـذه الدكاكين – وهو ثوب يقال له البدنة، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة – غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصـناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا حياكة، وتبلغ قيمتـه ألـف دينار وليس في الدنيا ثوب كتان يبلغ الثـوب منـه – وهـو ساذج بغير ذهب – مائة دينار عينا غير طراز تنيس، وربما مدينة دمياط؛ مما جعل تنيس من أجل مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلـك الجزائـر،

يعمل فيها الرفيع، فليس ذلك يقارب التنيسي. وقـد أخبرنـي بخنس أيضا أنه حدث في تنيس منذ سنوات أن ولدت معزى جديا له قرون عدة ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخر بشعر أسود، وذنبه ذنب شاه، كما حدث فـي العام الماضي أن صيد بأشتومها حوت طوله ثمان وعشرون ذراعا ونصف، من ذلك طول رأسه تسع أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمس عشرة ذراعا، وفتحة فمه تسعة وعشـرون شبرا، وعرض ذنبه خمس أذرع ونصف، وله يدان يجـدف بهما طول كل يد ثلاث أذرع، وهو أملس أغبر، غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمـر، وفيـه خمـل كالريش طوله نحو الذراع تعمل منه أمشاط شبه الذبل، ولـه عينان كعيني البقر، فأمر أمير تنيس به، فشق بطنه، وملـح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوف بقفاف الملح، وهو قائم غير مـنحن، وقد فشى خبر هذا الحوت العظيم في جميع أنحاء الأراضـي البشمورية، وصار الناس يحجون إلى موضعه، وقد وضـع ملقحا في مكانه للفجرة عليه ومشاهدته بأعينهم.

فصلبت وتعجبت من قدرة الخالق العظيم، فقال لي: إن في تنيس أمورا وغرائب كثيرة، تحتاج إلى ساعات وأيام لحكيها، ويكفي أنها منذ مدة عذبت بحيرتها صيفا وشتاء، ثم عادت في العام التالي لذلك ملحا صيفا وشتاء، وعادتها أن تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة، فلما وصلنا حتى خليج المدينة، وكنت قد أنست وتصبرت كثيرا بحكايا بخنس عن تنيس على رغم تعبي وألمي الجسماني الشديد، أجلسونا قليلا لنستريح، مثلما كانوا يفعلون بين الحين والحين، في الطريق ليعطونا رغيف الخبز وشربة الماء، وما كدنا نجلس إلا وضجت السماء بالرعد والبرق، وهبت ريح شديدة، وعم سواد عظيم في الجو، فبقينا على تلك الحال نحو ساعتين والحراس معنا، ثم ظهر في السماء عمود نار احمرت منه السماء، وصارت الأرض أشد منها حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ الأنفاس استمر إلى ما بعد منتصف الليل، فأبقونا في أماكننا، وبتنا في مطرحنا على الشاطئ ولم نصعد إلى المراكب إلى بعد انصرام نهار اليوم التالي، وقبل حلول الغروب بقليل، صعدنا جميعا إلى المراكب حيارى نقدم رجلا ونؤخر رجلا، وقد صعبت علينا مفارقة الأرض والديار،

ولسوف أبقى ما حييت دون أن تغيب عن أذنـي أصـوات العويل والبكاء والصراخ الذي أخـذ يتعـالى مـن جميـع المأسورين رجالا ونساء.

ولن أنسى مشهد الدموع التي كانت تسيل وتشر على وجوه الجميع وكأننا في مندبة نندب عزيزا مات، وقد لبثنا على هذه الحال وقتا حتى بدأ النوتية يحلون القلوع والأشرعة ويفردونها في وجه الريح، فطابت قلوبنا جميعا، وأدركنا أننا مودعون الديار لا محالة، وأن هذا هو القضاء المكتوب لنا، فتعصرت قلوبنا، ودفن بخنس رأسه في صدري وراح يبكي وينهنه كالنساء، وفجأة تصاعد صوت شجي بالغناء، كان آسرا عميقا خلال هذه اللحظات العصيبة، فالتفت ناحية الصوت مثلما التفت الجميع، فإذا بنا نرى مجذوبا من مجاذيب الصوفية المسلمين، وقد وقف قبالتنا على الشط، وجسده قد تعرى بكامله إلا من خرقة يستر بها عورته، وراح يقول:

أفي كل عام غربةٌ ونزوح		أما للنوى من منية فتريح
لقد طُلح البين المشت ركائبي		فلا أرين البين وهو طليح
وأرقني بالري نوح حمامة		فنحت وذو الشجو الحزين ينوح

على أنها نجات ولم تذَر دمعة		ونُحتُ وأسراب الدموع سفوح

فلم أتمالك نفسي وشهقت مثلما شـهق الجميـع ونحـن نبكي، وسرعان ما تذكرت قصة أرخليـدس وسنسـكلتيكي ورحت أستريح جانبا مما قرأته منها من السنكسار الذي كان قد دفعه إلى ثاونا العزيز ذات يوم لأقرأه، وقد كتب على رق غزال بخط قبطي مذهب جميعه، وبدأت أهمس لروحي:

إنني أبحث عن شخص أبدي

أبثه أشجاني.

فإذا مت صلى من أجلي.

وحضرني في التو قول يوحنا فم الذهب:

كل إنسان على ظهر البسيطة

لابد أن يرى ما كتب عليه.

ثم إني نظرت الفتاة سويلا، فقلـت لأواسـيها بصـوت سمعه الجميع:

اهدئي أيتها الصغيرة وتذكري ما جاء في السنسكار:

ليست الصداقة أكلا وشربا،

إنما الصداقة الحقة هي:

إذا وقع صديقك في خطية

عليك أن تبذل نفسك لتخليصه.

إن المسيح صديق لآدم

فما إن وقع في معصيته

حتى بذل جسده ودمه لأجله

وأعاده إلى المركز الذي كان يشغله.

ثم إن المجدفين بدءوا في التجديف والسير، وأخذت المراكب تتدفع إلى عرض الماء مبتعدة عن الشط، وبدأ بر مصر يغيب عن ناظري شيئا فشيئا، وأنا شاخص إليه لا أحيد بنظري عنه، وكلما صورته تتضاءل تبهت أمامي كانت ترتسم داخلي وتقوى فيه قوة لا حد لها ستبقى معي ما حييت.

تم الجزء الأول من:

البشموري (رواية روايات):

ساويروس بن المقفع.

ألفريد بتلر.

زبيدة عطا.

سيدة كاشف.

الشيخ يوسف الشربيني.

المقريزي.

الحسيني صالح.

جون أنتيس.

عادل محيي الدين الألوسي.

جيمس بنتلي.

أنطونيوس الأنطوني.

حبيت زيات.

بانوب حبشي.

يسي عبد المسيح.

صابر جبرة.

منير شكري.

باهور لبيب.

الحسن بن زولاق.

مارتن برنال.

أحمد كمال.

عبد اللطيف البغدادي.

وآخرون.

البشموري

الجزء الثاني

لم أكن قد ركبت البحر من قبل، ولم يكـن لـي خبـر بحضرته، فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيأته، كأن قلبي قد انشق وانشطر، وأن دمي قد غاب وانقشع، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار وتسلسل في العجز والمرار، بسـبب كل ما قد كان، وحتم البعد عن الأوطان، وهكـذا سـرت لا أدري كيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصـعد إلـى العمـارة البحرية الكبيرة التي سمعت الجند يطلقون عليهـا الحراقـة، وهي من جاريات الماء، ذات مرامتي للنيران، يرمى منهـا العدو في البحر، وهيأتها هيأة عقاب ضخم مخيف؛ ممـا زاد في وجل القلب، وفعل فعل الزهومة في النفس.

أخذوا يفرزوننا – نحن الأسرى – وكان عددنا كثيـرا جما، فمن قال أنا كنا ثلاثة آلاف نفس، ومن قال دون ذلـك، أما النساء والأطفال فقد تحوطوا عليهم في موضـع قصـي بمؤخرة العقاب، بينما جرى تقسيم الفتية والرجال كُل حسب هواهم وغرضهم منه، وكان قدري أن أوضع ضمن شـغيلة الوقايد في بطن الحراقة.

ولم تك الحراقة التي أودعوني بها هي الوحيدة المغادرة مـن مياه البر المصري، بل كانت هناك حراقات أخـرى

وزع عليها المأسورون، إضافة إلى ثلاثة سـلالير، كما أخبرني بنيامين الصوري – بعد ذلـك – وهـو خير من تعرفت عليه أثناء عملي بالوقايد، والسلالير من المراكب البحرية الأصغر في هيأتها مـن هيـأة الحراقة، ذات شُرع ثلاثة، قال بنيامين، وهو خبيـر عليم بهذا المضمار لكثرة عمله واشتغاله بالبحر: إن الواحدة منها تحوي أربعين مجدافًا، وهـي سـريعة الحركة، وقد سميت على مسمى نوع من الطير يحلق سريعا في السماء، وأن سلورة من هذه السلالير وقد حملت بكل ما جلبه الخليفة من أرض مصر، سـواء أكان قد حصل عليه عن طريق الأعطية والهدايا، أم كان قد أخذ عنوة رغما عن أهلها، مثلما كان أمـره مع كل المتحصل من ورق البردي الذي صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذون تجارة ومعاشا لهم.

أما حراقتنا، فكانوا – قبل صعودنا – قد وسقوها بكل ما يحتاجه الملاحون من الميرة والزاد، على نحو الخبز والماء، ومن جميع الفواكه، والأدم، والسفرجل، والبطـيخ، والشـاه بلوط، والحمص المجوهر، والباقلايا مطبوخًـا، والبصـل،

والثوم، وجبن الحلّوم، والشب اليماني الأبيض الـذي يحمـل إلى الآفاق، وغير ذلك مما يطول ذكره، والذي أخبرني بـه أيضا بنيامين الصوري، وهو الذي أعلمني – بعد ذلك – أن مخازن الغلال التي تسمى الأهراء المباركـة تخـرج منهـا جرايات رجال السفن والأسطول، وكذا جرايـات السـودان العاملين بها.

كان بخنس قد أُخذَ ضمن خدام السواري والبنود علـى السطح، فافتقدته وابتأست لفرقته كثيرا، ويبدو أنهم توسـموا فيه الشدة والبأس بسبب عظم جثته وقوة عضـلاته، فتوجـع قلبي لفرقته على الرغم من معرفتنا القصيرة ببعضنا البعض، وتنادمِنا القصير السريع، لكن الرب شاء أن تكون أرواحنـا أسبق من الزمان في حركة التلاقـي وحـدوث التصـافي، فالمحب تظل بلورة روحه دائرة دون توقف حتى تصـادف بلورة محبة دائرة بحثًا عن الاقتـران والمـودة، فـإذا مـا تصادمتا وتماستا مع سرعة الدوران وشدتها، تولّـد شـعاع المحبة متدفقًا عظيما لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأسا علـى رغم هيولة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لي عن سويلا سببا في توثق محبتي له، فقد أخبرني أنها كانت قد فقدت ذويها أجمعين في آخر طاعون شهدته أراضي البشامرة قبل الحرب الأخيـرة، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت، وكان فناء عظيما لكثير من الناس والدواب، وسويلا كانت حينـذاك صـبية لا تتجـاوز أعوامها العشرة، فهامت على وجهها في الوحلات، حتى حن إليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها، لكـن علّـة شيطانية باتت تعتريها بين الحين والحين، تجعلها تذهل عـن الدنيا، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشّب جسدها تخشّب الأجساد الميتة – إلى حين – فتظل على هذه الحال، وقد زاغ بصرها وترغرغ ريقها خارجا من فمها، حتى ينظر الـرب في أمرها ويرحمها، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرة أخـرى، وأن الرجل مربيها – وكـان مـن الميسـورين المشـتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردي المنتشر بالأراضي البشمورية – لم يبخل عليها، بل اهتم لعلتها، وطاف بها على كنائس الملكانيين حينًا، وعلى كهان الوثنية حينًا آخـر، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها؛ وذلك بعد أن أعيته الحيـل، وباركها العديد من آباء كنيستنا المباركـة الـذين مسـحوها

مرارا بالزيت المقدس، وقرءوا عليها قرايـات إيمانيـة دون جدوى.

صرت في الأسفل أعمل عند بيت النار مع الوقـادين، وكان دوري أن أظل حريصا منتبها إلى اشـتعال جمراتهـا طيلة الوقت دون ملل أو كلل، بينما تدور آلاتهـا ويـدفعها المجدفون، وهم عصبة من الرجال الأشداء المقدامين لـم أر أخشن منهم طيلة حياتي، وجلهم من العبيد السودان شـديدي السواد، حتى أن جلودهم – وقد تعرقـت – كانـت تلتمـع كالأبنوس المصقول، وليس عليها إلا ما يسـتر عـوراتهم، ومواضع العفّة فيهم، وقد وقف عند رءوسهم عسكر الخليفـة يلهبون ظهورهم بالسياط، إذا ما تباطئوا في عملهم أو زينت لهم نفوسهم التواني والكسل، أما من كانوا معي فـي عمـل الوقايد فقد كان جلّهم أجلافًا و أدنى من ذلك، وكانوا يتكلمون معي بلسان عربي خلوط بلكنة ثقيلة لا تخلو من سذاجة، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثلـه مـن قبل، فلما سألت بنيامين الصوري، وهـو الـداري بـأحوال الملاحة من المبتدأ إلى الخبر؛ بسبب أن أهله من المشـتغلين بالبحر أبا عن جد، قال لي أن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد

يقال لها "المنبوذون"، يجري جلبهم من بلاد الهند والسند، ويباعون في أسواق النخاسة بأبخس الأثمان؛ بسبب جهلهم وفظاظتهم وخيبتهم في تعلم الحِرف والمهن، وأنهم كانوا في موطنهم بالأصل لا يقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائن من كان، فيعيشون محتقرين منبوذين ملعونين، حتى أن أشراف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور في آذانهم إذا ما تجرأ أحدهم ورفع صوته بالكلام في حضرة واحد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصوري لطيف المعشر، ظريف الهيأة، وهو فتى باسم بشوش، بادر بالعطف علي والتودد إلي، وهو يحدثني بقليل من قبطية حينًا، وبالعربية حينًا، وكان قادرا على التفاهم مع المنبوذين أيضا، ويقول لهم شيئا بلسانهم، وكانت منته رئاسة الوقايد، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار – في موضعنا أسفل الحراقة – وضبطه بمعيار الخبرة؛ حتى تظل جذوته متقدة دون انطفاء، فلما لاحظت نباهة لسانه ورطانته بكل كلام مهما تباينت الأجناس، ضحك، وقال:

إن هذا دأب كل من اشتغل بالبحر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تلقي به على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاربهم ومآربهم في الحياة.

ظللنا نعمل طيلة اليوم، وكان هدفنا بعد الخروج من أشتوم بحيرة تنيس هو شطّ مدينة الفرما، لكن بسبب معاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشتوم البحيرة، تعطل خروجنا بعض الوقت إلى فناء البحر الرومي، فما لبثنا إلا وكان الليل قد سحبنا إلى غزير عتمته، فجاء إلينا بعض الحراس، وأمر بعضنا بالذهاب معهم، فلما امتثلنا وسرنا وراءهم حتى صرنا في موضع آخر بجوف الحراقة، حملونا إناء كبيرا مملوءا بملح النطرون، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسل من الحديد على هيأة الصليب غرسوه في حلقة من خشب السنط وألقوا بها في الإناء، فطفت على سطح الماء، وبعد ذلك جاء الربابنة، فأظهروا حجرا عجيبا في حجم قبضة اليد أو أقل، وأخذوا يقربونه من سطح الماء في حركة دائرية من اليمين إلى اليسار، حتى ظهرت آيته، وهي دوران السلّ على السطح في اتجاه موضع دوران الحجر، وكانوا يسحبون يدهم بسرعة، فيكف السلّ عن الحركة،

ويستقر طرفٌ منه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال، وهكذا حددوا الوجهة التي يتوجب أن تجري إليها الجارية في الماء.

وصلنا مدينة الفرما عند الفجر الليلة التاليـة، وعنـدما استبان بعض من معالمها في الأفق، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمها لترسية الحراقة عند برها، وقد توسلوا لـذلك بالثقالات الحديد الغلاظ، وقد راح النوتيـة يفكـون حبالهـا ويدفعون بها إلى جوف البحر، فمـا إن وصـلنا الوصـول الأخير، وتوقفت الحراقة والسلالير، حتى هرع إلينا الحمالون أتباع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولابد قد طُير لهم الحمام ووصلهم البرق ونحن في سبيلنا إلى الحلول في هذي البقعة، وإلا ما كانوا قد بلغونا في هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النهار، ثم إنهم بدءوا في نقل بعض من حمولة السلالير على ظهور الجمال، وقد أمرونـا – نحـن المأسورين – بالحمل جميعا، ولم يعف من ذلك غير النسـاء والأطفال، فنالتنا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحمل والجهد العظيم الذي كنا قد عانيناه طوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيـل لهـا، وقد تألقت في هذا الفضاء الأزرق المديد المجتمع من سـماء وماء، فانشرح صدري ورحت أصلّي خلسة، شاكرا الـرب على كل شيء حامدا نعمته لحلول نهار جديد، وما لبثـت إلا

قليلا حتى رأيت بخنس بن أيوب قادما نحوي، وقد حملوه بما حملنا بمثله، فما إن رآني حتى سارع بحطّ حمولته واندفع إلي معانقًا، وقد أخذ شوق لا يدانيه إلا شوقي له، وكان وقت الزوادة قد حل، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خبز وبصل وتمر جاف، وقد أخبرني بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصا من النساء والأطفال، بل إن بعضهم أوشك على التلف، وأن المداوين والمطببين على سطح السفن، باتوا موزعي الجهد لكثرة المرضى، وأنهم يكتفون بماء الراوند، وشموم النوشادر؛ لإفاقة من غشي من الناس بسبب انتفاء عهده بركوب البحر، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليهم بجرعات من الخمر يشربها الملتاعون فتهدئ من روعهم؛ لأن المسلمين يحرمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمداواة داء من الداءات.

وكنت عندما اعتنقت بخنس قد راعني تصاعد ريح الخل منه، فأنفت من ذلك، وعجبت له، ولم أستطع كتمان الأمر في صدري، فلما سألته، قال أنهم أمروه مثلما أمروا كل من على السطح من خدام الصواري بشرب ماء البحر ثم

تقيئوه، وبعد ذلك طلوا وجوه الجميل بالخـل، وكـل ذلـك بغرض دفع دوار البحر وآثاره المدوخة والضـارة للـنفس والبدن.

رحنا نتسامر، بينما معالم الفرما ترتسم وتتوضح لنـا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشددت نورها، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مطلّ على البحر، وبدا لـي أن بهـا أخلاطًا من الناس، كما وضح من حال الحمالين وأصـحاب الركائب، الذين هم من البدو والعرب والأقبـاط، فـأعلمني بخنس أنه كان قد قرأ في بعض الكتب، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس في البر، فغاب عليها البحـر، ويقـال: إن فيما غاب عليه البحر مقطع للرخام الأبلق، وأخبرني أيضـا أن مما قرأه عنها أن أحدهم شعر في هدم أبواب من حجارة كانت شرقي الحصن ليعمل منها جيرا، فلما قلع منها حجـرا أو حجرين، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوه مـن قلعهـا، وقالوا: هذه الأبواب التي قال الرب فيها قولا مقدسـا علـى لسان يعقوب؛ فلا يجوز هدمها.

ما حييت لن أنسى صورة بخنس وهـو يحـدثني عـن الفرما، بينما نحن جالسان على الرمـال، والأزرق المديـد

أمامنا بلا حد فوقه غير حد الحزن في عيني بخنس شديدتي السواد، بينما تعبير شامل من الأسى قد هيمن على وجهه ذي الجبين العريض والأنف الأشم المرتسم تحته شارب داكن ولحية خشنة خشونة شعر رأسه، فبعد ذلك الوقت لم أر بخنس، ولم تتكرم الأيام علي بلقياه مرة أخرى أبدا، ولقد سألت عنه مرارا، بعد ذلك، كل أولئك الذين يمكن أن يكونوا قد صادفوه، ولكن دون جدوى، وتضاربت رواياتهم حول موضعه ومصيره، فمن قال لي مرة: إنه سقط أثناء مسيرنا في البحر من فوق أحد الصواري فابتلعه الماء في التو، ومن قال لي: إنه شاهده وهو يساق في جملة الأسرى الذي سيقوا إلى دمشق. وهكذا ظل اختفاء بخنس وعدم وقوفي على مصيره، لغزا يعذب روحي حتى يومي هذا.

كنت في البداية أظن أنهم سوف يسوقوننا مباشرة إلى مقر الخلافة ببغداد، لكن بخنس أخبرني قبيل فراقنا ونحن في الفرما أنهم سيذهبون بنا إلى أنطاكية، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفة سيؤخذ جلهم إلى دمشق، وقال أنه سمع بعضهم يقول: إن الخليفة أمر بهدم ودرس كل الكور البشمورية المنتفضة ونواحيها، وحمل كل من تبقى فيها من

الناس على السفن، وإنه كان قد جاء إلى مصر لتهدئة فتنـة العرب الذين استقروا في الغرب بنواحي الإسكندرية ولوبية، وهو يخشى أن يتكرر ما جرى بعد عودته إلى بغداد، فتثور الفتن من جديد، ويتّحد العرب المنتفضون مع الأقبـاط مـرة أخرى، وأنه خير رؤساء الكور المستسلمين في الرحيل إلـى واحدة من بقاع عدة بأرض الخلافة، فاختاروا مدينة أنطاكية؛ بسبب تقارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسـة أنطاكيـة هـذه، وضعف الخاف بينها وبين الكنيسة القبطية في مبادئ العقيدة.

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قـاموا بتعليـق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشب والنطـرون حـول المراكب من الخارج؛ وذلك لدفع أذى النفط، إن وجـد مـن تسول له نفسه الاعتداء على السفن من لصوص البحـر، أو عساكر الروم البحرية الذين كانوا ما يفتئون يجوبـون ذلـك البحر خصوصا أثناء الليل، وقد احتاطوا لذلك أيضا بـالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمي المعجون بالخل، فكـل ذلك يقاوم فعل حرايق النفط هـذه، وقـد راقبـوا الأمتعـة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها، وكانت من الممنوعات عدة ديكة، أراد رجل مرتحل معنا من الفرمـا أن يأخـذها فـي

أقفاصها معه؛ بسبب أنها مما يستخدم في الصراعات المحببة إلى الناس هناك، وهي تجلب لصاحبها من اصطراعها فـي الأسواق المال الجيد؛ غير أن العساكر أصروا على إجبـاره على تركها، إذا كان يريد السفر، حتى لا تصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمغيرين إذا ما أغاروا أثنـاء الليـل، فآثر الرجل عدم السفر والبقاء مع طيوره التي قـال أنهـا لا تقدر بمال، وأنها عزيزة عليه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش، لملاقاة بعـض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهنـد، فحملـوا بعضهم معنا كما سمعت من بنيامين الصوري، الـذي قـال أيضا: إنهم صعدوا محملين بنفائس من الحريـر والعطـور والتوابل والورق السمرقندي المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد سيذهبون بها إلى أنطاكية ومنها إلـى القسطنطينية وبلاد البنادقة. ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغف خلال ذلك إلا سويعات قليلة، عندما كان الريس يسمح لي بوجبة نوم قصيرة يحل غيري خلالها محلي فـي عملي، وهكذا وجدتني بين عشية وضـحاها أركـب البحـر

عابرا المدن والبلاد، وهو ما لم أتصوره أبدا ولا حلمت بـه يوما، فصرت كمن يعيش وهما لا حقيقة، حتى أنني عنـدما كنت أخلد إلى النوم، كانت تأتيني المنامات والأحلام الغريبة التي تخلط زمانًا كان بزمان آت، على نحو أتيقن معه مـدى ضياع روحي ووقوعها في جب اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم قبيل الفجر بعد انتهاء نوبتي في العمل، فرأيت في لطيم موج الحلم أن ثاونا وآمونة وسويلا وشابة أخرى بيضاء فارعـة الجسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرهـا، قـد وقفوا جميعا على شاطئ بحر صاخب الموج، مضطرم، وهم يلوحون لي أن تعال إلينا، فرحت أسبح مجتهدا فـي المـاء العاصف محاولا الوصول إليهم، لكنني كلما كنـت أحـاول الاقتراب منهم لا تمكنني قواي ويأخذني الموج بعيدا عـنهم، فأعيد الكرة من جديد دون جدوى، حتـى يئسـت وتعبـت، فرحت أبكي وأنتحب بمرارة، وبينما أنا على هذي الحال من اليأس والقنوط، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهـرة، وإذا بالفتاة التي كنت قد رأيتها معهم تطلع من داخلهـا، أثيريـة نورانية، هيولية التجسد وكأنها ملاك من ساروفيم السماء، ثم

إنها راحت تدفعني دفعا في الماء بكل لطف، حتى صـيرتني على الشط، وكل ذلك دون أن تمس بدني أو أشـعر بلمـس أناملها لجلدي.

كان شوقي لرؤية سويلا يزداد كلما توغلنا فـي السـير قاصدين أنطاكية، فللبحر وشيش وخفخفة، وزمزمة وهـدير وصخب وزمجرة، تؤرق الشجون وتعصف بالقلوب، فكنـت أتمنى على ا أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكـون، وكانت دموعي تسيل حينًا، رغما عني؛ لفرط شوقي إليهـا، بينما كان كل من حولي يظنون أنها تسح حسرة على حالي، أو أن مقلتي لا تحتملان شدة النار وسخونتها، وبينما كنـت أعمل في ليلة من الليالي، وقد أوشكت نوبتي على الانتهـاء؛ إذ بمن يدخل علينا من الحراس في موضعنا بالوقايد، وينادي طالبا أبا قبطيا في الحال، ولما لم أكن سوى قيم فقير إلى ا في بيعة من البيع ذات يوم، لم أرد، بل واصلت عملي بكـل انشغال، لكن الرجل لكزني بقدمه، وقال: أيا أنت، ألـم تقـل أنك كنت من أهل الكنيسة في مصر العتيقة، فمـا بالـك لا ترد؟. ولماذا تصاب بالخرس وتتجاهل الأمـر، وكـأن بـك صمما، أو كأن الأمر لا يعنيك؟. قلت لروحي: حمدا لقـد

آمنوا وصدقوا الآن أنني من أصحاب المنجليـة والعبـاءة، ولست من أهل السيف والرماية. فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيدا قوله بآي نعم، حتى أمرني بالوقوف وبالسير وراءه في التو والحال، فمضيت خلفه صاعدا إلى سطح الحراقة، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال، فوجدت سويلا راقـدة بيـنهم على الأرض، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجـائز وهن يبكين ويندبن الندب القبطي المعروف، أما هي فكانـت مسبلة العينين، تعاني سكرات الموت، فلـم أتمالـك نفسـي واندفعت تجاهها آخذًا رأسها بين يدي وأنـا أهتـف بلهفـة: سويلا سويلا، ورحت أكرر ندائي لها كمن أصابه مس مـن الشيطان، فلم يعد يقوى على السكوت والجلد، فما كان منهـا إلا أن فتحت عينيها قليلا، وأومأت برأسها بصعوبة مشـيرة على صدرها، فلما نظرته على ضوء المشـاعل المتـراقص بفعل ريح البحر الغاضبة، وجدت صليبي متدليا من عنقهـا وقد استقر عليه، فلم أتحكم بمشاعري وشهقت شهقة ملتاعـة سمعها الجميع، ورحت أنتحب رغما عني، لكنهـا عـاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خذه. فرحت أمسك براحتها، وأمسح وجنتها، ولساني يتمتم بآيات الـرب: "لا تحبـوا العـالم ولا

الأشياء التي في العالم، إن أحب أحد العالم فليست فيه محبـة الآب؛ لأن كل ما في العالم شهوة الجسد، وشـهوة العيـون، وتعظّم المعيشة ليس من الآب، بل من العالم. والعالم يمضي وشهوته، وأما الذي يصنع مشيئة ا فيثبت إلى الأبد".

وظللت أتلو وأصلي وأنا في غاية الأسى، وقد تـذكرت وقت موت آمونة، وكيف كانت راقدة ممددة أمامي كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

"ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصـبر أيـوب ورأيتم عاقبة الرب؛ لأن الرب كثير الرحمة ورءوف".

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله: "هو ذا الديان واقف أمام الباب. هو ذا الديان واقف أمام البـاب"، وجـدت سويلا تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية، ثـم مالـت برأسها ناحية الأفق البحري؛ حيث جئنا من بر مصر وهـي تحدق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسـية، فأدركـت أن ملاك الموت قد حل عليها وسوف يرتحـل بهـا. وجمـدت الدموع وتحجرت في عيني، وقد بدأت أثوب إلـى رشـدي، وبراحتي أسبلت جفنيها، ورحت أواصل قراياتي الربانية وأنا أريح رأسها على الأرض، وسرعان ما طلب الحراس منـي

أن أنتهي سريعا حتى أعود إلى عملي، فخلعت الصليب مـن رقبتها وضممته في يدي وأنا أقبله، ووقفت متوسلا إليهم أن يشركوني في مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة؛ لأكون آخـر من يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنـوا أنني من أهل الكنيسة؛ لأن معاملتهم لي لانت قليلا، ثم إنهـم لما بدأ الفجر يلوح في الأفق، أتوا بعدة جثـث أخـرى مـن مواضع متباينة بالحراقة، فبلغت الجثث التي عددتها إحـدى وعشرين جثة، بينها أربع عشرة جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض، ثم طلبـوا منـي أن أصلي عليها صلاة التجنيز، فأخذت أتلو ما تيسر من الآيات وأدعية المغفرة، بينما رحت أصلب عليهم واحدا واحدا وأنـا راكع خشوعا وتأدبا، ويدي تمسحهم – وليغفر الرب لـي – عوضا عن غياب الميرون المقدس، طالبا لهـؤلاء الأبـرار جميعا كل رحمة ومغفرة، وبينما أنا مستغرق في كـل هـذا بهمة وإخلاص، إذا بصوت مـؤذن يتعـالى حنونـًا شـجيا بالأذان، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسـلمين، كانوا قد ودعوا الدنيا كذلك، ووضعوا على جانب من الطرف الآخر للحراقة، فلما فرغت من صلواتي، انتظرت حتى فرغ

الناس من الصلاة على المسلمين المتوفين أيضا، ثم بدئ إلقاء الموتى في الماء، فعددت عدد الرميات المجتمعة من كلا الجانبين، فوجدتها قد بلغت ثلاثا وستين رمية، يصدر عن كل منها صوت مهيب رهيب، وكأنه انطلاقة واحدة من المنجنيق، وذلك وقت بلوغ الجسد الإنسي الماء وارتطامه به، ولسوف أظل حتى حين حيني، ومواراتي التراب، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر، ولا مشهد الأفق البحري المهيب وهو ينزع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويدا رويدا إلى الفضاء، فبدا كل ذلك مما يحفر في الذاكرة، وهو يدون بقلم الحزن الرهيب في أعماق الحس والشعور.

كان الحراس، وكل من حضر ذلك الوقت على سطح الحراقة، قد وقف واجما خاشعا، تطل من عينيه نظرات الأسى وكأنه يتأمل قوة الموت، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسره العجيب، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا، ففاضت قيعان نفسي بألم شفيف، وتسارعت دموعي تنهمر مرة أخرى وقد بدت لي صوصوات تلك

النوارس ضربا من النوح ذكرني بترنمية قديمة كنت أسـمع أمي ترددها كلما فاض حزنها لأمر من الأمور، وهي تقول:

صيرني حزني على أحبابي عليلاً بلا علة
وكاد الأسى والنوح يخرجني من الملة
ودهر يروح يا عين وشوقي لخلي لا توصف له خلة

وبقيت دموعي تسح حينا حتى بللـت صـليب سـويلا فرحت ألثمه بشفتي حسرة وألما.

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على عشـرة مـن الأيام، لاحت لنا أنطاكية عن بعد. كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافـة حينا؛ حتى تتزود بالميرة والوقود، وكان البحر قـد عاكسـنا وقتًا؛ فزمجر وهاج، حتى أن سلورة من السلالير كـادت أن تنقلب، لولا عناية الرب ورعايته لنا، وكان في حـين آخـر سلسا هادئًا، فسارت السفن دون عسر أو خوف، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين، كذلك الحـوت الصغير الذي ظهر لنا مرة، فسارع البحارة والنوتية بصيده، وكانوا غاية في السرور والبهجة، فعدا الفائدة المرجوة مـن لحمه الذي يؤكل جانب منه، له فوائد أخرى، وقـد راحـوا

يطبخون في قلفطة السفن وسد خروق أخشابها، وقد أخبرني بذلك بنيامين الصوري، وأضاف أن أكثر ذلك إنمـا يعمـل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر.

فلما بدأت السفن في دخول البحر الأنطاكي، وثبت أمان التسفير، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم، أو لصوص البحر، رفعت البنود والرايات السود، وهي علامة الخلافـة، إلى أعلى حدود الصواري، وانتابت الجميع، على رغم التعب والحزن والألم، أحاسيس الفرح بالسلامة، ونشط كل إنسـان فيما بين يديه من مهام ليتمها على خير وجه، قبـل الرسـو والنزول الأخير من السفينة.

عندما أنزلونا البر الأنطاكي، قال بنيامين: إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال. فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ربما كان قلعتها العالية المشيدة على نتوء جبلي عظيم العلو، ثم بدا لي سور المدينة، والحق أقول أنني لم أشاهد سورا مثله في الضخامة والارتفاع من قبل، وقد عرفت بعد استقراري بأنطاكية أن لهذا السور ثلاثمائة وستين برجا، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويستبدلون في السنة التالية، وهذا السور مبني على السهل والجبل وهو عجيبة من العجائب.

وكان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا، وقد قيل وقتها: إن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا؛ لأن البرق الشامي كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة بعد الذي جرى في الكور البشمورية والأراضي الموحلة، فصار الناس يهللون لمقدمنا، ولم أدر ساعتها: أهللوا بسبب نصرة خليفة المسلمين، أم لأنهم من أهل الملة مثلنا وعلى جادة المستقيم في حب المسيح؟. وقد علمت بعد ذلك أن

بطرك أنطاكية رحب كثيرا بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة.

ثم إنهم ساقونا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقـون عليها بيعة القسيان؛ وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنـا مجددا في سبيل إرسال من يشاءون إلى بغداد، واستبقاء من يريدون استبقاءه في أنطاكية، وإرسال بعض الأسرى لبيعهم في سوق النخاسة الكبيرة بالشام.

وجدت أن البيعة مهيبة، ذات أسـوار ضـخام، لبابهـا العالي صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار، يعمل كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة – كما أدركت فيمـا بعد – فلما ولجت منه، أي الباب، ودخلت مع الداخلين إلـى باحتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يحصى، ثم إنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكتاب جاءوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعـد إحصـائنا، وذلك ما عدا النساء والأطفال الذين كانوا يجري حصـرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم، فمن كـان مـن أهـل الحرب جنبوه في ناحية، ومن كان من أهل الزرع والحرف

المعاشية وضعوه في ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن يتركوا شيخا ولا شابا ولا صبيا أمرد، ثم إنهـم بعـد أن تمموا عملهم وزعوا على الجميع الزاد والقوت، فجلسنا نأكل، وبعدها تركونا نغتسل في حمامات السبيل، وهـي المنشـأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمسـاكين، فلمـا دخلت الحمام وجدت أن ماءه عذب سيح، ووقوده من خشب الآس الجيد، وحمدت ا على كل حال حمدا عظيما.

كان الفرازون قد ترددوا طويلا في تصنيفي وتجـادلوا زمنًا حول حقيقتي، فمنهم من كان يرى أنني كـاذب دعـي على الكنيسة، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البيع في سوق النخاسة، أو من الحشر في زمرة الفلاحين، وكـان آخـرون يرون أنني من أهل الكنيسة حقًا، فلا يجوز أن يتحمل وزري أمام ا يوم القيامة عندما يسأل؛ لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيرا، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الـذين سأظل أدعو لهم بالخير والصلاح ما حييت، فقـد رجحـت كفتهم في النهاية، خصوصا عندما أشاروا بضرورة مثـولي بين يدي آباء الكنيسة؛ لحسم أمري بالاختبار والوقوف علـى حقيقة درايتي بالديانة، وقد سارعوا بـذلك بعـد أن أكلـت

واغتسلت مثل الجميع، فأدخلوني في قلاية على بعض الآباء والذين يطلق العرب عليهم قساوسة، وقد كانوا ينعتون كل من ارتدى مسوح الكنيسة بهذه الصفة، فلما دخلت عليهم رحت أجأر بالشكوى لهم مما بي، لكني أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله؛ لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، ليست كلغة العرب، ثم كان بينهم شيخ طاعن في السن، طلب مني الكلام بحكمة وهدوء، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتي، وكان العسكر إلى جانبي وقوفًا، وأنا بين أيديهم ملتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ، أخذ يسألني سؤالات عن أحوال البيع في مصر، ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها، وكنت أتعجب خلال ذلك وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام؛ لأن سؤاله كان بلسان قبطي لم يخل من لكنة غريبة، وبدون أن أتمالك نفسي وجدتني أندفع – وليغفر لي الرب – وأسأله بلهفة عارمة:

- هل أنت قبطي يا سيدي؟.

بدا الرجل لي طيبا دينًا ذا سحنة سمحة، وقد تأكد لي ذلك عندما رد علي قائلاً بهدوء:

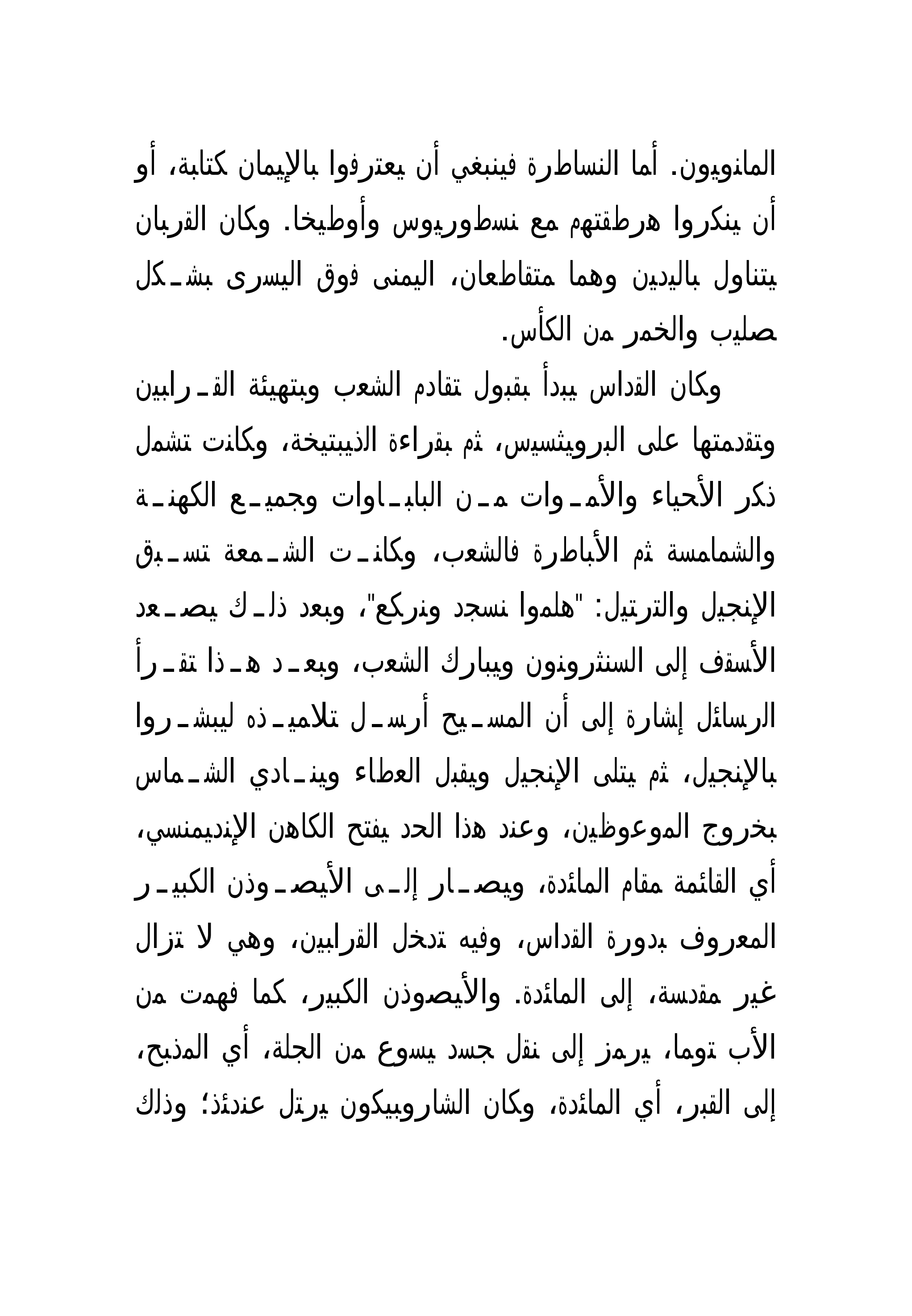
- كلنا عبيد ا يا ولدي. أمي أمها قبطية.

ثم إنه خاض معي في سؤالات عن الصـلاة والصـوم وشؤون العقيدة والسبوت والذي يصح فيها، فقلـت لـه: إن "السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجـل السـبت. فابن الإنسان هو رب السبت أيضا". وهذا ما قاله المخلّـص ورويت له قصة هذا القول كما وردت على لسـان مـرقس الرسول والتي كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواهـا لـي عزيز عيني ثاونا؛ إذ إن السيد اجتاز في السبت بين الزروع، فابتدأ تلاميذه يقطفون في السبت ما لا يحل؟. فقال لهم: "أمـا قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معـه؟. كيف دخل بيت ا في أيام إبياثار رئيس الكهنة وأكل خبـز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضا".

فلما سمع مني ذلك، خلت أنه قد ابتسم قليلاً وهز رأسه موافقًا، ثم كلم العسكر بلسانهم العربي أن يتركـوني؛ لأنـه سيقبلني في البيعة، ثم كلم الآباء بلسانهم الغريب علي فتركني العسكر في القلاية ومضوا لشؤونهم.

مكثت زمنًا أعمل قيما ببيعة القيسان فـي خدمـة الأب توما، ومسؤولاً عن شؤونه بقلايته المخصصة له بأحد بروج

البيعة، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مكرسة في بروج البيعة العديدة، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين في الأسفل، ومن خلال عملي هذا تعرفت على الكثير في هـذه الكنيسة والتي بدت لي مختلفة في كثير مـن الأمـور عـن كنيستنا القبطية، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الـرب في هذه المعمورة، فأهل البيعة من الآباء وسائر الإكليـروس يعيشون في رغد من العيش على العكس من كنيسـتنا ببـر مصر، ونظام الخدمة هنا مختلف في أمور عدة عنـه فـي مصر، ودستور الإيمان كان يتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكـان التـائبون الـذين يـأتون مـن الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمـدون بغطـة واحدة، والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقـدون بـأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يقبلون كالأمم، أي في اليوم الأول يعدون مسيحيين، وفي اليوم الثاني موعوظين، وفي الثالـث يستقسمون بالنفخ في وجوههم وفي آذانهـم ثلاثـا، وهكـذا يوعظون ويبقون مدة في الكنيسة ويسمعون الكتب، ومـثلهم



المانويون. أما النساطرة فينبغي أن يعترفوا بالإيمان كتابة، أو أن ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا. وكان القربان يتناول باليدين وهما متقاطعان، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس.

وكان القداس يبدأ بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرابين وتقدمتها على البرويثسيس، ثم بقراءة الذيبتيخة، وكانت تشمل ذكر الأحياء والأموات من البابـاوات وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل: "هلموا نسجد ونركع"، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون ويبارك الشعب، وبعد هذا تقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يتلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادي الشماس بخروج الموعوظين، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الإنديمنسي، أي القائمة مقام المائدة، ويصار إلى الأيصوذن الكبير المعروف بدورة القداس، وفيه تدخل القرابين، وهي لا تزال غير مقدسة، إلى المائدة. والأيصوذن الكبير، كما فهمت من الأب توما، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلة، أي المذبح، إلى القبر، أي المائدة، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ؛ وذلك

لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك، وكنت أتأثر للغاية عندما يتلى:

"أيها الممثلو الشاروبيم سريا والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحيي لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيويـة؛ لأننا مزمعون أن نستقبل ملك الكل محفوفًا بالمراتب الملائكية – بحال غير منظورة – هللويا".

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك؛ لأنها تمنع وقوع شيء من هوام الهواء في أواني الخدمة وهي تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة. وكان من الممنوعـات فـي بيعـة القسيان، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلـى الهيكـل، أن يحني أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالي؛ لأن الليل الـذي يلي السبت يتخذ تقدمة لقيامة المخاص، ومنها تُبتدأ النشـائد الروحية ويقام العيد من ظلام إلى النور.

كان الأب توما من أحن الناس الذين عـرفتهم طـوال حياتي، وكان كريما عطوفًا دينًا، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسـطين وبيـروت وأقـريطش وقبرس، وعرفت أنه أمضى زمنًا طويلاً بـالبلاد المصـرية عرف خلالها اللسان القبطي، أما ما كان يحببني فيه كثيـرا

فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نغمات الموسيقا، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين – كما قال لي – مثل ما ابتدعه رومـانوس المرتل الأبيروتي الشـهير، وصـفرونيوس مـن القـدس، وأندراوس الأقريطي الذي ولد في دمشق وخدم زمنًـا فـي كنيسة القيامة، لكنه جنح حينًا إلى المونوثيلية ثم تاب، وكـان الأب توما مولعا بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرؤها بعدما يدونها في قراطيس مخصوصة، وكنت خـلال عمله في التدوين أقف بين يديه لساعات حاملا الشـموع أو ملبيا طلباته، دون أن أجرؤ على النطق أو الكـلام؛ لفـرط تنبهه أو انصرافه لما يقوم به، لكني فـي إحـدى المـرات جرؤت على الكلام وقد أكلني الفضول، فسألته عن معنى ما يدونه من إشارات، فقال:

- ألا تعرف هذ؟!. ألم تر أحدا يدون ألحانًا كنسية فـي بيعتكم بقصر الشمع؟.

فلما أجبت أن لا، دهش وسأل مرة أخرى:

- وكيف تحفظون نغمات الثاذوكيات والتراتيل الجليلة؟.

قلت بسرعة:

- لدينا المثلث والمزهر، ولعلك اطلعت على ذلك وقت إقامتك في بر مصر، لكنا لا نستخدم مثل هذه، وكنت أقصد ما يستخدمه في العزف، وهو آلة من أوتار عدة يقال لها – اللير -.

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة، هو المختلف هنا في كنيسة أنطاكية عن كنيستنا في مصر، فبيعة القسيان هذه التي تنسب إلى الملك القسيان، كما أخبرني الأب توما والذي أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس الرسول، كان لا تنقطع عنها المحاكمات الكنسية الخطيرة، وتعقد بين حين وحين؛ وذلك بسبب تفشي الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها، كما أن المجاميع اللاهوتية كانت كثيرة الحدوث هنا؛ لأن البيعة هي البيعة العظمى لسائر المشرق سيريا، وكليكيا الكرجية، وكذا بلاد ما بين النهرين.

وفي أحد الأيام، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجياز مينا والذي يقام في كل أيام الصوم الأربعيني المقدس، ما عدا يومي السبت والأحد ويوم عيد البشارة، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقي للبيعة، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عددا من الرجال

والنساء، وقد أصابوهم بضرب مؤذ؛ إذ كان الدم يسيل من
رؤوسهم وأنوفهم وأبدانهم، وما يتنكرون به من جلود
حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها، فلما خرجت
لأستجلي الأمر مع جميع من خرج من أهل البيعة، علمت أن
هؤلاء الناس وجدوا يمارسون الطقوس الوثنية القديمة احتفالا
ببدء السنة الوثنية وفقا للطقوس الممنوعة والتي تتضمن
تكريم كرونوس KRONOS إله الزمان، وأن هؤلاء
ضبطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين
من تشرين الثاني، والسابع عشر من كانون الأول، وهذه
أسماء الشهور في أنطاكية؛ لشرب الخمر، وتغيير الأزياء
والرقص وغير ذلك مما يشاع في عهد الوثنيين احتفاء بعيد
إله قديم يسمى باخوس. وما إن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة
حتى سارع إليهم الآباء والرهبان وراحوا يشاركون
المؤمنين في سب هؤلاء الرعاع، ويوسعونهم ضربا وركلا؛
حتى أصاب أكثرهم الإعياء وسقطوا على الأرض موشكين
على التلاف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين
عقد محاكمة لهم، بسبب مخالفاتهم لا منعه الباباوات من قبل،
وخصوصا أن هؤلاء كانوا يقيمون الميومة أيضا وهي

ضرب من احتفالات الربيع، وكانوا يبقون النيران فـي أول الشهر القمري، ويتبادلون الألبسـة بـين النسـاء والرجـال لمناسبة عيد القطاف، وكله من الممنوعات المشرعة كنسيا.

بعد انفضاض ذلك وخلودي إلى نفسي بالليل إثر انتهاء خدمتي، هاجت بداخلي ذكرى العزيز ثاونا، فرحت أسـتعيد صورته وهو يسلك مع الناس، ويدفعهم دفعا عطوفًا هينًا لينًا للوصول إلى نبع الإيمان، لم يك يعنفهم أو ينهرهم قط، ولـم أره يوما مؤذيا لأي علماني جاهل، لم يقف على حقيقة الديانة من قبل، وكان صبورا، مثابرا في الرد على سؤالات هؤلاء، مهما كانت ساذجة سخيفة، تشوبها فجاجة فـي كثيـر مـن الأحيان. وجدتني فجأة أحادث روحي، بينما أتطلع إلى سماء غاضبة ملبدة بغيوم ليلية سوداء، عبر كوت قلايتي الضـيقة، كان حنيني لبر مصر وسمائها الصافية المرصعة بالنجمـات قد وصل إلى مداه، فسحت دموعي وأنا أردد كلاما منظومـا حفظته عن ظهر قلب من بنيامين الصوري، الذي مـا فتـئ يغنيه بينما كنا عند الوقايد في جوف الحراقة، فرحت أقول:

صبرا لدهر نال منك	فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن بعده	لا الحزن دام ولا السرور

كنت منقبضا جدا بسبب مشاهد العذاب التي وقعت عليها عيني خلال اليوم المنصرم، فتهيجت مشاعري، وقد تذكرت ما رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضي البشمورية ببـر مصر: الجثث الملقاة في كل مكان بعد القتال ولا تجـد مـن يدفنها، الجرحى والمتحرقون الصارخون بآلامهم وأوجـاعهم ومنهم من ينادي طالبا شربة ماء، فلا يعثر على من يسـمع نداءه، النساء والأطفال وهم يسيرون بصعوبة ومشقة دون أن يتعطف عليهم أي إنسان يشعر بما هم فيه من عذابات، ثم ما جرى لآمونة وسويلا، واختفاء ثاونا الـذي يأكـل روحـي السؤال عن مصيره، ثم ضياعي في هذه البلاد الغريبة التـي ما كنت أظن يوما أن قدمي ستطأها قـط، وأخيـرا كنيسـة أنطاكية التي بدت روحها غريبة بالنسبة إلـي – عـن روح كنيستنا بعض الشيء، ولم أعتد طقوسها، ونظام الخدمة فيها يختلف عن نظام الخدمة في كنيستنا المصرية، فعندما كـانوا يجرون سر المعمودية، كان الموعوظون يأتون إلى البيعـة لابسين ملابس بيضاء، ويقصدون حـوض مـاء يغمـرهم فيغطسون فيه ثلاث دفعات على اسم أبـي الأنـوار وابنـه

والروح القدس، بعد أن يكونوا قد جددوا اعترافهم بالإيمـان، وأقروا بأن لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التي كانوا يعبدونها، أما بالنسبة إلى عديمي النطق، أي الأطفال، فكـان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم، بحسب مبادئ الإنجيل، أشـخاص فضلاء يدعون أشابين، أي وكلاء، وهؤلاء عند المعموديـة يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان.

مرت أيام كان خلالها يجري التجهيز لطقس اعتـراف الذين جرى سجنهم بعد أن عـذبوا حتـى أعلنـوا تـوبتهم وندامتهم، وهكذا جيء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة في الصباح، وبدوا في حالة يرثى لها من الضـعف والهـزال، وجـرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف، صف الباكين، وقد وقـف عنـد مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الـداخلين إليهـا ليصلوا عنهم، وصف السامعين، وكان هؤلاء مسموحا لهـم بدخول الكنيسة، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايـا الأولين، على أساس أن يكونوا في موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم صف الراكعين، وكـان يتوجب عليهم الإقامة مدة الصلاة ركوعا، ويلي ذلك صـف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكـل ويشـاركوا

الهيكل ويشاركوا المؤمنين في الصلاة، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك، لما سألته، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جعالات ذهبية إلى الكنيسة في حالة تخفيف الأمر عليهم، كما علمت أن هؤلاء جميعا، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم، تقدم من معتبرين إلى الكنيسة.

وعلى رغم تعجبي من كل ذلك، وعدم ابتلاعي الكثير مما يجري في بيعة القسيان، إلا أنني لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلا من كثير سوف أعيش حتى تراه عيني وتستشعره نفسي.

ففي إحدى الليالي الربيعية وبعد قدومي إلى البيعة بحوالي سنة وكسر، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر، وكان نيسان بلغة السريان، واستمرت في تواصلها، زخمت السماء ببرق ورعد أكثر مما ألف وعهد، وسمعت عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ثم وقعت في الحال صاعقة على صدفة مخبأة في مذبح البيعة، ففلقت من

وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نُحت بالفأس والحديد الـذي تنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوبا من علو على هذه الصدفة وبقي في المكان الذي سقط فيه، وانقطع من الصدفة قطعة يسيرة، ونزلت الصاعقة من منفذ في الصدفة، تنزل منه إلى المذبح سلسـلة فضـية غليظـة يعلـق فيهـا الثيموطاون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعـت السلسـلة قطعا كثيرة وانسبك بعضها، ووجد ما انسبك منها ملقى على وجه الأرض، وسقط تاج فضة كان معلقًا بين يـدي مائـدة المذبح، وكنا قد هرعنا جميعا إلى موضع الخدمة بالكنيسـة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة، فكان مما وجـدناه أن الكراسـي الثلاثـة الخشـبية المربعـة فـي غربيهـا، والموضوعة على علو قد سقطت عنها، وقلعـت صـلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتي كانت منصوبة عليها، بينما انكسر الكرسيان الطرفيان تشظيا، وتطايرت الشـظايا إلى داخل المذبح وإلى خارجه من غير أن يظهر فيهـا أثـر حريق كما ظهر في السلسلة، ولم ينل الكرسي الوسطاني ولا الصليب الذي عليه شيء، وكان على كل واحد من الأعمـدة الأربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطـي مائـدة

المذبوح ثوب ديباج ملفوفا على كل عمود، فتقطع كل واحـد منها قطعا كبارا وصغارا، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قـد عفن وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولـم يلحق المائدة، ولا شيئًا من هذه الملابس التي عليها، ضـرر ولا بان في أثر.

غير أن من المصائب التي جرت، انقطاع بعض الرخام الذي بين مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس، والنورة كقطع الفأس، وكان من جملته لوح رخام كبير طفر من موضـعه فتكسر إلى علو تربيع القبة الفضية التي تغطي المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطافرت بقية الرخام إلى ما قـرب مـن المواضع، وكان الأب توما أثناء ذلك حاملا فـراخ قناديـل زجاج، محاولاً إنقاذه والهرب به بعيدا عن موضع التكسير، لكن شظية من الرخام خبطت القنديل فتكسر لتمسـك النـار بقميص نومه المصنوع من الخز الخفيف اللين، فتحول فـي لحظات إلى ثوب من لهب، فما إن رأيت ذلك، وكنت وقتهـا مشغولا بإنقاذ منجلية قديمة مصنوعة من خشـب الأبنـوس ومطعمة بالفضة والعاج، حتى تركت مـا بيـدي وجريـت ناحتيه، وكذا فعل كل من كان بهذا الموضع من أهل البيعـة

ورأى النيران تمسك به، ورحنا جميعا نحاول إطفاءه، فرمينا عليه زربية صوف مما يفرش فـي أرض الكنيسـة لمنـع الهواء، وكذا طيلسانًا مبلولا، ثم حملناه سريعا إلى فناء البيعة ووضعناه تحت سيل المطر المنهمر، إلا أنه سرعان ما وافنا بعض من عبيده بسطل مملوء بولاً، وسارعوا بصبه عليه من أعلاه إلى أسفله بعيد أن أخذناه مرة أخرى بعيدا عن المطر، وقد دهشت لفعل النجاسة هذا كثيرا، لكني عرفت بعدما مـا هدأت الأمور أن ذلك مجرب ومفيد جدا في علاج الحريق.

بقي الأب توما عدة أيام يصارع الموت، فقـد تحـرق معظم جلده ولحمه ورأسه، وغارت النار إلى بعض أحشائه، وسلمت عيناه، وكان آباء البيعة المشـهور عـنهم الحكمـة والتطبيب، قد بذلوا كل علمهم في الحكمة والمـداواة لأجـل شفائه، فعالجوه بالمراهم المعمولة والعقاقير المخصوصة، أما الشمامسة والقس فقد سهروا على رأسه بالقرايات الإنجيليـة والأدعية الربانية الشافية، فبدا لحين أنه يتحسن ويبتعد عـن التلف، ولكني كنت – وليسامحني الرب – غير مطمئن إلـى ما سوف تكون عليه حاله، فما أحد منهم صنع حجابا أو قرأ مقروءا يفيد حالته، فلما تسلسل في المرض أشرت عليهم بكل

تواضع وأدب أن نفعل له ما فعلناه يوما ببـر مصـر مـع المحروقين في المعادي وقت ريح الحسومات، فقـد أشـعلت الريح، هذي وكانت شديدة مترية أكثر من عادتها كل عـام، النيران بأكواخ بعض من أصحاب المعـادي علـى النيـل، فتحرق بسبب ذلك كثير من الناس، فذهبت مع ثاونا وآخرين من البيعة في قصر الشمع إليهم، وكان ثاونا يعالجهم بعصارة العمعت الأسود وبعر المعز المحروق المختمر جيدا ولبخـة الخرنوب، مع عزيمة تُقرأ على موضـع الحـرق، وكنـت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ترديدي لها، وهي:

"حوريس يا ابن الشمس، النار في البلد، فإن كان هنـاك ماء أو لم يكن، فالماء في فمك والنيل في أرجلك متى جئـت لإطفاء النار".

وكانت هذه العزيمة تُقرأ أيضا على لبن امـرأة ولـدت غلاما وعلى رغيف خبز وعلى صوف كبش، ومجتمع ذلـك يوضع على الحرق كلبخة فيفيد للغاية. غير أن الجميع هنـا في كنيسة أنطاكية رفضوا ذلك كله، بل ظهر من سخر مـن ذلك، فتأسفت أشد الأسف لعدم تقديرهم لمـا هـو مجـرب، ومتّبع منذ أقدم الدهور، ولعدم تصديقهم إياي في ذلك، ثم إن

الأب توما تسلسل في المرض ودخل شيئًا فشيئًا فـي زمـن الغياب وحيز الضياع والتلف. وقد أعقب ذلك بوقت قصـير حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعة وسمع صوت هائـل مـن السماء، ووقعت بنايات كان قد بناها الملك يوستينوس ومات تحت الردم خلق كثير قيل أن عددهم أربعة آلاف وثمانمائـة وسبعون رجلا، وكل من تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى، وغرقت مراكب بـالبحر بسـبب المد، ونفقت بهائم، وفسد مد القمح المخصص، والذي كـان يرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة وثلاثين ألـف مد، وحدث في أعقاب ذلك أن كثـرت الفئـران بالمدينـة، وخصوصا ذلك النوع العظيم كالودل الذي لم أره في أية بقعة غير أنطاكية، وأتلف كثير مما تبقى من الزرع بعد الزلازلة، وقد خافت الناس وتضرعت إلى ا ألا يبلو المدينة بطاعون من الطواعين التي تتلازم مع كل ذلك.

ألحقوني بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل، وكنت قد تعرفت عليه لماما قبل ذلك، فقد كنت أرى ذلك الشيخ ذا العينين المحولتين دوما، والندبة الغائرة في جبينه يتودد إلي بكلمات رأيته عابرا بدهاليز البيعة أو ماضيا بساحتها لأمر من الأمور، فيبتسم ويحييني وهو يرسم علامة الصليب مباركًا لي، وفي ذات مرة استوقفني قائلا:

- لدي رقّ قبطي قديم. هل جئت ساعة إلى قلايتي لتقرأه بعد انتهاء خدمتك؟.

فرحت جدا لأنني وجدت شيئًا يذكرني بوطني، هنا في أنطاكية، فقلت متلهفا دون أن أكتم مشاعري:

- سمعا وطاعة يا سيدي. سآتي إليك بعد الغروب عندما أفرغ من مطالب الأب توما، ويأذن لي بالانصراف إلى موضع سكني. ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بتفحص وسرور، ثم أردف:

- تعال. ولسوف أدعوك إلى أكلة حلاوة حمراء ربما لم تذق مثلها من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلني شيء من عدم الراحة آنـذاك، على رغم شوقي لأكل حلاوة سد الحنك التي يطلقون عليهـا هنا في أنطاكية حلاوة حمراء، ورحت أتذكر كيـف كانـت تعدها أمي لنا في المساء ليلة عيد الغطاس، وكيف كنا نتحلق حولها أنا وإخوتي بينما هي تحمر الدقيق في ليلة الخـروف، وتضيف إليه شيئًا فشيئًا شراب السكر حتى يحمر ويتحـرق وتتصاعد رائحته شهية محببة إلى أنوفنا، فنأكله ساخنًا حارا في عز برد طوبة العنيف. كانت نظرات الأب ميخائيل هـي التي أحرقت شيئًا ما بداخلي، خلال تلـك اللحظـات التـي استوقفني فيها، فمضيت بإحساس الملسوع مسرعا إلى قلاية الأب توما، أخطف خطواتي خطفًا، عابرا فناء البيعة، فلمـا أدركته وحكيت له ما كان من أمـري مـع الأب ميخائيـل، ورحت أستأذنه في الذهاب إليه بعد انتهـائي مـن خدمتـه. حدجني بنظرة طويلة باردة متسائلة، وكأنـه يـبطن شـيئًا بداخله، ثم قال بامتعاض لم أعهده فيه من قبل:

- ستكون مشغولا معي بعد الغروب؛ لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعدادا لمحاكمات سوف تعقد في الغد.

ثم قال بإصرار:

- إياك أن تتخاف عن هذا.

كان الأب ميخائيل، قبل انتقالي إلى خدمته، يبدو لي إنسانا هادئا وديعا، على رغم عدم ارتياحي له، لكني عندما اقتربت منه وعايشته، تكشف لي عن كائن غامض غريب الأطوار، وشيئًا فشيئًا أيقنت أنه شيطان فاسد الخلق بحق، فلقد كان يدهن وجهه وراحتيه كل مساء، وقبل أن يخلد إلى النوم، بمعجون من الزبد والعسل، كما كان يتعطّر بزيوت فواحة كالتي تتدلك بها النساء، ثم إنه كان يبيت بقمصان بلا أكمام في العادة وذلك خلال الليالي الحارة، وفي أحد الأيام صرفني مبكرا وظل بصحبة أحد الفتية الحمالين الذين يجلبون الأخشاب من الغابات الواقعة بالجنوب الغربي من المدينة، وبعد قليل من التحاقي بالخدمة، بدأت ألاحظ أن كثيرا من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثناء الصلاة، أو يجلسون ناحيته أثناء العشاء، وفي إحدى المرات، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجئوا إلى السحرة والمشعوذين، وكذلك رجل كان يعرض الدببة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازا، وطالت المحاكمة لكثرة المخالفين؛ إذ كان هناك رجل تغيب عن

الاشتراك في صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية، على الرغم من أنه علماني وليس من أهل الكنيسة، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقبقتا في أثناء صلاة عيد القيامة، وجماعة من تجار العطور أتلفوا الكتب المقدسة وباعوها ليصنعوا منها أبواقـا، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالي بسبب دخـول المساء، جيء عند موعدها بامرأة ورجل، وكانـت المـرأة صبية في قمة الجمال، وقد أدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة معاشًا لهما، بعد أن يرسماها ويروجاها. وقد أدينت المرأة أيضـا؛ لأنها كانت تتفنن في ترتيب شـعر رأسـها للفـت النظـر والإغواء، فلما صدر عليها الحكم، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل – أي أن يحكم على إنسان لمثـل هـذه الأمـور – لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكنا واجما، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع من كان حاضـرا مـن الهيئـة الكنسية، فقد صار لغط كثير وتزاعـق بسـبب أن المـرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهمـا، بـل وسبا الكنيسة وقالا أنها تحرم ما أحله ا ، وأن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفلوا من لذائذها، وأنه لو

لم يرد أن تتمتع النساء بالرجال، والرجال بالنساء، لكان قـد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط، وكلام آخر من هـذا النوع مليء بالهرطقة والكفر مما يشيب لـه الولـدان، فلـم يتمالك الجميع أنفسهم، ثم إن هذين الشيطانين أنكرا صـعود السيد السماوي، وقالا أن البتول ما كانت بتولا، وأنها ولـدت سفاحا من يوسف النجار، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلـك الحد وراحوا ينتفون لحاهم غيظًا وغضـبا، بينمـا أخـذوا يلطمون ويولولون كالنساء، وأوشكت جماعة من المـؤمنين الحاضرين على الانقضاض عل الرجل والمرأة للفتك بهمـا، لكن الحراس حالوا دون ذلك، كل هذا والأب ميخائيل واجـم صامت، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه.

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلي كلما مضت أيامي فـي خدمة الأب ميخائيل؛ إذ كان يصر على أن أقـوم بتكبيسـه وتدليكه كل ليلة قبل أن ينام، متـذرعا بوجـود آلام بلحمـه وعظامه تتزايد أثناء الليل، ولا تزول عنـه إلا بـالتكبيس، وعلى رغم كراهيتي لهذا العمل إلا أنني كنت أقوم به ولـو على مضض؛ بسبب دأبي على طاعة الآباء وعدم عصيانهم، وذات ليلة، وجدت الأب ميخائيل يلاطفني بالقول، ثم يدعوني

إلى شراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كـل ليلـة قبل النوم، فلما تمنعت، قال لي أنه ما فعل ذلك إلا بعـد أن لاحظ كوني مهموما يائسا، وكان على حق في ذلك، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكّر النفس، حزينًا، وقـد هاجـت علـي الهموم وصعبت علي حالي، فلما قال ذلك خجلت، وأخـذت منه الكأس تأدبا، ورحت أرتشف منه شيئًا فشيئًا، بينما هـو يسكب من البطحة الموضوعة أمامه ويعب من كأسه عبا، ثم إنه شرب حتى بدا ثملا، وتحامل حتى صعد سـريره طالبـا مني تدليكه، وهكذا رحت أدلكه بصـعوبة؛ إذ كنـت خـدرا ضعفانًا بسبب الكأس التي شربته، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ في التأوه وافتعال التألم، ثم استدار راقدا على ظهره وطلـب مني أن أدلك وركيه وقد كشف عن عورته وموضع العفة في جسده، فلما تمنعت وقد ألجمني مطلبه، وجدته يقبض علـى يدي بكلتا يديه ويدفعني دفعا إلى ملامسته وفعل ما لا أرغب في فعله، فلما بلغ هذا الحد، دفعته بعيدا عني وجريت هابطًا من قلايته بالبرج إلى موضعي لأفرغ ما في جوفي؛ إذ كـان رأسي يدور، وأمعائي تثور، وحالة مريعـة مـن الغثيـان تتملكني.

لم يغمض لي جفن في كنيسة القسيان بعد تلك الليلة، إذ أخذت أسترجع كل ما يقال عن الأب ميخائيل في البيعة، وما كان من أمره منذ مبتدأ اشتغالي بخدمته، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إلي بإشفاق دونما سبب أفهمه، كلما قلت، أنني صرت في خدمة هذا الرجل، وفي إحدى المرات همس لـي قيم شاب ونحن نخدم في تعميد جماعة من الأطفال، وكنت قد تعرفت عليه، أن أنتبه من الأب ميخائيل، فلمـا اسـتحلفته، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارتـه، أن يقـول لـي معناها، أخبرني وهو في حالة من الوجل الشديد أن معظـم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم، فمنهم من اختفى ولم يقف أحد على مصيره، ومـنهم من مات فجأة، وأن سيرة الرجل هنا في البيعة يشوبها كثيـر من السوء، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لؤمه وخبثه واحتياطه. ثم إني تذكرت ما كان من أمر رحلتي معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية، فقد ذهبت فـي تبعيتـه مأمورا إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من الآباء الآخرين، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل، ولم أسمع بمثل ذلك أبدا في كنيستنا ببر مصر، ولكن السبب في ذلك الانعقاد الكنسي

الخطير، كما قـالوا، هـو أن شـقاقًا قـد ذر قرنـه بـين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسـيون والمانويون يشاغبون، فظلت المناقشات تحتدم، حتى أقـرت قوانين تحرم تحويل المساكن إلـى أديـرة بـدون موافقـة الأساقفة، وتوجب على كل راغب في الزهـد والتقـوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة، ومنع منعا باتًـا أن يقوم بطريك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها. فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات، وكان وقتها منعقدا فـي كنيسة الحكمة الإلهية، تجمع خلال ذلك عدد مـن محـاربي الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثرا، ففتحوا أبوابها عنـوة بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم محـدثين هرجا ومرجا زاعقين صارخين، وحدث هرج ومرج كبيران وتم التضارب بالأيدي والركل بالأقدام، وعطّلـوا الجلسـات بالقوة، وكان أمرا لم أسمع ولم أر مثله من قبل، فبينما نحـن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء ممـا يحـدث، إذ الأب ميخائيل يدفع بي إلى ممر مظلم يؤدي إلى منـابر الـوعظ والإرشاد بالكنيسة، وكان الممر طويلا، فبقيت أركض خلفـه

حتى وجدتني أصل إلى باب يفضي إلى موضع من القصـر البطريركي المجاور للكنيسة، فما إن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلاما؛ بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغـروب بقليـل والشمس في القسطنطينية بخيلة كما عهـدتها طـوال وقـت إقامتنا، حتى وجدته يعتنقني ويربت على جسدي وكأنه يروم تهدئة روعي وإبعاد خوفي، لكني وجدت في تربيته مبالغة لم أستسغها، وخصوصا بعد ما أخذ فـي ضـمي واعتنـاقي، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل من هو في مثل مكانتـه وحرمته، وليس بهذا يكون إبعاد خـوفي وتهدئـة روحـي وشملي بالسكينة والاطمئنان، فتملّصت منه بلطف وذوق ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة.

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملني بقسوة وجفاء بعد تلك الليلة في أنطاكية، فلقد راح يطالبني بمطالب لم يكن يطلبهـا مني من قبل، ففي ذات مرة طلب مني الذهاب إلى الشـمال الغربي للمدينة، حيث منطقة المستنقعات، لجلـب بوصـات يبريها ويستخدمها في التدوين والكتابة، وكانت هذه المنطقـة من المناطق غير المأهولة بالمدينة، وتكثـر بهـا دويبـات وحشية مؤذية، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع،

ولولا ستر الرب وإلمامي بطبيعتها؛ بسبب تشاكل طبيعتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية، لكنت قد هلكت فيها لا محالة.

وفي مرة أخرى، طلب مني إحضـار أعشـاب بريـة ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق وخارج سور المدينة، وهي برية موحشة تكثر بها العقارب وهـوام لاسعة من العناكب السامة وخلافها، كادت إحداها أن تفتـك بي، بعد ما تشبثت بجلد قفاي، ولولا شـعوري وحساسـيتي السريعة بها، لكانت صبت سمها في دمي وتلفت لا محالة.

وهكذا، بتّ أستشعر الخطر من ذلـك الشـيطان، وقـد أيقنت أنه يريد التخلص مني بأسرع ما يكون؛ لظنـه أننـي سوف أفشي سره وأفضحه كلوطي مرذول بين أهل البيعة.

لكن حتى ذلك كله، لم يكن دافعا لإقدامي على ما أقدمت عليه بعد ذلك؛ إذ إن الأب ميخائيل بدأ يضعني في ورطة بدا لي أنه لن يخرجني منها إلا الموت، فلقد خشيت أن يرمينـي بما يرمي به أولئك الذين لا رجاء في حياتهم ولا نفـع فـي صلاحهم إلا بالنار المطهرة، ففي أحد الأيام، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب، قال لي بلهجة آمرة:

- بعد انتصاف الليل، وعندما تهدأ البيعة وينام كل مـا فيها، ستخرج بهدوء ماضيا في المدينة، حتى تصـل بـاب القديس جاورجيوس، وهناك سيقابلك شخص، ستعطيه هـذا، ثم تعود كما ذهبت بهدوء. لن تقول له أكثـر مـن القرنفلـة السوداء تهديك السلام، فإن أعطاك شيئا عد بـه، وإيـاك أن تلمسه أو تحاول معرفة ما فيه.

تملكني الرعب، وأنا أمد يدي لآخذ منـه رقًـا ملفوفًـا وموصوما بختم، وهو يطالعني بنظـرات بـاردة متوعـدة، تنبئني بمغبة المصير إن أنا خالفته. لم أكن أعـرف مسـالك المدينة جيدا، فأنا أمضي جل وقتي بين جدران البيعة، ولـم يكن مسموحا لي بالتجول خارجها، أو الخروج منها لأمر من الأمور، وقد ذهبت مرة أو مرتين إلى موضع باب القـديس جاورجيوس، أثناء حياة الأب المرحوم توما، فلقد ذهبنا إلـى هناك؛ ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكورا مـاتوا بعد قليل، ومرة أخرى للإتيان بمجموعة من الناس، قال الأب توما أنهم خالفوا جانبا من "المئة قـانون وقـانونين"، الـذين شرعوا في مجمع سـنة ٦٩٢، وكـانوا يربـون الماشـية ويشربون الخمر ويتناولون الطعام بداخل كنيسـة موجـودة

هناك. رحت أفكر في ذلك كله، وقد خفت أن أتوه أو أضـلّ طريقي في العودة، حتى إذا نجحت ووفقت في الذهاب إلـى الموضع الذي يريد في دامس الليل وبهيمه، كما خشـيت أن يلتقيني لص من اللصوص أو قطاع الطرق، فقلت له راجيا:

- لكني يا سيدي لا أعرف كيف أصل إلى باب القديس جاورجيوس، ولا أعرف من هو الشخص المعنـي برسـالة غبطتكم على وجه التحديد.

شعرت أنه على وشك افتراسي وهو يرد بسرعة، دون التريث حتى أستكمل كلماتي:

- ستخرج من الباب الجنوبي للبيعة، ومن هناك ستسلك طريقًا واحدا عليك السـير فيـه حتـى تصـل إلـى بـاب جاورجيوس، وقبل وصولك سوف تكون هناك علامـة لـن تجعلك تضل أبدا وهي البيمارستان، فعنـدما يصـادفك، لا تترك السير حذاءه. عند باب جاورجيوس ستلقى هنـاك أبـا جليلا، سوف يقرؤك السلام بلسان عربي، رد تحيته، وهـات ما سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ شيء.

قلت محاولا إيجاد عقبة تحول بيني وبين الذهاب.

- والباب يا سيدي؟.

صرخ بصوته المحشرج المخنوق:

- ستجد من يفتحه لك أيها الغبي. ثم إنه تردد قليلا قبل أن يقوم وهو يبتسم بخبث:

- لو حدث وصادفك شخص عن ذهابك أو مجيئك، فقل له أنك كنت عند بنت يحنا.

أسقط في يدي، وكدت أصعق، كيف يمكنني قول هـذا، لو حدث وصادفت إنسانًا في طريقي، فبنت يحنا هذه مغنيـة معروفة بالمدينة تحن إلى القرباء، وتضيف الغرباء، وكان إذا أراد أحدهم في البيعة أن ينتقص من شأن الآخر أو يزدريه، يقول له، ليت لي بنتًا تغنيني عنك، حتى ولو كانت بنت يحنا.

خرجت متسللا من البيعة بعد انتصاف الليل، وقد هالني أنني وجدت الباب مواربا بالفعل دون أن يكـون عنـده أي إنسان، ثم إنني أخذت أسير متسارع الخطى، وقـد تملكنـي الخوف العظيم، بينما كانت رءوس الجبال تتراءى لي عـن بعد وكأنها خلق شياطين مخيفة تطل علي من عليائها علـى ضوء قمر شاحب تواريه غيوم قاتمة بين الحين والحين، ثـم وجدت نفسي أسير إلى جوار سور البيمارستان، كما قال لي الأب ميخائيل، فشعرت بارتياب ورحت أتـرحم علـى الأب

توما الذي كان يدخل المرضى إلى ذلـك المشـفى بنفسـه، ويدخل المجذومين حمامه ويغسل شعورهم بيده مرة كل سنة، يعينه على ذلك الشمامسة والقيمون في البيعة، ثم إني وصلت بعد حين إلى باب القديس جاورجيوس، وهـو أحـد أبـواب المدينة وقد بدا لي في هذه اللحظات وكأنه قريب جـدا مـن البحر؛ إذ كانت رائحة النسيم البحري تتسلل إلى أنفي بينمـا تلاطم الأمواج العنيف يبدد كل صمت، فما إن اقتربت مـن الباب وقد بلغ الخوف مبلغا عظيما من نفسي، حتى وجـدت رجلا واقفًا، تبينت في ضوء القمر الشحيح ملابسه الكهنوتية، فما إن رآني حتى تقدم مني، فقلت له بصوت مرتعد متعجل، القرنفلة السوداء تهديك السلام يا سيدي، فرد علي بصـوت جاف، خلت أنني سمعته من قبل: وأنا أرد عليه سلامه كذلك، ثم مضى، وقد سلمني كيسا من المخمل دسسته فـي ثيـابي ومضيت، بينما وقع خطواته المنتظمة القوية يضرب الأرض وكأنه فارس من الفرسان.

رحت أكرر صدى الصوت في أذني، كانـت عربيتـه غريبة، وخيل إلي أنه قال: "- أرت -، بدلاً من أرد، ظللت أهجس بذلك، وقد أكلني فضول المعرفة مـن يكـون ذلـك

الرجل؟ أخرجت الكيس من ثيابي وتحسسته، فبدا لي وكـأن بداخله رقا ملفوفا، توجست أكثر وأنا أتساءل عما يكون قـد كتب عليه. بينما كنت على وشك الاقتراب من باب البيعـة، تذكرت فجأة من يمكن أن يكون صاحب الصـوت، وقفـت متسمرا لحظات، وقد ألجمتني المفاجأة، وشـعرت بخطـورة الأمر في صدق حسي.

قبل الأب توما قليل "جاء إلى البيعة أب رومي قابله عدد من آباء البيعة، ومنهم الأب ميخائيل، وقد كنـت أحضـرت وقت هذه المقابلة، أصب شراب الخوخ للضيف الـذي كـان يتكلم العربية بلكنة غريبة وقـد قـال كلامـا كثيـرا عـن الساراسينيين، وكان الأب توما يجادله رادا عليه، وهو علـى حال شديدة من الغضب والرفض لما يقول، فلما انفض اللقاء، وبقيت بعد ذلك في المساء مع الأب توما، سألته عن معنـى الكلمة، وكنت أسمعها لأول مرة، فقال أنه يقصد الإسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر، المنحدرين عـن النبـي إبراهيم، وقال أن الرجل هو مبعوث البابا الرومي أربـانوس الثاني، وقد جاء بعد انعقاد مجمع في مدينة ببلاد الغال تسمى كليرمونت؛ بهدف حثّ أبناء يسوع في بيعة القيسـان علـى

معاونة الكنيسة الرومية والعسكر الرومي المساند لهـا فـي تخليص الأماكن المقدسة من أيدي هؤلاء الساراسينيين.

إذن.. هو ذا ميخائيل يراسل هؤلاء مرة أخرى. يا أ . هتفت لنفسي وأنا أكاد لا أصدق بينما خطاي تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب من باب البيعة، وقد زايلني كل خوف من الطريق ومخاطره، وبدأ يداخلني خوف من نوع آخر.

لقد قال الأب المرحوم توما، وقتها: إن ما يقولـه ذلـك الرجل، ما هو إلا كلمة حق يراد بها باطل، فهؤلاء الروم لا يبغون إلا مصالحهم، ولا يعنيهم في شيء الأماكن المسيحية المقدسة. وإنه، أي الأب تومـا، رد عليـه قـائلاً: إن هـذه الأماكن الطاهرة هي آمنة في أيدي المسلمين، وإن المسيحيين جميعا يحجون إليها دون أية عقبات، ثم إن المسـلمين هـم عرب كسائر السريان، وإن اختلفت ملّـتهم، وإن المسـامحة ظلت ديدنهم منذ أن تولوا أمور البلاد.

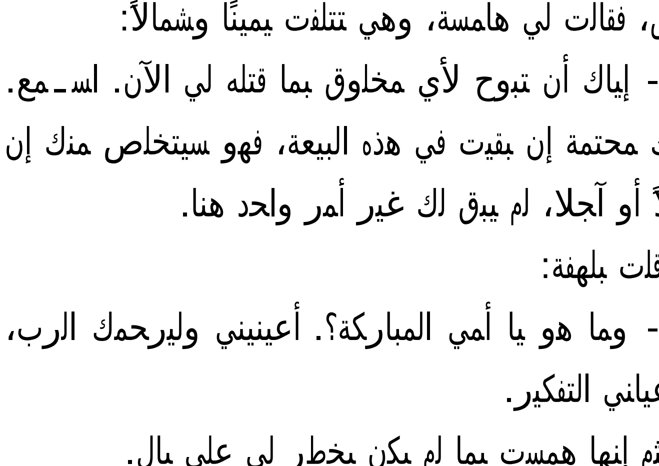
أيقنت أنني هالك لا محالة ما دمت مع الأب ميخائيـل، فهذا الرجل في حياتي فناؤه، وفي فنائي حياته، لذلك بقيـت بعد عودتي إلى البيعة ساهرا لا يغمض لي جفن، أقلّب الأمر على كل الوجوه، وقد شعرت أنني كلما خرجت مـن نقـرة،

وقعت في حفرة، فكنت أخاف أن أفضي لأي مخلوق، بما في داخلي؛ حتى لا ينقلب الأمر ضدي، وأنا هنا لا آمن أحدا بعد وفاة الأب توما الذي كان يحنو علي ويعزيني كثيـرا، لكـن فجأة، هداني ا إلى أن أبوح بأمري للشماسة رصفة.

كان السماح للنساء بالشمسنة، من أكثر الأمـور التـي استرعت انتباهي في كنيسة أنطاكية؛ وقد علمت أن ذلك من المعهود في هذه الكنيسة، منذ قرونها الأولى؛ ووفقًا لرسـالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، إذ قال: لا تكتب فـي عدد الأرامل إلا التي لها ستون سنة على الأقل ولم تتـزوج إلا مرة واحدة، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قـد أحسنت تربية أولادها، وأضافت الغربـاء، وغسـلت أقـدام القديسين، وأمدت المتضايقين، وسعت في كل عمل صـالح". وكانت رصفة ضمن هاتيك الشماسات المنوط بهن معاونـة الكهنة في تعميد النساء وتعليم الموعوظات، ومراقبة النسـاء المؤمنات في الغونايكيون، وهو مد النسـاء أثنـاء القـداس الإلهي، وكذا تفقد المرضى والمصابين. وكانت رصفة، كما قالت لي مرة، ضمن الذين شـملهن قـانون يوسـتنيانوس، فرحمها الرب وقبلت كشماسة وهي تحت الخمسـين، بعـد

التزامها، كما نص القانون، بالمحافظة على الآداب والوقار، وهي المرأة المكلومة الثكلى؛ بسبب فقدها أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد أن خرجوا إلى البحر للصيد والرزق، فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة، وكانت رصفة تحنو علي كثيرا وكأنني ولد لها، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكار القديسة بربارة السنوي في الرابع من شهر كانون الأول، وكان يوم سرور وفرح والناس في غاية الغبطة والحبور، وقد ارتدوا أفخر الحلل والثياب، وكثر منهم من يعلو على المهارى والبغلات، ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالي والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كما جرت العادة، وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشماسات، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة وراحوا يتسابقون؛ إذ صاح من صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها، فجرى الجميع محاولا مشاهدة المعجزة والتيقن منها والتبرك بها، وكل منهم يسعى إلى الوصول قبل غيره، فسقطت جماعة من الناس وكانت منهم الشماسة رصفة، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة،وحلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة، والتي كان من الممكن أن تطأها وتدهسها.

ومنذ ذلك اليوم انعقدت مودتنا، وعرفت أنها طاهرة نقية مؤمنة، وكأنها قديسة بحق، وباتت تفضي إلي بالكثير من أحوال هذه الكنيسة، وذلك بلسان عربي بين، فأبوها، كما قالت لي، من قبائل يمانية الأصل تدعى الغساسنة، أما أمها فهي من سريان أنطاكية، وهكذا استقر أمري، ومضيت إليها طالبا منها النصح والمشورة، عند أول فرصة واتتني في الصباح، فذهبت إليها بحجة أن ألما في رأسي وصداعا أخذا يداهمانني، وأريد منها شيئًا لتسكين ذلك، وهذا ما قلته للأب ميخائيل، وحكيت لها على وجه السرعة ما جرى لي بليلة الأمس، فقالت لي هامسة، وهي تتلفت يمينًا وشمالاً:



- إياك أن تبوح لأي مخلوق بما قتله لي الآن. اسمع. نهايتك محتمة إن بقيت في هذه البيعة، فهو سيتخلص منك إن عاجلاً أو آجلا، لم يبق لك غير أمر واحد هنا.

قلت بلهفة:

- وما هو يا أمي المباركة؟. أعينيني وليرحمك الرب، فقد أعياني التفكير.

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لي على بال.

بقيت طول النهار أفكر فيما قالتـه لـي الأم الشماسـة رصفة، وأقلبه على كل وجه من الوجوه، لكني أيقنت – فـي النهاية – أنه لا بديل لي إلا ما قالته، وهكذا ذهبت في ظهيرة اليوم التالي إلى موضع الأب ديونيسيوس، رئيس البيعة، فلما مثلت بين يديه بعد أن ضربت مطانيا وأنا مطأطئ الـرأس، استجمعت كل ما بداخلي من شجاعة، وقلت:

- أريد أن أعترف لك يا سيدي. لقد كذبت وليسـامحني الرب، وقلت أنني من أهل بيعة قصر الشـمع فـي مصـر العتيقة. هذا غير صحيح يا أبي، فما أنا إلا فلاح فقيـر مـن أهل البشمور بالأراضي الموحلة.

ورحت أشمر عن ساعدي حتى كشفت عن وشم الأسد، لأدعم قولي بأني فلاح قراري وعبد مسكين؛ ليصدقني الرجل ويقتنع بما أقول.

استمع إلي الأب ديونيسيوس، بروح هادئة كمن تعـود على حدوث مثل هذا، راح يفكر وقتًا متفرسا وجهي، وبعـد قليل قال ببرود مشيرا إلى قيميه:

- خذوه إلى الحبس حتى ننظر في أمره.

كان علي أن أدفع ثمن كذبي ألما ومرارا في سـراديب حبس أنطاكية، بعد ذلك، ففي حبس كنيسة القيسان هـذا، لا يشتهي المرء إلا أمرا واحدا هو الموت، فلقد كان محبسـي ضيقًا بقدر ثلاث أذرع في ذراعين، أشبه بحجر نحـت فـي الصخر أسفل الأرض، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالسـا القرفصاء، يتنفس بالكاد، فإذا كان من المحظوظين المرضي عنهم، يترك وحيدا دون إنسان آخر يشاركه الهدوء الـذي لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة، ويبقى الحراس بعيـدا بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه، والتي هي سرداب طويل مظلم وشديد الالتواء والضيق. فلما أدخلوني إلى الموضع المتحفّظ عليه به، تركوا لي مـاء وإداما من الخبز الجاف والملح المخلوط بلب نوى المشـمش المر، وقد علمت بعد ذلك أنهم يضيفون ذلك إلى الملح درءا لداء الزرب، ولزوم البقاء على قيد الحياة.

إن أسوأ ما مر بي خلال حياتي كلها كان حـبس بيعـة القسيان هذا، فهو الهول الحاضر، والعذاب القاهر، والإيـذاء المريع للروح والجسد، وكنت طوال فترة حبسي أدعو ا أن يساعدني على أمر واحد هو ألا أذهل أو أجن، فالجنون لابد

أن يكون مآل من يحبس في هذا المكان مدة تطول، وكنت لذلك أحادث نفسي كثيرا، وأقرأ قرايات إيمانية متنوعة، وأستعيد مترنما جانبا من الثاذوكيات الجليلة التي كنا نرددها في كنيستنا بقصر الشمع، ثم إنني بدأت ألاعب نفسي ألعابا ابتكرتها، فأشكّل بأصابعي على الضوء الضعيف المنسكب من كوة السرداب حيوانات وطيورا بأشكال طريفة أرى أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بي، كما رحت أستدعي مشاهد طفولتي البعيدة ومناظر بلدتي البشمورية، خصوصا عندما تبدأ شهور الصيف الحارة فتغلب مياه الفيضان العذبة على مياه البحر المالحة فتزخر الأنهر والقنوات بالأطيار والأسماك، وسائر الكائنات الربانية من أهل هذه المياه، والمستوطنة فيها منذ القديم، فيبدو المكان وكأنه فردوس من الفراديس، ونعيم لا مثيل له في الدنيا، وقد تفتح البسنت الأبيض، وأظهر نبات البشتين العوام زهوره الداكنة هنا وهناك، فلا تشبع العين من نظر كل هذا، ولا تملّ الأذن كورس الأطيار وهو يرتل مزقزقًا، صادحا، مشقشقًا، شاديا بسحر الأصوات وأبدعها. كنت أغمض عيني، وأطير بروحي بعيدا عن حبس أنطاكية، وأحط بها على أرض

وطني وبلدتي، فأدخل دروبها الضيقة، الحزينة، وأتشمم ثوب أمي ممسكًا به، وأنظر أبي وهو يبذر الحب في الغيطان، وقد شمر ساعديه عن قميصه الأبيض الكتاني، ثم أنظر إخـوتي أجمعين، مارية الكبرى التي ارتحلت مع نوتي ملكاني إلـى بلاد الجريك ذات يوم، ولم نعد نسمع عنها شيئًا بعـد ذلـك، حتى أن أمي كانت تندبها ندب الأموات منذ ذلك الحين، ثـم أختي الصغرى بسنت والتي كانت الأقرب إلى مهجتي مـن كل إخوتي، ولا أشتاق إلى أي منهن مهمـا حييـت، قـدر اشتياقي لها، وهي التي كانت تصغرني بثلاثة أعوام، ولهـا من الجمال والحنان ما لا يوصف وما لا تنساه الروح،وقـد انطبعت صورتها الأخيرة في مخيلتي وقت عدم آمونـة؛ إذ بدت كالمصعوقة، صامتة لا تنطق، وقـد جحظـت عيناهـا كحبتي عنبر كبيرتين، تصلدتا بالمفاجأة والأسى. هكذا كنـت أبقى وقتًا طويلا مستعيدا بمخيلتي كل المناظر والحياة التـي كانت وعشتها، ذات يوم هناك، فأحزن حينًا، وتنتعش روحي بها حينًا، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء، وتأخذني بدولابها إلى ما تبتغيه روحي وترقّ به مشـاعري، وكنـت أفرح حينًا آخر؛ إذ تذكرت أن الحياة بها من مسرات الـرب

وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على مـا جاد به على عبيده، وتنتعش روحي بالأمـل، فـأفتح عينـي لأواجه جدران الحبس الحجريـة أمـامي دون أن أخشـاها، وأجدد قراياتي الإيمانية مرة أخرى، أو أصلي صلوات الشكر والحمد، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم ومـاتوا، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء، وكنت كثيرا ما أردد بعضا من المزامير الداودية، التي أحفظها عن ظهر قلب؛ حتى تتقوى نفسي ويثبت إيماني، ولن أنسى كم رددت:

إنني ولو سـرت فـي وادي الظلمـات
لا أخـــاف ســـوءا لأنـــك معـــي.
عصاك وعكـازك يسـكنان روعـي.
تُعِد مائـدة أمـامي تجـاه مضـايقي.
وبالزيت تطيب رأسي فتفيض كأسـي.

ثم إنني كنت أحاول صرع الوقت، فأحاول تذكر ما في نواحينا البشمورية من أسماك وأطيار، وأعدد أسماءها واحدا واحدا محاولاً استدعاء أشـكالها وأجسـامها، فعـددت مـن الطيور: السلوى، النصطفير، الـزرزور، البـاز الرومـي، الصفري، الدبس، البلبل، السقاء، القمري، الفاخت، النـواج،

الزريق، الهونى، الزاغ، الهدهد، الحسيني، الجرادي، الأبلق، الراهب، الحساف، البـرين، السلسـلة، درداري، الشـماس، البصبص، الأخضـر، أبـو الحفـاء، الـدوري، الزنجـي، الأطروش، ابن السمان، ابن المرعة، الوطواط، الملاعقـي. وفي ليلة عددت من أنواع الطير التي أعرفها ما يربو عـن المائة، ونوعين بين صارخ وشاد ونـائح وهـادل ومغـرد وزاعق وناعق ومزقزق ومشقشق ومصفر ومصوصو، أمـا الأسماك فقد واسيت نفسي بها ذات مرة حتى عـددت منهـا تسعة وسبعين نوعا كانت: البوري، البلمو، البـرو، اللبـت، البلس، السكسا، الأران، الشموس، النسا، الطوبار، اليقشمار، الأحناش، الإنكليس، المعيـة، البنـي، الأبلبـل، الفـويص، الدونيس، المرتنوس، الأسقلموس، النفط، الجبـال، البلاطـي، الحجـف، القلاريـة، الـرخص، العبـر، التـون، اللاـت، القجاج،القروص، الكليس، الأكلاس، الفراخ، القرقاح، الزليخ، اللاج، الأكلات، الماضي، الجلاء، السلاء، البـرقش، الصـد، البلك، المشط، القفا، السـور، حـوت، الحجـر، البشـين، الشربوت، النساس، الرعاد، الشـعور، المحبـرة، اللاـبس، السطور، الراسي، الريفن، اللبيس، الأبـرميس، الأبـونس،

اللباء، العميان، المناقير، القلميـدس، الحلبـوة، الرقـاص، القرندس، الجتر، هوكبـارة، القـبج، المجـزع الدليسـي، الأحشبالة، البسال الأبيض، الرقـوق، أم عبيـد، البلـو، أم الإنسان، الإنسارية، اللجاه، وبقيت على هذي الحال لا أدري كم مر علي من الوقت، ولم أعرف مبتدأ الليـل مـن مبتـدأ النهار، إذ كنت أبيت على ما أصبح، وقد اتصل زماني، ولم يعد لي من الإمكان مفارقة مكاني، فصرت كالعائش الميـت، أو الميت الموجود الذي لا يحق له فعل الوجـود، وصـرت أغيب في نوبات لا أدري أهي حمى أم نوم؟، فلا أصحو إلا لشرب جرعة ماء، أو لازدراد كسرة إدم، ثم إنه حـدث ذات صباح أن جاءني الحراس وأخرجـوني، فسـرت بصـعوبة أمامهم، بينما هم يدفعونني دفعا، وكان امتناعي عن الحركـة والسير مدة قد يبس أوصالي، وبت كالمفلوج العاجز، وكـان امتناعي عن النور والشمس كل هذا الوقت، قد جعل عيني لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها؛ إذ صرت في فنـاء البيعة عابرا بينهم إلى موضع الحمام، فتركوني حينًا لأتحمم، وليسامح ا الأب ديونيسوس، إذ كانت رائحتي نتنـة عفنـة لكثرة مكوثي دون تطهر ولا نظافة.

استقر الأمر على ترحيلي إلى بلاد الخلافة بغـداد، فأنـا أسير الخليفة، وطالما أنا لست من أهل البيع كما ظن الجميع هنا في بيعة القسيان، فقد كان عليهم تسليمي مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجري في التصرف بـي كما يشاءون هناك.

سلّمت أمري ، فمهما سيكون لن يكون كما الذي كان، وما سوف يمر لن يعادل ما مر، وهكذا وجدتني أغادر فـي صبيحة اليوم التالي بيعة القسيان، التي رأيت فيها ما لـم أره من قبل؛ وذلك بعد أن لملمت حاجياتي القليلـة مـن ملابس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشيائي.

خرجت عند الغروب مغادرا أنطاكية، وكان آخر عهدي بها وقت أن حكموا على شماسة شابة بالبيعة تسمى برسيس، أجحفت بالنذر، وحادت عـن السـيرة الحسـنة، وضـبطت بجريمة الزنا مع رجل شماع ممن يزودون الكنيسة بالشـمع، وكنت ضمن جماعة من الناس في حراسـة غيـر كبيـرة، وتوجهوا بنا إلى بلدة أخرى من البلاد الشامية المؤدية إلـى بغداد، وتسمى هذه البلدة حلب، فقطعنا المسافة إليها في يـوم وليلة، وكانت الطريق بين الكورتين عامرة لا خراب فيهـا، وقد زرع جلها بأنواع عدة من الخيرات والـزروع والغلـة، وكنا نبقى وقتًا في بعض القرى التي تعترضنا، وهـي فـي جملتها ذات رياض مزهرة ومياه متفجرة، فيتركوننا لنأكـل شيئًا ويطعمون الخيول ويسقونها، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فلثر من الأرض لنستريح، وهو ما يحاكي الفدان والجريب وما إلى ذلك، فخرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين، فلما شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة، نصحوهم بالمضي سريعا، لأن هذا الموضع قريب من جبال يقال لهـا اللكـام، وأن بها حصنا قديما يشرف على بحيرة، يتخذه جماعة مـن الروم مقرا لهم، وهم قوم حبسوا أنفسهم على قتال المسلمين،

ومنعوا أنفسهم عن النكاح، فهم بين الرهبان والفرسان ويقال لهم الداوية، فسارع العسكر بجمعنا، ونهضنا لنعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب.

دخلنا حلب وهي مدينة مسورة بسور عظيم من الحجر الأسود، والقلعة عليه، وذلك من باب أنطاكية، وكان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفي وسطه مصانع للماء المعين.

كان بعض العسكر قد تركونا وذهبوا لشحنة المدينة لتسليم الخارجين عن الخليفة، وفي هذه الأثناء جاء من قال: إن تنينًا قد ظهر منذ فترة بالمدينة، بغلاظ منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلع كل حيوان يجده، ويخرج من فمه نارا تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون منه يمينًا ويسارا حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخًا، فأغاث ا تعالى الخلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحتملته، وكان قد لف ذنبه في كلب ورفعه والكلب يعوي في الهواء والسحاب يمشي به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين، وقد قال الحاكي الذي حكى هذه الحكاية: رأيت الموضع الذي انساب فيه كأنه نهر.

فلما عاد العسكر إلينا، كانت معهم جماعة مـن النـاس المرحلين إلى مقر الخلافة مثلي؛ وذلك بسبب أن والي المدينة قد أمر بإقصائهم عنها؛ لأن بعضهم، وهم من قريـة تسـمى هوته، قد اقتتلوا مع جماعة أخرى من قريـة تسـمى عـين الجارة، وأن بين القريتين حجرا قائما كالتخم، فما كان مـن أهل هوته إلا أن أوقعوا الحجر وطرحوه، فخرجت نساء عين جارة أجمعين متبرجات ظاهرات لا يعقلـن علـى أنفسـهن طالبات الفجور، ولا يستقبحن في الحال ما هن عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدونه إلى حالته الأولى فيتراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز لقبيح ما كن عليه من التبرج، فأمر الوالي بإقصاء الحجـر والقـبض على بعض من أهل هوته لأنهم لصوص، وكانوا كثيرا مـا يسخّرون الحجر لصالحهم ويلحقون العار بأهل عين جـارة، وأن الوالي قد طلب من الخليفة ألا يعودوا إلـى مواضـعهم أبدا.

ثم إننا تخللنا المدينة متجهين إلى باب العراق فوجـدت أن بها نهرا يقال له قويق، فلما مررنا بجانبه وقفنا قليلاً لأن واحدا من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف التـي

تكثر به؛ وذلك للحصول على دمها لأمه في العراق، وقد قيل له أن التلاطخ به ينفع من وجع المفاصـل. فلمـا تريثنـا إذا بصوت عذب لصياد يأتي من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو:

فلو دام الحـب الوصـال		فراق ولا هجر لما اشـتاق
ولـ ـ ـ ـ ـ ـ ـم يكـ ـ ـ ـ ـ ـ ـن		ويأتي انسياقًا تارة ثـم ينسـاق
قويـق سِـيل الغيـث يـأتي		
وينقضـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـي		

وقد لاحظتُ الناس في الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلاً لينظرونا، فوجدت أنهم من أحسـن النـاس وجوهـا، وأجساما، والأغاب على ألوانهم الدرية، والحمرة، والسمرة، وعيونهم سود. وقد عجبت مـن كثـرة حـارات المدينـة، ودورها، وجناينها، وحماماتها، وكذا رصانة البنـاء فيهـا، وحسن حجارتها، وتعدد أسواقها، والمعـروض فيهـا مـن الخضر، والفاكهة، والزيت، والصابون، والأقمشة، وأنـواع الفراء التي تعاق للعرض على أبواب الدكاكين، وهي علـى هيئة حيواناتها كالسمور، والوشـق، والفنـك، والسـنجاب، والثعلب، وسائر الوبر، أما سوق الرقيق، الذي مررنـا بـه

كذلك، فقد رأيت فيه أصنافًا من الجركس، والترك، والروم، والحبش، ثم إننا أخرجنا من باب العـراق قاصـدين مدينـة الخلافة بغداد.

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهني عن التفكير والتأمل، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك، أو هـو هنـا التي ما إن تقبض عليها، حتى تفر منك إلى هناك، فأنت فـي برزخ مستديم، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط؛ لتهيم الـروح في ماضيها وما كان، وتقبض على الكون في سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف، وهكذا صرت، طوال الطريق، كلما خلوت إلى نفسي أفكر فيما كان مـن أمـري ببـر مصـر وأنطاكية، وأضعه تحت نور الشهاب الثاقب، ونجـم التأمـل الساطع، فأتوصل بعد لأي من الهجس والتمحيص إلى أن ما كنت أعتقده يقينا، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سريرة، وأن البداهات إنما هي بمثابة بدايات، وأن العقيـدة الحقـة لا تتجلى وتكون إلا بالفعل المفعول، دون الكلمـات ومعسـول الترهات، وأن هناك من يتخذها مطية ورهينة؛ ليتمكن مـن أمور الدنيا وشهواتها، وليس كل من تلا كلمات الـرب هـو عامل بها، فهناك من يرتل الكلمات المقدسة، بينما هو يتلتـل

الدنانير المدنسة، وإنما القول الإيماني يجب اقترانـه بالفعـل الإنساني، وإلا كان غشًا وبهتانًا وتزويرا وإعمالاً في خـداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المصدقة والطقوس المكرسة.

لقد كفرت - وليرحمني الرب - خلال ولـوجي فـي برزخ السؤال، بأمر ما، وتشككت فيما كنت أظن أنه لا يشك فيه أبدا، وبت أطرح علامات استفهام، لا أدري أهـي مـن نتاج تعاظم شعوري بالألم والبؤس وقلة حيلتي ومشقة السفر، أم هي من قبيل الجود الرباني والكشـف الجـواني، وكـان إلحاحي الدائم على: هل يحتاج خـالق القَطـر، والشـجر، والسحاب، والثمر، وصنوف الطير، والحيوان، وسائر أجناس بني الإنسان، وما على البر، وداخل جوف البحر - إلى كل هذه التوافه العوارض من التيجان والطيلسانات والمـذهبات المفضضات، والعمارات ليدلل على قدرته؟. إن أي جبل قـد خلقه - مما خلق - لا يضارعه مهما كانت عظمتها بنايـة من الأبنية أو عمارة من بيعة من البيع، فالرب جليل مرتفـع عن كل هذا في أعماله وآيات قوته وأفضاله، وهو العزيـز عن مصنوع موضوع بيد عبد من عباده.

حمار وصفار وخَضار وسواد من الأرض، قُـدر لـي اجتيازه مع تلال من الدهشة والعجب وأنـا أعبـر القـرى، والبلاد، والصحراوات مرتحلاً في الطريـق إلـى المدينـة المدورة المسماة بغداد، إنها المدينة التي ظلت تتـراءى فـي خاطري كحلم شُيد من ضبابات التخيل وتهويمات الـتكهن، وقد رسمتها بمخيلتي من فسيفساء الأماكن وتفاصيل العـوالم التي شهدتها وخبرتها، وعلى الرغم مـن مشـقة الترحـال والسفر، وعبودية الأسر ومرارته، فإن تشوقي لبغـداد كـان يتزايد كلما غذينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فمـا أجمل أن تشتهي رؤية مدينة، وتحلم بأنـك سـوف تعاينهـا معاينة البصر وتلجها ولوجا بالقدم، بعد أن شيدتها بـداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن المدن والبلدان في العالم المضطرم والتمور بالقسوة والعنف والصراع دوما.

كانت قد مرت علينا في الطريق أحداث كثيرة، لكنهـا تضاءلت وتصاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من الصحراوات المحيطة ببعض القـرى والتـي يتوجب على التجار وقوافلهم اجتيازها خروجا أو دخولاً إلى بغداد، فقد تصاعدت إلى أنفي وأنوف كل الذين كنت معهـم

ريح نتنة وجيف، فظننا أنها بقايا فريسة لوحش من الوحوش، وقد تعفنت وتجيفت بفعل سخونة الشمس وشـدة حرارتهـا، لكن، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك، إذ بنا نسمع أنينـا موجعا يمزق سمعه القلوب، فبادرنا إلى موضعه، فهالنا مـا رأته عيوننا، فقد كان على الأرض رجل موثق يتـأوه مـن فرط آلامه، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورمـا مقـددا مسودا من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسـربلة جسـده وكأنها ثوب يغطيه، فلما تشجع بعضنا، واقترب أكثر وجد أن الرجل مكفن في لية الخراف، ومربوط عليه باللبد والحبـل بإحكام، ويبدو أنه ملقى منذ زمـن فـي الشـمس الحاميـة، فاستحالت اللية بعد حين إلى ديدان أخذت تلتهم جسـم ذلـك التعس بينما هو على قيد الحياة، وقد حكى لنـا واحـد مـن الحراس ذلك، فلم أتمالك نفسي ورحت أفـرغ مـا بجـوفي وأنتحب انتحابا شديدا، وقد أصابتني نوبة من الألم، لم أعـد قادرا معها على الإتيان بأي فعل أو حركة، خصوصـا وأن بعض الحراس سارع ليفك الرجل من أسـره، لكـن مقـدم الحرس منعه، لأنه لم يعد منه رجاء، فقد أصاب الدود أكثـر من موضع في لحمه، وصار موشكًا على التلـف والفنـاء،

وخشي أن يصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثـر أو حاولنا مساعدته، ومضى بنا مسـرعا، تـاركين المسـكين لمصيره المؤلم، فلما اجتزنا فرسخًا أو فرسخين وجدنا بعض الناس يسألوننا عن موضع رجل مقيد ومتروك في الصحراء، قالوا أنهم يبحثون عنه منذ عدة أيام دون جدوى، فأرشـدهم مقدم الحرس إلى موضعه الذي كنا توقفنا عنده، وسألهم عما كان من أمره، فقالوا: إنه تاجر من التجار، قيل أنـه خـان بعضا ممن كانوا معه بالقافلة، وسرقهم، فعاقبوه بعقاب قـوم يقال لهم الإيلخانيون وهم من القساة الغلاظ المتفننـين فـي تعذيب أعدائهم وضحاياهم، ففعل التجار بالرجل مـا يفعلـه هؤلاء الإيلخانيون بأعدائهم، وزاد هؤلاء بأن شطروا صـبيا كان للسارق، إلى نصفين، من باب الانتقام والتشـفي، ودون أن تأخذهم به رحمة ولا شفقة.

كان ذلك الأمر، قد أصابني طوال الطريق، بعد ذلـك، بحد من التبلد وفقدان الشعور، وقد بهت لكل هـذه القسـوة، وشهوة الانتقام، وفي لحظة تمنيت الموت، وبدا لي أنه الواحة الممكنة الوحيدة، بعد تيهي الممتد في بيداء هذه الدنيا المقفرة، وكان شعوري بذلك يتماسك ويتكثف، كلمـا حثونـا علـى

الإسراع والنشاط في السير حتى نجتاز المسافة إلـى مدينـة الخلافة في أقل وقت ممكن.

ثم إنه لاحت لنا بعد زمن قباب وأبنية، كأنما صبت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغًا، وكان بعض العسكر قـد أخـذ يطلق صيحات الفرح، ويلغط بسعادة عند وصولنا واقتـراب بلوغنا أبوب المدينة المقببة، وقد ظهرت بينها قبـة عظيمـة خضراء اللون عليها صنم على صورة فارس في يده رمـح نبهني إليه قول واحد من العسكر ونحن نتقـدم بالمسـير، إذ قال:

ـ انظروا. رمح الفارس يتجـه نحـو الشـرق، لعـل الخوارج سيخرجون من هذه الناحية كما يقال.

ضحك آخر بسخرية وعلّق:

ـ أتصدق هذه الترهات؟. إنهـا خرافـة ولا أكثـر أن يخرج خارج على الخليفة من جهة الرمح، سر وأنت ساكت؛ خلينا نصل وننهي مهمتنا بسلام.

بدا لي سور المدينة، وقد اقتربنا، عظيما ممتدا على نحو لم أره ولم أعهده في أية مدينة أخرى كنت قد شاهدتها مـن قبل، سواء في بر مصر أو في بلاد غربتي، وكـان السـور

مدورا يحيط بالمدينة داير ما يدور، وبالتخمين، فإن ارتفاعه إلى السماء، قد يزيد عن خمس وثلاثين ذراعا، وبدت أبراجه بسمك قد يكون خمس أذرع، وكانت على السور شرف، فلما اقتربنا من ذلك السور اقتراب المعاينة والتدقيق استبانت لـي أبواب عديدة فيه، ثم إنهم أوقفونا عند باب قيل له باب الشام الأول، فوجدت أن للباب هذا بابين بينهمـا دهليـز ورحبـة يؤديان إلى الفيصل الدائر بين السورين، وبدا لـي أن الأول باب الفيصل، والثاني باب المدينة، فلما ولجنـاه، بعـد إذن الحراس، إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجـص، وجـدت على الأزج مجلسا له درجة على السور، يرتقى منها إليـه، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء، سمكها، قـد يكون، خمسين ذراعا مزخرفة، وكانت هناك قبـاب أخـرى على السور، وهي التي كانت قد استبانت لنا من بعـد قبـل ولوجنا إلى المدينة، ثم إنهم ساقونا عبر شوارع المدينة إلـى قصر الخليفة، فهالني وأخذت بما وجدت عليه العامـة فـي الأسواق والشوارع وأسطح المنازل، فوقف العسـكر الـذين جلبوني مع بعض الأسرى الآخرين، يتساءلون، وقد أخـذوا بما أخذت به من ازدحام الناس حتى في الدكاكين والشـرف،

فقيل لهم: إن الخليفة أذن بدخول رسول الروم والجميع ينتظر وقت مرور موكبه قادما من دار يقال لها دار صاعد، وقد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمثول بين يدي الخليفة، وقال من أخبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكان أو غُرفة مشرفة على مشهد خروج رسول الروم إلى قصر الخليفة، قد أكرى ما لديه بدراهم كثيرة، وأن في دجلة صارت الشذاءات والطيارات والزلالات والسميريات بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة.

ثم إنهم ساروا بنا، فعبرنا أسواقًا وحمامات أرباضا عديدة حتى أوصلونا إلى قصر الخليفة الملاصقة لجامع جميل، وقبل أن يدخلونا جاء رئيس، قد يكون مقدم الدرك، وظل يجادلهم في شأني مثلما كان يحدث دائما في كل مرة يجري تسليمي فيها، ثم إنه، وبعد كلام كثير، استقر الأمر على وضعي في الوقايد بمطبخ الخليفة.

لا أدري أكنت محظوظًا لأنني وصلت إلى قصر الخليفة في الوقت الذي كان فيه الجميع مشغولين باستقبال صـاحب الروم، فقرروا سريعا إلحاقي بالوقايد، فلم أبع، أو أُوضع في حبس من الحبوس.. أم أن ذلك بسبب درايتي بالوقايـد مـن قبل، أثناء ترحيلي من مصر إلى أنطاكية، في الحراقة، وعدم انتفاعهم بي على أي وجه من الوجوه إذا هم باعوني؛ وذلك بسبب ضعف بنيتي واعتلال صحتي؟. على أية حال، لقد قدر الي أمرا كان مكتوبا، فقد عبروا بي ساحة القصر، بينمـا كان الجميع منهمكًا بفرش المكان بالفروش الجميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة، وكان الحجاب، ومـن خلفهـم، والحواشـي آخذين بالانتظام في طبقـاتهم علـى الأبـواب، والـدهاليز، والممرات، والمخترقات، والصحون، والمجالس، وبقي الجند واقفين صفين بالثياب الحسنة، وتحـتهم الـدواب بمراكـب الذهب، والفضة، وبين أيديهم الجنائـب، علـى مثـل هـذه الصورة، وقد أظهروا العدد المكسـية والأسـلحة المختلفـة وبعدهم الغُلمان الحجرية، والخدم الخواص الدارية والبرانيـة بالبزة الرائعة والسيوف، والمناطق المحلاة.

ثم إنهم أدخلوني بصحبة واحد من العسكر من باب قصي في الساحة يفضي إلى مطبخ الخليفة، ومهما وصفت فلسوف أظل مقصرا، عاجزا عن وصف ما رأيت؛ إذ إنني، بمجرد أن تخطيت هذا الباب، وجدت نفسي في فناء واسع، محاط داير ما يدور بغرف كثيرة، بينما عدد كبير من فراخ الطاووس، والبط، والإوز، والديوك الرومية تجري هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فودت أنها كبيرة واسعة تفضي إلى غرفة أخرى، استبانت من بابها أكداس من خشب وفحم حملت وتراصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضعت مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها، فلما عددتها وجدت أنها عشرة، وكان عليها رجال وغلمان يعملون بهمة ونشاط، والسخام يغطي حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندي الذي أنا تبعيته نادى على رجل ناعتًا إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخم الجثة في عينيه حدة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، فحيا رئيس العسكر، فقال له:

- هذا أسير الخليفة، هو قبطي مصري، ستكون ملتزما به منذ الآن فصاعدا، ولسوف يكون تحت إمرتك في الوقايد، وكل ما يخصه ستُسأل عنه على أية حال.

رد الريس حسين بهدوء:

- أمرك يا سيدي.

ثم إنه اصطحبني إلى موضع بغرفة الحطـب والفحـم، فأدركت أنها واسعة، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة. قال:

- سوف يكون مستقرك ومنامك هنا، عندما تنتهي نوبة عملك كل يوم. ستعمل معي في البداية خلال نوبة الليل، ثـم تنام سويعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها في التهيـؤ حتـى وقت الغروب، وإياك ومخالفتي في أمر من الأمور، هلا قلت لي ما اسمك؟.

قلت وأنا أزدرد ريقي، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقي:

- بدير. بدير يا سيدي.

وبينما كنت أرد عليه؛ إذ دخل علينا واحد مـن خـدام القصر، وصرخ:

- هيا يا حسين، هات مجامر البخور، وتعال لتشـرف عليها بنفسك، ستبقى حاملاً المجمرة الكبيرة أثنـاء طـواف رسول الروم بالقصر، اغتسل سريعا وهـاك بـزة جديـدة لترتديها.

- نعم. نعم. في غمضة عـين إن شـاء ا سـأكون جاهزا.

لو سئلت ذات يوم عمن أمتن له في هذه الدنيا بعـد ا العلي القدير، لقلت وكلّي يقين، حبيبي وقرة عيني ثاونا أولا، ثم صاحب الفضل الذي لا أنكره أبدا مهما حييت، الحسين بن فالح المراغي، والذي وفد إلى بغداد من بلـدة مـن أعمـال الخلافة تدعى مراغة، فثاونا هو الذي عطف علـى نفسـي بالمودة والرحمة، وأرشدني إلى كثير مما كنت أجهلـه قبـل ذلك، وكان لي بمثابة الأب والأهل، والنديم الصديق، والمعين الصبور على عذابات روحي وأوقات يأسي وقنوطي، ثم هو الذي ثبت نفسي على الإيمان، وأمدني بكل محبة وحنو. أمـا الحسين بن فالح إلى الحياة مرة أخـرى، وهـو ذاك الـذي ساعدني على البصر بعد عمى، والنطق بعد خرس، والسمع بعد صمم.

كنت كلما عقدت أوجها للشبه والخلاف بينهما، تعجبـتُ من نفسي، فما يجمعهما قليل نادر، وما يباعد بينهمـا كثيـر فادح، لكني كنت أدرك في النهاية أن لديهما الجوهر ذاتـه، وإن كان قد تموه واختفى بالخارجيات الشـكلانيات، وكنـت أدرك أن هذا الجوهر هو الذي جذبني إليهما، وعلقني بهمـا تعلّق النجوم بالسماوات، فالرجلان بداخلهما ما يسمو علـى هذي الحياة، فهما فيها وليسا فيها، وهما العائفان كل ظـاهر بارق، المهمومان بكل ما هو داخل باطن، بل هما يـدركان عبث الدنيا ولهو الوجود، فلا يهتمـان لعبوسـه أو يغتـران بسطوة عروشه، وهما في بعض من هيئات الزمن الشاغلة، فهذا في بيعة وكنيسة، وهذا في قصر الخليفة، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يصطرع على ما يتكالب ويصـطرع عليـه العاملون في مثل هذي الهيئات.

كان معاشنا ومبيتنا نحن الفحامين والوقادين في خزانـة الحطب والفحم، وكان عملنا أمام بيوت النـار والمواقـد لا ينقطع؛ لأن العمل بالمطعم لا يتوقف أثناء النهار أو الليـل، وإعداد الطعوم العذبـة، والمالحـة، والدسـمة، والحلـوة، والحامضة، والمرة، والقابضة، والحريفة لا يتوقـف أبـدا،

وكان جل العاملين في الوقايد، إما من الأسرى الذين لا رجاء فيهم ببيع أو متعة مثلي، أو من أولئك الذين حكم عليهم لأمر من الأمور لأزمنة طويلة، فكان العمل في الوقايد هو قضـاء لعقوبتهم، ويستفاد به للصرف على قـوتهم بتشـغيل طاقـة جسومهم.

أما الحسين بن فالح فقد ساقه قدره للعمل في الوقايـد، فهو لم يكن أسيرا، ولا مذنبا مثل الباقين، لكنه نشأ وتربى في مطبخ الخليفة، ولم يكن يعرف له في الدنيا بيتًـا ولا وطنـا غيره، فلقد تربى وعاش جل عمره في هذا الموضع، ويقـال أنه لم يعرف له أبا أبدا، جاءت أمه نازحة من بلادتها البعيـدة إلى مدينة الخلافة ومعها الحسين طفلاً رضيعا، ثـم ظلـت تقتات زمنًا من بيع خبز التنور في أسواق المدينة، فاشتهرت بصنعته وإجادتها له، حتى لقبت بين العوام بست التنور، فلما ذاع صيتها جلبوها للعمل في مطبخ الخليفة، وقيل أن والـد الخليفة الحالي صار لا يأكل خبزا إلا من عمل يديها، وأنهـا كانت تصنع له كل يوم ما يزيد من مدين من القمح وهو يعد من الشيء الكثير.

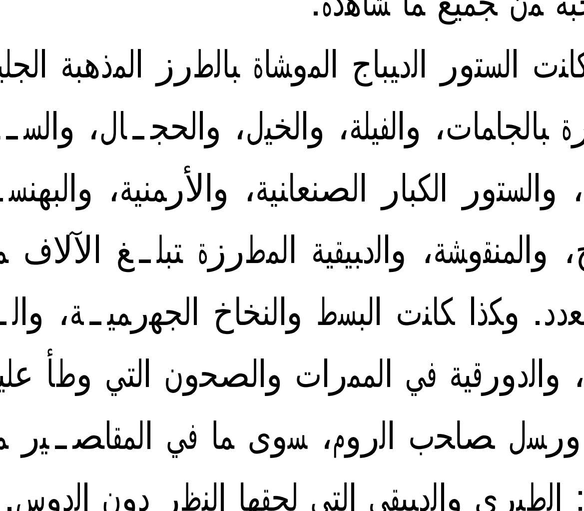
وهكذا تربى الحسين طفلاً يجري ويلعب بين أقدام الطباخين، والوقادين، وكلّ العاملين في المطبخ من خدم وعبيد، وظل هانئ العيش حتى وافى الأجل أمه ذات يوم فتيتم بعد أن ماتت بعلّة الفواق، وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تماديا كبيرا في الناس خلال سنة من السنين، وراح ضحيتها خلق كثير لا يحصى عددهم، فلما راحت، أشفق الناس ممن يعملون في المطبخ عليه واستبقوه بينهم، وصيروه وكأنه واحد من عيالهم، فتعهدوه بالرعاية والربابة حتى شب، فعمل في الوقايد من يومه، وقد كان مولعا لأمر لا يعرفه أحد بالنظر إلى النار واللعب بها، ثم إنه حذق في هذا الكار، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه، وكنت أتعجب في بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهويل والمبالغة، لكني، وبمرور الوقت، بعد أن خبرت عمل وقايد الطبخ، أدركت أنه يحتاج إلى مهارة، وشطارة، وحس، وذوق، وعلو في موهبة التمييز، والتقدير، والموايمة، والتخمين؛ وذلك في اختبار درجة النار، وشدة اللهب، ومناسبتها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ، فالساذج منها قد يفسد نوعا من الطبيخ

وقد يحسن غيره، فما يناسب الخشكنانج المصنوع من الدقيق والسكر واللوز المقشر المطحون، المبثوث بالكـافور ومـاء الورد قد لا يناسب الأسفيذباجة الخضـراء، ومـا يسـتلزم السفدية قد لا ينفع الفالوذج، وكان تنوع الطعـوم وتعـددها يحتاج إلى تنبه وتيقظ بالغين من العامل في الوقايد، فكل يوم كانت ترد للطهي أصناف غير التي كانت في اليـوم الـذي قبله، وقد حدث أن عددت عدد القدور الكبار التـي حـوت السكباجات، والحنطيات، والسلاقات فكانت أكثر من عشرين قدرا من الفخار عدا المتوسطة، وعدا قدور النحاس، وقلايات الطباهج، وكان أن أنضجنا يومها أهلاما مـن لحـوم البقـر وإحبارية سمك، ومأمونية، وجواذب الدجاج المعمولـة مـن الأرز والخبز تارة، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى، ومن الحلو مخ معمول بالسكر المعقود والعسل، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضافة إلى صنوف من الخبز كـالخبز الإفرنجي المسمى أفلاعموني، والخبز الفرني المرقد، وخبز القناوي، والخبز الماوي، والخبز المجمـر. وكنـت أجـدني بمرور الوقت مشدودا إلى الحسين بن فالح، على رغم أننـي عند بداية عملي معه توجست منه، ولم أقبل عليه، فقد كـان

غشوما عنيفًا لا يفتأ يأمر وينهى ويزجر، علـى نحـو بـه خشونة وفظاظة، حتى أنني عندما عاد في مساء يوم استقبال رسوم الروم، وحكى لنا – نحن الوقـادين – مـا رآه أثنـاء مروره حاملاً المجمرة ضمن الموكب، لم أنبس ببنت شـفة، وآثرت السكوت، والتلذذ بأطايب الطعام الذي قدموه لنا مـن بقايا الوليمة العظيمة والسماط المهول الذي مد لرسول الروم، ولقد حكى الحسين وقتها عما لا يمكن أن يصدق ولا يـدرك بعقل عن موكب هذا الرسول، وما بذل في سبيله بالقصـر؛ لإظهار عظمة خليفة المسلمين ومدى قوته وجبروته، فقـال: إن الخليفة رسم أن يطاف بمبعوثي ملك الروم، وكان شـيخًا وشابا، في جميع أنحاء القصر بعد إخراج العسـكر جميعـا منه، ولم يبق فيه إلا الخدم والحجاب والغلمـان السـودان، وعددهم سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف مـن البـيض وثلاثة آلاف من السود، أم الحجاب فزادوا عن سـبع مائـة حاجب.

وفُتِحت الخزائن للموفدين، والآلات فيها مرتبـة، كمـا يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور، ونُظـم جـوهر الخلافة في قلايات على درج قد غشيت بالديباج الأسود.

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها، كثر تعجبه فيها، وكانت شجرة من الفضة وزنها قد يزيد على خمس مئة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة، تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده.



وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيل، والجمال، والسباع، والطرد، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والبهنسية، السواذج، والمنقوشة، والدبيقية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد. وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية، والدار بجردية، والدورقية في الممرات والصحون التي وطأ عليها القواد، ورسل صاحب الروم، سوى ما في المقاصير من الأنماط: الطبري والدبيقي التي لحقها النظر دون الدوس.

وعلى الرغم من أنني أثناء ذلك كنت ما أزال متحفظاً تجاه الحسين بن فالح، إلا أنني شعرت بتباسطه وتلاطفه مع صبيانه ومن هم أدنى منه في عمل الوقايد، ولم يكن يغضب منهم حتى حين نعته أحدهم بالمبالغة والكذب، بينما كان يروي انبهار رسولي ملك الروم بكل ما شاهداه خصوصا لما

أدخلا إلى الدار المسماة بخان الخيل، وهي دار، كما قال، أكثرها أروقة بأساطين رخام، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس، عليها خمسمائة مركب، ذهبا وفضة بغير أغشية، من الجانب الأيسر خمسمائة فرس، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يد شاكري بالبزة الجميلة، ثم أدخلوها من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان – كما قال – تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم.

ثم أخرجوا إلى دار فيها مئة أسد: خمسون يمنة، وخمسون يسرة، كل سبع منها في يد سباع، وفي رءوسها وأعناقها السلاسل والحديد.

وبملازمتي للحسين الوقت الكثير خلال عملي معه في نوبات الليل، وجدتني أنجذب إليه شيئًا فشيئًا، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملاً ساهرا طوال ذلك الوقت وهو الريس المعلم الذي يعمل الجميع تحت إمرته، ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه، لكنني بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل حيث تجلب له المغنيات والقيان

ويتنادم معه الأفاضل من أهل العلـم والسـمار، وأصـحاب المغاني من العبيد والجواري الحسان، وخلال ذلك تقدم لـه أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشربة، وما نحو ذلك مـن النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة، لذلك يبقى الحسين ساهرا على ما تحتاجه سفرة الخلافة وصاحبها مـن مطالب ومآكل تحتاج الحرارة والإنضاج.

وفي ذات مرة، وبينما نحـن جالسـان أمـام الوقايـد بمفردينا، الحسين وأنا، إذ كان أقراني من تبعيته قـد خلـدوا إلى النوم، وإذا بالرجل الذي كنت أظنه غليظ القلب، يشـرع في الدندنة والغناء بصوت حساس شجي، ووجدت من أظنـه خشنًا غشوما يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلـى مذهب، بسلاسة وطلاوة، وكأنه طارب قدير، فلمـا وصـل بغنائه إلى الحد الذي قال فيه:

ألا رب هم يمنَع النوم دونه بسطتُ له وجهي لأكبتَ حاسـدا وشوقٌ كأطراف الأسـنةِ فـي الحشَـــــــــــــــــا		أقام كقبضِ الراحتين علـى الجمـــــــــــــــــر وأبديتُ عن ناب ضحوكٍ وعـن ثغـــــــــــــــــــر ملكتْ عليه طاعـة الـدمع أن

وجدتني لا أتمالك نفسي وقد هزتني الكلمات وأسكرتني النغمات، وحلّقت بي المعاني، فتركت لروحي العنان ورحت أبكي وأنتحب حتى أخرجت ما حبسته في قيعان نفسي من ألم مرار، وقد أصـبحت دون القـدرة علـى ضـبط الـنفس والاصطبار.

فلما وجدني الحسين باكيا ترك ما بيده، وكـان يراقـب عكيكة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصا في هذه الليلة، ثم إنه التفت إلي وبدا مدهوشًا وقد فاجأه نحيبي، وسرعان مـا تحرك نحوي وراح يربت على كتفي وكأنه يفكر في أمر من الأمور، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة، أخرج منها كريـة ذات لون أخضر مكتوم، طلب مني ابتلاعها، فلما تراجعـت متسائلا عن كنهها، وقد تمنعت ورفضت تذوق ما لم أعرفـه وأخبره، قال بجد:

- ابتلعها ولا تخف، فإنها سوف تعينك وتريحك كثيـرا مما أنت فيه، إنها حشيشة الفقراء يا بنـي، ومـا أدراك مـا حشيشة الفقراء؟!. ألم تسمع من قال فيها:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدرٍ   معتّقة خضراء لون الزبرجدِ
هي البكر لم تُنكح بماء سحابةٍ   ولا عصرت بالرجل يوما ولا اليدِ
ولا عبثَ القسيس يوما بكأسها   ولا قربوا من دنّها نفس ملحدِ
ولا أثبت النّعمان تنجيس عينها   فخُذها بحد مشرفي مهنّدِ
وفيها معان ليس للخمر مثلها   فلا تستمع فيها كلام المفندِ
ستبدي اك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم يزودِ

فلما سمعت ما قال، وكنت لم أفتهم إلا بعضه لقصـور عربيتي حتى ذلك الوقت، زاد ترددي، لكنه ثبت عينيه، فـي إصرار بعيني، وكنت ما أزال قانطًا وروحي فاقدة لكل همة وفي أسفل سافلين، فمددت يدي إلى ما قدمه لي الحسين، وقد تمنيت أن يكون سما يفنيني ويأتي علي، فأموت وأستريح من عذابات هذي الدنيا، ثم إني ابتلعت الكرية واستعنت على ذلك بشربة ماء حار كما أمرني، بينما هو ينظر إلي متأملاً إياي، فما لبثت إلا قليلاً، حتى وجدت روحي قد هدأت، وشـعوري قد راق وشَفّ، وشملني صفاء برواق، بينما لهيب الجمـرات تشتد حمارته، وتستحسن عيني منظره وحلاوته، فلما رآنـي

الحسين على هذي الحال، ضحك وراح يربت علي، ثم أخـذ يغني مرة أخرى، ويقول:

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها   لها وثَباتٌ في الحشَا وثباتُ
تؤجج نارا في الحشا وهي جنّة   وتُبدي لذيذ العيشِ وهي نبات

قاطعته وأنا أقول بهدوء:

- فليسامحني الرب، ولتغفر لي ثورتي يا معلمي، فأنـا تنتابني أحوال من صميم اليأس حينًا، فلا أدري لماذا يتوجب علي مواصلة الحياة، وأن أتحمل مزيدا من الألم والكرب. ثم إنني فضفضت بكلام كثير نحو هذا، وكأنني أرغب في البوح بكل هواجسي لأستريح.

ظلّ الحسين مطرقًا إلى الأرض، مستمعا إلى كلمـاتي حتى أفرغت كل ما بداخلي وأنا أحكي له قصتي، وكل مـا عنيته، فلما انتهيت وكان هناك شيء أشبه بالخدر يسري في أعطافي، فتنحل معه وتسترخي أوصالي شيئًا فشـيئًا، رفـع رأسه، وقال:

- اسمع يا ولد. أنت في حاجة إلى التسـرية والتلهـي، ويجب أن تتلهى بشيء، فلو ظللت على هذي الحال فلسـوف تطق وتموت بالفعل.

ازدرد ريقه، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة ماكرة، قبل أن يضيف:

- هل تعرف النساء؟. سآخذك إلى بيت الخنـا. هنالـك لابد أنك سوف تستريح.

قلت متسائلا بدهشة:

- وما بيت الخنا هذا يا سيدي؟.

ضحك بشدة، فتحركت تفاحة آدم المتضخمة أسفل رقبته بسرعة، وكأنني قلت ما يضحك، ورد:

- منزل هو كسلّة الفاكهة المشتاهة، تقلب فيهـا حتـى تختار ما تشتاق إليه من صنوف النساء حسب ميلك ورغبتك فيه البيضاء، والصفراء، والسـوداء، والحمـراء، فتقضـي حاجتك وتطفئ شهوتك؛ حتى تستريح نفسك ويضـيع قلقـك وتوترك.

- تملكتني سورة غضب شديدة، على رغم ما أنا فيـه من خدر وضعف، حتى أنني نسيت أنه معلمي في الوقايـد، فقلت بغضب:

- ملعون أبو الشيطان، ماذا تظنني؟. ألم أقل لك أننـي كنت قيما في كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة؟!. أتظن أنني

واصل إلى هذا الحضيض؟. ثم إنني لم أتمالك نفسـي وقـد داخلني شعور بالضياع، فرحت أبكي من جديد.

أسقط في يد الرجل وشعرت أنـه ازداد إشـفاقًا علـى حالي، ووجدته يهمس بحنو:

- وا   إنك لحنبلي أشد من ابن حنبل نفسه. اسمع أيهـا الولد الطيب، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية؟. هذا شيء مناسب تتلهى به، ويحسن كلامـك الركيـك، ونطقـك الملكون بالقبطية، وحتى تكف عن قول إديني، وديني، البتاع البتوع. راح يضحك مرة أخرى، وهو يقلّدني عندما أتكلـم، بينما أخذتني الفكرة فتوقفت عن البكاء، وبدأت أفكـر فيمـا يقول. صمت قليلاً وتساءلت:

- ولماذا أعلم العربية با   عليك وأنـا قبطـي؟. أنـا أستطيع التفاهم بها الآن، ولا توجد لدي مشكلة في الكلام مع كل من حولي هنا، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه.

رد الحسين وهو ينظرني متأملاً:

- لا أعرف. أنا أحاول إيجاد سبيل يخرجك مما أنـت فيه؛ ولتشغل نفسك عما بنفسك من هموم وآلام، وقد أستطيع

أن أعلمك شيئًا يسيرا كل ليلة، أثناء فترات صـبورنا علـى النار والوقايد حتى تنضج وتستعر.

ثم إنه تحرك مسرعا وأخـرج العكيكـة مـن الفـرن، فتعجبت من نظرها، ولم أكن قد شاهدت طعاما مثل هذا من قبل، فلما رآني أحدق فيه مليا وقد ظهرت دهشتي، خصوصا عندما جاء خادم وأخذها إلـى المطـبخ كـي يهيئهـا فـي الصحاف، قال:

- لا تدهش، فكل يوم يمر سوف ترى فيه عجبا، فهـم يطبخون للخليفة من أطايب كل مطـابخ الأرض، والعكيكـة هذه من الطبخات النادرة التي لا تطبخ إلا هنا، ولا يعرفهـا حتى كثير من الخواص، وليس العوام فقط، وصـنعتها كمـا شاهدتهم يصنعونها ذات مرة في المطبخ، أن تؤخـذ الإليـة الطرية، ثم تقطع وتسلى ويخرج حمها، ثـم يؤخـذ اللحـم السمين، يقطع صغارا ويلقى على الإلية المسلية ويحرك حتى يتورد، ثم يجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح، ويترك حتـى ينضج وينشف، ولا يبقى من مائيته سوى الدهن، وتلقى عليه كسفرة يابسة، وكمون مدقوقين دقًا ناعما ودار صيني، وفلفل مسحوق، ومصطكى، ويحرك، ثم يؤخذ من اللبن الفارسـي

بقدر الحاجة فيجعل فيه الثوم المدقوق، ويطرح فـي القـدر، ويترك حتى يغلي، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلما فعلت منذ قليل وتترك على نار هادئة حتى ينعقـد اللـبن ويقـذف دهينه أعلاه، ثم يذر يسير من دار صيني مسـحوق سـحقًا ناعما، وتمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة وترفع.

ثم إنه راح يدندن من جديد حتى غلبه النـاس، فانقلـب على ظهره ونام في موضعه على الأرض، بينما بقيت ساهرا أفكر في كل ما قال وأنا أحـدق فـي الجمـرات ولهيبهـا المتراقص أمامي.

صارت معرفتي بالحسين بن فالح تتوقف شيئًا فشـيئًا، فكلما مرت الأيام توغلت في دروب نفسه، وكشفت له عـن آبار روحي. كان قد أخذ بتعليمي العربية، وكنت قد تعلمـت منها شيئًا على يد عزيز عيني ثاونا في بر مصر قبل ذلـك، وقد حمدت ا كثيرا؛ لأن ما أدركته منهـا أعـانني علـى محنتي التي عشتها بأنطاكية، وكانت العبارات التي ألممـت بها هي معيني وسبيلي في تفهم الذين التقيتهم هناك.

غير أن الحسين بن فالح المراغي هو الذي جعلني أتقدم وأحرز أشواطًا في تعلم العربية، فقد ظل صبورا علي مثابرا منذ البداية، بينما كان يعلمني رسم الحروف بخـط مـوزون جميل، وهو الذي أتاني بداوة وحبر كان يضعه فيها بعـد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتبقى بالوقايـد بعـد خلطـه بالصمغ الحضرموتي الجيد، وكنا نسهر معا كل ليلة، نتسامر ونتحادث حينًا، ثم يعلمني شيئًا ونحن نتعاطى حشيشة الكيف، وهكذا صرت أتقدم شيئًا فشيئًا، وأدخل عالم الحسين ابن فالح الذي بهرني، وصيرني كالمسحور الصـاعد علـى درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوبا رغمـا عنـه إلى الدرجة التالية، وقد بات يكشف لي بين الحـين والحـين

عن وجه من وجوه نفسه العديدة التي لا تستبين وتتموه في ذلك القناع الجاف المرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهر لكل من يعمل معه.

كنت مع مرور الأيام، أدرك أن بداخل معلمي تمرمرا مزمنًا يفسد عليه أية سعادة يرومها، وأي سرور يكون عليه، كان بين الحين والحين يسرب لي بعضا من عذاباته بسبب عدم وقوفه على حقيقة أبيه، وبدا لي أنه لم يغفر لأمه أبدا، ليس بسبب ذلك؛ وإنما لموتها المبكر، وقد غدر به وتركه وحيدا في هذه الدنيا، فكم تمنى أن تظل إلى جانبه لا تذهب، حتى لو أتت له بألف شقيق، أو شقيقة من طريق الإثم والحرام، وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثور على أبيه، والخروج من بغداد إلى موطنه الأصلي بمراغة باحثًا عن ذلك الأب المجهول ليطفئ نار عذاباته؛ لكن الحسين لم يكن يخرج من القصر – في الحقيقة – إلا ليزور بيت الخنا في بغداد، فيترك نفسه للقيان من كل لون وجنس، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه، ولكن إلى حين، وفي مرة من المرات، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن التقلب بين مثل

ذلك الطراز من النساء؟. كان السؤال قد خرج مني عفـوا، ودون ترتيب أو تدبير سابق، فكان أن داخلني حرج وصرت كمن يرغب في التراجع عنه؛ إذ شعرت أنني قـد جـاوزت حدي، وأنني أدس أنفي فيما لا يخصني، غيـر أن الحسـين أراحني بجوابه وأوقعني في معضلة روحية جديـدة معـه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيرا في بعض الأمـور، إلا أننـي لا أستطيع تجاهل معايبه والجانب المعتم الغامض من روحـه، والأقرب إلى الوثنية أو الوحشية الأولى التي ظلـت علـى حالها دون سموها إلى الإنسي السامي، فقد ضحك الحسـين طويلا، وكأنني سألته ما يضحك، فلما انتهى كح وقال بجد:

- أتزوج؟. أنا لا أريد أن أتزوج أبدا يا بدير، فالحقيقـة أن بي شيئًا يجعلني أرغب في كل نساء الأرض، لا واحـدة، ولا اثنتين، أو ثلاث، أو أربع يكفيني. أحيانا أقـول لنفسـي: إنما ذلك بسبب أمي، ربما كنت أحاول القصاص منهـا فـي سرمحتي الدائمة مع النساء، ومرات أخرى أقول: إنمـا أنـا أبحث عن امرأة على شاكلتها ولا أجـدها أبـدا. لا أدري.. لكني ما أظن لن أتزوج أبدا مهما طالت أيامي في هذه الدنيا.

بدا لي الحسين، وهو يقول ذلك، وكأنه زنديق كافر، أو إنسان يتراوح دوما بين الإيمان والكفر، أو الرذيلة والطهر، رحت أحدق بعينيه علّي أجد ما يشفي غليلي ويرسيني على حقيقة أمره، غير أنه فاجأني بسؤال صدمني، إذ قال:

- وأنت؟. لماذا لا تتزوج يا شاطر وتكفّ عن نسيان آمونة وسويلا؟. وا لو أخذتك مرة معي إلى بيت الخنا، فلسوف تدمن الأمر إدمانك لحشيشة الفقراء الآن، ثم أليس لك مثل ما للرجال؟ أليست بك حاجة إلى النساء، أم إنك عنين بالميلاد، ولا رجاء فيك بهذا الأمر؟.

غضبت منه للغاية، وقلت له: إن هذا ما لا يجوز من الكلام معي، فأنا لا أرغب الخوض في مثل ذلك. وندمت أشد الندم على سؤالي الذي أتاح له هتك ستر الحدود بيني وبينه، فلما وقف على تكدري وضيقي، ربت على كتفي واعتذر بكلمات تطيب خاطري، وقال: هيا أعلمك شيئًا جديدا هذه الليلة. كنت في الحقيقة أخاف أن أكاشف روحي بسؤاله، قبل أن أواجه بإجابة ما، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتي في النساء، فعلى الرغم من كل ما حدث، وعلى رغم مرارتي، وتجاريب الأيام الصعبة معهن، ولوعتي على آمونة وسويلا،

وقسمي لنفسي أن لا يكون لي أمر مع أية امرأة في الدنيا بعد ذلك أبدا، إلا أن رغبتي بهن كانت تداهمني بين وقت وآخر، كنت ألاقي آمونة وسويلا في أحلامي مرات، فيحدث لي مـا يحدث للرجال، فأفيق وقد أدركـت أن الشـيطان أغـواني وورطني في النجاسات، فأنقبض وأظل مهموما طيلة يومي؛ حتى يكون وقت المساء فأنغمس في عملي، إلى أن يـدركني الحسين بحشيشة تنسيني ما كنت عليه. والحق يقال أنني قـد بدأت أتعود على هذه الآفة أتعذب حينًا لعدم وقـوفي علـى محروميتها، وبت لا أحيد عنها؛ لأنها تريحني وتدخلني فـي جنات تتهيأ لي وكأنها جنات عدن، وكأني أراها رؤية العين وألمسها لمس اليد، بل أشمها وأتذوق ما فيها، فألبـث علـى هذي الحال ساعات من الوقت، أرفل في الرضـا والسـعادة حتى أفيق.

كانت الكتابة قد أزالت عن عيني غشاوات كثيرة، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا، ضمن تدبري لأحوالي، بل كان ذلك سببا في زيادة طلبتي للأسئلة؛ لمعرفة أحوال الخلق والعـالم، ولا أدري، كيف كان يتم ذلك؟ فالحسين بن فالح كان يدفع بي من سؤال إلى سؤال، وكان تعليمه لي بابا فتحه لألج منـه إلـى

أبواب أخرى، أدركت من خلالها أمورا عدة، بما فـي ذلـك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت أظن أن الحسين يبتعـد عـن القصر حينًا، ليزور بيوت الخنا، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين قـد أدركـوا أمـه وقـت اشـتغالها بالأسواق، لكنني تفطنت إلى أن الرجل كانـت لـه شـؤون أخرى بالمدينة، فهو ينتمي إلى جماعة من الناس تهدف، كما يقول، إلى إقامة العدل على الأرض. لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الجماعة، لكن الحسين كان يحادثني طويلاً عن أحـوال الناس في مدينة الخلافة، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم، بينما هنا في القصر تبذل الأطعمة والمآكل على قلة من حشم وخدم وجواري الخليفة، الغارق فـي ملذاتـه، والعائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية، وكان يقول لـي: إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر؛ فـلا السـواد، ولا البياض، ولا الغني ولا الفقير، ولا الجنس ولا الأصل، هـي أسباب للتفريق بين البشر، وباعث لتسـلط بعضـهم علـى البعض الآخر، وكان يحكي لي كثيرا عـن نبـي المسـلمين محمد وعن الإمام علي ابن عمه، وكيف كانا ورعين عادلين، أقاما الإنصاف بين الناس، ولم يكن هنـاك معيـار للتمييـز

لديهما غير تقوى ا والورع والصلاح، وكنت عندما أخلـد إلى نفسي قبل النوم، أو عندما أنصرف وحدي لأمـر مـن أمور الوقايد، أفكر في كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما في ديني من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما في الإسـلام مـن معان ودلالات، وكنت أتوصل في النهاية، إلى أن الرب، هو رب كل البشر أجمعين، وأن جوهر كل ديانة ما هو إلا هداية البشر، ودفعهم إلى طريق السـلام والطمأنينـة، وصـعود بمداركهم الوحشية إلى مراتب إنسية سامية، ثم إن الحسـين ارتأى ضرورة تعليمي القرآن حتى أتمكـن مـن العربيـة، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ؛ فأخذ يحفظني بعضا من آياته، بعد أن أعلمني أنه مسموح لغير المسلمين من الملـل الأخرى بقراءته والاطلاع عليه؛ شرط أن يكونوا طـاهرين بعيدين عن كل دنس ووسخ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنـة الفرقان، وقد وجدت في آياته ومعانيها سلامة وعبرة، وبـدأ قلبي ينفتح للإسلام شيئًا فشيئًا حتى بدأت أرغب في الإسلام، والحق يقال؛ فلقد ظللت مترددا متشككًا وقتًا، بل بقيت روحي معذبة حائرة بينما كنت أسأل نفسي الأسئلة وأتمثـل أمـامي عزيز عيني ثاونا وهو يجيبني عليها، وكثيرا ما قلت لنفسي:

لو كان ثاونا مكاني فإنه لابد أن يؤمن بما آمنت به، ويـدخل في دين الإسلام مثلما أرغب وأريد، ثم إنني عنـدما كنـت جالسا وحدي أمام الوقايد في نهاية ليلة من الليالي أفكر محدقًا في النار، تذكرت ما قاله لي ثاونا ذات يوم، من أنه قرأ فـي إنجيل قديم جدا عندما كان في دير بصحراء القلزم – وهـو من الأناجيل المرفوضة في الكنيسة الآن – السيد المسيح ذكر لتلاميذه أن ابن الموعد هو إسماعيل؛ وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيا المنتظر، بل أكد أنه ليس أهلا لأن يحـل سـيور حذائه وأن هذا المسيا هو محمد نبي المسلمين، ومن علامات ظهوره سقوط عبادة الأصنام، واستقرار غمامة بيضاء عليه عند ارتحاله من موضع إلى موضع، وأن الكنيسة رفضـت هذا الإنجيل، المسمى إنجيل برنابا، والمحتوي على رسـالة برنابا هذا، وعلى جزء من كلام راعي هرمس، إضافة إلـى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى.

كانت أفكاري قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونـا هـذا، وبقيت وقتًا جامدا أفكر في معنى كل ذلك الكلام، وبينما أنـا جالس على هذي الحال، إذ شعرت وكأن يدا قد لمست كتفي لمسا حانيا خفيفًا، فالتفت لأرى من ورائي؛ إذ كنت مدركًا أن

كل من حولي نائم وحتى معلمي الحسين بن فالح، فتعجبت إذ لم أر أحدا واقفًا خلفي، وإذ استدرت لأرى، سـمعت همـس ثاونا قويا واضحا في أذني: لماذا أنت خائف بـا عليـك. افعلها وتوكل على ا .

لا أدري هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذي أعلنـت لنفسي فيه دخولي دين الإسلام، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هي التي دفعتني دفعا إلى ذلك؟. إن اللحظات الفاصـلة في الحياة هي أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقـين، فهـي ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر، وتتخـالط فيهـا الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات، وتضـيع فيهـا الإجابات مع الأسئلة: متى؟. وكيف؟. ولم حدث هذا؟. إنهـا البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت، وقد اكتملت ليلتي بما لم أكن أفكر فيه أو أنتويه، إنمـا هـو قُـدر لـي، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه.

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قر عزمـي علـى أن أُنبـئ الحسين بن فالح برغبتي في إشهار إسلامي عندما أفيق، وكنا قد تعاطينا حشيشة الفقراء معا قبل أن ينام، ولا أدري كم من الزمن نمت؟، أو كيف مر الوقت وأنـا نـائم؟؛ فقـد أفقـت مذعورا بينما الحسين يهزني بعنف، وأصوات الديكة بحظائر القصر تخترق مسامعي، وهو يقول لي:

- بدير.. فز بسرعة، إنهم يطلبـون مجمـرة جديـدة للخليفة؛ لأن ما لديه في مجلسه من نار قـد صـفا وانطفـأ وقارب على الانتهاء.

- قمت مهرولاً بسرعة، أحضرت المجمـرة، ورحـت أضع الجمرات فيها بكماشة النار النحاسية، التي هـي علـى هيئة فك أسد، وبينما كنت أوشك على الانتهاء من ذلك وأهم بارتداء نعلي للذهاب، جاءني صوته حازما آمرا:

- تهيأ ولا تتهيب.

لم أع المقصود بعبارته؛ إذ كنت ما أزال بـين النـوم والصحو، لكني سارعت الخطى وراء الحارس الذي جاءنـا طالبا النار، والمجمرة في يدي أحملها بكل احتراس وتنبـه، ورحت خلفه أجتاز دهليزا إثر دهليز مهتديا بنور الشعلة التي

يحملها، ثم إنني هبطت أفنية وفسحات وصعدت سلالم خلفـه، حتى وصلنا أخيرا إلى موضع عليه باب مهيب التمعت فضته وذهبه على ضوء شعلة الحارس، بينما وقف ديـدبانان لـم يسمحا لنا بالاقتراب من ذلك الباب، بل راح أحدهما يطرقـه طرقات حيية، وتراجع خطوات إلى الخلف مشـيرا إلـي أن أتقدم، وبينما هممت بالخطو، إذ بالباب ينفتح لتنبعـث مـن ورائه أصوات غناء وطرب، بينما شادية يتصـاعد صـوتها سحرا ودلالا وهي تنشد:

يا ليلُ دم لي لا أريد صباحا   حسبي بوجه معانقي مصباحا
حسبي به بدرا وحسبي ريقه   خمرا وحسبي خده تفاحا

وما هي إلا ومضة زمان، حتى استبانت عـن الفتحـة المواربة للباب جارية لم أر أحسن منظرا وقد امتثلت أمامي، ولا شيء عليها غير غلالة رقيقة مقصبة وقدمت كوزا مـن لجين ما كان إلا يدها لتتناول المجمرة مني.

لن أدرك أبدا، مهما مرت بي الأيام، هل كنت أعـيش الحقيقة خلال ذلك الوقت، أم أنني كنت في فردوس ونعـيم؟. هل كانت حشيشة الفقراء هي التي هيأت لي ما تهيأ، أم أنها كانت الحقيقة متجلية عيانًا لكل من رأى وشـاف؟. فصـور

الجارية بدت لي على نحـو نـوراني لا يمكـن أن يكـون جسدانيا، خصوصا وأنها بدت لي خلال وهلة مـن الـزمن وكأنني رأيتها قبل ذلك. وقفت متسمرا هنيهات، أشحذ ذهني غير مصدق، وفجأة تذكرت منامي الذي كنت قد رأيتـه ذات مرة وأنا على الحراقة في البحر وقت إبعادي عن بر مصر، فلم أتمالك نفسي وكاد أن يغمى علي؛ إذ أدركـت أن هـذي الجارية ما هي إلا الفتاة التي كانت تدفعني في الماء إلى البر وأنا لا أعرفها، فها هو حالك الليل المنهمـر شـلالاً حتـى الردفين على بياض جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة، وها هو المبسم الياقوتي ينفرج عن السن الوضاء الذي رأيته فـي منامي.. أما العينان فكانتا النار التي أحرقت حسـي عنـدما رأيتهما تلتمعان بغزير الخضار بينما هي تنظر إلي، فشعرت بدوران الأرض تحتي بينا راح بركان يثور بدمي، وريـاح تعصف بصدري، وبدلا من سقوطي على الأرض بما أحمل في يدي، وقد شملتني زلزلة جوانية عنيفة، وقد رأيت نهديها وأوشكت على ملامستها والقبض عليهما لأهصرهما بيـدي، وجدتني ودون أن أدري أمد راحتي ببطء إلى جمرات النـار المشتعلة، وقد تسمرت في مطرحي، وتجمد نـاظري علـى

البدر النوراني المشعشع أمامي، ثم رحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف، وقد توقّدت بـداخلي واشـتعلت جمرات من نار أقوى وأشد، وصرت كمن مسه مـس مـن شيطان أو جان، فلم أشعر بأدنى حرقة أو ألم، ولم تند عنـي آهة أو صرخة، وكأن ما حفنته وقبضته لم يكـن إلا قـبض ريح أو زلال ماء.

نظرت إلي الجارية مذهولة – وكذا كل من كانوا حولي – ما إن رأوا يدي قابضة على الجمر، وقد بدأت راحتي في الاحتراق والتهرؤ، فما لبثت الفتاة قليلاً إلا وصرخت صرخة عظيمة وكأن الصيحة قد أدركتها؛ لتسقط على إثرها مغشـية عليها أمام الجميع.

لا أدري كم من الوقت مر علي وأنا على هذه الحـال، كل ما وعيته بعد ذلك هو أن رجلاً ظهر في جمـع حولـه، وعليه طيلسان مذهب، ما إن رآه الديدبانان والحارس، حتى خروا ساجدين جميعا، فأدركت أنه الخليفة، لكني بقيت علـى ما أنا عليه، لا أبالي بكل ما حولي، ولا أشعر بلهيب النـار تأكل جلدي ولحمي، فما إن رآني الرجل على هذي الحـال،

والجارية ممددة على الأرض، حتى هتف بصوت مهـزوز، أحسنت هزته قوة المفاجأة، وقال بكل هيبة ووقار:

- فليرحمك ا ، وليغفر لنا أيها الشاب المسكين. اذهب أيها العبد. أنت طليق، والجارية لك.

ثم تركنا ودخل من حيث جاء.

خرجت من قصر الخليفة في صبيحة اليوم التالي، أصطحب الجارية، ومتاعي القليل وقد كومته في بقجة، وكان كل ما أملكه: قليل من الدريهمات أعطوها لي وقالوا أن الخليفة نفحني إياها مع الجارية، إضافة إلى رقعة موقّعة وممهورة بما يثبت أن الجارية ملكي يجوز لي التصرف فيها مثلما أشاء، فيحل لي الاحتفاظ بها أو بيعها أو وهبها، وكان معلمي الحسين بن فالح قد سارع بمداواتي بعد رجوعي إلى الوقايد، فدهن يدي بزلال بيضة ودهن صبار ورشّ عليها بعضا من طحين، وعلى رغم آلامي التي كانت لم تزل قوية، حاضرة في راحتي، إلا أنني كنت سعيدا بعتقي وعودة حريتي، وفي ذات الوقت داخلني شعور بالتعاسة بسبب فراقي الحسين بن فالح، وغلب همي لأنني مغترب في هذه البلاد، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين، وها أنا مضطر إلى مفارقته منذ هذا الحين. والحقيقة، لقد خشيت أن تعصف بي التعاسة والضياع، فأهيم على وجهي مرة أخرى، مثلما كان الأمر في مبتدأ زماني، وقبل التحاقي بكنيسة قصر الشمع.

غير أن الحسين – أيده ا – رتب لي كل شيء، فبينما هو يودعني ونحن سائران معا إلى باب القصر، أعطاني

مكتوبا لبعض أصحابه ونصحني بالتوجه إليهم في ناحية من نواحي المدينة، وقال أنهم سيقدمون لي كل عون، وسيكونون بالنسبة إلي بمثابة الإخوة والأوفياء.

ثم إنهم أعطوني مكتوبا بالأمـان مـن الخليفـة، لـئلا يعترضني حرس، أو معترض من أولي الأمر في المدينة، أو أي من أهل الاختصاص، فسرت بقلـب وجـلٍ مخطـوف، وخلفي الجارية تتبعني، وكان بي كثير من تخبط وحيرة، فأنا لا أعرف إلى أين أتجه، وهل أتقدم يمينًا أم يسارا، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للتطلع أو النظر إلى الجارية، بينما هـي تسير صامتة لا تقول شيئًا، فلما غاب قصـر الخليفـة عـن بصري التفت إليها، وكنت قد فكرت في أمرها طويلاً، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتي، وبذلت طاقة كبيرة لتعيننـي على الكلام:

- تستطيعين مفارقتي هنا. أنت حـرة مـن الآن، ولا حاجة لي بك. فغرت الجارية فاها، وتوقفت عن المسير، وقد أخذت بما أعلمتها به، وقالت:

- إلى أين أذهب؟. أنا لا أعرف أحدا في هذه المدينـة، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق في قصر الخليفة. قل لي

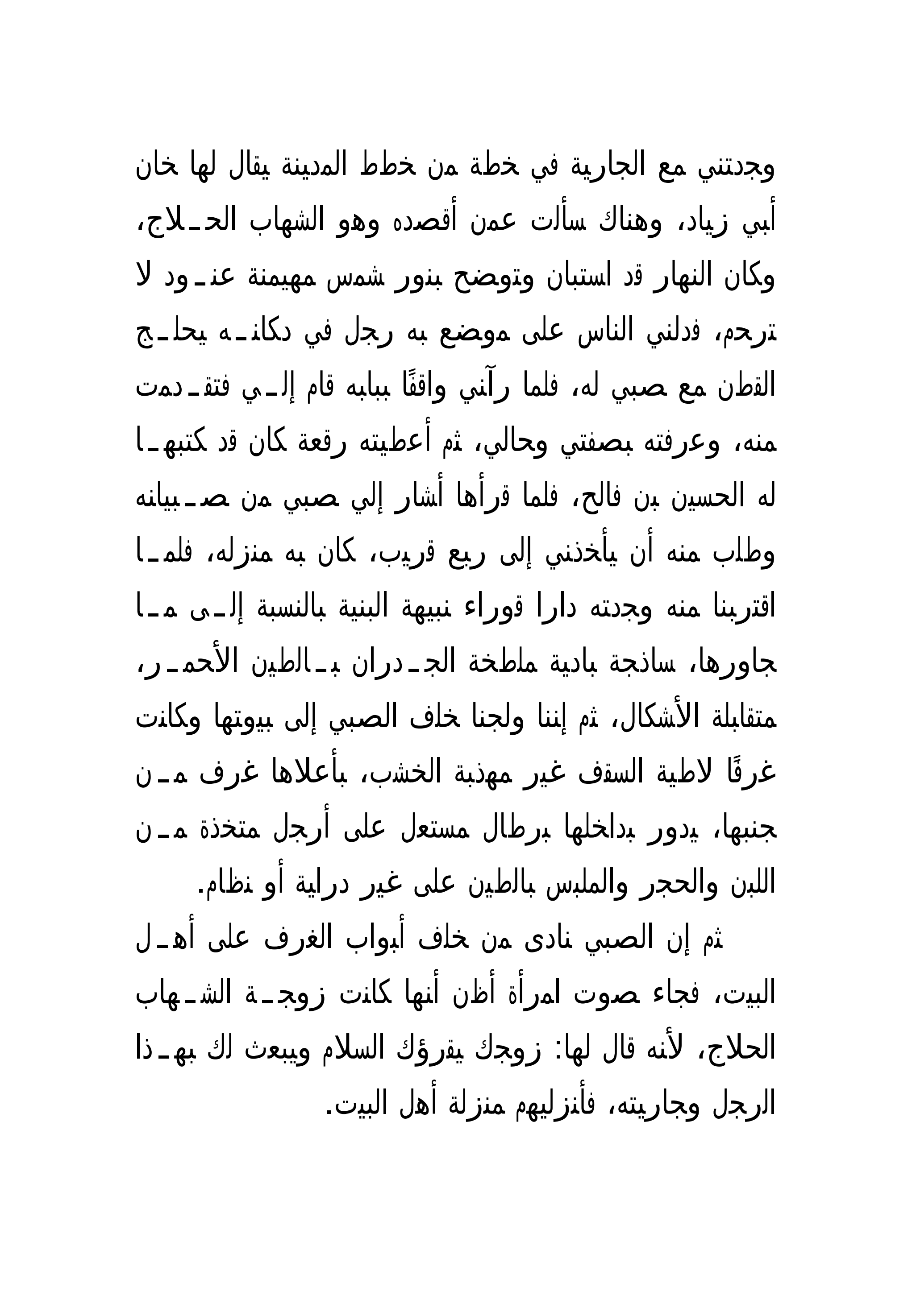
با عليك ماذا أفعل يا سيدي؟. بربك أبقني معك، ولسوف أكون أمتك وأينما كنت وإلى الأبد.

أسقط في يدي، وشعرت وكأنني قد وقعت في ورطة حقًا، فقد كنت بعد عودتي إلى الوقايد، إثر ما جرى لي على باب الخليفة، قد أصبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور، على الرغم من مواساة الحسين بن فالح لي ومحاولته طمأنتي، وتندره علي لفوزي بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط، ناهيك عن أنها من جواري الخليفة الخواص، وهكذا بتّ ولا رغبة لي في شيء من الدنيا، خصوصا جنس النساء، وقد أدركت بعد كل ما جرى في الليلة الفائتة، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد، وكيف أن هذه الشهوات تسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته في لحظات سريعة، فكرهت أن تكون نفسي على هذا النحو من الضعف والانحطاط، وعاهدت ربي ألا أفعل ذلك بوديعته أبدا، فلا أضع روحي في موضع التحقير والإذلال، لذا وجدتني أقع في حيص بيص ولا أدري ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقًا، لكني رفقت بها وبحالها فقلت:

- إذن.. اذهبي معي إلى حيث أنا ذاهب، لكن أنت من الآن بمثابة أختي ابنة أبي وأمي، ولن ألمسك أبدا مهما كان الأمر، وليقدر لك ا كل خير، ويعينني على نفسي وما تقدمه الأيام.

سرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث، فعرفت أن الجارية اسمها ريطة، لكن هذا ليس اسمها الأصلي، فلقد خُطفت وهي طفلة صغيرة في غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التي كان يقيم بها أهلها من البدو والمرتحلين، من مكان إلى مكان، وهي تذكر أمها جيدا وما فتئت تحن إليها بين حين وآخر، وكانت أمها تناديها تمارا، وقالت لي أنها لا تعرف لها أهلاً منذ أن بيعت لنخاس ببغداد، وظلت تنتقل من سيد إلى سيد، حتى وهبها آخر رجل كانت عنده كهدية إلى الخليفة، فجعلها في مجلسه؛ بسبب مهارتها وحذقها في الدق على الآلات، وصوتها الحلو في الطرب والغناء.

تتبعت الخريطة التي رسمها لي الحسين المراغي بدقة، فقطعت دروبا وحارات منعطفًا ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرات، ثم إنني عبرت جسورا على النهر، وأخيرا



وجدتني مع الجارية في خطة من خطط المدينة يقال لها خان أبي زياد، وهناك سألت عمن أقصده وهو الشهاب الحلاج، وكان النهار قد استبان وتوضح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم، فدلني الناس على موضع به رجل في دكانه يحلج القطن مع صبي له، فلما رآني واقفًا ببابه قام إلي فتقدمت منه، وعرفته بصفتي وحالي، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبها له الحسين بن فالح، فلما قرأها أشار إلي صبي من صبيانه وطلب منه أن يأخذني إلى ربع قريب، كان به منزله، فلما اقتربنا منه وجدته دارا قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى ما جاورها، ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، ثم إننا ولجنا خلف الصبي إلى بيوتها وكانت غرفًا لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنبها، يدور بداخلها برطال مستعل على أرجل متخذة من اللبن والحجر والملبس بالطين على غير دراية أو نظام.

ثم إن الصبي نادى من خلف أبواب الغرف على أهل البيت، فجاء صوت امرأة أظن أنها كانت زوجة الشهاب الحلاج، لأنه قال لها: زوجك يقرؤك السلام ويبعث لك بهذا الرجل وجاريته، فأنزليهم منزلة أهل البيت.

ما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مستورة لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كحبتي لوز، فحيتنا وسـألت الصـبي أن يسبقها ويصعد بنا إلى واحدة من غرف البيت حتى نعـرف مستقرنا ونستريح، فلما دخلنا الغرفة، ذهـب الصـبي إلـى المرأة وغاب قليلا، ثم عاد إلينا بصفحة عليها بعـض مـن سفرجل، وتفاح، وشراب ورد لا أظنني شربت أطيب منه في يوم من الأيام.

كنت خلال ذلك، ما أزال أفكر في أمر الجارية، وبـت حائرا أتراوح بين التخلي عنها والإبقاء عليهـا، فلمـا جـاء الشهاب قرب حلول المساء بعد فروغه من عملـه ودكانـه، جلس إلي، فبحت له عما بنفسي تجـاه الجاريـة، وأخبرتـه برغبتي في مفارقتها، على نحو لا يسبب لهـا ضـررا، ولا يلحق بها مكروها.

فكر الشهاب قليلاً، ثم أشار علي أن أترك الأمر بضعة أيام حتى يأذن ا في أمر الجارية، ثم إنه قام وأخذها إلـى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها، ووعـدني بـأن يجد لي من العمل في الأسواق ما أقتات منه ويعينني علـى

صروف الأيام؛ وذلك بعد أن تشفى يدي وأصبح قادرا على ممارسة الأعمال.

وكنت خلال أيام مكوثي ببيت الشهاب، أشم روائح ذكية بين الحين والحين فأتعجب من أن تكون لمثل هذا الموضع، كل ذلك النسيم العاطر، فلما توثقت علاقتي بالحلاج بسبب جلوسه إلي وقتًا كل ليلة بعد فروغه من عمله، وصار بيننا تباسط في الحديث، قلت له: إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب، تجعلني أشعر وكأنني في بستان ورد أو مرج زهر، وا لإنكم، أنت وأهلك، من المحظوظين إذ تقطنون موضعا كهذا، قد لا يوجد مثله في المدينة أبدا.

ضحك الشهاب ورد قائلا:

- أتظن ذلك؟. الحقيقة يا ولدي أن امرأتي تشتغل بصنع العطر ودهن الطيب، وهي في دارها، وتبيعه للدلالات والنساء اللواتي يقصدنها لهذا الغرض.

ثم إنه وعدني أن يريني موضع عملها هذا في الدار، فلما أصبحنا، صحبني الشهاب إلى حجرة سفلية في مبتدأ صحن الدار، فوجدت فيها ما لا يحصى من القوارير الصغار والكبار، منها النحاسي ومنها الفضي والزجاجي، وكلها مليئة

بالعطور، وكذا أحقاق ملئت بدهن الزهور، فكـان الحـلاج يجعلني أشتم منها شيئًا ويقول لي صفة كل منها؛ فهذه متخذة من البنفسج، وهذه من النيلوفر أو النرجس، وهذه من الكارده أو السوسن، وكانت هناك مجموعة أحقاق جميلة صنعت من الخشب المحفور على هيئة أطيار، وقد عبئت – كمـا قـال: بدهن الزنبـق، والمرسـين، والمرزنجـوش، والبادرنـك، والنارنج. فتعجب من كل ذلك ومن كون امرأته تعمـل فـي مثل هذا، وأجللتها كثيرا مثلما أجللته؛ إذ بـدا لـي محترمـا لامرأته، ومقدرا لعملها.

ألحقني الشهاب الحلاج بخدمة صاحب له يدعى العفيف الوراق، وكان الرجل مشتغلا بصناعة الكتاب، يدفع النـاس إليه بما يؤلفون ويبدعون، فيقوم بنسخه وتجليده بورق يصنعه وأحبار يعدها لذلك الغرض، فتخر آية في الجمال والإتقـان، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطوه.

كان ذلك قد تم بتوفيق من عند ا ، وبمحض الصـدفة، ففي ذات ليلة دخل علي الشهاب بينما كنت ساهرا أخطّ بعضا من دروس كان قد لقنها لي الحسين بن فالح، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنية جميلة من سورة العصر، وهي: "إن الإنسان

لفي خسر" فسر الرجل لما شاهد من خطي سرورا عظيمـا وقال:

- يا أ .. إن اك خطًا جميلاً.. حلت مسألتك وا . من الغد سأعهد بك إلى العفيف الوراق، ولسوف يفرح بك فرحا عظيما.

كان دكان العفيف يقع في سوق الثلاثاء بـالقرب مـن درب العاج بخارطة باب الطاق، وقد أخذت بسوق الثلاثـاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمي لأول مرة؛ وذلـك بسـبب اتساعه وكثرة دروبه، فهناك درب للزيت، ودرب للأساكفة، وسوق للبطيخ، وآخر للصبانين، وقد علمت بعـد ذلـك أن هؤلاء باعوا مرة في ليلة عيد الفطر ألفًا، وألفًـا، وخمسـائة ألف رطل صابون، على حساب أن كل إنسان يحتاج في ليلة العيد إلى رطل من الصابون. كما باع الزياتون ألف جـرة، ومائة جرة، وثماني جرار ونصف زيت، حساب الجرة ستون رطلاً.

وكانوا يصنعون بهذه السوق سويق الحمص ويبيعـون منه كميات مهولة، حتى قيل أن ما بيع منه في وقـت مـن الأوقات كان مئة وأربعين كرا لم يبق منها شيء، وسـويق

الحمص غير طيب إنما يأكله المتحملون، والضعفاء شـهرين أو ثلاثة، عند عدم الفواكه، ومن لا يأكله من الناس أكثر.

كان العفيف رجلاً هادئًا كتوما، قلما رأيتـه مبتسـما أو منفرج الأسارير، بل بدا مهموما دوما، وكان شعره أشـيب ووجهه مغضنًا، على رغم كونه شابا لم يقف علـى عتبـات الكهولة بعد، وكانت تلازمه جزة بأضراسه كمـن يصـطبر على غم، أو يكتم غيظًا لا ينقضي، وكنت أظن في البداية أن سكاته وصبره من طبيعة نفسه، لكنني أدركت بعد أن أوغلت شيئًا في فنون هذه الصناعة، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال، فالرهافة، والإخلاص، والاصطبار إنما هـي مـن لوازم من طلب الوراقة، والخط، والنسخ، والتزيين، والتجليد، فكل هذا إنما يحتاج ابتداعا لا يتأتى إلا بالتخييل وفن الأفكار.

ولقد فتحني دكان العفيف على عالم لم أكن أدركه مـن قبل وهو عالم الدرس والبحث، فلقد كان ذلك الدكان محجـا لكل مشتغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم، وكثيرا مـا كـان يلتقي أصحاب الحاجة للنسخ فيه، فيتصادف أن تدور بيـنهم المحاورات، ويشتعل جدلهم بمتباين الأفكار، فأظل مسـتمعا إلى ذلك، بينما أنا أعمل فيما يوكله لي معلمي، صاحبه، من أعمال، وقد رأيت في هذا الموضع بالسمع، ما لم أره طوال حياتي بالنظر، وعرفت أقواما لم ترهم عيني، لكني أدركـت أفكارهم ومعتقداتهم، ووقفت على علماء، وأعلام، وشموس، وأقمار في سائر العلوم والمعارف عبر ما كتبوه وابتـدعوه وجلتُ ببغداد وأنا في موضعي أخط ثمار فكرها، وخلاصـة عقلها، فأيقنت أنها حاضرة الدنيا، وهـي مسـجد، وحانـة، وقارئ، وزامر، ومتهجد يرتقب الفجـر، ومصـطبح فـي الحدائق، وساهر في تعبد، وساهر في طرب، وتخمـة مـن غنى، ومسكنة من إملاق، وشك في دين، وإيمان في يقين.

وكنت في مبتدأ اشتغالي مع الرجل موقفًا على تعطـين القطن المجلوب حينًا من بقايا ما يعمـل صـاحب الشـهاب الحلاج، أو مما لدى الحلاجين الآخرين بالسوق، فكان علـي

أن أخلاط بقايا القطن بالخرق القديمة والمـاء حتـى تـتعطن وتتعجن وتصبح صالحة للفرد، ولم يكن مسموحا لنا – نحن صبيانه ومعاونيه – الاطلاع على صـنعة الفـرد، ولطافـة الورق، ومواءمته الكتابة والنسخ، وقد كنت أتعجب لذلك في بادئ الأمر، لكني افتهمت بعد ذلـك أن هـذه عـادة كـلّ الوراقين، فسر الصنعة إنما هو شـأن لا يصـح أن يدركـه سواهم؛ حتى تظل فيهم فيحكمونها ويسيرونها وفقًا لمشـيئتهم وأهوائهم.

وكان هناك نوع من الكاغد يتم تعتيقه؛ حيث يتخذ مـن الأواني النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافي ويطرح فيها النشأ النقي الجيد ويتم غليان ذلك حتى يـنقص الماء، ثم يضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجـة إلى تلوين الورق، أو يصب في أطباق وصحاف واسعة، ثـم يغمس فيه الورق غمسا رفيقًا، ثم ينشر بعد ذلك لكي يجـف؛ حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض، وكلما جـف يسيرا قُلّب على الغاب لئلا يلتصق فيه؛ وهكذا حتى يصـير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة.

وذات نهار وبينما نحن منصرفون لعملنـا بالـدكان، إذ سمعنا أصواتًا تتعالى وصراخًا وعويلاً، فقمنا جميعا لننظـر الأمر، فإذا حريق ضخم قد اندفع فـي سـوق الخـرازين، والناس قد تكالبت لإطفائه، والقراببية رائحون غادون بالماء المنقول، فلما هدأ الأمر بعد ساعات وظهر أن حد ما احترق من أول سوق الخرازين إلى طاق الحراني، قيل أن السـبب في حدوث ذلك هو أن جملاً عليه قصب اجتاز فـي سـوق الخرازين، وكان رجلٌ يثقب لؤلؤًا وبين يديـه نـار، فوقـع طرف القصب على النار فاشتعل وبلغت النار الجمـل فـي لحظة، فكان الجمل كلما أحس وقع النـار عـدا، وتنـاقض الشرار من جانبي الطريق فحرق كل ما يجتاز به؛ فلم يـزل على ذلك إلى أن تلف الجمل، وقد تلف ناس كثير في الـدور والعقار التي لحقها الحريق، وزالت نعـم عظيمـة بـذهاب الأموال.

وفي مبتدأ الأمر، لم يكن العفيف يسمح لي بالنسـخ، إذ كنت ما أزال جاهلاً غشوما بذلك الفن العظيم، والذي يحتاج إلى حذق ومهارة، إنما كان يعهد بذلك إلى اثنين من معاونيه يعينونه على ما يتكاثر عليه من كتب يطلب نسخها طـلاب

العلم وأصحاب المصلحة والحاجة، وكان أحسن الورق مـا كان ناصع البياض، غرقًا، صـقيلاً، متناسـب الأطـراف، صبورا على مرور الزمان، وأعلى أجناس الورق فيما رأيت هو البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونـة، ورقـة حاشـية، وتناسب أجزاء، وقطعه من الشائع المعروف، ولا يكتب فيه، في الغالب، إلا المصاحف الشريفة، وربما اسـتعمله كتّـاب الإنشاء في المكاتب الديوانية، ودون ذلك في الرتبة الشامي، وهو على نوعين: النوع الدمشقي ونوع يعـرف بـالحموي، وهو دون القطع البغدادي، ودونهمـا فـي الرتبـة الـورق المصري الذي قلما يصقل وجهاه جميعا، وما يصقلُ وجهـاه يعرف بالمصلوح، ثم هناك ورق الفوي، وهو صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف لا ينتفع به في الكتابة، إنما يتّخذ للحلوى، والعطر، ونحو ذلك، ودون ذلك كلـه ورق الـروم والفرنجة، فهو رديء جدا، سريع البلى، قليل المكـث، وقـد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مر على العفيف، بالدكان ذات مرة، رجل من تجار الكارم الـذين يجوبـون الآفـاق، ويذهبون إلى أرض البنادقة، فعرض بعضا منه على العفيف، كان صكًا مكتوبا بالخط اللاتيني، لأمر من أمور تجارته.

ثم إن العفيف أشركني في تعلم صناعة الأحبار وسرها رويدا رويدا فأدركت ما يناسب منها الكاغد، أي الورق، وهو حبر الدخان، ولتحضيره يؤخذ من العفص الشامي، وهو ثمر يؤخذ من شجرة، قدر رطل، يدقّ جريشًا، وينقع في ستة أرطال من الماء مع قليل من الآس أسبوعا، ثم يغلي على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفّى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ويصفى ثانية، ثم تضاف إلى كل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن الزاج القبرسي كذلك، ويضاف من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة، ولابد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقية، وذلك بعد سحق الدخان بكلوة الكف، بالسكر النبات، والزعفران الشعر، والزنجار إلى أن يجاد سحقه، ويمنع صحنه في صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته.

ثم إنه أخذ يشركني في ذلك الأمر رويدا رويدا، وقد ظهر منّي ما أستحسنه في ذلك الجانب من حسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة، والتوفيق في براية الأقلام،

وما لكل من سني القلم من الحروف، وأجناس قط الأقـلام، وهو المقصود الأعظم من البراية، وبعد أن تمكنت بدرجـة من هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها، فـالألف هـي شكل مركّب من خط منتصب يجب أن يكون مستقيما غيـر مائل إلى الاستلقاء ولا انكباب، ومساحتها في الطول تكـون ثمانية من نُقط القلم الذي تكتب به ليكـون العـرض ثمـن الطول، وهكذا يكون لكل حرف سره وسـببه فـي الشـكل والهندسة، وكان مبتدأ ما خططته نسخًا هو نوع من التعاويذ يقال له الأحجبة، وقد كنت أظن أنهـا لا تكتـب إلا بـالقلم الوثني، مثلما كان يفعل قُدامى الكهان في بر مصر، ومثلمـا رأيته أكثر من مرة مع عزيز عيني ثاونـا، لكـن العفيـف أخبرني أن الأحجبة هي من شأن بعض المشـايخ، وأنـه لا يحبذ الاشتغال بها، لكن كثيرا ما كان يجيئه بعـض النـاس، ويلحون عليه في كتابتها، وكان أغرب ما كتبت علـى هـذا النحو حجابا لرجل أراد الطير في الهواء فنسخته علـى رق جاء فيه أنه من أعمال "السبع الكلمات" المـذكورة المسـماة القيراشية، وهي عزيمة مستجابة، ولا يعمل بها فيما يسـخط ا ولا تستخدم إلا في رضاه، يجب تبخيرها بـالعودة بعـد

قراءة الأسماء وكتبت فيها ٤٧٢٦٥ حه قيراش حـه هيتـزا خورش حه منذ أقشطسن حه، عنطلنطهسن حه عدا نقش حه دينا نقشن حه كطاطيسن طلعود لطسن حه، بحـق بعضـكم على بعض، وبحق الكواكب السبعة، وبحق من اسمه وطاعته واجبة عليكم إلا ما قضيتم حاجتي وكنتم عوني، وكذا أقسمت عليكم بالملك الأصفر، وبحق الملك الأحمر، وبحقكم علـيكم إلا ما قضيتم حاجتي وكنتم عـوني وأعـواني، أعينـوني، أقسمت عليم بيأجوج ومأجوج وهاروت وماروت إلا قضـيتم حاجتي.

غير أن أحسن ما جرى لي في دكـان العفيـف، كـان تقاربي مع شاب يناهزني في العمر، يقال له اليشكري، وكان من أوسم من رأت عيني من الرجال، له طلعة محببة ووجه بدري أليق بملك أو أمير، لكنني كنت ألاحظ أنه قلما يتحدث مع أحد، ولا يجتمع معنا على غداء، على رغم أن العفيـف عودنا أن نأكل معا، نحن صبيانه، بعد صلاة الظهر، بينمـا هو يتوسطنا، بل كان اليشكري يظل منصـرفًا إلـى عملـه بموضع التزيين والتذهيب بالدكان، وكان من أمهر من لـدى العفيف في هذه الصنعة، وذات مرة دخلت عليه بموضعه بعد

صلاة العصر، فوجدته يتناول غداءه منتحيا، فتعجبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استنكافًا واستعلاء، ورحت أتندر عليه قائلا: أتظن أننا سوف نعد عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنا، أم أننا سنخطف منك ما تأكله؟. ألست أدرى بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها؟. فنحن لا نأكل إلا متأدبين بثلاثة أصابع مما هو أمامنا، دون ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، ونلعق أصابعنا قبل مسحها بالخرقة، ونشرب من الكوز في ثلاثة أنفاس متقطعة، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغسل أيدينا بأشنان، وكذا بعده، وننظف أحناكنا به كذلك.

فاستغفر اليشكري ا من أن يكون امتناعه عن الأكل معنا كبرا واستنكافًا، ورأيت عينيه تدمعان وهو يقول لي أنه لا يخالط الناس طعامهم لأن أكثرهم يتقززون ممن كانت له علّة مثل علّته ويعافونه، ثم شمر لي عن كميه معتذرا فبدا لي برصه ووضحه وقد أتى على الجلد من عند الرسغ وحتى الساعد على هيئة خرائط لا اتفاق فيها، وقال: إن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك، وإنه لولا مهارته وحذقه في صناعة التزيين والتذهيب، واختصاصه بها، لما كان

العفيف قد صبر عليه وتركه مستمرا في العمل معـه بعـد إصابته بهذه العلة. فتألمت لذلك تألما شديدا وقد شعرت أنني ظلمته وهيجت مرارته بذلك، ورحت أتذكر عزيز عيني ثاونا الذي كان يخالط المجذومين، وينزل إلى مواضعهم بالبراري في عيد يونان؛ فيحممهم بنفسه، ويكسبهم، ويواسيهم، فهاجت شجوني كذلك ودمعت عيناي، وبت من ذلك الحين ملازمـا لليشكري الأبرص، وقد مسّني حزنه وعكوفه على نفسه دون مخالطة الناس؛ فوثق بي ولان حتـى فـتح قلبـه، وصـار يفضفض لي عن آلامه، ومعاناته، وعكوفه على نفسه بعيـدا عن الخلق، كان لا يخرج من الدكان الذي ظل يبيـت فـي سقيفة أعلاه إلا للحتم والضرورة، خصوصا وأنه نزح مـن الكوفة منذ أمد ولا أهل له ببغـداد، وأن جـلّ قصـده هـو الانصراف إلى مجالس الزهاد وشيوخهم، فهم يبثـون فـي أحاديثهم راحة للنفس، وعزاء عما في الدنيا والتنزه عنه.

كنت أخرج مع اليشكري عند الغروب أحيانًا، وبعـد أن ننتهي من علمنا في دكان العفيف، فنسـير للتـريض علـى شاطئ موسى، والذي يمضي حتى يلاصق قصـر الخليفـة، فنظلّ ساعة أو ساعتين نتحادث حتى نبلغ نقطة انقسام المـاء

إلى الفرع المؤدي إلى سوق الدواب، والفرع المؤدي إلى دار بانوقة والذي يفنى عندها، ثم ذلك الذي يدخل بـاب سـوق الدواب ويمر إلى العلافين، وكان اليشكري، كما عهدته خلال ذلك كلما صفت روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة، ينفتح قلبه بالكلام ويفضفض لي ببعض ما بداخله، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعشقها كثيرا، وجاهد حتى ظفر بهـا مـن ذويها، وبنى بها، لكنها هجرته وطلقته لما أصيب بما أصيب به من علة بعد ذلك، فتضاعفت حسرته ولعن الزمـان وقـد ضن عليه بما يجود به على غيره من محبة الذين أحبهم، وقد ضاق صدره وقتًا حتى أنه فكر في إزهاق روحه؛ لـيخلص مما هو فيه، لكنه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمـل فـي دكـان العفيف، فبدأ يدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل، ففـي ذلـك المكان اكتشف – كما قال – أن بغداد ليست مدينة، بل هـي مدن وبلاد، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسـواق المـؤن والغلال، وأنها عوالم متداخلة، وأفكار متصـارعة، وعقـل ونقل، وأن ذلك كله فتح عينيه على معان لم يكن قد أدركهـا من قبل، فأخذ يتناسى همه وينشغل بهم الكلام والمتكلمـين، حتى وقع في يده ذات يوم كتـاب لتذهيبـه يسـمى كتـاب

الشكوك، فانبهر به أيما انبهار، فلما سألته عن سبب انبهاره، قال: إن هذا الكتاب جعله يشك فيما كان حتى توهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كان، حتى إنه شك في هجر امرأته له وعمل على أنها لم تهجره، وإن كانت قد هجرته، وشك في قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه.

ثم إنه ظن في وجوب معرفة المنعم وشكره، وكذلك معرفة الحسن والقبيح، واتباع الحسن واجتناب القبيح وذلك العقل قبل ورود السمع، وأن الناس محجوجون بعقولهم، سواء منهم من بلغه خبر الرسول ومن لم يبلغه، وكلام كثير من هذا النوع، لكنه سرعان ما حاد عن ذلك؛ لكثرة ما سمع من إشكالات ومسائل، وتقارع بالحجج والبراهين، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعوام، وهؤلاء المتكلمين الذين يتكلمون في ناحية والعامة في ناحية أخرى؛ فالناس في فقر وإملاق، والكلام لا يقيم لهم أودا ولا يدفع عنهم جوعا، فوقعوا فريسة الأفاقين والشطّار والعيارين، يتلاعبون بجوعهم، ويشغلونهم حطبا لحروبهم ضد الخليفة والعسكر وأصحاب السلطان، فتذبذب أمره، وشتّ ذهنه حينًا، حتى حزم أمره، وقرر اعتزال كل ذلك، فسار في طريق

العارفين، وسلك مسلك السالكين في الحب الإلهي الخـالص، وقد طلّق الدنيا وزهد فيها، واشترى بها محبة ا والدين.

كان إعجابي باليشكري يزداد يوما بعد آخر، وتأثري بما هو عليه يتضح لي شيئًا فشيئًا، فقد أيقنت أن مشـكلي هـو أقرب إلى مشكله، وأن محنتي في هذه الدنيا هي الأقرب إلى محنته، وأن تشاكل قدري مع قدره لم يكن إلا من نعم العناية، ونظر عين ا لي بالعطف والرعاية، فبتّ ألتصق به أكثـر فأكثر، وقد بهرني بفكرة السمو والصعود، عن كـل ظـاهر موجود، وقد أدركت أن ما بنفسي لهو قرين لما في نفسه من حزن وألم، وأن شعورنا بعبث الوجـود وتهافـت الظـاهر المحسوس، والمتجسد الملموس لهو من اتفاق أسـبابنا، وأن رغبتي في الزهد والبعد عن الناس، تتماثل مع ما لديه مـن ذلك، على رغم خُلوي من كل علة، وكل عيب يدفع النـاس عني، ويجعلني أتجنبهم وأؤوب إلى نفسي.

ثم حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى صاحبي العفيـف، ودفع إليه بكتاب تعهد أن يبذل مقابل نسخه مائتي درهم، فلما تصفحه العفيف قليلا انتفض وثار ثورة لم أعهد بمثلها أبـدا، ودفع إلي الرجل بكتابه، وهو يقول: وا لا أفعل، حتى لـو

دفعت لي مال قارون كله، فلما ذهب الرجل، وكنا قد تجمعنا حوله، نحن صبيانه؛ ظنا منا أن هناك مصيبة قـد جـرت، جلس يستغفر ا وهو في ضيق وألم، فلما تفـرق الجميـع وبقيت معه، استحلفته أن يفضفض لي عما بداخلـه، وكـان الرجل يستريح لي، ويلاطفني، وينعتني بالمصري وهو يتندر على نطقي لحرف الجيم مخففًا كما يفعل الفرس، فأخبرني أن الرجل الذي جاءه هو قريب له، وهو من أتبـاع ملـة كـان يتبعها العفيف قبل إسلامه، وهي ملة قد شاعت منـذ زمـن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هـذا، ويقـال لهـا الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه بكتاب قـديم يخـص هـذه الملة؛ لينسخه له سرا، وهو كتاب كفر وبهتان، يتضمن مـا حاول إثباته أصحاب المقدم الأول كيـومرث مـن وجـود أصلين، هما: يزدان وأهرمن. وقد قالوا: إن يـزدان أزلـي قديم، وأهرمن محدث مخلوق. وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر في نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكـون؟. وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحـدث الظلام من هذه الفكرة وسمى أهرمن، وكان مطبوعـا علـى الشر والفتنة والفساد والفسق والغدر والإضرار، فخرج على

النور وخالفه طبيعة وفعلاً، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا علـى أن يكون العالم السفلي خالصا لأهرمن مدة سبعة آلاف سنة، ثم يخلي العالم ويسلّمه إلى النور، والذين كانوا في الـدنيا قبـل الصلح أبادهم وأهلكهم، وكلام فارغ كثير من هذا النوع، وقد جاءني الرجل مستغلاً قرابته لأمي، وكوننا كنا أترابـا منـذ الصغر، لكني اهتديت إلى الإسلام والحمد وهـو مـازال على دين جدودنا وأهلنا، حتى أنه سمى عياله بأسماء أعـلام هذه الملة، فاديهم منهم ما يسمى بأسمائهم المقدسة لدى أهلها مثل: ريباس، وميشة، وميشانة والأخيران في عـرفهم همـا والدا البشر.

وبينما العفيف يقول ذلك لي، إذ تذكرت فجأة حادثة دير أتريب، فهتفت مقاطعا إياه:

- إذن. هم من الصابئة. سبحان ا !.

- لا. لا. هـؤلاء مختلفـون عـن الصـابئة تمامـا، فالكيومريثيون هم من المجوس، أما الصابئة فهي واحدة من فرقتين ترجع إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثانيتهمـا فرقة الحنفاء، والصائبة كانت تقول: إنا نحتاج إلى معرفة ا

تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكـن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا؛ وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسماني بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا فـي المادة والصورة قالوا كما ورد في كتابه العزيز الحكـيم:  ولَئِن أَطَعتُم بشَرا مثْلَكُم إِنكُم إِذًا لخَاسِرون، ولما كان الخليل  عليه السلام  مكلفًا بكسر المذهبين على الفرقتين، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة، احتج عبدة الأصـنام قـولاً وفعلاً، كسرا من حيث القول وكسرا من حيث الفعل، فقـال لأبيـه آذر: يا أَبتِ لِم تَعبد ما لاَ يسمع ولاَ يبصِر ولاَ يغْنِي عنك شَيئًا، حتى بلغ  فَجعلَهم جذَاذًا إِلا كَبِيـرا لهم، وذلك إلزام من حيث الفعل وإفحام من حيث الكسـر، ففرغ من ذلك كما قال ا تعالى:  وتِلْك حجتُنَا آتَينَاهـا إِبراهِيم علَى قَومِهِ نَرفَع درجاتٍ من نشَاء إِن ربـك حكِيم علِيم.

كان اليشكري قد أخبرني أن العفيف الوراق من أصـل فارسي، وأنه كان مجوسي الأصل فأسلم، وأن بعضا من أهله

ما زالوا على هذه الملة، غير أن العفيف بدا لي مـع كونـه مسلما موحدا با ، رجلا يتبع فرقة من الفرق، فهو وإن كان من أشياع الإمام علي، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين، وقد تلمست ذلك بمرور الأيام، وقد لاحظت زيـارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين، وكانوا يمدون بساط الكلام والمحاورة، فأدرك أنهم مـن الخـارجين عـن الخليفة، الكارهين له؛ بسبب أحوال العباد وسياسته للأمـور، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة خلال ذلك، يتندرون ببذخ الخلافة وترفه المسرف يوم وصول رسول الروم، ويقولـون أن ما جرى فاق ما كان يجري زمن الأكاسـرة والأبـاطرة والفراعنة في الزمن القديم، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها، من يبين كل ليلة على الطوى مما لا يحصـى مـن النـاس والعباد، وإن العامة ضجت في كل موضع بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال؛ مما سيؤول إلى حدوث الفتن وتتـابع المحن، وخراب العمران، وانتقال القطان، وأن عصيان أبـي مسلم الخرساني،وسنباذ، وإسحق الترك، وأستاذ سيس، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذي الحال، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمر.

كلما تقدمت في النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إلي بما هو أهم وأرقى من المخطوطات، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكي في عمل المترجمات الخطيرة التي يقوم بها أفذاذ العلماء وأرباب المعارف والحكمة عن القلم اليوناني، والقلم السرياني، والقلم الفارسي، والقلم الهندي، والقلم القبطي، في كل فرع وصنف من بساتين العلوم والفنون، فكنت كلما فرغت من نسخ كتاب وهممت بكتاب آخر، شعرت وكأنني ولجت من جنة إلى جنة، وغادرت فردوسا إلى فردوس، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويصنفه بين الحين والحين، وكان له عقل ليس كعقل البشر، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان، فصرت مبهورا بعمله، مجلاً لشأنه، وكان أن دفع العفيف إلي مرة برسالة وضعها في أمور النساء وولادتهن، فلما اشتكى اليشكري لي ذات مرة من أن له أختًا توءما ليس له غيرها من الأخوة أو الأخوات، قد تزوجت بتاجر كوفي ميسور، سوف يحملها معه إلى الغرب، ليستقر بها هناك في بلدة تدعى طليطلة، وأن كواعب، وهذا كان اسمها، حامل بكرية وهو يخشى عليها كثيرا إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة

والطريق، ولا يدري ما هو فاعل لها، فارتأيت أن أنسخ لـه نسخة من رسالة ذلك العالم الجليل، علها تنتفع بها إن حـدث لها ذلك أثناء المسير، وكانت الرسالة تتعلـق بالحمـل مـن مبتداه، فعندما تتحقق المرأة من حملها، فتـدبيرها بالراحـة وترك الرياضة، وكل ما أزعج من وثبة، وصرخة، وحمـل ثقيل، ونزول من عال، أو صعود من سافل، والتقليـل مـن المرطبات حتى تشتد الأعصاب، وأن تأخذ ما دعـت إليـه شهوة الوحام بلطف؛ فإن الإكثار من الحريـف والحـامض يضعف الجنين، ومن الطين يبرد، وينبغـي أن تكثـر مـن السكنجبين ليحلّ الاحتراق، فإن الوحام عبارة عن احتـراق بقايا دم الحيض، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر في رأس الجنين، ثم تكثر من أخذ ما يولد الدم، ما لـم تظهـر علامات الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض، وتدوم كـذلك إلى قرب الولادة ولتقتصر المرأة في أمراضها الحارة علـى الأشربة الباردة، والبارد الجلنجبين العسـلي، فـإن اشـتدت الحاجة إلى تليين فبخيار الشنبر أو الترنجبين، فإن الأدويـة المسهلة إما مسقطة أو مضعفة لتحليلها الفضلات في غـذاء الجنين، فإذا آن وقت الولادة فلتكثر من تنـاول المزرقـات،

ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسـج وتنطـل بطبـيخ الأشنان والحلبة وتكثر من الاسـتحمام، فـإن ذلـك يسـهل الولادة، فإذا أحست بالطلق وهو المغص والوجـع ونـزول الماء والدم، فلتجلس على مرتفع مادة رجليها، موسعة بينهما، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود فإن سهل ذاك فـالمطلوب، وإلا غمزت ظهرها وأعلى البطن، وسعطتها قشور البكتـر بالزعفران، وحملتها بالزبد في خرق الحرير علـى الفخـذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض، فإن بـدا رأس المولـود فالولادة طبيعية وإلا فعسرة، وينبغي أن يستلقي بنـاعم مـن قطن أو حرير ويتجنب البرد إن كان شتاء، ثم تتـدثر هـي، وتُسقي ما يحلّ الخوالف من طبـيخ الأنيسـون، والشـبت، والحلبة، والزبيب بالعسل، وفي الشتاء تُمرخ بالزيـت وقـد طُبخ فيه الثوم واللاذن.

أما المولود فيبدأ أولا بقطع الفضلة التي في سرته على حد أربعة أصابع، وتربط بصوف خفيـف الفتـل، وتضـمد بخرقة بلت بزيت طبخ فيه كمون، وصعتر ويسير ملح ومر، ويملّح بدنه بملح، وشادنة، وآس، ومر، وقسط، مجموعـة أو مردة ليشتد، وتمتنع منه العفونة، والقمل، وإذا سقطت السرة

بعد ثلاث ضمدت بالشراب، والزيت، أو رماد الصـدف أو الرصاص المحروق، ودم الأخـوين، والكـركم، والأشـنبة للتجفيف، ويملح لدفع الأوساخ، والقمل، إلا الأنف لضعفه عن الملح، ويقطر الزيت في عينيه للغسل، ويمسح بناعم، وتغمر الأعضاء وفق الشكل المراد، والمثانة لإطلاق البول، ويفـتح الدبر بالخنصر، وبها يتعاهد الأنف بعد تقلـيم الظفـر لـئلا يجرح، ويلبس رقيق الثياب المناسبة للزمان، ويفـرش بهـا، ويقمط حفظًا للشكل مع توسط بالشد، ويرخى علـى بطـن الأنثى لئلا يكون سببا لعدم الحمل، وتطلى مراقه وغضـونه بسحيق الآس، والزيت حذرا من التسميط، ويغسل بفاتر الماء كل ثلاثة عدا الشتاء والمائل إلى السخونة كل سبع فيه، برفق في صبه، وغمز المفاصل، والقلع، والتلبـيس، والتنشـيف، والدهن.

وقد حدث أن غاب الرجل عنّا زمنًـا، فدهشـت لـذلك وتساءلت عن تقاعسه وهو الذي كان لا ينقطع مجيؤه إلينـا لكثرة حاجته إلى النسخ، فأعلمني العفيف أن الرجل مات منذ حين بداء الزرب، بينما كان قد بدأ في ترجمة كتاب في قوام الصناعات لجالينوس قبيل وفاته بشهرين وأنه كـان سـليما

معافى مواصلاً عاداته في الركوب حتى أصيب بهذه العلـة، وقد كان مشهورا عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحمـام فيصب عليه الماء، ويخرج فيلتف في قطيفة، ويشرب قـدح شراب، ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه، وربما ينام ثم يقوم، ويتبخر، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قـد طبخ زيرباجا ورغيف وزنه مائتا درهم، فيحسوا من المرقة، ويأكل الفروج والخبز، وينام فإذا انتبه شرب أربعة أرطـال شرابا عتيقًا، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشـامي والسفرجل، وكان ذلك دأبه حتى مات.

على رغم احتراز العفيف في الكلام معي إلا أنه بين الحين والحين كان يدفع لي بكتاب أوصله إلى موضع من المواضع بمدينة السلام عند جنوح الليل، وكان يحذرني من أن يراني أحد خصوصا من البصاصين أو الدرك، وكان يصف لي وصفًا دقيقًا مكتملاً الموضع أو الدار التي أذهب إليها لتوصيل ما يبتغيه من مكاتبات، وكنت أظن في البداية أن هذه كتب تخص من يتعاملون معه في أمور النسخ أو الوراقة، لكن، ذات مرة، بعد ما شدد علي كثيرا في الاحتراز والتنبه – وليغفر ا لي – وسوس لي الشيطان، وسول لنفسي أن تطّلع على ما أؤتمنت عليه، فوجدتني أفتح كتابه لأقرأه، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان علي إيصالها إلى واحد من أصحابه بربض الزهيرية، فلما رأيتها بهتّ وأسقط في يدي، ووقعت في حيص بيص وأنا أحاول تفهم مغزاها، والتكهن بمعناها، وبالغرض من إرسالها إلى ذلك الرجل، وقد حدثني قلبي أو وراءها أمرا عظيما، وكانت كما يلي:

فلما عدت إلي الدكان في صبيحة اليوم التالي، ووجدت الفرصة لأختلي بصاحبي اليشكري أفضيت اليه بما كان من أمر الخريطة، فسكت قليلا، ثم قال لي أنه يجب علي تكتم

الأمر، وألا أظهر للعفيف اهتمامي بذلك، فلما اسـتحلفته أن ينبئني بما وراءه، قال: إن العفيف يتبـع فرقـة يقـال لهـا النظامية،وهي فرقة خالطت كلام الفلاسفة بكلام فرقة أخرى يقال لها المعتزلة، وإن النظامية تخابطوا كثيرا، فاتبعوا مـا تخابط فيه صاحبهم إبراهيم النظام الذي قال: " عن البـاري تعالى ليس موصوفا بالإرادة على الحقيقة؛ لأنه إذ وصف بها شرعا في أفعاله فالمراد بذلك أنـه خالقهـا ومنشـئها، وإذا وصف بكونه مريدا لأفعال العباد فالمعنى به أنه آمر بها وناه عنها". كما قال " إن أفعال العبـاد كلهـا حركـات فحسـب والسكون حركـة اعتمـاد، والعلـوم والإرادات حركـات النفس،ولم يرد بهذه الحركة حركة النقلة، وإنما الحركة عنده مبدأ تغير ما، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات في الكيف والكم والوضع والأين والمتى".. إلى غير ذلـك مـن كـلام متخالط متخابط من هذا النوع، وإن العفيف مولع بمثل هـذا النوع من الكلام الذي يقوله النظام بن سيار هذا في قوله: "إن الإنسان في الحقيقة هو النفس والروح، والبدن آلتها وقابلها، وميله إلى قول الطبيعيين من الفلاسفة من أن الـروح هـي جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقلـب بأجزائـه، مداخلـة

المائية في الورد، والدهنية في السمسم، والسمنية في اللـبن، وأن الروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهـي مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل".

فلما أدركت ذلك ووقفت على حقيقة العفيف كتمت الأمر في نفسي؛ عملا بنصيحة اليشكري، وبت لا أسأل العفيف في أمر من الأمور إلا فيما يخص اشتغالي ولقمة عيشي.

وكان اليشكري متعلقًا بشيخ زاهد، سرعان مـا سـرت عدوى تعلقه به إلي، وكان الرجل كما قال اليشـكري – وا أعلم – قد عاش حينًا في بلدة تدعى حران، اجتمع لبعض من أهلها ما تبقى مـن علـوم الجريـك، وفلسـفتهم، ونحلهـم كالفيثاغورثية، الأفلاطونية الجديدة، وعلم الكيميـاء، وعلـم الكون الهرمسي، وقد ظل لهؤلاء بعض من رواسـب هـذه العلوم، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفها بالكليـة، فتشرب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلوم حتى هـداه ا إلى الإسلام، فطعم ذلك بذاك، وفاض لسانه بالحق والحكمة، فانجذب إليه اليشكري، مثلما بتّ أنا منجذبا إليه كذلك. كـان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر في زاوية من الزوايـا، فنجتمع إليه لنستمع قطوف حِكَمِه، وثمار أفكاره، وقد أدركت

من خلال ذلك – فيما أدركت – عالم الأنوار القاهرة، وعالم الأنوار المدبرة، والعالمين المحسوسين: السماوي والأرضي، والعالم الظلماني والعالم المستنير، وكان الشيخ يقـيم علمـه على هدى من الآيـة الكريمـة: (ا ُ نُـور السـماواتِ والأَرضِ مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصباح الْمِصباح فِي زجاجةٍ الزجاجةُ كَأَنها كَوكَب دري يوقَد مِن شَـجرةٍ مباركَةٍ زيتُونَةٍ لاَ شَرقِيةٍ ولاَ غَرِبيـةٍ يكَـاد زيتُهـا يضِيء ولَو لَم تَمسسه نَار نُور علَى نُورٍ يهـدِي ا ُ لِنُورِهِ من يشَاء).

وشيئًا فشيئًا، بدأت رياضتي العبادية والارتحـال مـن الغرب حيث حقل المادة والجسم، إلى الشرق حيث مقامـات النور، وكان ذلك يقتضي عبور أربعة عشر تابوتًا وهي تمثل القوة الجاذبية، والماسكة، والهاضمة، والدافعـة، والغازيـة، والمولدة، والمصورة، والناميـة، والغضـبية، والشـهوانية، والأخلاط، والقبور العشرة من الحواس الظاهرة والباطنـة، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السماوية والعروج بواسـطة العقل الفاعل، مارا بكل العقول حتى أرسو عند أعتاب نـور

الأنوار؛ فتهنأ نفسي بتحررها من سجن المادة ودخولها فـي مقامات النور.

وكان المشي سبيلي إلى بعض من ذلك وفقًا لشيخنا، فلما كنت لم أزل في مقام الطالبين، وهو أول المقامات الخمسـة في الزهد، فقد كنت أسير، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، مـع صديقي اليشكري فنظل نسير حتـى يتعبنـا السـير وتكـد جسومنا.

غير أن الأيام أظهرت لي أن العفيف لم يكن مثلما ظن اليشكري من أنه يتبع النظّامية، أو هذا ما وضح لي عيانًا – على الأقل – فقد حدث أن قام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له الدريوش، فدعا جيرانه، وأهل بيته، وأهل محلّته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر، فأجابوه إلى ذلك، وكان ذلك بسبب فساق الحربية والشـطار الذين بالمدينة آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطـرق، فكـانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، حتى أن كثيرا من الناس حبسـوا أولادهـم

ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفًا عليهم. وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه، وكانوا يجبون المارة في الطرق، وفي السفن، وعلى الظهر، ويخفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية، وأخذ المتاع، والذهب، والفضة، والغنم، والبقر، والحمير، وغير ذلك وأدخلوها بغداد، وأخذوا يبيعونها علانية، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكنه نصرتهم عليهم، ولم يرد عليهم شيئًا مما كان أخذ منهم.

فلما رأى الدريوش الناس كل ذلك، وما بيع من متاع الخلق في الأسواق، وما قد ظهر من الفساد في الأرض، والظلم والبغي، وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ربض وكل درب، وقالوا لهم: إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد

غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفُساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلـون مـن إظهار الفسق بين أظهركم. فأجابوه إلى ذلك وشد كل واحـد منهم على من يليه من الفُساق الشطار، وقد أراد الـدريوش منعم مما كانوا يصنعون، فـامتنعوا عليـه، وأرادوا قتالـه، فتكاثر عليهم الدريوش وأصحابه، من أهل الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر، وقاتلوهم وهزموهم، وكان ممن شـارك في ذلك رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة مـن أهل خراسان، وقد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر، والعمل بكتاب ا - عز وجلّ - وسنة نبيـه - صلى ا عليه وسلم - وعلّق مصحفًا في عنقه، ودعا الناس جميعا إلى ذلك، الشريف منهم والوضيع، وجعل لـه ديوانًـا يثبت فيه اسم من أتاه منهم، ثم إنه طاف ببغـداد وأسـواقها وأرباضها وطرقها ومنع كل مـن يخفـر ويجبـي المـارة والمختلفة، وقال لا خفارة في الإسلام، والخفارة أنه كان يأتي الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقـول: "بسـتانك نفـي خفري، أدفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهما. فيعطيه شائيا أو آبيا"، وقوي على ذلـك قـوة

عظيمة، إلا أن الدرويش خالفه في ذلك، وقد ظهر أن العفيف معلمي كان من أتباع سهل ويكاتبه، وهذا ما علمته بعد ذلـك من الشهاب الحلاج، فلما كسر الخليفة سهلاً لأنه قال: "إنـي أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة، كائنًا من كان، سلطانًا أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين"؛ سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة، وخرج بعياله في عز الليل تاركًا دكانـه وماله، ثم إنه مر زمن قد قارب الشهر، بينما أنا قابع في دار الشهاب الحلاج لا أغادره، وقد نصحني الشهاب بذلك حتـى لا أوخذ بجريرة العفيف وأمثاله، وأضيع بين الرجلين، وكنت أتعجب، خلال ذلك، من مشاركة العفيـف فـي مثـل هـذه الأمور، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصنعة تسـتلزم كـل لطف ودماثة، فقال لي الشهاب؛ إن ما دفع العفيف إلى ذلك، وجره إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولد وحيد مـن امـرأة غير تلك التي تحته الآن، فبينما الغلام مع أمه فـي السـوق ذات يوم لأمر من الأمور، إلا وبعض من فسـاق الحربيـة والشطّار قد كسبوا السوق، وعاثوا فيـه فسـادا، واختطفـوا الصبي من يد أمه ضمن من اختطفوهم، فجن جنون العفيف، وراح يبحث عن وحيده في كل مكان، حتى هداه الهادون إلى

موضع لرجل يهودي اشتهر عنه خصي الصبيان المجلـوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مـع جماعـة مـن إخوانه؛ فوجد الصبي وقد قُطّ قضيبه وأخرجت بيضتاه بعـد أن شق مزوداه، وقد وضعوا له فـي منفـذ البـول مـرور رصاص، جعلوه حتى لا تلتحم، وكانوا يخرجونـه أوقـات البول فانتزع العفيف ولده منهم، وهو بين الحيـاة والمـوت، وكاد أن يفتك بالخَصاء اليهودي لولا أن أصحابه منعوه، فلما عاد بولده إلى منزله، لبث قليلا ثم مات فحزن عليه العفيـف حزنًا عظيما، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمدا وحسرة عليه. وكان ذلك مبتدأ قسم العفيف بالانتقام من مختطفي ولده وقاتليه، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكر، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة ولـه. غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يـدعني ألحقـه إلـى البصرة إن شئت، وقد ترددت في ذلك كثيرا في مبتدأ الأمر، فعلى الرغم من أن العفيف كان قد أرسل إلي ما يعينني على أمري، وأوصى بمن يعينني على الوصول، إلا أننـي كنـت منقبضا مغموما، فها أنا – مرة أخرى – مجبر على السـفر والمغادرة، وكنت قد استمرأت في بغداد الاستقرار والتوطن،

وكان الأمر الذي يشغلني أكثر من سواه هو أمر ريطة، فأنا وإن كنت قد أعتقتها، إلا أنني كنت أظن نفسي مسئولاً عـن أمرها في كل حال، وعلى الرغم من أنهـا ظلـت فـي دار العفيف تعين زوجته على أمورها وتجارتها، إلا أنني كنـت أخاف تركها إلى مصير لا يعلمه إلا ا .

ثم إنني بت أخرج من بيت الشهاب لبعض الوقت، بـين الحين والحين، بعد ما هدأ الأمر، وذات يوم وبينما كنّا نسير منصرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد، قال اليشكري لي:

- هل تذكر الجواهري الذي جاء ذات مرة إلى دكـان العفيف لينسخ له رسالة في الجواهر والأحجار؟.

قلت:

- لا. لا أذكر ذلك، ولا أذكره.

قال:

- كيف لا تذكر ذلك؟. أنسيت ما جرى يومها، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحجار وسأله أن يعتبرها بالمحنة والاختبار الصحيح، حتى يعزل ما صح منها ويهمل المتبقي، فأحضـر الرجل الأفاعي، وطلب فراريج وراح يطعمها حكاكـة هـذه

الأحجار، وكانت نيفًا وثلاثين حجرا، فصـح بالمحنـة دون العشرة وتزيف الباقي؟.

- آه. كان ذلك بعد حريق السوق بمدة. تذكرت.

- آي نعم. لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة، وقال لـي أنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار، كتبه له نسـاخ بدمشق، وقال أنه يستطيع أن يلحقنـي بخدمـة واحـد مـن أصحابه النساخين هناك إن أردت، ولقد قـر عزمـي علـى الذهاب، فأنا هنا بلا عمل، وقد كرهت الإقامة فـي بغـداد، وأريد الارتحال، هل تأتي معي؟.

كان العسكر قد كسبوا دكان العفيف وانتبهوا بعد رحيله، ولم يعد لليشكري عمل كما هي الحال معي، فقلت لـه بعـد تفكر:

- لا. لقد انتويت أمرا آخر في نفسي.. أريد العودة إلى بر مصر.

كنت أقول الحقيقة، فلقد زاد شوقي وتوحشي إلى بلـدي كثيرا، وكنت أرغب في البحث عن ثاونا والوقـوف علـى أثره، وقد عاهدت ا على ذلك، ونذرت نذرا في نفسـي إن وجدته، وهو أن أبقى زاهدا عابدا طيلة ما تبقى لي من عمر.

قال اليشكري:

- ليكن. لكني سأذهب إلى دمشق؛ حتى يصلح أمـري، ومنها سأرتحل إلى الغرب، فأنا أريد أن أذهب حتى آخر بلاد المسلمين، وقد يهديني ا ، فأهدي قوما غير مـؤمنين، وقـد التحق بحلقات درس رؤساء العلماء هناك، فـبلاد الأنـدلس عامرة بهم وبمعارفهم العظيمة، لكني سأعرج قبل ذلك إلـى مكة فأحج – إن شاء ا – وإلى الأقصى؛ فـأزور مقامـات الأنبياء بمدينة القدس.

كنت في شوق إلى الحج وزيارة قبر الحبيب كذلك، لكنني كنت أخشى أن يطول بي الزمن، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا، أو يكون ا قد توفاه. وقد وقعت بين نارين، لكنني قلت:

- في نفسي نذر، أعاهد ا إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجات. كنت في قرارة نفسي – وهذه الحقيقة – أريد أن أطلع ثاونا على حقيقة إسلامي، وأدعوه إليه، كان هذا منتهى آمالي ومناي، وكان أمر ريطة يقلقني كذلك؛ فأفضيت بذلك إلى اليشكري وشاركته في أمرها، إذا كنت حائرا، فأنا لا رغبة لي فيها، وكأن ما حدث لي بعد رؤيتها في ليلة أن أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعوري بالنساء، وكأن ريطة لم تكن إلا سببا للمباعدة بيني وبين هذا الجنس، والزهد فيه، غير أني كنت موقنًا بمسئوليتي عنها، وقد غيرت حالها وأيامها، وبسببي تركت ما كنت فيه من نعمة وعز في قصر الخليفة، فلما أفضيت بكل ذلك إلى اليشكري وطالبته بنصيحة ينصحني بها، قال:

- خيرها بين البقاء في بيت الشهاب، أو الذهاب معك إلى بر مصر.

قلت بسرعة:

- لا. لا أريد لها الذهاب معي. لا أرغب في صحبة النساء أبدا.

ثم إنني عندما رجعت إلى بيت الشهاب، وأثناء تناولنا العشاء، أطلعته على ما أنتويه، فلما بلغت في الحديث مسألة ريطة، قال لي بسعادة، وهو يبتسم، ما عقد لساني، وهو أم امرأته الروايحية قررت تزويجه بريطة؛ بعد ما سألتها فلم تمانع.

أصر الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلى بعد أن يعرس بريطة، وهكذا تريثت وقتًا حتى ليلة دخوله عليها. وكان أن ذهبنا إلى حمام بسوق يحيى، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة، فلما دخلناه، وجدت أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوة كلها بأجل أنواع الرخام الملون وأفضله، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقودا ومطبقًا بجامات من الزجاج الملون؛ مما يسمح للنور بالدخول والكشف، وكانت هناك حجرة دافئة تلي المغطس، لا يوجد فيها مواقد ولا يشم الإنسان رائحة الدخان منها، والماء الساخن يجري في قناة تجعل المكان دافئًا لطيفًا، وكان هناك مكان آخر يدخل منه

الماء البارد كذلك، ثم إننا خرجنا من مكان الاستحمام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين، وكنا جميعا مؤتزرين فاسترحنا قليلا، وتأهبنا للاستحمام الثاني، فدخلنا بيت الحرارة وهو الموضع الذي تكون فيه حرارة الماء على أشدها، فتركنا الشهاب للمدلك حينًا، حتى انتهى منه، وغسله بالماء الساخن الذي يوجد بمغطس، وخلال ذلك رحنا نداعبه ونهزر معه، وقد تعجبت من الكلام الصريح الذي تبادله الشهاب مع رفاقه، دون خجل ولا حياء، عن النكاح والشهوة وطرائق المجامعة، وما سوف تكون عليه حاله مع ريطة عند دخوله عليها.

كان الشهاب لم ينجب من امرأته الروايحية، وقد خشي على نفسه من انقطاع الذرية وضعف الباه، بعد أن عاشرها سنين بعد موت امرأته الأولى، زمن تفشي مرض الطاعون الدملي الذي اجتاح المدينة، ودون أن يعقب من هذه المرأة، وقد تعجبت من الحمامي، الذي راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب؛ إذ شارك في الحديث وأفتى، حتى أنه نصح الشهاب أن يكون معتدلاً في الامتلاء قبل الجماع؛ لأن الجماع على شبع يولّد وجع المفاصل، والنقرس،

والدوالي، والفتوق، والأورام الخبيثة، والجماع على الجـوع يضعف البصر، وينهك البدن، ويجلب الخفقـان، واليرقـان، والسل، وحمى الدق، وعقب أكل السمك أو اللـبن، يـورث الفالج، وبعد الحوامض يضعف العصب، ويورث الرعشـة، وأجود أوقاته النصف الأخير من الليل وقد انهضـم الطعـام وسخن باطن الرحم، وقال: إن الشهاب سعيد الطـالع؛ لأنـه سيدخل على عروسه والقمر في حال اتصال بـالزهرة، وإن اللذة ستكون عظيمة؛ لأن الوقت هو وقت البروج الهوائيـة، ووقت الميزان؛ لأنه لا يجوز الجماع والقمر في الترابية، ولا في الاحتراق، ولا قرب مفارقة الشمس، ولا عند الاتصـال بزحل والمريخ، وكان من الموجودين معنا واحد من أصحاب الشهاب يدعى خليل النساج فتكلم في أمر بدا غريبا، بالنسـبة إلي، إذ أشار إلى أنه كثير العزل مع امرأته وهو يخشـى أن يصيبه مكروه بسبب ذلك، وإنما هو اضطر إلى ذلك بسـبب تحرجه من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعـب في الكسب، ودخول مداخل السوء، وكان المزين قـد جـاء ليستلم الشهاب وحضر هذا الكلام فقال: إن العلماء اختلفـوا في إباحته وكراهته على أربعة مذاهب: فمن مبيح مطلقًا بكل

حال، ومن محرم بكل حال، وقال قائل يحل برضا المـرأة، ولا يحلّ دون رضاها، ومن قائل يباح فـي المملوكـة دون الحرة، لكنه من الآداب أن لا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، وإنه سمع كلاما من شيخ بخصـوص هذا ومنه أن الولد يتكون بوقوع النطفة في الـرحم لأربعـة أسباب، هي: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعـد الجماع، ثم الوقوف ليصب المني في الرحم، وبعـض هـذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكان الثالث كالثاني، والثاني كالأول، ولـيس هـذا كالإجهاض والوأد؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضا مراتب، وأول مراتب الوجود أن تقطـع النطفـة فـي الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحيـاة، وإفسـاد ذلك جناية، فإن صارت مضغة وعلقة، كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح استوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشـا، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حيا.

ثم إن المزين تعهد الشهاب، وكان رجلا خفيفًا رشـيقًا بصيرا بالحلاقة، فشذّب شعر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بأمواس جيدة، وقد اعتذر لنا عن علكه لبانا بمسك؛ لأنه أكل

ثوما وكراثًا؛ وهذا مما لا يجوز بالنسبة إلى من اشتغل بمهنة التزيين، المتطلبة طيب النكهة وحلو الرائحة.

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا، وبذلنا للقيمين والزبالين والوقادين، والسقائين، وكلّ من قاموا على خدمتنا في الحمام، واهتموا بالشهاب على أكمل وجه، ثم خرجنا بصاحبنا إلى داره، وقد تعطّر بطيوب زكية، وكان أن أُعِد مجلس رقص وطرب في قاعة رحبة من قاعات الدار، صفت فيها صنوف عدة من مآكل ومشارب فحفلت المائدة بهارونية لحم، وهريسة، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم في مطبخ الخليفة أثناء عملي بالوقايد؛ وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة، فأدركت أن ريطة ربما تكون قد عملتها خصيصا لأجل العرس، وكنت قد استعملت آنذاك عن كيفية صنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم في القصر، وهو كاظم بن سابور الطاهي، فقال: إنها تعمل من اللحم البقري السمين أو الضأن، وشرطه أن يكون لحما فتيا، نقيا من الجلود، والغدد، والعروق، والأعصاب، طريا غير مفتت ولا متغير الرائحة، ثم ينقع بعد غسله في الماء والملح، وينضج على نار هادئة

حتى يذوب اللحم مع البر الذي يضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولنجان، وقد قال كاظم أن هذا الطعام قد ابتـدع في زمن واحد من أكاسرة العجم يدعى كسرى أنوشروان.

وإضافة إلى ذلك كانت هنـاك نوفريـة، ومطجنـات. وموصلية، وكمونية ورءوس وأكارع، أما الحلويـات، فقـد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاظـات، والبـرزق المطبـوخ بالجبن، والجوارش المطيبة بالمسطكى، والنارنج، والعنبـر، والعود، والحلوى المأمونية، وهي من الأكلات التي كانت قد شاعت واشتهرت ببغداد منذ أن تحكم ذلك الخليفة في البلاد، ذلك عدا الخراريف المشوية والثريد، والأشـربة المسـكّرة، والمعطّرة بالرياحين وماء الورد، والكشك الطيب المعمـول بالأزر والخضرة والأدهان والسمن، المطبوخ بلحم الضـأن السمين، على عكس كشكنا في بر مصر، الذي يطبخ بسـمك البوري السمين أو ببعض الطيور المهاجرة الحاطـة علـى أراضينا كالسمان والبشروش وغيرها.

ثم ُأعِلن عن وصول أصحاب الملاهي والطرب، فلمـا اتّخذوا مواضعهم وبدءوا العزف بالعيدان، واللعب بالنايـات، والطنابير، والقيثارات، والمزاهر، والكنـارات، والنزهـات،

والصنوج، والشفرات، والرباب، والقانون، انتعشت الأرواح ونعمت بسحر الموسيقا، واسترخت الأجساد لحدوث النشـوة وبلوغ المتعة، وكانت سعادتي لا توصف لحضور الحسـين ابن فالح المراغي الذي لم أكن قد التقيته منذ زمـن طويـل، فتعانقنا ورحنا نتحادث طويلاً في أموره وأمـوري، وكيـف سارت أحوالي بعد أن فارقته منذ خروجي من قصر الخليفة، وبينما كنّا منشغلين بالكلام، سحبني الحسين لنجلس إلى جوار رجل من العوادين، وكان العازفون قد توقفوا ليأكلوا ويشربوا شيئًا قبل مواصلتهم الألحان. وكنت أدرك مدى شغف الحسين بالغناء والنغمات، ثم إنه سأل الرجل عن عوده؛ إذ رآه غريبا غير مألوف بخمسة أوتار، فقال العـواد أنـه مـن النـوع الزريابي الذي يعز مثله ببغداد، وأن الوتر الخامس فيه، قـد أضافه مغنّي الأندلس الأشهر زرياب، وإنه – أي الرجـل – اشتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب، وكان ذلك الـوتر اختراعا من زرياب، ضمن ما اخترع، فالصـنعة القديمـة كانت أربعة أوتار تحتيما للمناسبة العددية بين هذه الأوتـار والطبائع الأربعة، فزاد زرياب ذلك الوتر وصـبغه بـاللون الأحمر – كما يتّضح – وجعله متوسطًا في موضـعه بـين

الأوتار الأربعة، وذلك أن الزير، وهو أكثر أوتار العود حدة، كان يصبغ باللون الأصفر ليكون في العود بمنزلة الصـفراء في الجسد، وصبغ الوتر الثاني بعده باللون الأحمر وهو مـن العود بمنزلة الدم من الجسد، وهو في الغلاظ ضـعف الزيـر ويسمى المثنى، وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود وجعِلَ من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسمي البم، وهو أغلاظ أوتار العود وأعلاه من حيث الوضع، وهو ضعف المثلـث الـذي عطّل من الصبغ وترك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجعِلَ ضعف المثنى في الغلاظ فلذاك سمي المثلث، وهكذا قوبل كلّ طبع بضده حتى اعتـدل واسـتوى كاستواء الجسم بأخلاطه، فزاد زرياب هذا الوتر، وقـال: إن أوتار العود الأربعة على النحو الذي جرى عليـه العـرف، سايرت طبائع الجسد، لكنها عطلٌ من النفس، والنفس مقرونة بالدم، لهذا وجب إضافة الوتر الخـامس وصـبغه بـاللون الأحمر، وهو الوتر الأوسط الدموي، ويجب أن يكون تحـت المثلث، وفوق المثنى لاستكمال قوى الطبائع الأربع في العود وليكون مقام النفس في الجسد.

ثم إن العواد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته، وقال: إنها من قوادم النسر، وهذا مما أشار به زرياب أيضا، وهي أفعل وأكمل من الخشب؛ إذ تجمع إلى لطـف خفتهـا علـى الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه، فتعجبت لذلك كثيرا، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غايـة فـي حسن التناغم والإيقاع، فقامت جماعة من الحضور للـرقص والسرور، وكانوا غاية في الظرف وخفة الـروح، وحسـن الطبع على الإيقاع، فلما انتهوا وسكنوا، قامت جارية سوداء للرقص وكانت طويلـة العنـق والسـوالف، حسـنة الـدلّ والشمايل، والتمايل في الأعطاف، ودقة الخصـر، وحسـن أقسام الخلق، ومواقع المناطق، واستدارة الثياب في أسـافلها، ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع ولين المفاصل، وسرعة الانفتال فـي الدوران، فلم يتمالك خليل النساج نفسه وراح يغني قائلا:

ظبـــاء كالـــدنانير　　ملاح فـي المقاصـير
جلاهـــن الســـعانين　　علينـــا فـــي الزنـــانير
وقـــد زرفـــن أصـــداغا　　كأذنـــاب الزرازيـــر
وأقـــبلن بأوســـاط　　كأوســـاط الزنـــابير

فما كاد ينتهي حتى رأيت الشهاب يتغير لونه ويسـهم، وبدا لي متكدرا، وأظـن أن الجميـع لاحظـوا ذلـك؛ لأن اليشكري مال إلي وكان حاضرا إلى جـانبي، وقـد دعـاه الشهاب كرامة لي لما عرف بصحبتي له، ثم قال:

- ألم يجد هذا الرجل غير ذلك ليتغنى به في هذه الليلة، وفي عرس الشهاب؟. ألا يعلم أن هذا الغناء الذي شاع فـي المدينة الآن إنما هو من نظم الخليفة نفسه، وأنه سأل أحمـد بن صدفة الطنبوري أن ينشده له يوم السعانين، وهـو عيـد للنصارى يعملونه كل عام في المدينة. وكانـت بـين يـدي الخليفة عشرون وصيفة رومية مجلوبة، وقد تزين بالـديباج الرومي وعلّقن في أعناقهن صلبان الـذهب، وفـي أيـديهن الخواص والزيتون، فقال فيهن الخليفة ما قال. أو لا يعلم هذا الأحمق أن الشهاب من الكارهين للخليفة؟؛ لأن أهلـه مـن السواد بقرية من القرى المحيطة ببغداد، وأن جنود الخليفة قد جاروا على أرض وزرع لهم، وسرقوا دواب تخصهم، دون أن يفعل لهم شيئًا أو يعاقبوا على هذا الإثم الشنيع. ويقال: إن الشهاب – وا أعلم – بات ينتسب إلى جماعة من الجماعات

المناهضة لبني العباس، وقد يوبخونه على ذلك الغناء، فلابد أن يكون بعضهم هنا ضمن الحاضرين.

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرة، فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبدا، مع معاشرتي له، وإقامتي في بيته منذ خروجي من قصر الخليفة. صحيح أنني لا أذهب إليه بعد مغادرته في الصباح الباكر إلا لأبيت في الليل، لكني لم ألحظ عليه أمرا يدل على أن له جماعة تناقض دولة الخليفة، وإن كان يبدو لي متذمرا، متبرما مما يحدث في البلاد، وفي مرة سألته عن حقيقة الفارس ذي الرمح المنتصب على قبة السور فضحك، وقال: إنه يتجه الآن بسهمه إلى البذّ بخراسان. فلم أفتهم ذلك وقتها، لكني علمت بعد ذلك من اليشكري أن لبذّ هي بلد واحد من الخارجين على الخليفة اسمه بابك.

لم أعلّق على ما همس اليشكري به في أذني، وقلت لروحي: في بغداد كل شيء جائز حتى نكاح العجائز، وهذه مدينة الغرائب والعجائب ذات الأوجه الألف، والتي كلما ظننت أنني أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوهها، أسفرت لي عن وجه جديد لها.

كان رأسي قد بدأ يدور وقد شربت شـيئًا ممـا يسـكر مجاراة للجميع ورغبة في إبراز المرح والسـرور، فبقيـت ساهما متفكرا بينما عيناي تتابعـان الراقصـين، ورقصـهم المستعر، وصخبهم، خصوصا عندما بدءوا يرقصون نوعـا من الرقص العجمي، كان قد شاع في بغداد، يسمى الدسـتنبد والإيلا، وكنت حينئذ أفكر في آمونة، وسويلا، وريطة، ومـا كان من أمرهن معي، وكان هجسي بريطـة يـأكلني مـن الداخل، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بهـا بعـد ذلـك؛ خصوصا بعد ما سمعته الآن عن الشهاب الحـلاج، وتبـدل أيامها من حياة العز والقصور، إلى حياة الرعية، وتواضـع الدور، فها هي خرجت من قصر لتستقر في ربـع، وكانـت ذات يوم جارية مرغوبة، فصـارت الآن حضـرة منكوبـة، ورحت أسائل نفسي: هل جنيت عليها يوم وضعني القدر في طريقها، فربط مصيرها بمصيري بعد ما جرى فـي قصـر الخليفة، أم كان ذلك مقدرا مكتوبا في لوحها المحفوظ قبل أن تولد، فتحتّم عليها الخروج من رقّ الغنى إلى حرية الفقـر، ومن ذلّ القصور المنسوج بالذهب والفضـة، إلـى كرامـة الستر، وتواضع العيش؟.

خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام، بعد أن رتّب الشـهاب كل ما يتعلّق بأمر خروجي، فكانت مغادرتي المدينـة وقـت اقتران الرأس والمشترى كما قال لي، وكنت قد ذهبت إلـى زاوية شيخي وصلّيت ركعتي، ودعوت ا – تبارك وتعالى – أن ييسر لي أمرين وكان اليشكري في وداعي، وقد أهداني قميصين وبدنة بغدادية، لم أر أجمل منها؛ لأرتـديها وقـت السفر، فشكرته بعد أن اعتنقنا طويلاً ثـم ركبـت راحلتـي وكانت بزدونا عفيا، قدمه لي الشهاب، وقد أعطتني امرأتـه الروايحية عطورا في قوارير زجاجية عدة؛ كي أهديها لمـن أشاء أو أتربح بها، وقد أنتفع ببيعها إذا ما اضطررت أثنـاء الطريق.

كانت بجيبي دراهم قليلة، وكنـت قـد دفعـت معظـم دراهمي التي اكتسبتها أثناء اشتغالي في الوراقة، والتي كنت أدخرها لدى امرأة الشهاب، إلى صاحب القافلة التي سـتؤمن رحلتي قبل خروجي من المدينة. أما ريطة فقد زودتني بكعك السميذ، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر، وتمنّت لي كلّ خير وراحت تدعو ا طويلا أن يشملني برعايته وبكـل أمان وتوفيق.

ظللنا سائرين لمدة يومين بعد خروجنـا، لـم تتوقـف خلالهما القافلة إلا للراحة أو النوم، حتى بلغنا مدينة القـدس، فلما نظرتها وجدتها أنها مدينة مشيدة على جبـل، وكانـت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشدة، فقالوا لنا: إن هذا دأبهـا في القدس. وكان الغرض من دخولها هو أن يطرح بعـض التجار الذين في القافلة جانبا من تجارتهم وبضائعهم فيهـا، فلما أذن الحراس لنا بالولوج إلى داخـل المدينـة قاصـدين أسواقها، سيرونا إلى موضع يطلق عليه الأسـواق الـثلاث، بالقرب من باب المحراب، وكان به سوق للعطارين وآخـر للقماشين، ثم إننا عبرنا القيساريات، والخانات، والرباع التي فوقها، ثم الفنادق، حتى وصلنا إلى خان كبيـر مبنـي مـن الحجر الوردي الجميل، وكان يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطّى، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا، وكان هذا الخان ما عرفت بعد ذلك يسمى خان الفحم ويقع في الشارع الرئيسـي مـن المدينة، المسمى بخطّ داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتداؤه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة إلى بـاب المحراب، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل.

وكنت خلال الطريق قد تعرفت على رجل يتاجر بالبهار، وبدا لي من أفضل الناس وأحسنهم خلقًا، وكان سبب ذلك أنه في مبتدأ الأمر، وأثناء وقوفنا للراحة في قرية من القرى التي كنا نتوقف عندها بين الحين والحين على الطريق الخارجة من بغداد، كنت ألاحظ أن الرجل كثيرا ما ينظر إلي ويتفحصني، فكرهت ذلك منه، وتمللت وقد استربت به، فبادرته بالقول:

- يا شيخ قد ألححت في النظر، أعرفت شيئًا عني فأنكرته؟. قال: لا وا ما عرفتك قبل رحيلنا هذا، ولا أنكرك لسوء أراه فيك، لكني رجل حسن الفراسة في الناس، جيد المعرفة بهم، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسك، ولسوف تبذل جهدا ووقتًا حتى تجده، وهو جِد مريض، وقد تدركه أو لا تدركه، فهذا أمر لا يعلمه إلا ا ، لكنّك في طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذي بدأته، ولن تعود منه أبدا. فتعجبت لذلك كثيرا، وإن كنت انقبضت وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزيز عيني ثاونا، فلما سألته كيف تفطّن إلى هذا، أمسك، وبدا وكأنه متمنع عن

البوح بأمره لمن هو مثلي، فداخلني ضـيق وقـد كرهـت استعلاءه، فألححت عليه وقلت:

- إن ما أفضيت به إنما هو من قبيل الشعوذة والخرافة، فلا يعلم الغيب إلا ا . ألم تقـرأ الآيـة الكريمـة: (كـذب المنجمون ولو صدقوا)؟ فرد بالسلام، وقد أدرك ما ببـاطن كلامي: لا. لست منجما وا ، والفراسة علم وبحر، ألم تسمع ما فاض به الشيخ الفيلسوف عن ذلك، إذ قال:

"وإن البصر البراني، لا يرى المحسوسات إلـى حـين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفي الحواجز التي تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك البصر الجواني، ليس في مقدوره أن يدرك العالم الروحاني، إلا إذا تطهرت مرآة القلب من الشهوات، التي تمنع انعكاس النور الإلهي"؟.

ثم أضاف:

- لقد قرأت ما أنت مقبل عليه بالفراسة، وقد لاحظتـك وراقبتك أثناء الطريق، وخبرت شدة صوتك وضعفه، ونزوع رقبتك وحركتها، ورسم أنفك وعينيـك، وأحـوال شـعرك، ورائحة بدنك، وحالة أسنانك، وصورة يديك وقـدميك، ومـا عليه حال أظافرك وأصـابعك، فتعجبـت لكلامـه كثيـرا،

وتذكرت أن شيخًا من أحناف حران قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالبا نسخ كتاب وصفه بأنه عزيز ونادر، وقـال: إن الخليفة منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثـور على نسخة منه وترجمته إلى العربية، لما به من فوائد حكيمة وثمار معرفية، وإن المترجم ذهب مرتحلاً بنفسه إلى بـلاد اليونان، فيما وراء البحر الرومي، وعثر على الكتاب وكـان اسمه سر الأسرار، وهو من وضـع حكـيم قـديم، يـدعى أرسطو، لملك من أشهر الملوك، وكان ذلك في معبـد مـن معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس، وإن هذا كتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المعظم ثلاثًا، وإن الرجـل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها.

وأثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة، وكان ببلاد اليونان، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار فحاصر عاصمتهم، ودوخها، وخربها، وقتل خلقًا كثيرا، وبلغت منـه الفظاظة أن جعل يسطّح الفتيان على الحضـيض، ويطـأهم بالجراجر.

ثم إنّه بعد ماجن الليل ونمنا، تنبهنا جميعا على صـوت ضحك عال وقهقهات زائدة عن الحد، فقمنا نستجلي الأمـر،

فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبـة ضـحك، لا يسـتطيع السكوت عنها أو الفكاك منها، وعجزنا عـن إسـكاته بكـلّ الطرق والحيل، بما في ذلك الزجـر، والشـتم، والضـرب، وصب الماء، والإيلام بالوخز، واللطم، والقـرص، وقـراءة الآيات الرادعة، وقد ظن البعض أنـه أصـيب بمـس مـن شيطان، وما لبث على هذه الحال ساعة إلا ومات، فارتـاب بعض الشيوخ الذين كانوا معنا في الأمر، وكان مع الرجـل عبد حبشي أسود، فأخذوه للتقرير، وراحوا يسوطوه بشدة بعد توثيقه، حتى أُدمي ولم يستطع مناهضة الألم، فأقر أنّه سـقى الرجل سما يسمى السم الضحاك، فلما أراد هـؤلاء الشـيوخ الوقوف على كنهه، أخبرهم أنه أخذ من القرنفـل عشـرين درهم، ومن الدار صيني مائة درهم، ومن الزنجبيل خمسين درهما، ومن الفلفل خمسين درهما، ودقّ ذلك كله دقًا ناعما، ثم ألقي عليه وزن خمسة أرطال من الماء، ونقعه يوما وليلة، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقه دقًا ناعما، ونقعه فـي الماء، الذي هو خمسة أرطال، مخلوطًا بـالأجزاء السـابقة، وتركه أيضا يوما وليلة، وبعد ذلك مرسه، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطـل، وتركـه

يوما وليلة، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سـما قـاتلاً، وإنّه أعطى المغدور منه وزن درهمين، وقت عشائه، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيده شرب العسل المخلوط بماء بعد صلاة العشاء؛ وكان ذلك كله بسبب أن الرجل هدده أكثر من مرة بخصيه، بعد أن اتّهمه بالتقاعس عن العمـل، وإنـه كان يخشى أن يقوم سيده بذلك كثيرا، وخاف أن يفعل ذلـك عندما تهبط القافلة إلى مصر.

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلّموه إلى متولي الدرك بالمدينة. أما الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السـوق كفنًا له، فغسلناه، وكفنّاه به، ومضينا به خارجين من الخـان حتى مسجد المدينة الأعظم، فصلّينا عليه وواريناه في مقبرة بالقرب من المسجد، أما تجارته فقد حصرناها وبقيت وديعة لدى صاحب الخان؛ حتى يطير البرق إلى ذويه.

لم أكن قد رأيت مسجدا بعظمة المسجد الأقصى، فلمـا خرجنا من المقبرة استأذنت من كـانوا معـي أن أتـركهم، وعدت إليه لأجوب فيه وأشاهده بتمعن وتمحيص، وقد تأكـد لي أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة، الرائعة، فائقة الحسن، وهو ذو أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، والمسجد كله فضاء،

وغير مسقف إلا من عند نهايته، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقـة، وصـحنه طويل عريض، طوله أكثر من عرضه، وهـو فـي غايـة الحسن والإحكام، مبني على أعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي لم أر أحسن منها ولا حتى في كنيسة أنطاكية، وفي ذلك الصحن مصطبة كبيرة في ارتفاع خمس أذرع يصعد إليهـا من عدة مواضع بالدرج، وفي وسط هـذه المصـطبة قُبـة عظيمة مثمنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص، منمقة مـن الداخل والخارج بالفسيفساء، ومطبعة بالرخام الملون، وفـي وسطها الصخر التي تُزار، وعلى طرفها أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتها مغارة، ينْزل إليها بعدة درج يصلّى فيها، ولهذه القبة أربعة أبواب وفي شرقيها، خارج القُبة، قُبة أخرى على أعمدة حسنة، يقولون أنها قُبة السلسـلة، وقبـة المعراج أيضا على المصطبة، وكذلك قُبة النبـي صـلى ا عليه وسلم، كلّ ذلك على أعمدة مطبع أعلاها بالرصـاص، هذا وقت حفرت في أرض المسـجد أحـواض وصـهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيد كله على صخرة يتجمع فيها مـاء المطر؛ فلا تضيع منه قطرة وينتفع به الناس.

ظللت أطوف بالمسجد حتى ما بعد صلاة العصر، فلمـا توضأت وصلّيت وحمدت ا ، انصرفت إلى جوار حائط من الحوائط بصحن المسجد، فجلست وكنت قد تعبت من كثـرة التجوال في الجامع، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة، مـع عدم كفايتي من النوم في الليلة الفائتة، وبقيت وقتًـا متـأملاً أحدق في السموات المفتوحة فوقي، والأرض الظاهرة علـى البعد أمامي، بمروجها، وزروعهـا، وتلالهـا، ومنازلهـا، ورحت أتفكّر فيما قاله شيخي ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه، إذ قال:

- وجدت الحر مضادا للبـرد، ووجـدت الضـدين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات نفسـيهما، فعملـت مـن وجودهما مجتمعين أن لهما جامعا جمعهما، وقاهرا قهرهمـا على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل عل حدثه، وعلى أن له محـدثًا أحدثه، ومخترعا اخترعه، لا يشبهه؛ لأن حكم مـا أشـبهه حكمه في دلالته على الحدث، وهو ا رب العالمين.

وبقيت على هذي الحال وقتًا أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائي ولانت، وضعفت ملكاتي، وتشوش صفاء

تنبهي، فحدثتني نفسي أن أستسلم إلى ما يلزمني من وجبة نوم، تعينني على ما تبقى من النهار، وما قد يكون في الخان بالليل، وبقيت وقتًا مفتوح العينين ساكنًا، أحدق في السماوات المفتوحة فوقي وأتأمل عظمة الخالق، وقد لفّني نسيم رطيب أنعش روحي، وسكّن حواسي، وشيئًا فشيئًا وجدتني أدخل في نوم هانئ رضي، ولا أدري كم لبثت من الوقت على هذي الحال؛ إذ أفقت على حلم لا أدري أكان، أم كان ما رأيته هو رؤية الحقيقة والعيان؟!. إذ وجدت عزيز عيني ثاونا، وقد جاءني على الهيئة التي رأيته فيها من قبل، أثناء اختبائي في الأراضي الموحلة، وهو واقف على علّية وبيده نقف ويقول لي بوجهه النوراني الطيب:

- لم السرعة؟!. ابق في مدينة الأنبياء حتى تشبع روحك، وتُعمر بالإيمان، ثم تعال.. سأنتظرك حتى تجيء.

بقيت فترة واجما حائرا.. لا أصل إلى يقين حول ما وقفت عليه، ورؤيتي لثاونا، ثم إن ا هداني إلى أمر، وفتح لي فتحا مبينًا؛ إذ قر أمري على عكس ما كنت أنتويه وعزمت عليه، قمت بسرعة، وذهبت إلى الخان، وهناك التقيت رئيس القافلة، فأنبأته أنني لن أرحل معهم في صبيحة

اليوم التالي، وسأبقى وقتًا في مدينة الأنبياء هذه. ثـم إننـي جمعت حوائجي القليلة وخرجت بعد توديعي لكل من كـانوا معي، وبينما أنا خارج إذ التقيت على الباب الفَراس الذي كان قد كلمني من قبل، فلما أخذت في توديعه نظر إلي قليلاً، ثـم قال:

- ألم أقل لك أنك ستمضي في طريقه لن تعـود منـه أبدا؟.

سحتُ في القدس زمنًا، ومـرت علـي شـتاءات وراء شتاءات، وأصياف وراء أصياف، وقد تعودتني المدينة مثلما تعودتها، فصرت أبيت في الجوامع حينًا، وفي الأسواق حينًا، وفي براريها أو بساتينها حينًا آخر، وقد أخذتني المدينة، كما لم تأخذني مدينة أخرى من قبل، وبت لا أستطيع البعد عنها، وكأن روحي لا تعرف موضعا في هذه الدنيا كلها لتسـتريح وتطمئن إلا فيها.

كنت أنصرف إلى الكنائس أياما وإلى المسـاجد أيامـا أُخر، أو أصعد القلعة فأنصرف إلى الجانـب الغربـي مـن سورها إلى محراب داود بقاب الجامع المبني هناك، وأبقـى في المرتفع الذي يطلع إليه بدرج حيث مكان جلوس النبـي

داود عليه السلام، وأظل وقتًا أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغايص في الحجر، وأتعجب لتلك البلاطة التي طبع عليها المرفق، أما كنيسة القيامة، والتي عماراتها من العجائب المذكورة، فكنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيد على الحجر، والموضع الحجري الذي بِسِط وجلد وتعذب فيه عليه السلام، وكذا السجن الذي وضع فيه، وكنت أبقى حتى يأتي واحد من آل نسيبة أو آل جودة وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوطًا بهما فتح وإغلاق الكنيسة وحفظ مفاتيحها.

وصرت أتعيش بما يقدمه لي الناس من صدقة وإحسان، وقد انصرفت في جلّ وقتي إلى الصلاة والتعبد، وفضلت السياحة على سواها من أمور الدنيا، فكنت أنحدر حينًا إلى دير المصلّبة، وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس، محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم والتين، بإزاء قرية تجري على الدير، وكانت بداخل الدير صور يونانية غاية في محاسن التصوير، وتناسب المقادير، وأذهب حينًا آخر إلى نشز عال مشرف على غور أريحا، به دير يسمى دير السيق، وهو مطلّ على تلك البسائط

الخضر ومجرى الشريعة، فكان يتلقاني هناك رهبان طُراف أكياس، فيقدمون لي مما عندهم من خبز وفاكهة ويتركـونني أنصرف إلى التأمل أو الصلاة، وبقعتهم لا يأتيها إلا قاصـدا لهم أو مار في مزارع الغور تحتهم، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر بعد ذلك.

وقد حدث أنني كنت في واد يسمى وادي اليوسـيفات، وبه عين ماء، فوجدت جماعة من النساء قد جـئن وبيـنهن امرأة شابة من أجمل خلق ا ، ثم إنهن دفعن بـالمرأة إلـى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء، وشرب منها، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها، هللن جميعا، زغردن، وقلن أنها طائرة بريئة، فتعجبت لذلك واستجليت الأمر، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء، أو نبع النساء المتّهمات، فـأي واحدة تُتهم في شرفها يؤتى بها إلى هذا الموضع لاختبارها، فمن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة، أما إذا كانت بريئة فلا تصاب بأي أذى أو ضرر، ويقال: إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت الاختبار، وشربت من ماء هذي العين، فبرهنت على طهرها فلم تطعن وتموت، ومنذ ذلـك الحـين والنبع يحمل اسمها.

لا أدري كم من الوقت مر بي وأنا في مدينة الأنبيـاء، ولقد مرت أيام وشهور وأنا أسوح فيها هنـا وهنـاك، وقـد صفت نفسي بها، وهنأ عيشي بربوعها، على الرغم من أنني كنت بلا عمل، أتعيش من ثمار البراري وأشرب مـن ميـاه الينابيع، وأتقوت بما يجود الناس علي به بين الحين والحين، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئًا، فلقد كنت أذهـب إلـى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة، فأطلب بـبعض مـن الدريهمات التي معي شيئًا مطبوخًا، أو مشويا آكله، فأجد من يقدمه لي وهو يدفع بيدي رافضا أخذ الثمن، ومـرة رفـض صاحب دكان أن يأخذ مني أكثر من دانـق مقابـل صـحن مملوء بخبيصة لحم وخضار، وكنـت أتعجـب لأن مطـاعم السوق تكثر هنا في القدس، وتشيع عادة الأكـل فيهـا بـين الناس، على عكس بغداد التي قلما يأكل الناس فيهـا خـارج بيوتهم.

ثم إنه حدث لي أمر غاية في الغرابة والتوفيق، وبدا لي أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فبينما كنت سـاهرا ذات ليلة في زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة، وبعـد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وصـلة ذكـر وإنشـاد،

أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر، وبلغنا حالاً من النشوة وشدة الوجد فتحتمت الدوسة، فما كان إلا أن تمددنا جميعا على الحضيض، شاهرين كل سلاح نتسلح به من سيف، ورمح، وخنجر، وسكين، ثم جاء الشيخ الرئيس الواصل، وقد تجلّى وانجلى وأطلّ فأشع، وعكف فكشف، وسار بفرسه واطئا جسومنا، ورماحنا، وسيوفنا بالحوافز، ولساننا يلهج بذكر الجلالة، وقلوبنا تدقّ بحب الحبيب، حتى واعدنا فغبنا، فما إن قمنا حتى ظهر على باب الزاوية رجل مشعث مغبر يدخل إليها وهو في حالة شديدة من الضعف والإعياء؛ طالبا إغاثته بشربة ماء، فلما هرعنا لنجدته جميعا وسقيناه تبينت أنه اليشكري الأبرص، فلم أتمالك نفسي وارتميت عليه وأعتنقه وأقبله شاكرا ا على لقائي به مرة أخرى في هذه الدنيا، ثم إننا أطعمناه وتركناه يستريح حتى يسترد أنفاسه، فلما تحسنت حالته خرجنا معا إلى البساتين التي بظاهر المدينة، وتخيرنا موضعا من المواضع فيها، ورحنا نحكي لبعضنا البعض ما جرى لنا بعد افتراقنا في بغداد، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الربانية، فقال لي اليشكري: إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأتيه إلى مدينة

مرو، وهي بلدة امرأته الروايحية، بعد أن ضاق العيش به في بغداد، وإن الخليفة مات، وجاء بعده خليفة آخر، وهو ظـالم جاهل من أرباب السيف والرمح، ثم إن الزطّ وهم من الهنود الغجر المتوطنين بالسواد في نواحي البصرة ما بين النهرين، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد، بعد أن ضـاقت بهـم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى، وأنه استعمل ضدهم جماعة من المصريين، الذين كان الخليفة السابق قد وضعهم في أنطاكية، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغداد لمحاربة هؤلاء الزطّ، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصب فيها الفرات ودجلة، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليهـا ومقـاتلتهم؛ لأنهم كانوا يحاربون وهم في قواربهم، فقاتلوهم بـالمزاريق وبعجوهم، فالتفّ عليهم الأقباط وأمسكوهم، وأمسكوا أهاليهم، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف، متولي العسكر لقتالهم مـن قبل الخليفة، إلى بغداد، بعد أن طلبوا الأمان فأمنهم، وكـانوا يعدون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفًا بين رجل وامرأة وصبي، فجعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، وقد خرج كثير من أهالي بغداد لمشـاهدتهم وكنـت مـنهم، وكانوا في زواريقهم وعلى هيئـتهم فـي الحـرب، معهـم

البوقات، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسية، فبقى الخليفـة في سفينة يقال لها الزور حتى مر به الزط، على تعبئـتهم، ينفخون بالبوقات، فكان أولهم في القفص وآخـرهم بحـذاء الشماسية، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبـر بهـم إلـى الجانب الشرقي وذهب بهم إلى بلادة تدعى خانقين، وقيل أنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالثغر يسمى عين زربة، فلما سمعت ذلك، دقّ قلبي دقًا عنيفًا، وقد أُخذت بمـا قـال، وتذكرت بخنس بن أيوب، وحيرتي مما يمكن أن يكون قـد جرى له، وعدم وقوفي على حاله منذ مفارقتي إياه في شاطئ الفرما، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من بر مصر، وبقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتم فرزنا هنـاك، وكنت قد علمت أن كثيرا من الناس ممن لم يباعوا من أهـل البشمور، وقد وطّنوا، بأمر الخليفة، على جانب من بحيـرة أنطاكية، في منطقة المستنقعات التي بشمال المدينة؛ لتشابه ما خلق ا من أراضيها من كور البشمور.

قلت بلهفة متسائلا:

- والأقباط ؟. قل لي با عليك، ماذا كان من أمرهم؟.

نظر إلي اليشكري بدهشة وكأنه استغرب سـؤالي، أو استنكره، وبدا لي وكأني سألته عن أمر لم يكن قد خطر على باله أو فكّر فيه من قبل، فقال بينما هو يخلع عمامته، ويعيـد جدل ضفيرة شعره الأسود الحريري وقد التمع على ضـوء الشموع القليلة التي أوشكت على الذواء:

- الأقباط؟. قلت لك أن الخليفة استخدمهم فـي محـاط الزطّ، لكن لا أدري من أمرهم شيئًا. ربما ظلّوا في مواضع الزط التي رحلوا عنها يشتغلون بما كان يشتغل به هؤلاء من صيد للأسماك، وتربية الجاموس، وعمل الملح، ولـم روث البهائم لعمل الوقايد وتغذية أرض الزراعة، وربما حلّوا محل الزطّ في الوحلات والمواضع التي حول البصـرة، كواسـط ونجيدا وصافية.

ثم إنه بدا كمن استدرك أمرا وقال مازحا:

- لكن سؤالك عجيب، لا أحد يفكر في أمـر الأقبـاط، على الرغم من كل ذلك الذي جرى لك، وعلى الرغم من كل ذلك المكوث في بغداد، وإسلامك، تفكّر في الأقبـاط؟. وا يبدو أن بداخلك قبطيا، أو فرعونًا من الفراعين. في الحقيقة،

إن ذهني لم يتطرق إلى التفكير في ذلك من قبل، ثم إنه ضحك وقال:

- في أنطاكية. في مصر. في الشام. في بغداد.. كلها أرض ا وبلاد الخليفة. كلنا عبيد ا . لا أظن أن مكروها لحق بهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كان الخليفة قد استخدمهم لمحاربة الزطّ، وما يقع لهم، يقع لسواهم، سواء في بغداد أو أنطاكية، أو مرو، أو خراسان، أو مصر، أو ما يقع لكل من لا حيلة في هذه الدنيا، ولا قدرة لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان.

ثم إنه سهم ببصره طويلا، وقد تلبدت عيناه بغيوم غم وضيق، ثم صرخ صرخة عظيمة فجأة وصاح: يا حبيب.. يا مجيب.

رحت أمد بصري إلى الأفق القدسي أمامي، متطلعا إلى نجمات أشعت علينا من السماء، أفكر فيما قال، وضيق يداخلني؛ إذ إن ما أجابني به لم يشف غليلي، ولم يرد على سؤالي، فبقيت ساكنا في موضعي، بينما قلبي ينفطر على بخنس بن أيوب، وكنت أتساءل: تُرى، هل وصل سالما إلى أنطاكية بعد فراقي له في الفرما، وجلب مرة أخرى إلى بغداد

لمحاربة الزطّ، أم بيع في سوق النخاسة بالشام، أم لقي حتفه وقُبر بمياه البحر الرومي التي لا منتهى لها؟. كانت الحسرة تأكل قلبي عليه، وعلى كل الذين رحلوا إلـى السـفن، وقـد أيقنت أن من ماتوا في الطريق إلى أنطاكية اسـتراحوا مـن عذاب جديد، كان بانتظار أولئك الذين شاء ا أن يظلوا على قيد الحياة، وسرعان ما تذكرت ثاونا، وما قاله لي ذات يوم، من أن الروم في زمن سطوتهم وبطشهم بمصر من دهـور، كانوا يستخدمون الأقباط وقودا لحروبهم، حتى أنّهم حـاربوا مرة في بلد فوق البحر الرومـي وبـلاد الجريـك يسـمى سويزرة، وكانوا يأخذون الجميع معهم، بما في ذلك النسـاء القبطيات الورعات لرعاية الجرحى والتطبيب والتمـريض، وكانت واحدة من هؤلاء النسوة يعقوبية طاهرة، فراحت تُعلم هؤلاء الناس، في سويزرة هذه، أصول النظافـة والعـلاج، والديانة الحقة حتى استشهدت وهي قديسة متفانية، فصـنعوا لها ضريحا ورسموا لها أيقونة، وعملوا كنيسة على اسـمها تسمى كنيسة فيرينا.

داخلني شعور جارف بالألم والمرارة، وشملني حـزن نبيل، بينما كنت أتذكر كل ذلك، وطارت عصافير شوقي إلى

بر مصر، فرعف راعف الحنين بـ دمي، وتفجـرت ينـابيع دمعي بلهفة الرواح والعودة إلى ترابي، وسـمائي، ونيلـي، وشمسي، ورحت أهمس لنفسي بما كانت قد دفعت إلـي بـه الروايحية امرأة الشهاب، ذات يـوم؛ لأكتبـه لواحـدة مـن صويحباتها، كانت على وشك الرحيل من بغداد إلى غزة، مع رجل زوجوه لها من هذه البلدة، فأرادت أن توشي بعضا من أثوابها بجميل العبارات وأحسنها، كما جرت العادة وابتـدع في ذاك الوقت ببغداد، فكتبت لها – ضمن ما كتبت – علـى صدر قميص خز أكحل بالفضة والذهب، ما يذكّرها بأهلهـا ووطنها، وكان ذلك بخطّ كوفي نيسابوري شـاع واسـتُحب كثيرا لدى الناس:

سقى ا أرض العاشقين بغيثـــــــــــــــــــــه وأعطى ذوي الهيئـات فـوق منـــــــــــــــــــاهم		ورد إلى الأوطان كل غريب ومتـع محبوبـا بقـرب حبيـب

ثم إني بقيت في البستان وقتًا مع اليشكري، فأخبرني أنه هبط المدينة؛ للبقاء فيها بضعة أيام، قبل رحيله إلى دمشـق، وقد طلبها للعمل عند بعض وراقيها، كما وعـده الجـوهري

الذي التقاه في بغداد، وأنه راغب كذلك في زيارة مساجدها، ومقامات الأنبياء فيها، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيد قواه، ويبرأ مما هو فيه؛ لأنه سار طويلا على قدميه، بعد أن مرضت راحلته ولم تعد تتحمل الركوب، فعرضـت عليه أن نبيت في جانب من البستان الذي نحن فيه، ثم نسعى إلى حلّ مشكلته في المدينة عندما يحلّ الصباح إن شاء ا .

وبقينا ساهرين نتحادث حتى قرب طلوع النهار، وظـلّ اليشكري يحكي لي عن أمور بغداد، وما اسـتجد بهـا مـن أحداث بعد رحيلي، فقال أن الأحوال بها صارت على غيـر ما يرام، وإن أكثر الناس أصبحوا في ضيق العيش وصارت العامة كثيرة التذمر، بعد أن فشا أمر الشـطار، والعيـارين، والمكدية، وغلب الفقر، حتى أن أكثر الناس صارت لا تأكل إلا السويق المصنوع من طحين الحنطة، أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان، وهـذا كـان لا يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هي الأكلة الفريدة التي لا تعرف غيرها كثير من البطون، حتى أن بعض الظرفـاء قال فيها:

إن الهريسة أهواها وتعجبني   وبالهبيطة قلبي جد مفتون
وإن ذكرت سواها هاج لي طربا   وإن أتى بعده لونان يكفيني

وقد تفشى الإملاق، وبات الناس يرفعون الرقـع إلـى الخليفة وأولي الأمر، حتى أن أحدهم كتب في واحدة من هذه الرقع:

"إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتني، فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني، فلم يسبق لي ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندثر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبدا ولا لبدا، وعلي دين كثير، ولي عيال، وأطفال، وصبية صغار، وأنا شيخ كبير قد قعدت بي المطالب وكبرت عين المكاسب، وبي نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال من قال:

لي بيت كأنه بيت شعر   لابن حجاج من قصيد سخيف مثله
أين للعنكبوت بيت ضعيف   وهو مثل عقلي الضعيف
بقعة صد مطلع الشمس عنها   فأنا مذ سكنتها في الكسوف

وقال: إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشـرطة والافتتان معها، وصبوا المـاء علـيهم، وطـاردوهم فـي

الشوارع، كما أنهم أولعوا بأذى الخـدم السـود، وصـاروا يقولون لهم كلما صادفوهم: يا عقيق. وهم ينظّمون أنفسـهم إلى عشرات، على كل عشرة منها عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشـرة قواد أمير، والرئيس وتحت إمرته عشرة أمراء، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكري العياري، ومن رؤسائهم من يقال له نبتوية، وخالويه، ودويل، ودغال، وأبو نملة، وأبو عصـارة، وديكويه، والمخرمي، وإن البعض يقول أن عـددهم ببغـداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عيار، حتى أنهم إذا تحركوا هلك بعضهم من كثرة عددهم وسرعتهم، وأنهم لا جنس معينًا لهم، بل إن أكثرهم من غير العرب، وبسبب سوء الأحـوال فـإن كثيرا من أهل الحرف، والباعة المتجولين، وصغار التجـار، الذين كسدت سوقهم وبارت بضاعتهم، باتوا ينضمون إليهم، إضافة إلى الأوباش وأهل السجون وأهل السوق.

لم نشعر كما لبثنا نائمين؛ إذ أفقنا قرب الظهيرة علـى صوت جلبة وصياح، فلما تبينا الأمـر وتنبهنـا، وجـدنا أن أصحاب البستان قد جاءوا لشؤونهم فظنوا أننا لصان جـاءا لسرقة مالهم وغلتهم، فأفهمناهم ما كان من أمرنا، وأننا مـن

الفقراء إلى ا الذين لا غاية لهم في هذه الدنيا، وأننا لسـنا بسارقين، فلما استقروا على أمرنا، وآمنوا بحكايتنا، أكرمونا، وأطعمونا من خيرات أرضهم، ثم إننا سألناهم عـن بيطـار يداوي دابة اليشكري فوصفوا لنا واحدا يقع دكانـه بحـارة اليهود.

سحبنا البهيمة بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حارة اليهـود، وهو طريق يصل ما بين شارع داود وسور المدينة ولـيس ببعيد عن بوابة صهيون، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قبل، وكانت منازل قليلة متناثرة في المكان هنا وهناك وكانت بالحارة بضعة حوانيت معدودة، وقد وقف أصـحابها علـى أبوابها أو للعمل فيها، وأكثرهم على حال بينـة مـن الفقـر والرثاث، ثم إننا دلفنا إلى حارة أضيق، ضمن هذه الحـارة، تسمى حارة الريشة، وكانت هي المقصود والتي دلنا عليهـا أصحاب البستان، فسألنا عن البيطار نحمـان بـن عويـديا، فدلونا على دكانه، فلما وصلناه استقبلنا الرجل، وسألنا عـن علة البغل الذي لليشكري، فقال اليشكري: إنّه يعـاني كثـرة حركة الرأس وقلة الأكل وسيلان الأنف وقد ظهر له بـروز مستطيل خلف الأذن، وهو لا يقوى على الحركة والنشـاط،

وكنت خلال ذلك أنظر إلى البيطار وأتأمل أدواته، فوجـدت أنه ليس بالنظيف، ولا لطيف الهيئة، كما جرت العـادة فـي أطباء الناس، لكنه بدا لي قوي الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصوحا، صدوقًا، وكانت في دكانه الوسـيع ثـلاث مطارق كبرى، قد تفوق سبعمائة من الـدراهم وزنـا وفـق تقديرين وهو ما يستخدم فيما يبدو في اعوجـاج المسـامير، والتطابيق، وسائر الآلات، وكانت هنـاك كـذلك مطـارق وسطى للدقوقات الأوائل، وبعض التقويم، وبها تعدل غالـب الآلات، ومطارق صغرى لأجل التبشيم، وتقويم المباضـع، وأقل ما تكون في تقديري من حيث الـوزن مائـة درهـم، وكانت لديه تسعة مباضع، بعضها دقيق لطيف، وبعضها أملاً من ذلك، وكانت لديه كذلك قرم، وشنج، ومكـاوٍ، وكلبـات، ومزاعط، وأميال، ومقراضين: واحد صغير، وآخر كبيـر، وكانت لديه كذلك أمواس، وإبر، وسلوكات مختلفـة، فلمـا عاينت ذلك كله تعجبت، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار مـن قبل.

ثم إن الرجل عاين البغل وهو يربت عليه ويرغّبه فـي فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه، ونظر أنفه، ومواضـع

الشم، وفتش في جلده وبطنه، ودق على كربه دقًا لطيفًا، وأشياء عديدة مما يستوجبه الكشف والمعاينة وتشخيص الداء، ثم إنّه فكر ومحص قبل أن يخبرنا أن البغل مصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء، فإن انفجرت دمله عولجت بالإزالة الجراحية، ونصح اليشكري أن يصبر على الدابة، فلا ينهكها بكثرة المشي والمسير؛ حتى تبرأ وتطيب.

مضى وقت بعد ذلك حتى ودعني اليشكري وسافر قاصدا دمشق، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمي على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عدت إلى برز مصر للبحث عن عزيز عيني ثاونا، وإدراكه – قبل فوات الأوان – بأن يباعد بيني وبينه مفرق الأحبة والخلان.

وكان مما عجل في رحيلي عن مدينة الأنبياء، تدهور حالي ونفاد مالي، حتى أني جعت ذات ليلة فأكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبي أتذكر هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان علي جبة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت من

يحملني إلى الرملة بدريهماتي القليلة التي دفعتها لـه، ومـن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق، وجامع جميـل، ورأيت بها طاقًا قديما قيل أنه كان مسجدا، وهو طـاق مـن الحجر الكبير، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفـاق مـال كثيـر، وخرجت من هناك فوجدت في الطريق قرى كثيرة، ومـدنًا يطول وصفها، ثم بلغنا مكانًا يسمى طينة، وهو مرفأ عـامر بالسفن، ويذهب منه إلى تنيس، فذهبت إلى رجل سفياني من الملاحين، وقد توسمت فيه الطيبة، فسألته أن يحملنـي معـه إلى تنيس، وقد علمت أنه متوجه إليها، وذلك على أن أعمـل في الوقايد دون أن أدفع له مما يدفع لأمثاله مقابـل الحمـل، لكنّه لم يستعملني في الوقايد، وبقيت على السطح في حراسة فيل مجاوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار، فظللت، تصك الشمال وجهي، وينثر الليـل الصـقيع علـى رأسي،ولم يكن معي غير لحاف سـمل، ومضـربة خلـق، وبعض ما لابد لمثلي منه، وبقيت على هذي الحال مدة حتى أني حننت وترحمت على أكل الطين الذي لا أجده وأنا فـي البحر، وكانت هناك جماعة من الحجـيج الأقبـاط هبطـوا السفينة عائدين إلى تنيس من حيث أتوا، بعد زيارته من بيت

المقدس، والمواضع التي لابد من زيارتها، والتبرك فيها لكل من آمن بالمسيح، فلما لاحظوا عكوفي وامتناعي عن الأكل، قدموا لي زادا مما لديهم من الجبن المطبوخ بالعسل واللحم، وبعض الفاكهة الطازجة، فشكرتهم على ذلك وآمنـت بـا ورحمته: ورحت أتلو:

(وما من دابة على الأرض إلا ورزقها على ا) صدق ا العظيم.

لاح لنا برتنيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل، فما إن رأيت الأرض، والشجر، والنخيـل، وقبـاب المسـاجد، وكؤوسات الكنائس والبيع، البادية في عليائها عن بعد، حتى أخذتني رجفة، ارتشعت لها أطرافي، وعصـفت بأعطـافي، وكأن عيني لا تصدق ما ترى، وكأن نفسي تشك أن رحيلـي كان، وأن خروجي من بر مصر لم يكن، فلم أتمالك نفسـي ورحت أجهش ببكاء سمعه كل من كان حولي، وجعل الفيـل يستدير إلي ويخزرني بعطف بدا لي معه وكأنه افتهم ما أنـا عليه من انفلات الشعور وجيشان الـنفس، فلمـا اسـتقرت السفينة استقرارها الأخير، ونزلت منها، ووطأت قدمي تربة الأوطان، سجدت مقبلاً لما أخذ روحي وردها، ورحت أحفن التراب بيدي ونفسي تهتف: هذي هـي الحقيقـة، ذاك هـو اليقين.

ثم إني صليت ركعتين شكرا وحمدا، وبقيت في تنيس ليلة بتّ فيها بواحد من مساجدها وهـو مسـجد الخرسـاني بالقرب من الساحل، فلما انتهيت من صلاة العشـاء، وقلـت لنفسي أن أستريح قليلا قبل شروعي في صـلاة التـراويح، وبينما أنا أنظر حولي وأتأمل المكان، وجدت رجـلا جالسـا

مستقبلاً القبلة وبين يديه العصا التي يعتمد عليها والمصحف، وعلى وسطه خرقة، وشعره منشور على ظهره، وكان إلـى جانبه شيخ يبكي ويستعطفه ويقول له: أمـك تبكـي حزنـًا وقهرا، فرد عليه الأول قائلا: ما أدخل لك منزلاً وأنت تعمل في الصرف، إنما أنتظر طلوع النهار، ثم أدخل النيل وأأتزر بالماء وألقي هذه الخرقة. ولم يسكت إلا بعد أن عقد على أبيه ألا يعمل في الصرف أبدا، فتعجبت لذلك، وأدركت أن هـذا الرجل من الزاهدين، ثم علمت بعد ذلك، من خادم المسـجد، أن هذا الزاهد ظل زمنًا مقيما في وكر بأسفل المنارة، مـن غير أن يخالط أحدا، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى، فإذا سلم الإمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحـديث كلّمـه وهو قائم، بعد انصرافه من الصلاة، وكانت حاله أبدا اتصالاً في انفصال، وقربا في ابتعاد، وأنسا في نفار.

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبـل حين، فذهب حاجا إلى مكة، ثم عاد إلـى مصـر، واسـتقر بتنيس، وكان لا يحادث أحدا إلى لضرورة، ثم أخذ في ترميم هذا الجامع، وكان خربا مهجورا، ونظّفه بنفسه حتى نقّى ما

كان فيه من الوطواط بسقوفه، وساق الماء إلى صـهاريجه، وبلط صحفه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان يؤثر في السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحـدا شيئًا، ولا يقبل غالبا، وكان يبذل جهده في كتم حاله، وعرف عنه كثرة قراءته في المصحف، ومطالعة الكتب، ولـم يـره أحد يخطّ بيده شيئًا، ولم يعمل له سجادة قطّ، ولا أخذ علـى أحد عهدا، ولا لبس طاقية، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير.

ثم إنّي نمت على أمل أن يحيينـي ا فـي الصـباح، فأتوكل عليه، وأشد رحالي إلى مصر العتيقـة؛ لأرى حـال الآباء في كنيسة قصر الشمع، وأكتحل بمرأى الأب يوسـاب وهو لابد واقف على مصير عزيز عيني ثاونا ومكانه.

ركبت السفينة من تنيس، ودخلت فرع الروم، وهو مـن فروع النيل المطروقة بأسفل الأرض، حتـى وصـلت بلـدا تسمى الصالحية، وهي مدينة كثيرة النعم والخيرات، كانـت بمرفئها وقت وصولي سفن كثيرة تُصنع، وهي مـن النـوع الكبير المحتمل ربما ما يزيد على مائة حمل حمار، ومنهـا تنقل البضاعة إلى مصر العتيقة حتى أبواب دكاكين البقالين. وفي الصالحية التقيت رجلاً قبطيا، كنت قد تعرفت عليه عند

ركوبي السفينة إلى تنّيس، فلما رحنا نتذكر بعضنا الـبعض، ونتداخل في الكلام، علمت أنه منحدر إلى الفسطاط للبحـث عن وراق يعمل له كتابا وضعه بالقبطية عن طبقات الأطباء، وهو راغب في نقل الكتاب إلى القلم العربي؛ بسبب تفشّـيه أكثر بالبلاد في هذه الأيام، فلما علم أنني قبطي من الجـدود، والبشمورية هي لساني الأول تعجب لذلك تعجبا شديدا، وكان يظن أنني عربي المولد والأصـل بسـبب جريـان لسـاني بالعروبة، ثم إنه طلب مني أن أنقل له كتابه هذا إلى العربية، وأن أخطّه له، بعدما عرف أنني أجيد نسخ الكتـب أيضـا، وراح يحكي لي عن جانب منه، فقال: إنه يحوي كلاما عـن كل الأطباء ومنهم رجل حكيم اشتهر وذاع اسمه في الـزمن القديم، ليس في الطب فقط، ولكن في الهندسة، وسائر العلوم، وإن هذا الرجل ورد مصر في الدهور المندثرة، فذهب إلـى أهل مدينة الشمس، المعروفة في زماننا بعين شمس، فقبلـوه على كره وامتحنوه زمانًا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا، فما كان منهم إلا أن وجهوا فيثاغورث – وهذا كان اسـمه – إلى كهنة منف؛ كي يبالغوا في امتحانه، فقبلوه على كراهـة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيبا، ولا أصـابوا لـه

عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقًا ولا إلى إدحاضه سبيلاً، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرمـوه طلبتـه مخالفـة لفرائض اليونانيين، فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجـابهم بـه، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصـر، فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب، وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط. لكني اعتذرت للرجل، فليس لدي وقت أصرفه في مثل هذا الأمر، إذ إن دخولي بـر مصـر مـرة أخرى أجج نار شوقي إلى عزيز عينـي ثاونـا، وصـارت هواجسي تتزايد، كلما تذكرت كلام التـاجر الفـراس الـذي التقيته بالقدس، عندما قال لي: إني ذاهب للبحث عن إنسـان عزيز على نفسي، ولسوف أبذل جهدا ووقتًا حتى أجده، وهو جد مريض، وقد أدركه. أو لا أدركه، ففارقني وهو متأسـف على ذلك؛ لأنه عز من تمكن من اللسان القبطـي واللسـان العربي مجتمعين، في ذلك الزمان، وهنـاك الكثيـرون قـد أدركوا العربية لسانا دون الكتابة، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل، لكنه من المخطوطات الخطيرة التي لا تحتمل الخطـأ أو انعدام الخبرة والمهارة، فاعتذرت له مرة أخرى، وأشرت

عليه أن يقصد أهل البيع والكنائس؛ لأنهم حريصون على لغة دينهم حرصهم على تعلم العربية على أكمل وجه حتى تُبقي الكنيسة على شعبها، فلما تركته ومضيت ظللت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كثيرين ممن قابلتهم هنا في الصالحية أو تنيس باتوا يتكلمون العربية وإن خالط كلامهم كلمات قبطية، ثم إنني أديت فروضي وصلواتي وصلّيت صلاة استخارة؛ إذ كنت مترددا في ذهابي إلى كنيسة قصر الشمع، على رغم شوقي للآباء هناك، وذلك خوفًا من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامي، لكني كنت في أمس الحاجة لمعرفة أخبار ثاونا ومكانه أيضا، فلما نمت في فيء نبقة حنون بالظل ورطوبة الهواء، جاءني ثاونا، على الهيئة التي كنت قد رأيته عليها وقت هروبي من الأراضي الموحلة، إذ كان واقفًا على علّية وبيده نقف، وهو يقول لي: اتبعني إلى برية هبيب.

فلما أفقت من نومي، ورحت أتذكّر ذلك، وقد صفا ذهني وتوقّد، قلت لنفسي، وا إن خاب رجائي في الوقوف على أمره بكنيسة قصر الشمع، لسوف أمشي إليه ساعيا في برية هبيب.

ثم إن أهل الخير نصحني أن أصل إلى بكـرة الحـاج لأركب النيل منها إلى الفسطاط، فكنت أسير على قدمي حينًا، ويحملني معه من يشفق علي من الناس حينًـا آخـر، حتـى وصلت بركة الحاج، وكانت عامرة بالمـاء وكـذا الترعـة المفضية إليها من البحر الأعظم، وهنـاك كـان السـفاينية، والمراكبية مجتمعين، فركبت مع نوتي صياد طلبت منه حمل لقاء عملي معه، فوافق على أن أساعده فـي طـرح شـباكه ولمها طوال مسيرنا، كلما لزمته في ذلـك، فلمـا وصـلت الفسطاط ومنها إلى مصر العتيقة، سارعت الخطى إلى كنيسة قصر الشمع، حتى وصـلت بابهـا، وإذا أنـا أهـم بالـدق والاستئذان بالدخول، خرج شاب يافع من الباب وقد أدركـت من ملابسه أنه شماس، فاقتربت منه وسألته بكـل أدب عـن عزيزي ثاونا، دون أن أطلعه علـى حقيقتـي، فـرد وهـو يتفحصني بارتياب، قائلا:

- ثاونا؟. لا يوجد أحد من أعضاء الهيئة الأكليروسـية هنا بهذا الاسم.

ثم إنه صمت قليلا، والفضول يرسم نظراته، بينما أخـذ يزنني ويخمن بشأني، قبل أن يضيف:

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين، إنـه الآن فـي برية هبيب بدير الأنبار مقار. لا أظنك تقصد هذا.

طار قلبي من الفرح، فودعته على عجل، وأنا أشـكره كثيرا، بينما هو واقـف يشـيعني بنظـرات كلهـا دهشـة واستغراب.

كنت أسير حينًا، وأستريح حينًا، وأنام حينًا آخر، وأنـا أمر ببلادات وقرى وأسـتفيء بأشـجار ونخيـل، وأتلحـف بسحابات السماء، حتى بلغت مشارف برية هبيب، ولم يعـد على بدني غير مئزر وقميص، ولا ملكت يدي غيـر نقـف أتعكز عليه، وكنت كلما طالعت صورتي وهيأتي في جـدول أو نبع، أدرك كم بدلني الزمان، فهـا هـو المشـيب يلـوح بمفرقي، وها هي التجاعيد تتكرس بوجهي، وهكـذا أيقنـت أنني تعدلت من طور إلى طور، ودخلت مـن ديـوان إلـى ديوان، وأدركتني الرجولـة والكهولـة، وفـارقني الشـباب والفتوة.

كانت شمس لاهبة لا تعرف الرحمة، وكأنها طاقات من سعير فتحت في السماء، تصحبني طول الطريـق، وبقيـت سائرا أستدل من الرعاة على موضع الدير، وكانوا يعينـوني

على ما أنا فيه بشربة ماء أو جرعة حليب وبعض تمر، حتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير، ثم إنني جلسـت لأستريح قليلا وتيممت متهيئًا لصلاة المغرب، فمسحت يـدي بالرمال الطاهرة وكأنني أغسـلها، ثـم مسـحت وجهـي، وساعدي، وقدمي، وفعلت فعل الوضوء بغير مـاء؛ حتـى أتطهر وأستعد للصلاة، وكانت الشمس تستأذن الرحيل، فلما انتهيت من صلاتي، جلست أتأمل صمت الصحراء العمـيم، والشمس تغيب شيئًا فشيئًا، وتتوارى خلـف تـلال الرمـال البديعة، فبدا المشهد في عيني جليلاً آسرا، وفكـرت كـم أن الإنسان ضعيف، وضيع، ظالم وغشوم، مفتـون بجبروتـه وقوته وهو لا يساوي ذرة رمل من هذي الرمال، أمام قـوة ا وعظمته.

ثم إنني قمت وسرت – كما وصف لي الرعاة – في واد عريض ممتد من الرمال، وكان ما تبقّى من شمس الأصـيل قد أتاح لي لمحة خاطفة إلى الدير، على البعد، فرقص قلبـي فرحا، وقد أدركت أنني على وشك بلوغ غايتي، لكن سرعان ما استحكم الظلام، وسلسل المكان بديجوره، دون أن تطـلّ نجمة واحدة من السماء، أو يتعطّف القمر فيستبين، فـانقبض

قلبي، وداخلني إحساس بالضياع، وأكلتني الوحشـة، لكننـي بقيت سائرا، متوكلا على ا ، أصـطدم حينًـا بالصـبارات الموحشة النابتة هنا وهناك، وأتعثر حينًا في الرمال الناعمـة التي صعب الخطو فوقها، وأنا أدعو ا أن يخرجني مما أنا فيه، وأصل غايتي؛ لأتمكن من إدراك عزيز عيني ثاونا، قبل أن أهلك في هذا المكان.

لا أدري كم من الوقت لبثت على هذي الحـال، إذ لاح لي بعد حين ضوء استمر منيرا في ثبات، فتهيأ لي أنه نجـم بعيد، لكني أدركت كلما شددت الخطى باتجاهه، أنّه كشـاف يشعل فوق حوائط الدير لهدي العابرين أو الضالين في هـذه الصحراء المترامية الموحشة.

وصلت في النهاية إلى بوابة الدير، التي لم أكن لأدركها أبدا لولا هذا الضوء الهادي، وما إن صرت قبالتهـا حتـى رحت أدقها دقًا عجولاً متلهفًا، فجاءني صوت مـن ورائهـا يستفسر عمن أكون، فقلت له:

- إني قريب للراهب ثاونا وجئته لأمـر مـن الأمـور الجليلة. فلما فتح لي الباب بعد حين، اقتـادني خـلال ممـر ضيق داخل الدير، وكان الرجل القائد راهبا يحمل شـمعدانًا بشمعة واحدة، أتاح لي ضوؤها أن أدور بعيني في المكـان، وأدرك أنه أشبه بحصن من الحصون.

أُدخلت إلى مضيفة واسعة، فرشت بوبر الجمال، ولهـا شبابيك من الخشب القباطي المصلب الفتحـات، والمعمـول على هيئة مشربيات، وكان الطلوع إليها بسلم خشبي، يوضع ويرفع، وكانت تحيط هذه المضيفة بعض القلالي المظلمـة. قدم لي الراهب ماء وتمرا، وقال لي:

- نم الآن، والصباح رباح.

لا أدري كيف نمت؛ إذ كانت الآلام تهيمن على جسدي كلّه، فلم أفق إلى عند الفجر على صوت جـرس الكنيسـة، فنهضت مسرعا دون أن أدري، وقد ظننت لوهلات أنني ما

زلت قيما بكنيسة قصر الشمع في مصر العتيقة، وأنني قد تأخرت على الانصراف إلى أعمالي بها.

توجهت إلى المشربية، ورحت أنظر من خلالها، فبدا لي الدير تحتي، والصحراء تلفه من كل ناحية، وكأنه زرع زرعا فيها، وقد أيقنت أنه حصن في الحقيقة بحوائطه الصماء وقد برزت مرتفعة وسط الرمال، ومداخله، وقد جاء على شكل معين رباعي الأضلاع، وحنياته المرتفعة، وبابه الضخم المصفّح بالحديد، وقد تكومت بالقرب منه أعداد كبيرة من الأحجار، يبدو أنها تستخدم لدرء الخطر في حالة العدوان عليه، وكان للباب من الأمام حجران مثل أحجار الرحى، قُدا من صخر الصوان العنيد، يمكن دحرجتهما، وهناك بكرة تليه، يمكن الصعود بها إلى قمة الحائط، وكان هناك برج الدير الضخم، وكنت أعلم أنه مثله إنما يستخدم لحفظ الكتب والقراطيس الإيمانية المقدسة، وخزن الملابس، والأواني الثمينة، وتشوين الطعوم كالقمح، والزيت، والزيتون، والتمر، بالإضافة إلى مواضع لاختفاء الرهبان وقت الخطر. وكان للدير فناء كبير واسع، وآخر صغير، وقلالي الرهبان تقع حول هذه الأفنية، وكذا موضع الطاحون والفرن.

وقفت متأملاً كل هذي الاستدارات، وتذكّرت كـم هـي قريبة الشبه بعمارات بغداد، والقدس الإسلامية، والمسـيحية، فكّرت في سبب تكريس الاستدارة في كل فن متجسـد تـراه العين، قلت إنها الراحة والطمأنينة التي فجرها الخط المنحني المستدير، وكان كروان قد عبر مترنمـا، ولكنـك بصـوته الرباني الساحر، فانشرح صدري، ووجدتني أقـول لنفسـي، وأنا أشنف آذاني بصوته العذب، أليسـت تلـك العمـارات المستديرة محاولة متواضعة لمحاكـاة مـا خلقـه ا ؟!. إن الشمس مستديرة، والقمر مستدير، وأوراق الشجر والنباتـات مستديرة أو هو نحو الاستدارة، إن الاستدارة هي حالة مـن السرمدية الدالة على أن ا هو الأول، وهو الآخـر، وهـو المبتدأ وهو المنتهى، والتدوير في كل فن إنمـا هـو فطـرة إيمانية، فطر ا الناس عليها دون أن يشـعروا، وقـد رأت عيونهم، وأدركت حواسهم تجليات خلقه في كل ما هو منحن مستدير أو نحو المستدير، حتى في الخلقة البشرية، والخلقـة الحيوانية، وقطرات المياه.

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلاليها وتحركت إلى موضع بالفناء ودخلته، وسرعان ما جاءني الراهـب الـذي

استقبلني في المساء الفائت ليوقظني، فلما وجد أنني أفقـت، ألقى إلي بتحية الصباح، ودعاني لتناول وجبة فطور، فتبعته إلى حيث الموضع الذي دخله الرهبان، وهو المطعمة،وكانت غرفة طويلة ضيقة، لها سقف مقبـب، بـه دكـة حجريـة منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها، وكان الرهبـان جالسين على أطراف ذلك، فلمـا دخلـت علـيهم وحييـتهم وجلست، بدئ الطعام، وكانت أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتونًا، وزيتًا، ثم إن أحد الرهبان أخذ في تلاوة ما تيسـر من الكتاب المقدس، فأطرقت تأدبا، وأنا آكـل مـثلهم حتـى انتهى.

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلا ونتحادث، وبينما نحن نسير أخبرني أنه أُذن لـي بالـدخول على ثاونا، بعد أن أعلموه باسمي وأيقنوا معرفته لي، ورغبته في ملاقتي، لكنّه ليس على ما يرام من الصحة، وأنه تسلسل في المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيخوخة واعتلال قلبه؛ لذا يفضل أن أوجز مقالتي معه، ولا أتزيد في الكلام، كمـا نصحني بألا أرتاع أو أضـطرب، إن هـو لـم يجـاوبني بالحديث، أو تخالط كلامه معي، فلما سمعت ذلك أوشـكت

على البكاء، وطمأنت الرجل بأنني سأكون عند حسـن ظنـه ولسوف أمتثل لنصحه هذا.

أدخلوني قلاية بالحصن، ضمن مجموعة من القلايـات، قيل لي أن قوما من المريس – أي أهل قبلي – يقيمون فيهـا منذ زمن، فلما ولجت من بابها، وجدت شيخًا راقـدا علـى سرير من خشب الجميز، ليس تحته إلا فرش من وبر، فمـا إن تبينته على ضوء المصباح الساقط من كوة القلاية، حتـى رحت أرتعش، وسرعان ما خطوت نحوه، وسـجوت إلـى جانبه وأنا أهمس بصـوت مضـطرب ملهـوف: ثاونـا!!. عزيزي ثاونا!. ولم أتمالك نفسي فانخرطت في بكاء شـديد، بين ذهول الرهبان، ودهشتهم مما يرونه، وبقيت حينًا أهمس باسمه، وأناديه دون أن يرد، فاقتربت من أذنه، ورحت أقول له بصوت راج:

- ثاونا، إنني بدير!!. ألم تقل لي اتبعنـي إلـى برية هبيب؟. لقد تبعتك يا عزيزي، وها أنا الآن أقف بين يديك. ثم إني أخذت أنتحب بمرارة، وقد عز علي أن أرى ثاونا وهـو على هذي الحال من عدم التيقّن وغياب العقل، وهو الرجـل الحكيم، النجيب، الفطن، الذي عرفته في زمـن مـن أعـز

أزمنتي على نفسي، فلما تزايد نحيبي وجدته يحـرك رأسـه ناحيتي بصعوبة بالغة، ويقول:

- أخي العزيز بدير.. أنا هنا حي أرزق؟!. أحقًا ذلك؟. أم أنني أهرف وأهذي؟!.

مددت يدي ووضعتها على وجهه ليتيقن مـن حقيقتـي، وسرعان ما انهمرت دموعه هي الأخرى، وأضاف بوهن:

- حمدا للرب أنه قدر لي لقياك مـرة أخـرى!. هـذه معجزة ربانية وبركة من بركات الشهيد "أبو مقار"!.

رفع يديه بصعوبة وأخذ يصلب، ثم راح يسـألني عـن نفسي وأحوالي وما جرى لي بعد أن فقدني في برية هبيـب، فرحت أقص عليه ما كان من أمري، وكـان الرهبـان قـد تركونا وانصرفوا، بعد أن نبهوا علينـا ألا يكثـر الكـلام؛ حرصا على فؤاده؛ وحتى لا تأتيه نوبة من نوبات علّته التي تفاجئه بين الحين والحين، ثم إنه راح ينظرني مليا، ويتأمـل حالي، وشعرت أنه تعجب من لبسي ذلـك المئـزر البـالي والقميص، وما عليه هيئتي من تشوش، وعدم هندام، ثم إنـه تأمل عنقي طويلا، وقال فجأة:

- أين صليبك يا بدير؟. لمـاذا لا أرى صـليبك علـى صدرك؟!.

قلت بسرعة وبصوت هادئ واثق:

- ولهذا جئتك يا أخـي العزيـز أيضـا؛ إذ أردت أن أدعوك إلى ديني، فأنت من أحب الناس إلى قلبي، والإسـلام هو دين رحمة، ونور، ومحبة وبر، والناس فيـه سواسـية كأسنان المشط، وا ما وجدت فيه إلا كل عظـيم، ونبيـل، وخير، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزي ثاونا، ووا إنـك لأقرب الناس إلى مهجتي وفؤادي، ليتك تأتي إلى ما أنا فيه، وتؤمن بما آمنت به.

على رغم تعبه ومرضه، ظلّ ثاونا يستمع إلـي بـآذان منتبهة صاغية، وبدا لي وكأنه يفكر في كل كلمة أقولها، ولم يقاطعني مرة واحدة، ولم يبد شيئًا من الغضـب والانفعـال وعندما انتهيت، صمت وقتًا قبل أن يقول:

- نحن لا نختار يا بدير، لكن الرب هو الذي يختار لنا، ونحن عبيد مشيئته. إنّي فرح بك؛ لأنك تسعى لـدفع النـاس إلى ما تراه صحيحا، خيرا، لكني حزين لأنك تركـت ديـن أهلك وآبائك، وخرجت من جنة الكنيسة، ودرب المسيح.

كانت عيناه قد بدأت بالدمع، وبان لي جد بائس وحزين، فرحت أمسك بيده وقد أخذت في الارتعاش، ورحت أربت عليها بينما كان يواصل كلماته بصعوبة:

- إني حزين ومغموم يا بدير، لكن لك ما تراه، ما دمت أنك وجدت في دينك الجديد ما يضعك على الطريق الحق والعدل، أما أنا يا عزيزي، فلا أظن أني تارك ديني، ولا أظن أنني مستطيع اعتناق دين سواه، فلقد عشت عمري كلّه، تأخذني الهواجس والأفكار، وتتنازعني الفلسفات حتى صرت مسيحيا تاوضوسيا، ولسوف أموت وأنا على ما أنا عليه، وليرحمنا الرب جميعا يا ولدي الطيب، ويغفر لي ولك، وقد قدر هو وشاء.

تأثرت غاية التأثر لكلامه، وزال هم قد كتمه في نفسي طوال طريقي إليه؛ إذ كنت أخشى هذه اللحظات، لحظات مواجهتي له بديني الجديد، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبي كذلك، فثاونا ليس بالرجل الهين الذي يسهل التأثير عليه؛ وهو لا يعتنق عقيدة، إلا بعد أن يتفحصها ويمحصها ويقلب فيها بعقله على كل وجه من وجوهها، وهو لا يشك إلا ليوقن، ولم يكن ممن يأخذون الأمور على علاتها أبدا.

لم أكن أريد أن أكثر عليه بمزيد من الكلام، لكني شعرت أنه راغب في الحديث إلي، والبوح بما يداخله عندما قال:

- أو تعلم يا بدير، بعد أن عشت كل هذه الحياة، وبلغت ما أنا عليه من العمر، لم أعد أهتز كثيرا لما يحدث حولي من أمور، وبت لا أفكر في الطرائق، قد تفكيري في الغايات، لقد أدركت منذ هروبي من الأراضي الموحلة، أن لا فائدة في الدنيا، طالما غاب العدل بين الناس، وما دامت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوي، وكنت أتساءل، بعد كل تلك الحرب الغشومة التي رأيتها بؤبؤ العين: أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها، سواء أكانوا – مسيحيين أم مسلمين – مستحقين لدخول الجنة؟. ألا تظن يا بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعا، وهم الذين لم يجدوا عدلاً أبدا في هذه الدنيا، وقد جاعوا وتعروا، وباعوا عيالهم وأهلهم؟!. ألا تظن يا بدير أن ا سوف يشملهم بعطفه ولطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطًا؟.

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا: لقد تركت أنا الدنيا وفارقتها؛ لأكون هنا متفرغًا لخدمة المسيح بعيدا عن الناس،

وهنا أنت تعود إلي بعد إسلامك، وليس عليـك إلا قمـيص، ومئزر، ونقف تستند إليه. قل لي با عليك ما الفرق بيننا؟!. أليس عزوفك هو عزوفي؟. ورفضك البقاء على ما هي عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعني أيضا لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزي فـي هذا العالم، وأنه لم يتبق لنا شيء إلا محبة ا ؟!.

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه، وقويت عزيمته بعضا من آيات دستور الإيمان، ويقول:

"نور من نور إله حق، من إله حق، مولود غير مخلوق، خالق السماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، ا ضـابط الكل، الذي به كان كل شيء".

ثم راح يردد طويلا:

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي:

أقمت في الدير أياما ملازما لثاونا، قائما على خدمتـه، وقد عز علي أن أغادر الدير وهو على هـذي الحـال مـن الضعف، وشدة المرض، وكان ثاونا قد أطلع الرهبان علـى حقيقة أمري وإسلامي، فعاملوني جميعا أطيب معاملة، وأتوا لي خصيصا بزربية طاهرة من وبر الجمل؛ حتـى تكـون

لصلاتي، وكان جلهم من القانتين المؤمنين بالسيد المسـيح، والمخلصين في إيمانهم، المنصرفين إلى عالم الزهد، بالصوم والصلاة، وكثرة القراءات والتلاوات الإيمانية، كما شـهدت، ثم إن بعضهم أخبرني لما سألت، بأن ثاونا استطاع الهـرب وقت فتنة البشمور، وحرص على الاختباء في موضع مـن المواضع حتى هدأت الأمور، وبعد ذلك كره العودة إلى بيعة قصر الشمع، وآثر حياة العزلة والزهد، فارتحل إلـى هـذا الدير الذي رسم فيه راهبا، فبقي فيه سنوات طويلـة، ولـم يخرج منه إلى الريف أو الإسكندرية أو مصر، وكان كثيـر المكوث عند المغارة التي بالدير، والتي فيهـا آثـار الآبـاء البطاركة، وهم مقس الإنجيلي الأول الذي رأسه عنـد أولاد فهد بمدينة الإسكندرية، وجسـده فـي البندقيـة، وانيـانوس المدفون في بيعة جرجس عند مسلّة فرعـون بالإسـكندرية، وأنه ما خرج إلا إلى القلالي القريبة والتي في الـبهلس، أي الوادي، فكان يبخّر على الآثار المقدسة في كل صلوة، ويوقد عليهم قنديلاً في كل يوم وليلة، وكان يطيـل الوقـوف فـي رمارم الرهبان، أي موضع وقوفهم، ويبقى على هذه الحـال من التنسك زمنًا.

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشـوبينة، أي سكن تعرف بضورتاوس لا يقدر واحد من الرهبان بهـا أن يقول الليلويا إلا من حفظ المزامير كلها ظاهرا، مـن غيـر كتاب، وكان هذا السبب في أن يعرف الرهبـان المزاميـر ظاهرا، وقد رأيت كذلك المغطس الذي تظهـر فيـه الآيـة العجيبة في ليلة كل سنة، وهو أن ينظف من الرمـل الـذي يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماء، ولا يعرف من أيـن أتـى. وكان – فيما تقدم – كل من به خطية ويغطس فيـه يظهـر على جسده لبس مثل لبس السمك، وأيضا لو اجتمع فيه كـل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر، وحواليه قلالي الرهبان وليس فيها شجر ونخيل، ولا ينبت فيه زرع.

وكان في يوم من الأيام أن أُخبر الرهبان بأن النيل لـم يزد زيادة كافية، وذلك بعد الخامس والعشرين مـن أبيـب، فعمل الرهبان، وكما جرت العادة، لقان ماء وسلّوا عليها كما يعمل في عيد بولس، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر، ويسكب فيه فيزيد ماؤه، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن.

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفُقِد الأمل في برئه، بعد أن خاب معه كل علاج، وكان شيوخ الرهبان قد جربوا معه العديد من العقارات، والأعشاب، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه، ومعرفة نَفَس القلب، الذي منه تنتشر الأوعية في جميع الجسم، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه، وفخذه، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه، وذراعيه، وفخذيه؛ لأن القلب تجري أوعيته في جميع هذه الأعضاء، وهو مركز أوعية الجسم، وكانوا يختبرون نفسه الحامض، الذي يسري بجسده؛ حتى يعرفوا مدى فساد دمه، خصوصا عندما كان يشرب الماء؛ لأن الوعاء المسمى باللغة القديمة (آخذ) إذا سد بالبطن ذهب الماء إلى القلب العيون، وكانوا يختبرون مدى صم أعضائه، وإذا ما طرأ السكون عليها، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدره، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دوما في الديارات، والتي يتناقلها الرهبان جيلاً بعد جيل، وذلك دون انقطاع القراءات الجليلة، والتعاويذ السحرية القديمة، ومراقبة أوعية الآذان الأربع، التي يسري نَفَس الحياة في اثنين منها بالأذن اليمنى، ونفس الموت في آخرين باليسرى.

ظلّوا على هذي الحال زمنًا، وأنا أبيـت عنـد قدميـه، ساهرا عليه، وعلى الرغم من سوء حالته فقد كان يطلب مني دوما أن أحدثه عن ترحالي، وما صادفته من حادثات ومحن، فبقيت أقص عليه كل ما جرى لي، وكيف حاولت أن أعمـل ذات يوم على إبراء الأب توما، فأشرت عليهم بعلاج حروقه بتلك التعويذة القديمة التي سمعت ثاونا يتلوها يومـا، وقـت اندلاع النار بسبب ريح الحسومات في بعض أعشـاب مـن الناس بالأشربة، والأدوية، وهذي التعويذة القديمـة، وكـان ثاونا يطلب مني أن أكشف له عما أنا فيه من إيمان وزهـد بعد دخولي في دين الإسلام، وفي إحدى المـرات سـألني – على الرغم من تزايد المرض عليه – وقـد بـدا أن أمـري يحيره، فقال وهو يتنفس بصعوبة:

- قل لي يا بدير. هل ازددت يقينًا با بعـد دخولـك الإسلام؟. وهل شعرت أنك تطهرت من كل خطيئة، وداخلت روحك منتهى السكينة ولازمك الاطمئنان؟.

لا أدري، ما الذي كان يتوجب علي الرد به على سؤاله هذا، فقد تحيرت، وكنت أريد التعبير صدقًا بأقوى الكلمـات عما بداخلي. فكرت ثم قلت:

- الحق أقول لك يا ثاونا. كان كل يوم يمر علي قبـل إسلامي، أصبح فيه مهموما، متبلبل الفكر والخاطر، تعـذّبني روحي بذكريات فتوتي، وشبابي الأول. كانت صورة آمونـة لا تغيب عن مخيلتي أبدا، وعندما تمتثل بعيني، أضيع بـين عذابي بحبها، وحزني لموتها، وكنت أتعذّب أكثر كلما تـذكر سويلا وما كان من أمري معها؛ فـأكره نفسـي وضـعفي ونزقي، وغياب روحي عن كبح شهوات الجسد. كنـت قـد اعترفت قبل إسلامي في الكنيسة مرارا، لكن الاعتراف لـم يباعد بيني وبين الألم، ولم ينسني شعوري بالإثم والخطيئـة، ولكنّي عندما سلكت سلوك العارفين، وحزمت أمري أن أسلك مع السالكين، ووصلت إلى: "لا هو إلا هو"، ونسيت "كـان" وثبت في "يكون"، غابت عذاباتي، وبعدت مسافاتي فكلّ شيء هالك إلى وجه ا الكريم، وها أنا قد أتاني النـور الكاشـف فسكنت نفسي، وزال عني همي وبؤسي.

ظل ثاونا يستمع إلى كلّ ما أقول، وأظـن أنـه جاهـد طويلاً، قبل أن يقول لي آخر ما قاله لي في هذي الدنيا:

- عندما تودعني وتخرج من هنا، لا تنس أن تقول كل ذلك للناس، فإنما هم في حاجة إلى مثله؛ حتى تطمئن نفوسهم

وتهدأ أرواحهم، والزمان يغشى ذاكرتهم دوما، ويعمل عملـه فيهم مباعدا فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية، قـل لهـم ذلك حتى لو ضربوك أو آذوك، واصبر عليهم حتى يمسـهم شيء من صدق إيمانك ويقينك.

مرت أيام قليلة على ذلك، ثم أخذ عزيزي يدخل البرزخ الموصل بين الحياة والموت، فغاب عن وعيه تماما، وصعب علينا أن نسقيه حتى شربة الماء، ثم شاء ا أن تصعد روحه ذات يوم، عند أفول الشمس وغروبها عن الكـون، وكنـت ساعتها قد تركته قليلاً لأتوضأ وأتهيأ للصلاة، وإذا بنقـاوس الدير يدقّ دقّات حزينة متقطعة، فخرج الرهبان جميعا مـن القلايات ليواتوه، ويودعوه الوداع الأخير بالنظر، والصـلاة على روحه الطاهرة.

ظل جسد ثاونا فـي موضـعه طـوال الليـل محاطـًا بالشموع، وقد وضع تحت رأسه رغيف خبز، وحفنة ملـح، وفقًا لعادتنا منذ أقدم الدهور، ومكث الرهبان حوله يقدسون، ويقرءون القراءات الإيمانية الجليلة، وكنت خلال ذلك أقـف بعيدا، أتمتم بما تيسر من ذكر العزيز الحكيم، وأترحم علـى

روحه داعيا له بالرحمة والنور، متمنيا على ا أن يحشـره في زمرة الأبرار الصالحين.

ثم إنّي بقيت في الدير أياما بعد وداع ثاونا إلـى مثـواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا علي بالبقـاء وقتًـا حتـى يجهزوني – قدر استطاعتهم – بما يلزم المرتحل، فوفروا لي برذونا لأركبه، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئًا مما لثاونـا على سبيل التذكرة، فسمحوا لي أن أحفظ معي إنجيلاً قـديما كان له، خُط على رقّ، كثيرا ما كان عزيز عيني يقرأ لـي من آياته ويبصرني بمعناها الجليل.

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيدا في برية هبيب، وربما كان ذلك في يوم من أيام ربيع الثاني، غذّيت سـيري، حتى أشرفت على بعض مواطن العمران، فدخلت قرية مـن القرى، ما إن أبصرني بعض من صبيانها، كانوا يلهون فـي طرقاتها، حتى توقفوا عما هـم فيـه، ويبـدو أن صـورتي المشعثة، وهيئتي المتربة، ورثاثة حالي، قد راعتهم وأثـارت دواخلهم، فراحوا يلتفون حولي متضاحكين، سـاخرين، ثـم أخذوا يرمونني بحصيات وأحجـار، فحثثـت الدابـة علـى الإسراع لأبتعد عنهم، وأنا أدعو ا أن يرحمهم، ويغفر لهم،

وَرحت أنشد وقد أُخذت بوجد، وأصابني شـوق، وتزلزلـت أعطافي، وترعشت أطرافي:

حسبي ا تَوكلت عليه ليس للهارب فـي مهربـه رب رام لي بأحجار الأذى		من نواصي الخلق طرا بيديـــــــــــــــــــــــه أبـدا مـن راحـة إلا إليـه لم أجد بدا من العطف عليـه

تم الجزء الثاني من "البشموري" رواية روايات:

أسد رستم.

ألفريد بتلر.

الإمام أبو حامد الغزالي.

الراهب صموئيل السرياني.

القس يوحنا حنين.

آدم ميتز.

ابن العبري.

السيد طه السيد أبو سديرة.

الشهرستاني.

القلقشندي.

عبد الرحمن عبد ا شيخ.

سعاد ماهر.

الطبري.

التيفاشي.

الأب يوسف قوشقجي.

زيجريد هونكه.

داود الأنطاكي.

نيكيتا إيليسف.

الأنبا أبيسذورس.

علاء الدولة السمناني.

فخر الدين الرازي.

يعقوب ليستر.

صالح أحمد العلي.

ابن سلمة النحوي.

الحسن بن أحمد بـن علـي الكاتب.

فريز صموئيل.

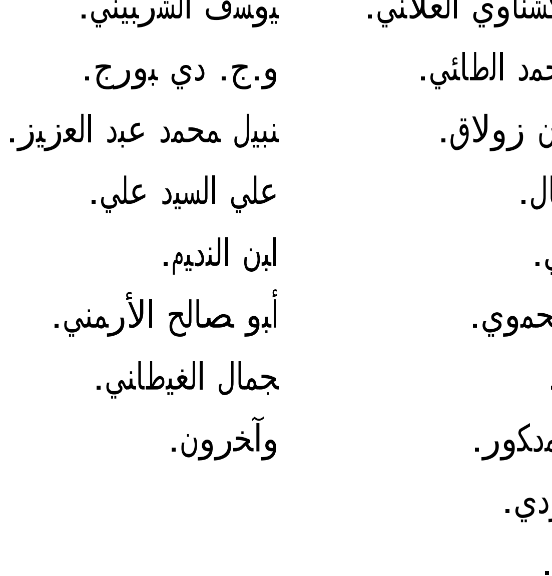
محمد عبد الغني الأشقر.

محمد عبد الهادي أبو ريدة.

رشيد الدين الهمذاني.

عادل محيي الدين الألوسي.

الجاحظ.



محمد الكشناوي العلاني.
فاضل أحمد الطائي.
الحسن بن زولاق.
أحمد كمال.
المقريزي.
ياقوت الحموي.
الدميري.
إبراهيم مدكور.
السهروردي.
القزويني.
يوسف الشربيني.
و.ج. دي بورج.
نبيل محمد عبد العزيز.
علي السيد علي.
ابن النديم.
أبو صالح الأرمني.
جمال الغيطاني.
وآخرون.